

رحلات في بلاد العرب (١)

الرحالة الأوروبيون

في شمال الجزيرة العربية

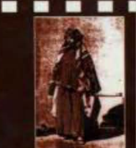
منطقة الجوف ووادي السرحان

١٨٤٥ - ١٩٢٢م

د. عوض البادي









الدار العربية للموسوعات

الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية

د. عوض البادي

الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية

منطقة الجوف ووادي السرحان
١٨٤٥ ـ ١٩٢٢ م

«نصوص مترجمة»

طبعة جديدة
مزيدة ومنقحة

الدار العربية للموسوعات

ⓒ عوض البادي

فهرسة مكتبة الملك فهد أثناء النشر

البادي، عوض

الرحالة الأوربيون في شمال الجزيرة العربية: منطقة الجوف ووادي السرحان

ـ الرياض

٥٣٦ ص ١٧ × ٢٤ سم

ردمك ٢ ـ ٢٠٤ ـ ٣٤ ـ ٩٩٦٠

١ ـ الجوف (السعودية) ـ وصف ٢ ـ وادي السرحان (السعودية) ـ وصف

٣ ـ الجوف (السعودية) ـ تاريخ ٤ ـ وادي السرحان ـ تاريخ

٥ ـ الرحالة الغربيون أ ـ العنوان

ديوي ٩١٥٫٣١٤٨ ١٨/١٠٦٤

رقم الإيداع: ١٨/١٠٦٤

ردمك: ٢ ـ ٢٠٤ ـ ٣٤ ـ ٩٩٦٠

الطبعة الثانية

١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م

مزيدة ومنقحة

كافة المراسلات تعنون باسم:

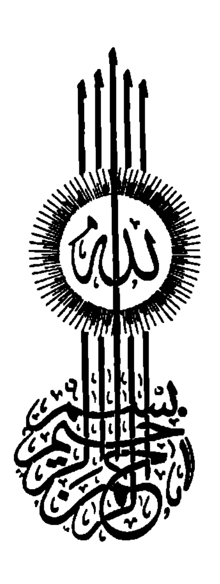


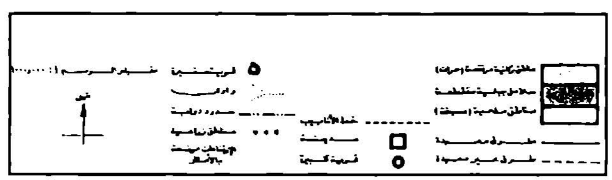
الدار العربية للموسوعات

الحازمية - هاتف: 009615/952594 - فاكس: 009615/459982

ص.ب: 511- هاتف نقال: 009613/388363 - 009613/525066

بيروت - لبنان البريد الإلكتروني: E mail:arab-enc-house@lynx.net.lb


الله
بسم الله الرحمن الرحيم



خريطة طبيعية لمنطقة الجوف ووادي السرحان

المحتويات

مقدمـة

شهدت مناطق الجزيرة العربية خلال القرن التاسع عشر الميلادي توافد عدد كبير من الرحالة والمستشرقين إليها من مختلف المشارب والاتجاهات، ولأهداف مختلفة. قدم هؤلاء، كل حسب الهدف الذي أتى من أجله، الكثير من المعلومات، التي حصلوا عليها في تجوالهم عبر المناطق المختلفة للجزيرة العربية، عن شؤون وأوضاع هذه الجزيرة المجهولة لديهم، إما في كتب أصدروها أو بتقارير رفعوها خاصة إلى الذين مولوا رحلاتهم، عما شاهدوه وسمعوه. وكانت تتفاوت القيمة العلمية لما كتبه هؤلاء الرحالة والمستشرقون وما قدموه من معلومات، تتفاوت من رحالة إلى آخر، إلا أن ما تم تقديمه، بقي وسيبقى مادة أولية لا غنى عنها لأي باحث في تاريخ أحوال الجزيرة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، في غياب الوثائق والسجلات المحلية الخاصة، بالمواضيع التي تناولوها.

يؤرخ دارسو [1] أدب الرحلات الى الجزيرة العربية بدايات الاهتمام بأخبارها، برحلة لويس فارثيما البولوني إلى مكة والمدينة، منطلقاً من سورية سنة ١٥٠٣م. إلا أن التأريخ العلمي لاكتشاف الجزيرة العربية، يبدأ مع رحلة كارستن نيبور أحد أعضاء البعثة الدانماركية التي أرسلها ملك الدنمارك لاكتشاف اليمن عام ١٧٦١م. و في عام ١٧٧٢م ظهر العمل الأول لنيبور عن شبه الجزيرة العربية، وهو كتاب مهدى إلى ملك الدنمارك يحتوي على "وصف عام للبلاد، من النواحي الدينية والاجتماعية والسياسية واللغوية،

وفصول عن المناطق المختلفة للجزيرة : اليمن، حضرموت، عُمان، مناطق الخليج، ونجد، والحجاز وصحراء سيناء. كما يُعد نيبور أول من حمل إلى أوروبا أخبار الحركة الوهابية، التي كانت قد بدأت في نجد (٢).

على خطى نيبور، ومع بدايات القرن التاسع عشر، بدأ الأوربيون بالتوافد على المناطق المختلفة للجزيرة العربية، و لقد كان هؤلاء بمثابة الرواد في عملية الكشف عما كانت عليه الحال. وشكلت كتاباتهم مصدر المعرفة الغربية الأول عن هذه المناطق، جغرافياً وسياسياً واجتماعيًا ونفسيًا. وكان من أهمهم، الرحالة سيتزن، والرحالة بيركهارت.

تركز اهتمام الرحالة الغربيين مع منتصف القرن التاسع عشر على منطقة وسط الجزيرة، التي كانت تموج بأحداث وتطورات سياسية مختلفة، لكونها المنطقة الوحيدة التي لم يتيسر للرواد الأوائل زيارتها ومعرفة تفاصيل أحوالها. لقد توافد على هذه المنطقة ابتداء من عام ١٨٤٥م حتى نهاية القرن عدد من الرحالة الذين تفاوتت أهدافهم، وتنوعت شخصياتهم، واختلفت مصادر تمويلهم. سجل هؤلاء الرحالة الكثير من التفاصيل المهمة، عن أوضاع هذه المنطقة، وأخبارها. كما كانوا شهود عيان على الكثير من التفاصيل الدقيقة التي تعبر عن حياة سكانها، وتركيباتهم السياسية والاجتماعية والقبلية. وكما أسلفنا فإن عدم الاهتمام بالتوثيق والتسجيل، جعل من كتابات الرحالة مصدراً أساسياً لمعرفة تاريخ تلك المراحل، بل قد تكون وللأسف مصدراً وحيداً لهذه المعرفة.

مثلت منطقة الجوف ووادي السرحان، التي تشكل القسم الشمالي للجزيرة العربية، البوابة الرئيسية، لعبور الرحالة الأوربيين إلى وسط الجزيرة العربية، مما يسر لها أن تكون أول وأكثر المناطق التي قدم عنها هؤلاء الرحالة الكثير من

المعلومات والتفاصيل التي تصف جغرافيتها وتؤرخ لأحوالها وسكانها لمايقرب من قرن كامل. ونظراً لأهمية ما ذكره وكتبه هؤلاء الرحالة (بغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف معهم حول ما جاؤوا به) للباحثين والمهتمين، فإن تقديم ما كتبوه يصبح من ضروب الواجب العلمي لمن عرفه واطلع عليه، ويمكنه تقديمه، لتسهيل أمر المعرفة عن جزء استراتيجي ومهم من الجزيرة العربية.

إن منطقة الجوف ووادي السرحان المنشأ الأول للإنسان العربي ومهد عروبته، كما أثبتت وتثبت النقوش والحفريات والمكتشفات الأثرية، تعاني من ندرة الدراسات العلمية، عن تاريخها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، بصورة لا تعكس أهميتها التاريخية والاستراتيجية. يرجع السبب الحقيقي لذلك، وبناء على تجربة شخصية إلى ندرة المعلومات وصعوبة الحصول على ما يتوفر منها. فمعظم الكتابات التي تمت، وهي قليلة لا تعدو كونها تكراراً واقتباساً لقصص ومعلومات متشابهه، مصادرها ثانوية.

أما تجربتي الشخصية، وهي التي قادتني إلى العمل على مشروع هذا الكتاب فتنبع من اهتمامي الشخصي بالتاريخ السياسي الحديث لمنطقة الجوف لإعداد كتاب علمي ووثائقي عن هذا التاريخ. وخلال عملية البحث، تبين لي أنه من غير الممكن تقديم تصور كامل عن وضع تلك المنطقة خلال القرن الماضي وبدايات هذا القرن بدون معرفة جميع ما كتبه الرحالة الغربيون الذين زاروها. فبعد عملية مسح شاملة، وجمعٍ لكامل ما كُتب باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، والقيام بترجمة ذلك إما شخصياً فيما يتعلق باللغة الإنجليزية أو بالاستعانة بمترجمين متخصصين باللغتين الأخريين، تبين لي أهمية ما قدمه هؤلاء الرحالة الذين تجاوز عددهم الخمسة عشر، ومنهم العالم، والتاجر، والجاسوس، والسائح، والمبشر، في الفترة الواقعة ما بين

عامي ١٨٠٨م- ١٩٢٢م.

لقد كانت المعلومات التي احتوتها هذه الكتابات والوثائق من الأهمية بمكان، بحيث لا يمكن لأي باحث أو كاتب تجاهلها، أو حتى كتابة أي شيء له قيمة تاريخية بدون معرفتها أو الاطلاع عليها.

وبما أن ما كتبه الرحالة الغربيون يشمل كل جوانب الحياة العربية في هذه المنطقة، فإن توفير هذه الكتابات لذو فائدة كبيرة. فالدارس للتاريخ الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي أو السكاني أو حتى الروائي، يجد بالتأكيد معلومات أولية تفيده في دراساته أو تحليلاته، أو رواياته. ولهذا رأيت ضرورة جمع هذه المعلومات وإصدارها في هذا الكتاب وبالشكل الذي أتى به.

لقد نهجت في هذا الكتاب نهجاً ميسراً، حيث بدأت بتعريف الرحالة والرحلة، ومن ثم أوردت نص ما قاله كل واحد منهم، دون تدخل أو تعديل أو تبديل إلا ما تطلبته عملية تحرير النص، بهدف تصحيح معلومة أو كلمة أو تاريخ، وتقديم النص بنفس الأسلوب الذي انتهجه الرحالة، مع مراعاة عدم تكرار بعض المعلومات أكثر من مرتين إلا إذا اختلف الأسلوب أو جوهر المعلومة لأن الكثير منهم يقتبس من الآخر.

يتناول هذا الكتاب، الرحالة الذين زاروا منطقة الجوف ووادي السرحان خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، والذين خصوها باهتمام خاص في كتاباتهم وهم: جورج أوغست والن، جيفورد بلغريف، كارلو غوارماني، تشارلز هوبر، الليدي آن بلُنت، جوليوس أويتنغ، البارون إدوارد نولده، ارنشيالد فوردر، اس. اس بتلر، الويس موسيل، وسانت جون فيلبي.

إنني لا أقدم ما يورده الرحالة من معلومات على أنها حقائق لا تقبل المناقشة

أو موافقتي على ماجاء بها، ولكن معرفة ما قالوه هم بالتأكيد أفضل من تجاهله كثيراً. ومن هذا المنطلق وجدتني متفقاً مع ما أورده رائد أدب الرحلات في الوطن العربي الشيخ حمد الجاسر، الذي علق على كتابات الغربيين عن بلادنا بما يلي: " إن القارئ العربي، كثيراً ما تعتريه حالة من الريبة والشك حيال كتابات الغربيين عن العرب، وهي حالة مع منافاتها للحكمة العربية القديمة " الحكمة ضالة المؤمن التقطها أنى وجدها " لا تتفق مع المنطق القويم في شيء، فالحق يجب قبوله، أياً كان مصدره، والباطل لا يتوقف رفضه على معرفة مصدره، وأولئك - بحكم بعدهم عنا، وجهلهم لأحوالنا في الماضي - تشوب كتاباتهم عنا شوائب من الخطأ، لا ينبغي أن تكون حائلاً بيننا وبين المعرفة، بل الأجدر بها أن تكون من الحوافز التي تدفعنا إلى معرفة كل ما يكتب عنا، عن بلادنا وتاريخنا لنقبل الحق وننتفع به، وننفي الزيف ونأباه "(٣).

وأخيراً أترك للقارئ الكريم، الحكم على ما جاء به هؤلاء الرحالة، الذين - أيا كانت أهدافهم - عانوا أقسى المشقات ليقدموا ما قدموه، خدمة للمعرفة في بلادهم في ذلك الوقت، وخدمة للمعرفة في بلادنا هذا اليوم. كما لا يسعني إلا التوجه بالشكر الجزيل إلى كل الذين ساعدوني في التحقق من الأسماء والأماكن التي أوردها الرحالة، وإلى الذين يسروا لي سبيل الاطلاع على مافي مكتباتهم الخاصة من دراسات وكتب، وإلى الذين ساهموا في الترجمة ومراجعتها، مع التأكيد على أن مسؤولية أي نقص أو خطأ غير مقصود تقع على عاتقي وحدي.

عوض البادي

الهوامش:

(١) أهم هؤلاء المؤرخين:

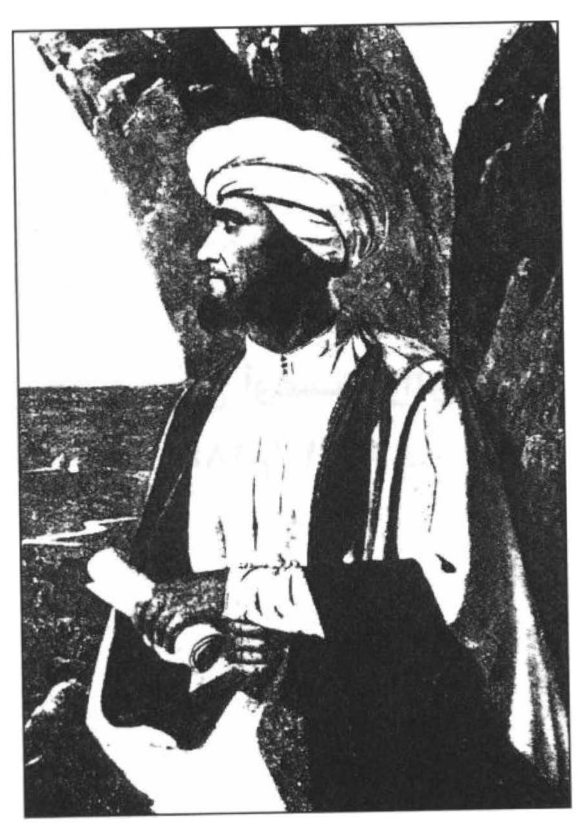
جاكلين بيرين ، **اكتشاف جزيرة العرب : خمسـة قرون من المغامرة** . نقله إلى العربية قدري قلعجي وتقـديم حـمـد الجـاسـر. بيـروت، الرياض : منشـورات الفـاخـرية ودار الكاتب العـربي، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م. ص ص٣٧-٣٥. و

David George Hogarth.*The Penetration of Arabia : Record of the Development of Western Knowledge concerning the Arabian Peninsula*. New York:Frederick A. Stokes Co, 1904. p31.

(٢) توركيل هانسن، **من كوبنهاجن إلى صنعاء**. ترجمة محمد أحمد الرعدي. بيروت : دار العودة، ١٩٨٣ .

(٣) من تقديم الشيخ حمد الجاسر للترجمة العربية. في جاكلين بيرين ، **اكتشاف جزيرة العرب : خمسـة قرون من المغامرة**، ص ١٦ .

رحلة
جورج أوغست والن
١٨٤٥م/ ١٢٦١هـ



صورة زيتية لجورج أوغست والن

جورج أوغست والن
Yrjo Aukusti Wallin

ولد جورج أوغست والن عام ١٨١١م في جزيرة أولاند الفنلندية . و تلقى تعليمه الأولي في مدرسة كنسية بمدينة آبو ، العاصمة القديمة لبلاده ، ثم تلقى تعليمه الجامعي وأكمل دراساته العليا في جامعة هلسنكي . ودرس اللغات الفرنسية والروسية والإنجليزية والألمانية والعربية والفارسية . و عمل محاضراً في جامعة هلسنكي ، بعد تقديمه لأطروحة دكتوراة موضوعها "الاختلافات الأساسية بين اللغة العربية الفصحى والحديثة" . وقد نشرت هذه الأطروحة عام ١٨٣٩م . درس والن بعد ذلك لمدة عامين في معهد الاستشراق في جامعة سانت بطرسبيرغ في روسيا ، حيث تلقى تعليماً إسلامياً وعربياً على يدي عالم أزهري هو الشيخ محمد عياد الطنطاوي ، الذي كان أستاذاً للغة العربية في المعهد .

تقدم والن إلى جامعة هلسنكي بمشروع رحلة إلى مصر والجزيرة العربية وهدفه كما أوضح في مشروعه هو الرفع من شأن جامعته وخدمة العلم بشكل عام ، حيث سيدرس اللهجات العربية المختلفة دراسة مقارنة . وافقت الجامعة على تمويل رحلته وبدأ الإعداد لها ، وكان ذلك عام ١٨٤١م . و بناءً على نصيحة من أحد أصدقائه الأطباء تأجل سفره مدة ستة أشهر ليتمكن من تعلم بعض الأعمال الطبية والعلاجية وليسافر بصفة طبيباً .

غادر والن فنلندا إلى باريس حيث درس بعض الوقت المخطوطات العربية في مكتبات باريس، ثم غادرها إلى القسطنطينية التي منها انتقل إلى الإسكندرية، حيث وصل إليها في شهر ديسمبر ١٨٤٣م، و منها انتقل إلى القاهرة، ليبدأ عملية إكمال تعليمه الديني، والاندماج في المجتمع المصري، وليتعود الظهور كرجل دين في رحلته إلى الجزيرة العربية. وفي القاهرة بدأ حفظ بعض أجزاء القرآن والتعاليم الدينية والقوانين الإسلامية والتعود على الصوم حتى أصبح لا يمكن تمييزه عن رجال الدين في مصر و تسمى باسم "الشيخ عبدالولي".

غادر الشيخ عبدالولي القاهرة، في الثاني عشر من شهر أبريل عام ١٨٤٥م ومعه دليلان إلى العقبة ومنها إلى معان حيث قضى بها بعض الوقت، ثم عبر المنطقة حتى وصل إلى الجوف في الخامس والعشرين من شهر مايو.

مكث الشيخ عبدالولي في الجوف أكثر من ثلاثة أشهر ثم توجه إلى حائل فأمضى بها قرابة شهرين. أراد والن التوجه إلى الرياض عبر القصيم، ومنها إلى الخليج، إلا أن ظروفه المالية حالت دون ذلك، فانضم إلى حملة الحجاج الفرس إلى مكة، فأدى فريضة الحج، ثم ذهب إلى جدة ومنها عاد إلى القاهرة.

مكث والن في القاهرة بعض الوقت يتبادل الرسائل مع جامعته للحصول على بعض المال لإكمال مشروعه والإعداد لرحلة أخرى إلى نجد واليمن. وخلال هذه الفترة زار سيناء والقدس.

في نهاية عام ١٨٤٧م انطلق والن في رحلته الثانية إلى الجزيرة العربية، فزار مويلح على البحر الأحمر وتبوك وتيماء ثم حائل حيث قضى بها بعض

الوقت. لم يتمكن من زيارة الرياض والوصول إلى الخليج لوجود بعض الاضطرابات في المنطقة وخوفاً من اكتشاف أمره بأنه غير مسلم بالإضافة إلى انتشار بعض الشائعات بأنه يعمل لحساب خديوي مصر. غادر والن حائل متجهاً إلى العراق فإيران حيث عانى صعوبات كبيرة في رحلته حتى تمكن من الوصول إلى القاهرة فلندن، ففنلندا عام ١٨٥٠م. وبعد عودته إلى بلاده، تم تعيينه أستاذاً للغات الشرقية في جامعة هلسنكي حيث توفي عام ١٨٥٢م، عن إحدى وأربعين سنة، وهو يعد لرحلة ثالثة إلى الجزيرة العربية (١).

لم يحقق والن شهرة كبيرة في حياته، لأن معظم أعماله لم تُنشر إلا بعد وفاته، رغم أنه ألقى محاضرته الأولى في الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية بلندن في الثاني والعشرين من شهر ابريل ١٨٥٠م، وكانت عن رحلته الثانية إلى الجزيرة العربية وكانت بعنوان: "ملاحظات مأخوذة خلال رحلة عبر جزء من شمال الجزيرة في ١٨٤٨". ولم تنشر تلك المحاضرة إلا عام ١٨٥٢م في دورية الجمعية. أما ما كتبه عن رحلته الأولى فقد نُشر في الدورية نفسها عام ١٨٥٤م وكانت بعنوان " قصة رحلة من القاهرة إلى المدينة ومكة عبر السويس، عربة، الطفيلة، الجوف، جبة، حائل، ونجد، في ١٨٤٥"، كما نُشر له في هذه الدورية الشهيرة " قصة رحلة من القاهرة إلى القدس عبر جبل سيناء" في عام ١٨٥٥م. كتب والن جميع هذه الدراسات المشار إليها باللغة الإنجليزية. و كتب بعض الدراسات باللغة الألمانية، منها دراسات حول بعض القصائد العربية تم نشرها في مجلة الجمعية الألمانية للاستشراق خلال عامي ١٨٥١-١٨٥٢م(٢).

يُعد والن أحد رواد اكتشاف الجزيرة العربية، وأكثرهم علمية وموضوعية حتى أن أحد مؤرخي تطور المعرفة الغربية عن الجزيرة العربية قال عنه: " مهما

كانت دوافعه، فإن والن كان أحد أقدر الأوروبيين الذين وطئوا أرض الجزيرة، وكان مؤهلاً لمهمته مثله مثل سيتزن وبيركهارت. كما يعترف له الإنسان، و ربما لأول مرة في تاريخ اكتشاف الجزيرة العربية بأنه مكتشف علمي من الطراز الحديث، فقد كان مُعداً بشكل كامل، و عاقداً العزم على ألا يترك شيئاً لأي أحد يمكن أن يأتي بعده"(٣).

كما أسلفنا فإن والن أقام في منطقة الجوف أكثر من ثلاثة أشهر، ودرسها دراسة شاملة. ويُعتبر ما كتبه أفضل ما كتبه غربي حتى يومنا هذا من حيث علميته وشموليته عن منطقة الجوف خلال الفترة التي تحدث عنها.

والآن نترك القارئ الكريم مع والن يتحدث بنفسه عن منطقة الجوف (٤) :

" في اليوم الخامس والعشرين من شهر مايو ١٨٤٥م عبرنا أرضاً صحراوية حجرية، منبسطة وواسعة، تشابه الصحراء السورية، وكان اتجاهنا شرقاً - جنوب شرق. واستمر عبورنا هذه المنطقة ست ساعات، حيث دخلنا بعدها سلسلة جبلية تسمى "جال الجوف" وهي سلسلة تحيط بالوادي الدائري، الذي تقع به بلدة الجوف. بعد مسيرة ساعة فوق قمة هذه السلسلة هبطنا قاع الوادي الذي يسمى "البطين". إن الوقت الذي قضيناه في مسيرنا، منذ آخر توقف لنا في مخيم "الحجايا"، الذي يبعد عن بلدة الطفيلة مسيرة أربع ساعات باتجاه الجنوب الشرقي، كان يقارب ثلاثاً وخمسين ساعة عبر صحراء بادية الشام إلى آبار "أويسط"، حيث يبدأ وادي السرحان من هذا الجانب. ومن آبار أويسط إلى الجوف استغرق مسيرنا أربعين ساعة ونصف الساعة. و من المستحسن هنا التوضيح أن مسيرنا رغم أنه كان على ظهور إبل محملة، فقد كان سريعاً جداً. فالأرض التي كنا نسير عليها في الجزء الأكبر من الرحلة كانت منبسطة ومستوية مما سهل مسيرنا. بالإضافة إلى

ذلك فقد كانت الجمال التي نمتطيها من إبل الشرارات ذات الأصل الجيد، كما أنها كانت قوية و معلوفة بشكل جيد.

إن وادي السرحان، الذي مررنا عبر جزء منه، و كما أعلمني بعض بدو هذه المنطقة، يبدأ من مكان يبعد عن جنوب دمشق مدة يومين، ويمتد إلى مكان يبعد يوماً واحداً شمال الجوف. إن الوادي ينقطع هنا بجبال جال الجوف، و يمكن القول: إن الجو ف مركز أو جوف، كما تعنية كلمة جوف باللغة العربية، لشمال الجزيرة العربية. ترتبط سلسلة جبال جال الجوف من جهتيها بتلال رملية ترتبط بصحراء النفود، أو صحراء الدهناء التي تبدأ عند الجانب الجنوبي للجوف وبشكل مباشر. يجب ألا يُعتبر وادي الجوف وادياً عادياً كما هو موضح في خرائطنا، بل هو انقباض محدد مقفل بتلال من الرمال الناعمة وبشكل يعكس السمات الخاصة لصحراء النفود و كامتداد لها، إلا أن تلال النفود أعلى ارتفاعاً وأكبر قاعدة. إن التلال الرملية في هذا الوادي كما يظهر، قد تكونت بفعل الرياح القادمة من الصحاري المجاورة، حيث تراكمت الرمال حول جذور الشجيرات على شكل أكوام، وبالتدريج، وبفعل عامل الزمن، تحولت إلى تلال وجبال.

ضمن أراضي الصحراء تعتبر هذه الأراضي الأكثر خصوبة، وإذا ما هطل مطر كاف فإن هذه التربة تتغطى بالأعشاب والشجيرات. لقد حاولت بلا جدوى أن أجد معلومات عن هذه المنطقة عند الجغرافيين العرب، حتى إنهم لم يذكروا اسمها. لذلك فأنا أفترض أنه في الأزمان السالفة اعُتبرت جزءاً من صحراء الدهناء، التي هي في الحقيقة كذلك. والاسم الذي تحمله هذه الأيام يرجع إلى زمن متأخر.

إن وادي الجوف يأخذ شكل الدائرة المنتظمة تقريباً، و المحاطة من جميع

جهاتها بسلسلة "جال الجوف" التي ترتفع ارتفاعات شبه متساوية تبلغ خمسمائة قدم فوق مستوى قاع الوادي. تتكون هذه الجبال من صخور رملية، وهي شديدة الانحدار وعرة، مغطاة جزئياً بالرمل بالقرب من الوادي، حتى تنظم إلى التلال الرملية لصحراء الدهناء. في الاتجاه الشمالي الشرقي ترتفع فوق قمة هذه السلسلة، مصطبة مميزة تسمى "الحماميات". وفي الجانب الشمالي الغربي تنفتح هذه السلسلة بممر ضيق يسمى "الفاو"، وهو طريق يقود إلى سورية. في الجانب الغربي ينقطع الشكل الدائري بحافة ناتئة ومنفردة وبارتفاع مساو لسلسلة جال الجوف ومتصلة مع جبل منخفض من الحجر الجيري (حجر الكلس) والذي يتدرج بالانخفاض وينحدر إلى أسفل حتى وسط الوادي، وعندها ينتهي إلى الرمال. عند نهاية هذا الجبل تقع بلدة الجوف التي تأخذ شكل نصف دائرة وترها من غرب-شمال-غرب إلى شرق-جنوب شرق ٣٥٠٠ خطوة تقريباً. وفي منتصف نصف الدائرة هذه تقريباً، و في مواجهة شبه كاملة لاتجاه الشمال، تقف قلعة مارد على حرف جبل كلسي، مشرفة على البلدة وعلى جميع الوادي.

هذه القلعة رغم أنها نصف متهدمة وغير مسكونة، تبدو أنها المركز الذي تحيط به الأجزاء والأحياء المختلفة للبلدة، المقامة الواحد تلو الآخر. إن قطر الوادي من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي الذي يطول من هذه الناحية قليلاً قدرتُه بحوالي ثلاثة أميال إنجليزية (٤٨٢٧ متراً). أما الأرض فهي رملية قشرية وخصبة بشكل عام، إلا أننا كلما ابتعدنا عن ذلك الجبل الكلسي تصبح الأرض مجدبة، ففي نطاق الجبل توجد العيون وتحفر الآبار.

إن أكثر المساكن في البلدة مبنية بالطوب الطيني المجفف بالشمس والمصبوب في قوالب مستطيلة الشكل ذات طول ٨ بوصات وعرض ٤ بوصات وسمك ٢ بوصة.

كل حي من أحياء البلدة محاط بسور مبني من نفس نوع الطوب الذي تبنى به المنازل، تفصله عن الأحياء المجاورة، ولكن وفي الحدود الداخلية للأسوار المحاطة في كل حي، المساكن موزعة بشكل غير منتظم، ومنفصلة عن بعضها البعض، وأحياناً تنفصل عن بعضها ببساتين صغيرة وبعض الحفر العميقة التي تكونت مع الزمن جراء الحفر لاستخراج الرمل أو الطين. الأزقة ضيقة وغير منتظمة وبدون أي نوع من الرصف. يوجد في كل حي ساحة للغرباء ينيخون فيها جمالهم عندما يصلون إلى الحي ولا يكون عندهم أصدقاء أو معارف من بين السكان. في هذا المكان أيضاً يجتمع أهل الحي في المساء لتمضية ساعة من الوقت قبل صلاة المغرب وللحديث عن شؤونهم المشتركة. معظم المنازل تحتوي على غرفة، في معظم الأحيان تكون منفصلة عن المباني، وتسمى "القهوة" حيث ينزل الغرباء ويتناول الضيوف وجباتهم اليومية ويشربون قهوتهم. البساتين وحقول النخيل تقع في مكان منعزل عن المنازل عند منحدر الجبل الكلسي وتمتد بشكل أو آخر على امتداد قاع الوادي. كل بستان محاط بجدار يفصله عن البساتين الأخرى، وبين هذه الجدران أزقة ضيقة تستخدم كطرق أو ممرات لأصحاب الحقول، وكقنوات للماء الذي يأتي من العيون ليلاً ونهاراً لسقيا هذه البساتين. حسب مساحة كل بستان تتحدد كمية ماء الري اللازمة بعدد من الساعات. في النهار حسب أوقات الصلاة، وفي الليل بواسطة النجوم. وبما أن عملية الري هذه لا تكفي لتغطية حاجة جميع الحقول والمزارع، فإن كل بستان يحتوي على بئر أو أكثر تغطي نقص ماء العيون.

يمكن وجود الماء بسهولة في هذا الوادي، كما أنه ليس موجوداً بعمق كبير في الأرض، مثلما هو الحال في بعض الأماكن الأخرى في المنطقة، فمعدل عمق الآبار لا يتعدى عشر قامات.

بجانب أشجار النخيل التي تبدو أنها أول شيء أصيل هنا، توجد كل أنواع الفواكه التي تناسب مناخها، ولكن بكميات صغيرة كالتين والمشمش والخوخ والبرتقال والعنب. أما الرمان، الذي ينمو في القرى الواقعة على خط الحاج السوري وكذلك في نجد، لا ينمو بكثرة هنا. الخضروات تزرع هنا ولكن بكميات قليلة، وتقل كثيراً عن نسبتها في نجد. كما أن السكان يبذرون الذرة بين الأشجار في بساتينهم، وإنتاجها عموماً يكفي حاجاتهم، وهذا نادراً ما تكون عليه الحال في قرى الصحراء.

بلدة الجوف، التي لم أسمع أبداً كلمة سرحان مضافة إليها (أضيفت لاسمها بواسطة نيبور وسيتزن)[٥] من أي من العرب في المنطقة. ويعدها السوريون أول مكان في نجد، لهذا تسمى بعض الوقت بوابة أو باب نجد، ولكن سكان نجد يعدونها في سورية.

تتكون بلدة الجوف من اثني عشر حياً، و يدعى الحي سوقاً. يرجع سكان الجوف جذورهم إلى قبائل وقرى عربية مختلفة كثيراً. وكما يبدو فإن السمة السورية تعم وتبرز في مظهرهم وعاداتهم كما هو الحال أيضاً في طريقة هندسة منازلهم وفي طريقة زراعتهم.

إن أقدم مجموعة من السكان بكل وضوح سورية الأصل، تعود إلى العنصر العدناني[٦]، بينما سكان بعض الأحياء يبدو أنهم متأخرون في الهجرة إليها. كما أنه يمكن ملاحظة أن السكان يتمتعون بعلاقات نشطة مع سورية أكثر مما هي مع العراق. كما أن التجار المتنقلين الذين يزورون الجوف أحياناً يأتون من سورية عكس ما هو الحال في نجد، حيث يندر أن تقابل أحداً منهم.

الأحياء المختلفة التي تتكون منها البلدة، ابتداء من جهة الغرب هي:

١- الغرب، ويقسم إلى ستة أقسام فرعية صغيرة، هي:

عشوان، ابن حصيني، صناع المرعي، الجفرية، عين أم سالم، ابن قعيد. جميع هذه الأقسام الفرعية تقع على مسافات متقاربة من بعضها البعض، في الشمال الغربي لنهاية الوادي. تضم هذه الأحياء حوالي مائة عائلة، أغلبها يعيش في سوق ابن قعيد (أكبر سوق في حي الغرب). الجفرية و ابن حصيني يرجعون أصلهم إلى حمولة من قبيلة شمر تدعى حمولة المناصبة. أما سكان عشوان، فهم من بدو الرولة من عنزة. وسكان عين أم سالم بدو يُدعون سرحان. أما صناع المرعي فهم جميعاًحرفيون من قرى مختلفة من سورية ومن الجزيرة العربية، واستوطنوا هنا.

إن حي الغرب، كما يبدو، هو أحد أحدث الأحياء في البلدة.

٢- الدرع أو سوق ابن درع، هو أقدم جزء في البلدة جميعها، ويشتمل على بناية من الحجر يقال: إنها كانت كنيسة، حولها الخليفة عمر إلى مسجد وبعد ذلك رممه ابن سعود عند بداية الدعوة الوهابية. وبالقرب من المسجد ومن غير ارتباط به تقف منارة هي الوحيدة في البلدة منصوبة فوق قوس مبني فوق بوابة هذا الحي. هذه المنارة ربما تكون هي " البرج المربع المدهش، الذي بني من الصخور الكبيرة " الذي ظن ريتر "Ritter" بالاستناد إلى يوسف المالكي (مصدر معلومات الرحالة سيتزن) بأنه مسلة، أو واحد من " الأهرامات " التي ذكرها بيركهارت بناء على معلومات تلقاها في حلب من رحالة أتراك، أشاروا إلى أنها موجودة في الدرع. أما بالنسبة لي، فأنا لا أرى أي شيء خارق في هذا البناء. إنه واحد من تلك المداخل التي تستخدم في كل

الشرق كبوابات لبلدة أو حي ويعلوها بناء صغير مربع الشكل له شبابيك أو منافذ للرمي والتي يوجد منها الكثير، خصوصاً في القاهرة حيث يوجد واحد أو أكثر في كل شارع. مع دخول الإسلام اعتبرت البوابة المكان المناسب للدعوة للصلاة وأضيف برج فوق البوابة ليصبح مثل المنارة. ماعدا هذه البوابة التي أصبحت منارة لم أر أي بناء يمكن اعتباره مسلة أو هرماً (٧).

في الأزمان السابقة، كان المبنى الذي يُعتقد أنه كان كنيسة مسيحية متصلاً من خلال سرب أو نفق أرضي بقلعة مارد، التي تتبع هذا الحي، كما يُقال، إلا أن هذا النفق مُقفل الآن، ومملوء بالأحجار والنفايات، ولكنني تمكنت من مشاهدة الجزء الذي قيل لي إنه مايزال مفتوحاً.

أسوار مارد، كما يقول الناس هنا، كانت في الأصل ضعف ارتفاعها الحالي، وهي مبنية بعناية من الصخور المربعة، المنحوته بطريقة معمارية تشبه تلك الطريقة التي بنيت فيها الحصون القديمة في دمشق، ومازال ارتفاعها يبلغ من ٣٠ إلى ٤٠ قدماً فوق الجرف الذي تقوم عليه. المدخل الرئيس للقلعة في وقتنا هذا، يقع في هذا الحي على منحدر الجبل الكلسي، ولكن في الجانب الغربي منه يوجد باب خلفي ضيق، كان مؤمناً في الأزمان السابقة كما يقال بباب حديدي، يُعتقد أنه عند فتحها زمن الفتح الإسلامي للبلدة، قام الخليفة علي بشقه بضربة واحدة من سيفه. داخل القلعة لا شيء يستحق الملاحظة وكذلك لا يوجد أي أثر لأية نقوش أو كتابة، حتى السكان لا يتكلمون عن أية كنوز أو أية أشياء ذات قيمة تم كشفها في بقايا القلعة. كثير من المنازل الخاصة في هذا الحي مبنية جزئياً بنفس نوع الصخور المنحوتة المبني منها الحصن والمسجد، بينما البيوت الموجودة في الأحياء والقرى الصحراوية الأخرى، مبنية بالطوب الطيني.

إن سكان حي الدرع خليط من الناس، لكن الأكثرية منهم يقال إنهم هاجروا من بلدة شقراء في نجد العارض. ذكر ريتر بأن بني درع هم سكان واد يسمى حفل في سلسلة جبال طيّئ، و ربما أنهم هم أسلاف السكان الحاليين للحي. ونظراً لأنهم مخرجون من بلادهم الأصلية قسراً فهم ربما سلكوا الطريق الأكثر التي لازالت بشكل عام مستخدمة، وهي الطريق التي تمر عبر القصيم إلى جبلي طيّئ ومن هناك إلى جبة، فالجوف.

بعض العائلات في هذا الحي من عنصر أقدم، هم أولئك الذين يطلقون على أنفسهم اسم قراريط ويدّعون أنهم أصلاً من جُبَّة. هؤلاء ربما يكونون بقايا العرب الذين ذكرهم مؤلف " القاموس "(٨) تحت اسم قروط و ينتمون إلى كُلاب المعروفين بأنهم من سكان هذه المناطق. و ربما في جبة أيضاً، حيث يوجد حي يحمل اسم الكُلاب. لقد أخبرني سكان جبة خلال إقامتي في قريتهم، أن هؤلاء القراريط لا زالوا يحتفظون بكُتب قديمة معهم مكتوبة بلغة غير مفهومة، تحتوي على أصلهم و تاريخهم القديم، ولكن لم يذكر لي أحد هذه المعلومات في الجوف، مع أنني كنت حميماً وصديقاً للشيوخ المسنين. في هذا الحي ثلاثة عيون وافرة المياه هي: الكبرا، بارد زبيدة، وعين الجمل. إن مجموع العائلات التي تعيش في هذا الحي، تبلغ حوالي مائة وثلاثين عائلة.

٣ - سوق السعيديين، أو السراح، يسكن هذا الحي خمس قبائل، هي السعيديين، العمر، العباس، السلمان، الحبوب، والأربعة المشار إليهم أولاً يستمدون جذورهم من قرى سورية، هي السراحية ورخام، أما الأخيرة من بدو يُدعون الموُالي. يعتبر هذا الحي بعد حي الدرع، الأقدم في البلدة. وتوجد به قلعة تدعى " القصير " (تصغير قصر) وهي قلعة مبنية من الطوب، على نفس صخرة مارد، ولكنها أحدث عهداً. و يقال إنها أنشئت كقلعة

مضادة لقلعة مارد عندما كانت العداوات المميته موجودة بين هذين الحيين المتجاورين. يضم هذا الحي حوالي مائة وعشرين عائلة.

٤ ـ الرحيبيين : يعيش في هذا الحي حوالي سبعين عائلة ويقال إنهم هاجروا من قرية سورية تدعى رحيبة، وهي كما يقول الرحالة الأمريكي الدكتور روبنسون (٩) تقع في أرض التحتا بين حوران والنبك. هذا الحي به عين ماء جارية تدعى "العروس".

٥ – العلاج : يضم هذا الحي أربعين عائلة، هاجرت إلى هنا من الطفيلة وعين هذا الحي تدعى «غنمة» (١٠).

٦ـ خذما : يسمى هذا الحي باسم عين ماء، تقع وسط الحي، وتوفر الماء الضروري لري البساتين المجاورة. مجموع السكان يبلغ ستين عائلة، وحسب ما يقولون فإن أسلافهم من الجيل السادس، قد هاجروا إلى هنا من وادي السرحان. وبما أن هولاء مايزالون يحتفظون بسمات ولغة البدو فإنهم يعتقدون بأنهم أكثر نقاءً من سكان الجوف، ويعتبرون أنفسهم بدواً في مقابل جيرانهم الذين يطلقون عليهم اسم "قراونة"، وهي كلمة غالباً ما تستخدم في سورية بنفس المعنى الذي يُطلق على الفلاح المصري. ضمن عائلات هذا الحي توجد عشر عائلات ذات أصول زنجية يُدعون "متولدين" وهؤلاء لا يميزهم عن غيرهم من السكان إلا لونهم وسماتهم، رغم أنها إلى حد ما ضعفت، فهي مازالت سمات زنجية. يعيش في الأحياء الأخرى في البلدة بعض المتولدين ولكنهم بمجموعهم ليسوا بكثرة الموجودين في خذما. تعود جذور هؤلاء المتولدين إلى زنوج تم شراؤهم من سوق مكة وتم نقلهم إلى بلدان الذين اشتروهم. وبعد ذلك، تم عتقهم، فتزوجوا من نساء من عنصرهم، وأحياناً، مع أن ذلك نادراً جداً، يتزوجون نساءً عربيات،

فتضاعفت أعدادهم وانتشروا في مناطق الصحراء، حيث تجدهم في كل مكان في القرى وفي خيام البدو الرحل.

٧ - الدلهمية: كان في السابق حياً صغيراً بالقرب من خذما، ويضم حوالي عشرين عائلة من نفس الأصل الذي يعود إليه السراح وهم متحالفون معهم. ويسبب عداوة قديمة بينهم و بين جيرانهم أهل خذما وحلفائهم سكان الجرعاوي، فإن هذا الحي دُمر تدميراً كاملاً قبل ثمانية أعوام من قبل شيخ شمر، وذلك في نفس الوقت الذي أسس فيه سلطته في جبل شمر. لقد جاء شيخ شمر مع قواته ليساعد أقرباءه في الجرعاوي، فسلب ودمر المنازل والبساتين وقطع النخيل وطمر الآبار بالأحجار والأشجار، ولم يترك شيئاً للسكان عدا حياتهم وحريتهم ليلجؤوا إلى حلفائهم السراح.

بالإضافة إلى هذه الأحياء السبعة والواقعة بجانب بعضها البعض في منحدارات الجبل فيما يشبه شبه دائرة، توجد خمسة أحياء أصغر في أماكن أخفض من الأولى في قاع الوادي وهي:

٨ - القراطين: يقع هذا الحي في الجزء الغربي من الوادي وبالتقريب في منتصف الطريق بين جال الجوف والجبل الداخلي ويضم هذا الحي عائلتين متحالفتين مع سكان الغرب.

٩ - الوادي: ويقع عند قاع جبل منعزل يسمى "صُبة" ويرتفع بشكل مخروطي في الجزء الآخر من الوادي شمال غرب مارد وبالقرب من جال الجوف. يضم هذا الحي ثماني عائلات من قبيلتين مختلفتين، هما الدربي والمناحي وهما متحالفتان مع حي الدرع.

١٠ - غطي: يقع هذا الحي شمال شرق مارد، في قاع الوادي، يضم عائلتين متحالفتين مع حي السراح.

١١- السعيدان : وهو عبارة عن حقل نخيل، يسقى من بئر ويخص عائلة زنجية تسكن في خذما.

١٢- الجرعاوي : يتكون هذا الحي من أربع عائلات من الحرفيين، يستمدون أصلهم من قبيلة من قبائل شمر، تسمى الرمال، وقد هاجروا من قرية جبة.

في فترة العداوة التي عمت بين السراح والدلهمية من ناحية، وبين خذما وهذا الحي من ناحية أخرى، دُمر الجرعاوي بشكل كامل، و أُجبر السكان على الرحيل من أرضهم ومنازلهم المدمرة ليسكنوا عند حلفائهم أهل خذما. بعد ذلك، وعندما سيطر ابن رشيد على البلدة وأصلح الخلافات بين الأحياء المختلفة، سُمح لأهل الجرعاوي بتنظيف آبارهم، وبدؤوا بغرس أشجار جديدة مكان النخيل المقطوعة، وفي الوقت الذي غادرت فيه الجوف كانوا جاهزين للانتقال من خذما إلى منازلهم التي أعادوا بناءها.

يوجد القليل من المعلومات التي احتفظ بها السكان الحاليون حول التاريخ القديم لبلدتهم. فهم يزعمون أن بداية الجوف ترجع إلى زمن سليمان ابن داوُد ويحددون عام ٨٠٠ ميلادية كسنة لتأسيس بلدتهم؛ وهو زمن نادراً ما أتذكر أنني سمعته ذُكر في أي مكان في العالم الإسلامي. إن هذا الملك الإسرائيلي الحكيم يعتبره السكان في جميع شمال شبه الجزيرة العربية ونجد أنه أول ممدن لأرضهم والمؤسس لقراهم وآبارهم، والمفترض أنه بناها بمساعدة الجن. من خلال هذا القول يبدو أنهم يقررون أن الحضارة كانت قد جاءتهم في الأصل من سورية كمقابل، ربما لعرب اليمن الذين ونتيجة لموقع أرضهم وتفاعلهم وتخالطهم في قديم الأزمان مع الهند والحبشة لديهم حضارة مختلفة. أما فيما يتعلق بالفترة الزمانية التي فصلت بين عهدي سليمان

ومحمد، فإن السكان الحاليين لا يعرفون شيئاً، عدا عن أن بلدتهم حملت في السابق اسم "دومة الجندل" وهو الاسم الذي مازال معروفاً لا سيما عند الجغرافيين العرب.

عند ظهور نبي الإسلام، كانت البلدة محكومة برجل اسمه كما ينطقه السكان الحاليون (الأكيدر) ولكن الكتاب القدماء يكتبونه الأُكيدر. لقد كان الأُكيدر معتنقاً الدين المسيحي، وكان يسكن قلعة مارد. إن هذه الكلمة (كلمة أُكيدر) تُستخدم بأسلوب غامض وغير محدد لأي زمن بعيد، والناس أنفسهم غير متأكدين فيما إذا كان فرداً أو قبيلة أو شيخ عائلة حاكمة. هذا الإحساس الأخير يبدو لي أنه الأكثر طبيعية، أي شيخ عائلة حاكمة. في زمنه يقال إن البلدة كانت ذات امتداد أكبر، فالبساتين وحقول النخيل تنتشر في الجزء الأكبر من الوادي. و كان هنا وفرة هائلة من الآبار والعيون والجميع كان مسوراً بحائط واحد مشترك. وفي الحقيقة ماتزال توجد آثار لزراعة سابقة ممتدة أكثر مما هي اليوم، ومن حين إلى آخر يتم اكتشاف أسراب خفية تحت الأرض مبنية بالحجر المنحوت ذي الأشكال المربعة، المصمم بحرص ودقة ممتازة، وهي قنوات من عمل الإنسان. وهذه القنوات كانت في السابق، ربما تستخدم بغرض تجميع ماء المطر للآبار ولمرور المياه من عيون الماء التي اختفت الآن. وخلال إقامتي هنا تم فتح واحدة من هذه القنوات في حي السعيدان، وكانت واسعة لدرجة أن الرجل يمكنه أن يقف بها على امتداد قامته، وكان يبدو أنه متصل فقط بالبئر الموجودة في ذلك الحقل. وبينما كانت هذه القناة مملوءة بالرمال كان هناك جزء صغير منها مفتوحاً كالسابق، ولكن بدايتها أو نهايتها غير محددة. هناك قنوات أخرى اكتشفت في البلدة نفسها وتقود إلى أماكن لا يوجد بها أي آثار للزراعة. و في قاع الوادي توجد آثار الأسوار

المنهارة المبنية بالطين والطوب و يقال إنها المتبقي من السور الذي أحاط به الأكيدر بلدته . أنواع مختلفة من الأدوات غالباً ما تكتشف من خلال الحفر في الأرض، مثل الهاونات الحجرية الكبيرة التي تشبه في وقتنا الحالي تلك المستخدمه في طحن القهوه في كل مكان من نجد . و يشتهر سكان الجوف بمهارتهم في قطعها، و هي تباع في نجد غالباً بسعر يصل إلى جنيه واحد للقطعة الواحدة . كذلك يقوم الصناع المهرة بصنع مناصّ أو قواعد المنافيخ، بنفس الشكل المستخدم به حالياً في الجزيرة العربية . و هذه يمكن وجودها عند الحفر، وتكون مقطوعة من الصخور الصلبة، بينما الحديثة تكون بشكل عام مصنوعة من الصلصال . وقد قيل لي : إنه أحياناً يتم اكتشاف عملات قديمة، قد يرجع زمنها إلى أيام موسى . ولكن مع كل البحث عنها بين السكان لم أجد أبداً أكثر من عملة ذهبية واحدة تعود إلى الفاطميين، ولم أجد أو أقع في أي مكان على أية نقوش أو كتابات قديمة من أي نوع .

لقد تمت هزيمة الأكيدر، وقتله المسلمون الذين دخلوا هنا، كما يقول السكان الحاليون، تحت قيادة عمر وعلي، وعندها أجبر السكان المسيحيون على دخول الإسلام . وفي القرون اللاحقة لم يجد السكان أي شيء يربطهم عدا العداوات والخلافات بين القبائل والأحياء التي تتكون منها البلدة .

إن أهل الجوف مايزالون في أيامنا هذه معروفين عند جيرانهم بميلهم للتنازع، ويقولون إن الشيطان لن يموت أبداً في قلوبهم . ضمن هذا السياق ، يبدو أن المثل العربي، الذي يستشهد به القاموس، وكأنه يشير إليهم، فالقول يعبر عن أن أهل مارد يمتازون بـ" العناد " وأن أولئك أهل الأبلق (حصن تيماء) يمتازون بالصبر [١١] .

في الأزمان الأولى للدعوة الوهابية دخل أحد قادة ابن سعود البلدة مع

جيش ودمروا قبراً قديماً في حي الدرع، وكان مزيناً بقبة ويحترمه السكان على أنه قبر ذي القرنين. وبعد أن قرر على السكان الزكاة، المقررة في القرآن كأحد أركان الإسلام، أصدر أوامره لفتوحات أخرى، تاركاً وراءه نائباً ليحكم البلدة باسمه. أما الأئمة أو الخطباء كما يسمونهم هنا وفي كل أنحاء نجد فيتلقون تعليمهم ودروسهم على نفقة ابن سعود في المدينة والدرعية ويرسلون إلى هنا ليعلموا الناس أصول الدين الإسلامي، حسب دعوة ابن عبد الوهاب التجديدية.

لقد توقفت العداوات والحروب، وأقيم العدل، و أعيد الأمن العام في كل المنطقة الواسعة الواقعة تحت نفوذ ابن سعود. وجميع الناس هنا ما يزالون يتذكرون تلك الأيام بحماس. إلا أنه و عندما سقطت سلطة الوهابيين أمام الباشا المصري واحتلت قواته كل منطقة نجد وشمال الجزيرة العربية عدا الجوف وحدها، رجعت البلدة إلى حالتها السابقة من الضياع وعدم الاتفاق. واستمرت الحال هكذا، حتى جاء عبد الله بن رشيد بعد تقويته لسلطته في جبل شمر، حيث أرسل أخاه " عبيد الله " (المعروف بعبيد) إلى الجوف ليضع نهاية للعداوات المشار إليها، والتي كانت في حينه بين خذما والدلهمية و كان ذلك بالتقريب سنة ١٨٣٨م. بعد هذا التاريخ أصبحت الجوف تحت حكم شيخ شمر الذي ليس له ممثل مقيم هنا. إن لكل حي شيخه، الذي يحكم ويفصل في الخلافات على الأمور ذات الأهمية المحدودة. أما الأمور ذات النتائج الأكبر فإنها تعرض على شيخ شمر نفسه حيث يدعو الأطراف المتنازعة إلى عاصمته حائل، و في اجتماع عام تطرح المسائل أمامه وتناقش مع استشارة القاضي. أما الزكاة فيجمعها خمسة رجال من الجوف، يختارهم شيخ شمر. وفيما يتعلق بالقضايا الدينية، فيُعهد بها إلى خطيب خاص ينتخبه

سكان كل حي من بينهم. يوجد خطيب واحد في حي خذما من الذين تلقوا تعليمهم في المدينة، وهو من جبل شمر، ولكن كل الآخرين من الجوف نفسها. كل حي له مسجده الخاص، تؤدى به الصلوات اليومية، بالإضافة إلى صلاة الجمعة.

بعد صلاة الظهر، يقوم الخطيب عادة بقراءة بعض أحاديث الرسول أو بعض آيات القرآن أوتفسير تعاليم الدين في مسائل التوحيد وتحريم اتخاذ أولياء من دون الله. و هذه النقطة هي مثار الخلاف بين الوهابيين والمسلمين الآخرين. إن جميع أتباع الدعوة الوهابيه يقرون نقاء مذهبهم، ويطلقون على أنفسهم لقب الموحدين، مقابل الآخرين الذين يعتبرونهم مشركين، لأنهم يشركون مع الله كائنات أقل منه، ويعتبرونها تستحق التقديس. إن هؤلاء يعتبرون كلمة وهابي التي يطلقها عليهم أهل المناطق العربية التركية إهانة لهم، ولا يطلقونها على أنفسهم أبداً. كما أنهم لا يعتبرون أنفسهم طائفة مستقلة بل يتبعون المذهب السلفي للإمام أحمد بن حنبل. كما أن أمراء عائلة ابن سعود لم يسكوا نقوداً تحمل أسماءهم.

وكما هي الحال في معظم القرى الوهابية، فإن الشباب هنا يدرسون ويتعلمون مبادئ وأصول دينهم. إن القراءة والكتابة منتشرة بينهم أكثر مما هي الحال في البلدان العربية التركية. رغم أن سكان هذه البلدة معروفون بخصوماتهم وصلابتهم فيما بينهم، إلا أنهم معروفون ومعترف بهم من جميع الناس بأنهم مضيافون جداً، ولطفاء مع الغرباء. وفيما يتعلق بي، فعليَّ الاعتراف أنه حتى من القبائل العربية المضيافة في الصحراء لم أقابل أية قبيلة تفوق أهالي الجوف في هذه الفضيلة. ولم يعاملني أحد من قبل بمثل ما عاملوني. كما أن أهل الجوف معروفون بمواهبهم الشعرية، فرغم شدة

المذهب الوهابي فيما يتعلق بالغناء والربابة (الآلة الوحيدة في الصحراء) وأنهما لا يليقان بالإنسان الورع والمؤمن الحقيقي، اعتقاداً بأن من يتمتع بالشعر والموسيقى في الحياة الدنيا، فإنه لن يتمتع بهما في حياته الآخرة، إلا أنني نادراً ما قضيت ليلة واحدة بدون رفقة بعض الشباب الذين يغنون بصحبة هذه الآلة البدوية الرتيبة والساحرة في نفس الوقت. وبما أن موهبة الشعر والموسيقى متشرة بين البدو، فإنني لا أستطيع أن أقول إن أهل الجوف يبزون الآخرين في هذا الجانب. أما فيما يتعلق بما قاله بيركهارت إن "رجال الجوف أحياناً يترحلون في المناطق المجاورة كمغنين" فإنني لا أستطيع تأكيد ذلك، فأنا لم أقابل في أي مكان ذهبت إليه في الجزيرة العربية أي مهاجرين أو مسافرين من هذه البلدة. إنهم نادراً ما يغادرون منازلهم، إلا عندما يُدعون إلى حائل لسبب أو آخر أو عندما يذهبون إلى مكة لأداء الحج. كما أنهم لا يقومون بغزوات لأنفسهم، ولكن بعض الأفراد يشاركون أحياناً في غزوات شمر، وليس عندهم عادة التردد أو الالتجاء إلى البلاد المجاورة للحصول على مؤنهم، من الدقيق والأرز وحاجياتهم الأخرى، كما هو الحال عند أهل حائل والقصيم، ولكنهم يعتمدون على حلفائهم البدو من قبائل عنزة والشرارات لجلب حاجياتهم من سورية أو العراق.

بينما ري البساتين وحقول النخيل يعتمد في جزء كبير على مياه العيون والآبار، التي يحصل منها الناس على الماء بسهولة، فإنهم لا يحتاجون للإبل، وعدد قليل منهم يملك واحدة أو اثنتين من هذه الحيوانات، رغم أنها ضرورية جداً في الجزيرة العربية.

بدلاً من الجمال فإن البقر والثيران هي الحيوانات المستخدمة لجلب الماء من الآبار العميقة. المواشي هنا، كما هي في باقي الجزيرة العربية، قليلة وهزيلة،

ولا تذبح هنا للأكل أبداً، وإن تم ذلك فبعد تردد كبير. جميع الحيوانات جمال أو غيرها والتي تستخدم للري تدعى "سواني".

بسبب الحرمان من وجود الجمال (الوسيلة الوحيدة في الصحراء للتنقل والاتصال) فإن السكان عليهم دوماً الاعتماد في شؤون التجارة والاتصال، على البدو. عكس ما هي عليه الحال في قرى الجزيرة العربية الأخرى. بالاضافة إلى ذلك فإن العداوات والحروب المصيرية، التي يبدو أنها تسود بين السكان منذ قديم الزمان، حدت من فرص التجارة. فلو أخذنا بالاعتبار موقع المكان الذي لا شك يجعله في مأمن من الغزوات الخارجية، فإنه فيما يتعلق بالتجارة والاتصال غير مناسب. لذلك يمكن أن نقول إن الجوف احتلت دائماً موقعاً دونياً في عملية التأثير في التاريخ العربي، فهي محاطة من جميع جوانبها بالصحراء، التي لا تتوفر فيها المياه، ويصعب فيها السفر. كما أن أياً من الطرق الممتدة من سورية أو من العراق إلى مكة، مكان التجمع للعرب في جميع الأزمان ومنبت حضارة العرب والإسلام، لا تمر عبر الجوف. ولأن الجوف معزولة عن الاتصال مع المناطق الزراعية والمدنية المجاورة، فقد بقي أهلها في حدود قدراتهم، التي أبداً لن تكون ضخمة. إن الإنتاج الوحيد لأرضهم الفقيرة هو التمر الذي يقايضونه بالأشياء الأخرى. أما الزيتون، الذي يقول بعض المؤلفين العرب إنه زرع هنا، لا يوجد منه أية شجرة يمكن رؤيتها. وأنا أشك إذا كانت التربة تناسب هذه الأشجار.

إن حاجات السكان المحدودة بجانب ما تعطيه بساتينهم، ربما تم تزويدهم بها في السابق، مثل ما هو اليوم، بواسطة البدو، حيث يقايضونها بالتمر أو يشترونها أنفسهم من السوق السنوي الذي يقول عنه القلقشندي: إنه كان يعقد سنوياً في قديم الأزمان. إن بُعد الجوف عن الطرق التي اعتاد الناس

ارتيادها وصعوبة الاتصال بها يبدو أنها من الأسباب الرئيسية لعقد السوق بها.

إن تمور الجوف من أحسن الأصناف ويَفضُل طعمه طعمَ تمور البصرة وبغداد، ولأنها كذلك، فطيلة إقامتي لما يقارب أربعة أشهر، شكلت التمور أساس بل معظم طعامي. وأعترف أنني لم أضجر منها، وهناك مثل يقول "لا تمر يقارن مع تمر الجوف وتيماء". عندما كنت في تيماء وجدت نوعاً واحداً فقط ذا نوعية ممتازة. أما هنا، فإن كل نوع من الأنواع المختلفة، التي تنمو في الجوف وبدون استثناء، كانت من أحسن الأنواع. من هذه الأنواع الكثيرة لاحظت ما لا يقل عن خمسة عشر نوعاً، وكلها تعتبر ذات نوعية راقية. يرد أهل الجوف سبب جودة نوعية تمورهم إلى أنهم يسقون نخيلهم أقل ماء مما يفعله الآخرون في الأماكن الأخرى. فبينما سكان نجد يعملون على أساس المبدأ الذي يعتبر أنه كلما سقيت النخيل أكثر، كلما زادت حلاوة التمر، أو زاد السكر في التمر. لذا فإنهم يسقون نخيلهم كل يوم. أما سكان الجوف فإنهم يسقون نخيلهم مرة واحدة كل ثلاثة أو أربعة أيام.

مع أن أهل الجوف يدفعون الزكاة إلى شيخ شمر، الذي يتلقى الزكاة بدون التزام منه بكيفية صرفها، فإنهم ليسوا محررين من غارات بعض البدو الرحل. فكل حي خاضع لأحدى القبائل البدوية المجاورة، حيث يدفعون ضريبة تسمى الخاوة وعادة ما تكون كميات محدودة من التمر. القبائل الرئيسية التي تأخذ هذه الضريبة، هي الشرارات والرولة الذين يدعون الجلاس، وخصوصاً عائلتي الشعلان والنايف. هاتان العائلتان القويتان تعيشان معظم أيام السنة في حوران، وهي المنطقة التي تعرف عند البدو فقط بنقرة الشام، ولكنهم في الصيف يتوزعون في أراضي النفود الواسعة، باحثين

عن المراعي لقطعان جمالهم في جوار الجوف وبئر الشقيق. وأحياناً يذهبون جنوباً إلى القصيم وإلى الشمال الشرقي وإلى الشرق حتى يصلوا إلى الجزيرة في تخوم العراق حيث يلتقون الفروع الأخرى لقبيلتهم. بعض البدو الأغنياء، يعيشون معظم أيام السنة على حسابهم في البلدة، و يرسلون إلى الصحراء قطعانهم مع راع واحد يعود كل أربعة أو خمسة أيام للسقاية من آبار الجوف. وفي موسم نضوج التمر يجمعون الكمية التي يستطيعون الحصول عليها من إخوانهم ويعبئونها في جلود كبيرة ويقايضون أهل البلدة أنواعاً من الملابس ببعض الإبل الكبيرة السن، التي مصيرها الذبح، ثم يعودون إلى منازلهم في حوران.

يعيش الشرارات كما رأينا، معظم أيام العام، في وادي السرحان وينتشرون في النفود وأحياناً إلى جبال الشراة. الأقسام الرئيسية لهذه القبيلة هي:

١ـ الفليحان وشيخهم اللحاوي وهو شيخ جميع القبيلة.

٢ـ الضباعين والعائلة الرئيسية فيها تسمى شوشان.

٣ـ الحلسة وشيخهم ابن دعيجا.

٤ـ العزام ولهم شيخ يسمى شبلي.

٥ـ السليم وشيخهم الدويرج.

يعتبر الشرارات أن الجوف هي بلدتهم الأصلية، ويبقون بقربها قدر استطاعتهم. كذلك فإنهم في وقت الموسم يأتون بأعداد كبيرة لمقايضة الماشية، والصوف والزبد والسمن، أو أي كميات من الرز، قد يكونون حصلوا عليها من أماكن أخرى. الأشياء الرئيسية بجانب التمر، التي يحصلون عليها من

سكان الجوف مقابل أشيائهم، أنواع مختلفة من الحصير، أكياس الحمل، المفروشات المصنوعة من الصوف، كذلك يشترون ذلك النوع من العباءات الصوفية السميكة والدافئة، التي تدعى هنا عباءة وفي أكثر الأحيان " مشلح " والتي يشتهر أهل الجوف بنسجها. هذه العباءات رغم أنها مصنوعة من النسيج الخشن إلا أنها قوية ودافئة وتؤخذ إلى مكة حيث يكون عليها طلب كثير خلال موسم الحج . أما استهلاكهم من القهوة فإنه في معظم الأحيان يأتي من مكه عن طريق جبل شمر . كل هذه التجارة تتم بالمقايضة فالنقود قليلة جداً هنا كما هو الحال في معظم أجزاء الصحراء .

إن أهل الجوف يتخيلون أن بلدتهم واقعة في وسط العالم ويطلقون عليها أغلب الأحيان " جوف الدنيا " . وفي الحقيقة، فإن المسافة بين هذا المكان والمناطق الزراعية المجاورة فيما وراء الرمال، التي تحيط بها من كل جوانبها متساوية تقريباً في كل اتجاه. فدمشق في سورية والنجف أو مشهد علي في العراق والرياض عاصمة نجد ومقر ابن سعود والمدينة والحجاز والكرك ويمكن الوصول إليها من الجوف خلال سبعة أيام تقريباً. المدينة المشار إليها أولاً هنا وهي دمشق معروفة عند عرب هذا العصر باسم الشام الكبيرة، بنفس الأسلوب الذي نعرف به القاهرة التي تدعى مصر الكبيرة. وحتى لو استخدم الاسم القديم أحياناً، فإن من النادر أن يتم ذلك إلا من قبل بعض المتعلمين الذين يتهجونها كما يتهجاها المؤلفون العرب. ولكن الناس العاديين من الجوف ونجد وسورية يكتبونها بطريقة ثابتة دَمْشَقْ أو دمشْقَ. يقول السوريون كما يقول أحد الأمثال : " الشام دمشقاء " ويعنون به التعبير بأن دمشق نظيفة وجميلة وسكانها أنيقون وذوو وسامة . وبكل تأكيد، فإن كان هناك أي مدينة في الشرق تستحق هذا المديح فستكون دمشق .

في الطريق من الجوف إلى دمشق توجد الآبار أو مواضع الماء التالية كما حددها لي أهل الجوف. وهذه المواضع هي:

نبك (في وادي السرحان وعلى مسافة يوم واحد من الجوف)، مغيرة، غراب، قراقر، الهزيم، الأزرق، بصرى، حريره، رزدالي على طريق الحج، العوبج، دمشق.

وفي الطريق إلى الكرك توجد آبار المياه الآتية:

ميقوع، العيون البيض، العمري، الحفير، القطران، اللجون.

أما الطريق إلى الرياض، وهي التي تستخدم بشكل عام، فتمر عبر جبل شمر والقصيم ويتطلب الطريق سفراً يمتد من ١٢ إلى١٣ يوماً، ولكن الطريق المستقيم عبر الصحراء لا يتجاوز سبعة أيام، بينما المدينة يصعب الوصول إليها عبر تيماء وهجر بأقل من ٩ أيام. أما الطريق إلى الهلال الخصيب، فيعبر النفوذ شمال الجوف ويلتقي بالطريق الذي يعبره سكان جبل شمر في زياراتهم المتكررة إلى ذلك القطر، ولكن كما ذكرت سابقاً، فإن سكان الجوف نادراً ما يذهبون هناك.

إن الاسم الحالي للجوف والذي لا يظهر أبداً عند المؤلفين العرب، يبدو أنه يشير إلى شكل ذلك الوادي الموصوف، الذي يأخذ وضع فجوة حُفرت في سلسلة من الجبال، تحيط به من جميع الاتجاهات. إن الصحراء المحيطه، التي تعتبر تابعة للمكان، لا يمكن اعتبارها أرضاً منخفضه تنحدر تدريجياً من نجد إلى سورية كما كان افتراض فون هامر، الذي اقتبسه ريتر، في موسوعته الجغرافية الموسومة "الأرض" (Erdkunde,XIII.377)، والذي اعتبر أن كلمة الجوف تعني السهول الممتدة والمنخفضة في تضاد، مع سلاسل الجبال العالية.

على العكس من ذلك، فإنني لا أستطيع الا اعتبار الجوف في موقع أكثر ارتفاعاً نسبياً من نجد. وكذلك فجبال "جال الجوف" بالإضافة إلى البقع الجبلية الصخرية التي تحيط بها من الغرب والشمال يعتبران النقطة الأعلى، مما يجعلنا نقول إنها ذروة هضبة شبه الجزيرة. وعلى نفس المنوال، فإني أناقض ما جاء به ريتر، ذلك الجغرافي العظيم ، الذي يعتبر أن الجانب الجنوبي للجوف هو الجزء الجبلي، أما الجزء الشمالي فهو الجزء المنخفض و المنبسط. بالنسبة لي، فإن العكس هو الصحيح، فكما رأينا فإن الجزء الشمالي للسلسلة الجبلية يرتفع مع وجود مصاطب ممتده غرباً وشمال الغرب، حتى يلتقي مع أخفض مكان لسلسلة جبال الأضارع. أما الجزء الشمالي من سلسلة الجوف فهو يتألف من بقع جبلية تقل وتزيد لمسافة رحلة يوم، حتى تقارب وادي السرحان، أما الجزء الجنوبي والشرقي لهذه السلسلة فهو بالمقابل، وإلى حد ما أخفض، و لا تتشكل به أية تلال أو بقع جبلية حتى النفود، ولكنها تتوقف مباشرة عند حد الوادي. وهكذا لا يوجد أي اتصال من أي نوع مع جبلي طيّء اللذين يفترض ريتر أنهما يبدآن بالانحدار التدريجي حتى يلتقيا بالأرض المنخفضة المتخيلة للجوف.

تقع في الشمال الشرقي لبلدة الجوف، وعلى مسافة إحدى عشرة ساعة، بلدة أخرى تسمى سُكاكا أو سكاكا، حيث تلفظ بدون الضمة. تضم هذه البلدة قلعة قديمة نصف منهارة، تسمى زعبل، كما تضم أربعة أحياء أو أسواق هي: العمران، السهيان، الحركان، والفياض. هذا المكان اعتبره ياقوت (ياقوت الحموي) ضمن القرى التي تنسب إليها دومة الجندل، وقال إنها مسورة نسبياً، ولكنها غير محصنه بشكل جيد، كما هو حال دومة الجندل، كما أن سكانها أقل قوة من سكان دومة الجندل. رغم أنني لم أجد الفرصة

لزيارة المكان خلال إقامتي بالجوف فإن لديّ سبباً للاعتقاد بهذا الوصف، الذي يتناسب مع الحالة الحقيقية لسكانها الحاليين. بشكل متكرر كان رجال من هذا المكان يأتون إلى الجوف لاستشارتي كطبيب لأمراض مختلفه، وجدت أنهم جميعاً خشنون. وعلى غير العادة في الجزيرة العربية، فإن قسمات وجوهم غير مقبولة، والحالة الصحية العامة في البلدة كما قيل سيئة. معظم الأمراض التي وجدتها كانت من الدرجتين الثانية والثالثة من مرض السفلس. عدد العائلات التي تعيش في سكاكا تُقدر بحوالي أربعمائة عائلة.

هناك مكان آخر صغير، يسمى قصر الطوير، ويضم عشر عائلات ويقع على مسافة ٨ ساعات من دومة الجندل. بين هذين المكانين، يوجد مكان ثالث يدعى "قارا"، وعدد سكانه يصلون إلى عشرين عائلة تقريباً، ويردون أصلهم إلى بدو الدغمي من قبيلة عنزة. هذا المكان يضم أيضاً قلعة تسمى المشرفة. جميع هذه الأماكن الثلاثة كما علمت تقع بأرض منبسطة مفتوحة ذات تربة صلبة، وتحتوي على وفرة من الماء، وعلى آبار عميقة. وبناء على ما سبق فإنني أفترض أن الصحراء هنا كما هي في الشمال الغربي للجوف ولمسافة يوم تزيد وتنقص، تحتفظ بسمات الأرض الجبلية المتداخلة بسلسلة منحدرة من جال الجوف.

جميع هذه الأماكن، تابعة لحكم شيخ شمر. وتدفع له الزكاة التي يجمعها نفس الرجال المكلفين جمعها في الجوف.

إن الاسم القديم "دومة الجندل" والذي في وقتنا الحاضر يدعى الجوف بشكل حصري، معروف ويذكره الجغرافيون العرب، ومازال يعيش في ذاكرة سكانه، وقد قيل: إنه يعني كومة من الصخور الكبيرة. فإذا كان هذا هو المعنى الصحيح للكلمة، فإنه ربما يفترض أنه يشير إلى ذلك الجبل الكلسي المشار

إليه، والذي يشمخ فوق سهل ذلك الوادي على شكل كومة. بعض السكان أكد أن كلمة "الجندل" تعبر عن نوع معين من الصخر، الذي يتكون منه هذا الجبل. أما المؤلفون العرب، فلا يتفقون معهم في هذا المعنى للكلمة، فهم يرجعونها إلى دوم (كتبه البعض دومان، دُوما، دَوماء) ابن إسماعيل بن إبراهيم. أو حسب آخرين إلى دومات أنوش (؟) ابن شيث، ابن آدم. وكما يختلف هولاء في تهجئة اسم مؤسس المكان، فهم يختلفون حول تهجئة اسم المكان. فالسكان الحاليون يلفظونه دَوما وآخرون دُوما. مهما يكن الأمر، فابن الكلبي المعروف المشار إليه في العمل الجغرافي العظيم لياقوت يقول: إنه لما كثر ولد إسماعيل عليه السلام بتهامة هاجر أحد أولاده ويدعى دوماء إلى وادي الجوف الحالي، الذي يقع على مسافة سبعة أيام من دمشق وبنى له حصناً سماه باسمه دوماء.

مؤلف آخر، هو أبو سعد ومشار إليه في نفس المؤلّف السابق يقول: إن محيط الوادي المنخفض الذي بنيت به البلدة يبلغ خمسة فراسخ وبه عين في نهاية الجهة الغربية، تسقى منها مزارع الحبوب وبساتين النخيل الغنية. هذه العين ربما يمكننا تحديدها بعين أم سالم. ويقول أيضاً إن حصنها يدعى مارد مبني بحجارة كبيرة وثقيلة.

أما أبو عبيدة الذي يقتبس منه معجم البلدان لياقوت، فيذكر أن المكان ضمن مجموعة قرى وادي القرى التي تقع في منطقة جبلي طيِّئ على مسافة أربعة أيام من تيماء. ويذكر أن سكان هذا المكان، هم بنو كنانة من قبيلة كلب، والقريتين سكاكة وذي القارة (وهي الصيغة الصحيحة التي ينبغي أن يكتب بها اسم قارا) تابعتان لمجموعة هذه القرى. ويستمر المؤلف بالقول: إن هذا المكان مسور وداخل هذا السور قلعة مارد القوية، بالإضافة إلى قلعة

أخرى، بناها الأمير الأكيدر بن عبد الملك بن عبد الحي بن أعيا بن الحارث بن معاوية بن خلاوة بن أمامة بن سلمة بن شكامة بن شبيب من السكون، من قبيلة كندة. لقد كان أكيدر هو الذي أرسل له النبي محمد [ﷺ]، عندما كان في تبوك، خالد بن الوليد، وقال له: إنه سيلقى الأمير يصيد البقر الوحشي في جوار بلدته. عندما وصل خالد وجد أكيدر كما قال له الرسول يصطاد، فأخذه على حين غرة فأسره وقتل أخاه حساناً، وافتتح البلدة. حدث ذلك في العام التاسع للهجرة. بعد ذلك عقد النبي صلحاً مع أكيدر تاركاً له دومة الجندل، وحريته في دينه ودفع الجزية المقررة على من لم يسلم. ولكن أخاً آخر لأكيدر ويدعى حارثاً أعلن إسلامه. عندما نقض بعد ذلك أكيدر عقد الصلح، طرده الخليفة عمر مع سكان الجزيرة الذين لم يسلموا، فرجع أكيدر إلى الحيرة في منطقة عين التمر، حيث أسس قرية سماها دومة على اسم بلدته الأصلية، التي طُرد منها. في عصر أبي عبيدة (المذكور سابقاً) دومة العراق هذه كانت مندثرة ولكن توجد بعض الآثار التي يمكن رؤيتها. ويقول ياقوت حسب قول مؤرخي الفتوحات الإسلامية إن دومة أخذها خالد بن الوليد في العام الثاني عشر للهجرة عندما رجع من العراق بعد حملة له هناك، فقتل الأكيدر لأنه بعد وفاة الرسول رفض دفع الزكاة وارتد عن الإسلام الذي دخله بعد الفتح الأول.

يقول أحمد بن جابر الذي يعطيه ياقوت الفضل في روايته، أنه قال: "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضى الله عنه سنة تسع إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل فأخذه أسيراً وقتل أخاه، وقدم بأكيدر على النبي وعليه قباء ديباج بالذهب، فأسلم أكيدر وصالحه النبي على أرضه وكتب له ولأهل دومة كتاباً نصه: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب

محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام، ولأهل دومة إن لنا الضاحية من الضحل والبور والمعامي وأغفال الأرض والحلقة والسلاح والحافر والحصن، ولكم الضامنة من النخل والمعين من العمور لا تعدل سارحتكم ولا تُعد فاردتكم ولا يحظر النبات، تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة لحقها، عليكم بذلك عهد الله والميثاق ولكم به الصدق والوفاء، شهد الله ومن حضر من المسلمين" . ثم عاد أكيدر إلى دومة، فلما مات الرسول منع أكيدر الصدقة وخرج من دومة الجندل ولحق بنواحي الحيرة وابتنى قرب عين التمر بناء وسماه دومة، وأسلم حريث بن عبد الملك أخوه على ما في يده فسلم له ذلك. وتزوج يزيد بن معاوية ابنته" .
ويستمر ياقوت بالقول " إن خالداً لما انصرف من العراق إلى الشام مر بدومة الجندل، التي غزاها أولاً وفتحها وقتل أكيدر. وقد روي أن أكيدر كان منزله أولاً بدومة الحيرة، وهي كانت منازله، وكانوا يزورون أخوالهم من كلب، وإنه لمعهم وقد خرجوا للصيد إذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق إلا حيطانها وهي مبنية بالجندل، فأعادوا بناءها، وغرسوا فيها الزيتون وغيره وسموها دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة الحيرة، وكان أكيدر يتردد بينها وبين دومة الحيرة" .

إن هذه الروايات، هي جوهر ما ذكره ياقوت عن دومة أو الجوف حالياً. ولكن يوجد بالإضافة إليها مقاطع شعرية، لشعراء يشيرون إلى هذا المكان، ولكن هذه المخطوطة الثمينة التي تخص المتحف الآسيوي في سانت بطرسبيرغ ومنها أخذت هذه المقتطفات، تحتوي على الكثير من الأخطاء والنواقص[١٢] .

إن دومة الحيرة، التي يشير إليها ياقوت بأنها البلدة الشقيقة لدومة

الأخرى، هي بكل وضوح نفس المكان، الذي ذكره بيركهارت، واقتبس منه ريتر، ويدعى دومة حير Dumathir أو دومة حور Dumathor . تقع هذه الدومة في الأرض المنخفضة والمنبسطة للعراق، وتبعد مسافة ستة أيام على الأقل عن الجوف، إن هذا المؤلف المعروف صاحب المعجزة الجغرافية(١٣)، عنده كل الحق في ترجمة الكلمة "Terra Plana" أو الأرض المنبسطة بدومة العراق ليميزها عن دومة الجندل والتي رأينا فيما سبق، أنها محاطة بالجبال من جميع جوانبها. ولكن لا يوجد سبب لهذا الجغرافي الألماني المطلع ليستنتج من هذا أن نيبور ربما عرف الجوف فقط من الجهة الجنوبية وأفترض أن هذا الجزء هو الجزء الجبلي فقط لهذه الأرض، بينما المعلومات المتأخرة، التي جاء بها بيركهارت وسيتزن ربما تشير إلى أن الجانب الشمالي هو المفترض أن يكون أرضاً منبسطة ومنخفضة.

وصف آخر لغزوة قام بها الرسول [ﷺ] ضد دومة الجندل، يوجد في تاريخ رشيد الدين (مخطوط في الجمعية الملكية الآسيوية بلندن). وجاء الوصف في هذا المخطوط كالتالي: -" عندما، في شهر ربيع الأول، وهو الشهر الخمسون من الهجرة، وصل نبأ إلى النبي بأن هناك عرباً قد اجتمعوا في دومة الجندل وهي على مسافة خمسة أيام من دمشق، وخمسة عشر يوماً من المدينة، خلف على إدارة المدينة سباعاً، وانطلق بنفسه ومعه ألف رجل ودليل يدعى مذكور من قبيلة عذرة، وكان يسري ليلاً ويستريح نهاراً. عندما وصل إلى المكان وجد البلدة خالية حيث فر سكانها تاركين وراءهم ماشيتهم وأمتعتهم غنيمة سهلة لأتباع النبي. أرسل الرجال للبحث عن السكان، وفي آخر الأمر وجدوا رجلاً منهم أحضروه إلى النبي فأفاد: أن السكان عندما علموا بقدوم القوات المهاجمة تقترب من بلدتهم، فروا جميعاً. بعد ذلك أجبروا على

الخروج من مخابئهم، والمثول أمام النبي لاعتناق الدين الجديد، بعد ذلك رجع النبي إلى المدينة في العاشر من شهر ربيع الثاني.

آخر وأهم مؤرخي العرب القدامى كوسان دي برسفال (M.Causan de Persceval)، في كتابه " L'histoire des Arabes avant l'Islamisme "، الجزء الثالث، صفحة ٤١٤، بالاعتماد على الطبري ومؤلفين عرب آخرين وصف الفتح الأخير لدومة الجندل كالتالي : " في السنة الثانية عشرة للهجرة، أرسل أبو بكر اثنين من قادته، خالد [بن الوليد] وعياض [بن غنم] لاختراق العراق وفتحه من طريقين مختلفين، فأمر عياضاً أن يتبع الطريق الصحراوي المباشر لإخضاع دومة الجندل التي تمردت. هذا القائد كان بعيداً كل البعد عن التمكن من إخضاع المتمردين وإعادتهم للطاعة، فوجد نفسه متورطاً في حصار البلدة. كتب عياض إلى خالد، الذي فتح واحتل الحيرة والأنبار، وكان حينها في عين التمر، يرجو منه القدوم لمساندته. أسرع خالد في تلبية طلب مساعدة أخيه القائد، بعد أن ترك حامية في البلدان المفتوحة، فتمكن من فتح البلدة وإخضاع السكان المتمردين. قتل خالد الأكيدر، الذي كان قد رفض مقاتلة خالد ونصح السكان بعقد سلام مع المسلمين وتسليم البلدة، وقتل كذلك حاكماً آخر للبلدة، يدعى الجودي، الذي قام بهجوم على قوات خالد، وكان يرأس الجيش الذي يتكون من محاربين ينتمون إلى البلدة وعدد كبير من القبائل المجاورة، و تم أسره في هذا الهجوم.

مؤرخون آخرون حسب برسفال، يقولون : إن أكيدر أخذ أسيراً إلى المدينة ومثل أمام النبي. بعد ذلك أطلق عمر سراحه، ونُفي إلى العراق حيث بنى دومة الحيرة.

إننا، ومع قدر كبير من الاحتمالية، يمكن أن نفترض، أن أكيدر وجد

وسيلة للفرار من الفاتحين المسلمين، أو أنه إذا ما تم أسره لم يمكث طويلاً في الأسر، وسُمح له بعد الفتح، إما بأن يرجع إلى بلدته الأصلية أو النفي إلى العراق. من بلدته الجديدة التي أسسها، ربما كان يعود إلى دومة الجندل التي كان يحتفظ ببعض النفوذ والسلطة فيها، حتى جاء الخليفة عمر، الذي في بداية خلافته، قرر أن ينفذ أمر النبي "بأن لا يُسمح لغير المسلمين ان يستوطنوا الجزيرة العربية". إن عملية طرد المسيحيين، وفتح المسلمين الأخير لدومة الجندل، هما الأمران اللذان يبدو أن السكان الحاليين يشيران إليهما حيث ينسبون إلى عمر فتح المكان. كما أنه، ومن نفس منطلق الاعتقاد السابق يقال: إن علياً [ابن أبي طالب] ساعد في عملية الفتح، فبضربة من سيفه شق الباب الحديدي لقلعة مارد، رغم أنني لا أعرف أي مؤلف عربي ذكر أن علياً شارك في أي حملة على دومة الجندل.

تخلط اعتقادات الناس هنا، موضوع الفتح الأخير لدومة الجندل، الذي تم في خلافة أبي بكر أو عمر مع الحملة التي أرسلها الرسول [ﷺ] بقيادة خالد عندما كان في تبوك. فالسكان الحاليون في الجوف وفي تبوك يخبروننا أن هذه الغزوة هي الأولى والوحيدة التي تم خلالها فتح المكان. وكما يظهر، فإن الاحتمال الأكبر، هو أن البلدة لم تُفتح في هذه الغزوة، لأن النبي خلال إقامته في تبوك استلم أيضاً رسائل من بعض البلدان المجاورة، أيلة وأذرح تقبل دفع الجزية، مقابل بقائهم على دينهم. أما غزوة السنة الخامسة للهجرة التي ذكرها تاريخ رشيد الدين، وذُكرت في تاريخ الخميس حسب ما ورد في كتاب برسفال (ص ١٢٩)، فكانت لتأديب بعض القبائل البدوية، كلب والسكون، الذين هاجموا قافلة آمنة كانت في طريقها من سورية إلى المدينة، ويظهر أنه ما عدا المسلوبات التي تم تحصيلها من السكان، لم تخلف أي نفوذ ولم يكن لها

أي تأثير على الحياة السياسية للمكان.

أما القلقشندي في كتابه "الأنساب" فيعد دومة الجندل ضمن بلاد الأسواق في الجزيرة العربية، مصرحاً بأن العرب المجاورين للمنطقة، وكذلك العرب من مناطق بعيدة، يصلون إلى هنا في اليوم الأول من شهر ربيع الأول، ويستمرون بالمتاجرة عن طريق المقايضة حتى آخر الشهر. خلال هذا الشهر يستضيفهم أكيدر حاكم البلدة، وفي بعض الأحايين تجعل قبيلة كلب نفسها سيدة للسوق، عندما يقوم بعض مشايخها برعاية العرب المشاركين.

فيما يتعلق بالدين الذي كان غالباً في الجوف قبل الإسلام، فإن السكان الحاليين مجمعون على أن الدين المسيحي كان معتقداً به هنا. ولكن هناك أحاديث نبوية أوردها ياقوت في مؤلفه الجغرافي [معجم البلدان] يشير بصورة غير مباشرة إلى أن اليهودية كان معتقداً بها هنا أيضاً. كما أنه إذا ما أخذنا في الاعتبار العلاقات والمبادلات التي تقوم بين الجوف، بحكم موقعها، وفي جميع الأزمان هي مع سورية أكثر مما هي مع غيرها من البلدان. لذلك نستطيع الافتراض، أن أي دين أوحضارة سادت في سورية عبر الأزمان، فإنها بصورة أو بأخرى تغلغلت هنا. كما يمكننا الافتراض أيضاً أن الديانتين المسيحية واليهودية قد سادتا في الجوف، وعند ظهور الإسلام، كانتا كلاهما مسموحاً بهما، كما كان الحال في معظم البلدان الشرقية. لكن الكتاب العرب يذكرون أن صنماً يسمى وَدّاً كان يعبده سكان دومة الجندل. وفي رأيي إن الصحراء لم تكن أبداً المكان المناسب لعبادة الأصنام، كما إن طبيعة البدو الحقيقيين، وطبيعة أرضهم لا تتفق مع هذا النوع من العبادة. لذلك فإنني أفترض إذا كانت عبادة الأصنام قد وجدت في أي مكان في الصحراء سابقاً، فإنها جاءت مع القبائل اليمنية التي كانت تهاجر من وقت إلى آخر من أرضها، ومع الزمن

تمكنت من احتلال نجد ومعظم شمال الجزيرة العربية . أما في اليمن ، فإن من المحتمل أن عبادة الأصنام ، جاءت من الهند التي كما يظهر أنها تمتعت بعلاقات تعامل نشطة مع الأجزاء الجنوبية للجزيرة العربية في الأزمان القديمة ، وإلى حد ما مازالت تلك العلاقات موجودة .

إن طريق الهجرة من اليمن كان يقود أولاً إلى مكة ، تلك البلدة التي تبدو لي ذات شخصية هندية أكثر مما هي شخصية عربية حقيقية ، والتي منها ينتشرون إلى الحجاز وتهامة . من مكة ينطلق هولاء بمحاذاة سلسلة المرتفعات الجبلية ، التي تمتد من سلسلة الجبال الرئيسية في اتجاه الشمال الشرقي والتي تشكل الحد الشمالي لنجد . لقد أتى هولاء تدريجياً إلى جبلي طيّء ، ومن هناك كان عليهم الاختيار بين طريقين مختلفين : أولهما يقود شمال شرق إلى الهلال الخصيب وفارس ، أما الطريق الثاني فشمال غرب ويعبر إما إلى الجوف أو تبوك إلى سورية ، مصر ، وشمال إفريقيا . أينما ذهب هؤلاء النازحون فمن المحتمل أنهم نقلوا معهم صنمهم الذي ينصبونه في الأرض التي يستقرون بها ، ليعبدوه ويتقربوا إليه . ومن غير المحتمل ، كما يبدو لي ، أنهم حاولوا جعل السكان الأصليين في البلاد التي نزلوها يعتنقون دينهم . على العكس من ذلك ، فقد كان هناك تسامح في الأمور الدينية خلال عهد الجاهلية في كل الجزيرة العربية . كما أنه من الممكن حتى الافتراض ، أن هولاء الذين نزحوا من اليمن هم الذين تبنوا عادات ولغة ودين السكان الأصليين ، لأن هؤلاء السكان يفوقونهم في الثقافة والحضارة . لقد كان ذلك هو الحال مع قبيلتي كلب وسكون اللتين سيطرتا على الجوف زمن فتح تلك البلدة . فهولاء قد عبدوا صنمهم وَدّاً لبعض الوقت ، ثم اعتنقوا المسيحية التي احتفظوا بها حتى دخولهم الإسلام على يد الفاتحين قسراً . وهكذا يمكننا الافتراض وفقاً

للاعتقادات المعاصرة وللمؤرخ العربي العظيم ابن خلدون كما اقتبس منه برسفال، أن الدين السائد في الجوف عند الفتح كان الدين المسيحي، وليس كما ذكر ريتر (الجزء ١٣، ص ٣٧٩) أن بني كلب كانوا ما يزالون يعبدون صنمهم وداً الذي كان على هيئة رجل" .

في اليوم الثلاثين من شهر أغسطس ١٨٤٥م غادر والن الجوف متوجهاً إلى حائل عبر النفود[١٤].

الهوامش:

١- حول هذه المعلومات عن حياة والن انظر :

W.R. Mead, " Georg August Wallin:the English Connection".in Georg August Wallin.**Travels in Arabia** *(1845 and 1848)*. Cambridge:The Oleander Press,1978) pp.vii-xiv.

M. Trautz, "A Forgotten Explorer of Arabia :G.A.Wallin" . in ,Ibid. pp.xxii-xli.

٢ - صدرت ترجمة عربية للرحلتين الأولى والثانية بكتاب بعنوان: **صور من شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر**. ترجمة سليم شبلي ومراجعة يوسف ابرهيم يزبك ، عام ١٩٧١ م ضمن منشورات " أوراق لبنانية "، وبعدد محدود من النسخ حتى أصبحت نادرة ، ولم تنل هذه الرحلات الهامة حظها من الانتشار. ثم صدرت طبعة ثانية من الكتاب سنة ١٩٩١م. اعتمدنا هنا على ترجمتنا الخاصة بشأن ما ورد عن الجوف موضوع هذا الكتاب . فيما يتعلق بدراسات والن المنشورة بمجلة الجمعية الألمانية للاستشراق خلال عامي ١٨٥١-١٨٥٢ فكانت تحت عنوان: "عينات لأنثولوجيا قصائد عربية معاصرة جمعت من البادية " . انظر حول هذه الدراسات : سعد العبدالله الصويان ، " أدب البدو في كتابات الرحالة والمستشرقين " (١)، **جريدة الحياة**، العدد ١٢٢٧٢ ، ١ أكتوبر ١٩٩٦ . هذا وقد قام مُعد ومحرر هذا الكتاب بزيارة إلى فنلندا صيف عام ١٩٩٨م ، بهدف الاطلاع على كافة آثار هذا الرحالة المتميز ، ووجد أن هناك كثيراً من المذكرات والمراسلات والأوراق الخاصة التي لم تنشر باللغة العربية بعد، وتحتوي على معلومات مهمة حول منطقة الجوف وغيرها من المناطق التي زارها.

حول ذلك انظر: عوض البادي، "صفحات من الاستشراق الفنلندي" ، **مجلة الفيصل**، عدد ٢٦٦، نوفمبر/ ديسمبر ١٩٩٨م.

3- David George Hogarth.**The Penetration of Arabia : Record of the Development of Western Knowledge Concerning the Arabian Peninsula**. New york:frederick A. Stokes Co, 1904. p161.

٤- النص المترجم مأخوذ من :

Georg August Wallin, " Narrative of a Journey from Cairo to Madina and Mecca, by Suez, Araba, tawila, al-Jouf, Jubbe, Hail , and Nejd,in 1845", in Georg August Wallin.**Travels in Arabia** *(1845 and 1848)*. pp.24-44.

٥ - يقصد والن هنا الرحالة نيبور Carsten Niebuhr عضو البعثة الاستكشافية الدنماركية التي أرسلها ملك الدانمارك لاستكشاف الجزيرة العربية عام ١٧٦١م ، والتي لم ينجح في العودة إلى بلاده من بين جميع أعضاء البعثة سوى نيبور الذي كانت عودته عام ١٧٦٧م. في عام ١٧٧٢م ظهر العمل الأول لنيبور عن شبه الجزيرة العربية وهو كتاب مهدى إلى ملك الدنمارك يحتوي على " وصف عام للبلاد ، من النواحي الدينية والاجتماعية والسياسية واللغوية ، وفصول عن المناطق المختلفة للجزيرة : اليمن ، حضرموت ، وعُمان ، ومناطق الخليج ، وهجر ، ونجد ، والحجاز وصحراء سيناء . ضمن المناطق التي عددها نيبور في كتابه كجزء من نجد وكتبها بالعربية " جوف السرحان " وتضم سكاكة ودومة .

حول قصة نيبور وبعثه انظر :

توركيل هانسن . من كوبنهاجن إلى صنعاء، ترجمة محمد أحمد الرعدي . بيروت : دار العودة ، ١٩٨٣م .

أما أورليخ سيتزن Ulrich Seetzen فهو مستشرق ورحالة ألماني ، عمل دبلوماسياً لروسيا . رحل إلى الشرق بمساعدة فون غوتا ناشر مجلة " الرسالة الجغرافية والفلكية " فزار مصر وبلاد الشام واتخذ القدس محطة رحلاته . تسمى باسم موسى وأعلن إسلامه فزار جدة ومكة ورسم الكعبة واتجه منها إلى اليمن حيث قتل في تعز مسموماً عام ١٨١١م . يعتبر سيتزن أول مكتشف للكتابة الحميرية . وعندما كان في القدس أرسل أحد العاملين معه عام ١٨٠٨م واسمه يوسف المالكي إلى الدرعية عن طريق الجوف . لم يتمكن المالكي من عبور النفود حسب قوله فقفل عائداً إلى فلسطين ولكنه قدم معلوماته عن الجوف التي وردت باسم " جوف السرحان " ، وتم نشر هذه المعلومات باللغة الألمانية.

انظر :

Seetzen, "Beitrage zur Geographie Arbiens ", in *Von Zach's* Monatliche Correspondeuz.*(November,1808, Vol.xviii. pp.358-383.*

حول سيتزن انظر :

David George Hogarth.pp.80-83.

٦- كتبها المؤلف " عدوان " .

٧- ورد في المعلومات التي قدمها يوسف المالكي إلى سيتزن أن جوف السرحان يضم مبنى قديماً لفت نظره . . . ، وهو يشبه المسلة ، وهو ذو ارتفاع كبير إذ يبلغ ثلاثة أضعاف أعلى مئذنة في البلدة .

انظر :

David George Hogarth. . p. 157.

٨ - المقصود هو القاموس المحيط لمحمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروزآبادي . وورد به تحت كلمة والقروط بالضم : بطون من بني كِلاَب. انظر : القاموس المحيط ، بيروت : دار الرسالة ، ص ٨٨٠. ط٤، ١٩٩٤م. وهو المقصود عند ذكر كلمة القاموس في سياق ما يكتبه والن.

٩- عالم أمريكي مختص بالآثار زار بلاد الشام عام ١٨٣٨م، وكتب كتاباً تاريخياً وجغرافياً وصف به المناطق التي زارها بعنوان " البحث عن الآثار التوراتية في فلسطين وما جاورها " تم نشره عام ١٨٤١م.

١٠- كتب المؤلف اسم العين باللغة الإنجليزية Ghanama وهذا الاسم لا يتسق مع الأسماء السائدة، وغير معروف . ولكن بالرجوع إلى أوراق الرحالة الأصلية، المكتوبة بالعربية، وجدنا أن اسم العين «غنمة» وأضاف إليها عين حداج وعين بحرة ظهرا.

١١- يقصد القول الشائع : تمرد مارد وعز الأبلق.

١٢- اعتمد والن على مخطوطة معجم البلدان قبل تحقيقها ونشرها . وهي الآن محققة ومنشورة في عدة طبعات ويمكن الرجوع إلى المعجم مباشرة. حول دومة الجندل الذي أورده والن معتمداً على المخطوطة انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان . تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي . بيروت : دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م، الجزء الثاني ، ص ٥٥٤ -٥٥٦. وبدلاً من ترجمة ما قاله والن نقلاً عن ياقوت ، فقد نقلنا النص مباشرة من المعجم.

١٣- يقصد والن هنا العمل الجغرافي العظيم لكارل ريتر Carl Ritter، العالم الألماني وأحد مؤسسي علم الجغرافيا الحديث، وهي موسوعة : " علم الأرض وعلاقته بالطبيعة وتاريخ الإنسان "

"Die Erdkunde im Verhaltniss zur Natur und zur Geschte des Menschen "

والتي بدأ ريتر بنشرها من عام ١٨٢٢ م وحتى وفاته ١٨٥٩م قبل إكمالها، ولكن ما نشره منها بلغ ١٩ جزءاً بما مجموعه عشرون ألف صفحة.

١٤- انظر ما أورده والن عن بقية رحلته إلى حائل في كتاب: الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية: منطقة حائل، الجزء الأول، إعداد وتحرير عوض البادي، الرياض: دار بلاد العرب، ٢٠٠٢م.

رحلة

جيفورد بلغريف

١٨٦٢م / ١٢٧٨هـ



بلغريف (باللباس العربي)

وليام جيفورد بلغريف

William Gifford Palgrave

ولد وليام بلغريف عام ١٨٢٦م لأب يهودي، يدعى فرانسيس كوهين وأم مسيحية تدعى اليزابيث داوسون تيرنر. غير الأب اسم العائلة كوهين إلى اسم عائلة والدة زوجته فأصبح يُعرف باسم فرانسيس بلغريف، وتخلى عن ديانته اليهودية إلى المسيحية البروتستانتية. كان فرانسيس يعمل في مجال الكتابة وكان مهتماً بجمع وثائق وسجلات البرلمان البريطاني وفهرستها ثم أسسَ مكتب السجلات العام (Public Record Oficee) وهو بمثابة الأرشيف العام للدولة، فاشتهر وأعطي درجة فارس بلقب سير.

تلقى بلغريف الابن تعليمه الجامعي في كلية ترنتي، بجامعة أكسفورد الشهيرة، وتخرج فيها بتفوق. ثم التحق بعد تخرجه بالجيش البريطاني بالهند عام ١٨٤٧م. في الهند، تحول بلغريف عن مسيحية والديه البروتستانتية إلى المسيحية الكاثوليكية، واستقال من الجيش، وقرر أن يكون راهباً فانضم إلى جماعة يسوع. عاد بلغريف إلى أوروبا ليدرس علم اللاهوت في كلية رومانو عام ١٨٥٣م، وبقي فيها حتى عام ١٨٥٧م، عندما انتقل إلى لبنان ليقوم بالأعمال التبشيرية لصالح جماعته الدينية التي أقامت لها مقراً في بلدة بكفيا لتمارس أعمالها في لبنان، والمناطق المجاورة. وبدأ بعد ذلك بالسفر إلى مناطق جبال لبنان وسهول حوران في سورية داعياً لدينه بين العرب، ولم تنته

سنة ١٨٥٧م حتى أصبح المسؤول الأول عن البعثات التبشيرية، التي تنطلق من لبنان، ومسؤولاً أيضاً عن المدارس التي أسستها جماعته في لبنان. وكان بلغريف يتسمى في لبنان باسم مايكل كوهين.

لم تستمر أعماله بلبنان كثيراً، فقد اندلعت حرب أهلية في عام ١٨٦٠م اضطرت جماعته مع بعثاتهم التبشيرية إلى مغادرة لبنان. وتوجه بعد مغادرته لبنان إلى بريطانيا وإيرلندا، وبدأ سلسلة من المحاضرات عن الأعمال التبشيرية في الشرق. ثم ذهب إلى فرنسا، حيث التحق بالكلية الجزويتية في ليسيه. عرض بلغريف على المدير المشرف عليه في الكلية بيير سيبستين فويلوت فكرة العمل على تحويل سكان المناطق غير المعروفة في شمال الجزيرة العربية إلى الديانة المسيحية. استقبل مديره الفكرة بحماس، وعرضها على الحكومة الفرنسية، التي رحبت بها، ورتبت مقابلة رسمية بين نابليون الثالث وبينه، عرض خلالها فكرته على نابليون الثالث، موضحاً أهميتها من الناحية السياسية، فالوجود المسيحي في شمال الجزيرة سيسهل على فرنسا إيجاد موطئ قدم لها في بلاد العرب الشرقية. لاقى المشروع اهتمام الإمبراطور، الذي تجاوبت الفكرة مع طموحاته السياسية في الشرق العربي، فقبل تمويل الرحلة ومنح بلغريف مبلغ ستة آلاف فرنك لتحقيق غرضه.

بدأ بعد ذلك رحلته عن طريق القاهرة، حيث كما يقول قام بمهمة سياسية كلفه إياها نابليون الثالث. ثم انتقل بعد أداء مهمته في القاهرة إلى بيروت، حيث اختار رفيقاً يونانياً من زحلة، اسمه جيرجيري لمرافقته في رحلته إلى الجزيرة العربية.

تسمى بلغريف باسم سليم أبو محمود إلياس وتسمى رفيقه باسم بركات

الشامي مدعياً كلاهما، أنهم أطباء من سورية [1].

انطلق بلغريف ورفيقه من بيروت إلى حيفا، فغزة، ومن غزة إلى معان، التي وصل إليها يوم ١٦/ ٦ / ١٨٦٢م. من معان، التي قال بلغريف عندما وصل إليها " إما أن تكون هذه الأرض قبراً لنا، أو نعبرها من أولها إلى آخرها"، بدأ عبور الجزيرة العربية، فزار الجوف، حائل، بريدة، الرياض، الهفوف، القطيف، البحرين، قطر، وعُمان. واستمرت الرحلة ما يقارب العام.

توج بلغريف هذه الرحلة، بكتاب من جزأين ، تحت عنوان "قصة رحلة عام، عبرَ وسط وشرق الجزيرة العربية" (١٨٦٢/ ١٨٦٣م)، تم نشره عام ١٨٦٥م. استقبل الكتاب عند صدوره بكل اهتمام وتقدير، واعتبر أعظم عمل تم وضعه عن شبه الجزيرة العربية، فتُرجم إلى اللغة الفرنسية بعد عام من نشره باللغة الإنجليزية، ثم تُرجم إلى اللغة الألمانية. ومنحته الجمعية الجغرافية الفرنسية وساماً، لأنه شرف المنحة التي منحه إياها نابليون الثالث.

شكك بعض الرحالة في حقيقة المعلومات التي أوردها في كتابه، وشكك آخرون بحقيقة قيامه بالرحلة نفسها واعتبروها من نسج خياله، إلا أن كل ذلك لم يغير من حقيقة الأهمية التي نالتها قصته، واعتماد الغرب في مرحلة من مراحل اهتمامه بالجزيرة العربية عليها، وعلى ما جاء بها من معلومات. ويمكن اعتبار رحلة بلغريف الأشهر بين جميع رحلات من ارتادوا جزيرة العرب من الغربيين، ولم ينل أحد منهم ما ناله بلغريف من نقاش واهتمام، وعُد كتابه من أمهات أدب الرحلات [2].

تخلى بلغريف بعد الانتهاء من رحلته عن رهبانيته، وعن مذهبه

الكاثوليكي، ودخل العمل الدبلوماسي في وزارة الخارجية البريطانية، وتنقل في عدة بلدان حتى انتهى وزيراً مفوضاً في منتفيديو عاصمة جمهورية أورجواي في أمريكا الجنوبية، وتوفي عام ١٨٨٨م.

فيما يتعلق بما أورده بلغريف عن منطقة الجوف التي زارها في بداية رحلته عبر الجزيرة العربية، فنترك له التحدث مباشرة عنها [٣]:

" واد عميق يميل إلى الانخفاض، مرحلة بعد أخرى حتى يصل إلى نهاية عميقة تحجبها عن النظر سلسلة جبلية شاهقة، تتعرج بألوانها المحمرة، والمنظر عبر هذا الوادي وحتى نهايته تظلله بساتين النخيل، وأشجار الفاكهة، التي تحمل عناقيد ثمارها، كما يظللها لون أسود ضارب إلى الاخضرار على مدى انحناءات الوادي، وثمة مبنى غير منتظم، يلوح ككتلة سمراء على قمة جبل في المنطقة الوسطى، ووراءه قلعة طويلة منفردة، تطل على الجانب الآخر من الوادي. وإلى الأسفل قليلاً تلوح أبراج صغيرة دائرية ورؤوس منازل مسطحة، تختفي وتظهر بين أوراق أشجار البساتين، وكأن الوادي يغتسل في تيار عمودي من الضوء والحرارة. كان هذا هو أول منظر لمدينة الجوف، عندما اقتربنا منها، من جهة الغرب. لقد كان منظراً خلاباً، بدا لنا بعد رحلة طويلة بدأناها من غزة و فلسطين إلى مشارف المواطن المأهولة في شبه الجزيرة العربية. وكانت رحلتنا عبر صحراء موحشة طويلة، امتدت على وتيرة واحدة، فكانت الجوف أشبه بجنة لا يدخلها أحد إلا بعد أن يجتاز نار الصحراء، مثلما قال شاعر عربي يصور منطقة شبيهة بالجزائر.

جدد هذا المنظر حيويتنا، فدفعنا بجمالنا المنهوكة فواصلت سيرها، فاجتزنا المنحنى المتدرج للوادي، وما كدنا نجتازه، حتى أقبل اثنان من الخيالة يرتديان فاخر الثياب ومدججين بالسلاح، على غرار ما عرفت تلك المناطق من أزياء،

حيث رحبا بصوت عال بكلمة "مرحبًا" وبدون مقدمات قالا: "ترجلوا وكلوا"، ونزلا من على حصانيهما الضامرين، وحلا رباط حقيبة جلدية مليئة بأفخر أنواع التمور، وأحضرا قربة ماء مليئة من ماء ينبوع جار ووضعا كل ذلك على الصخر وقالا: "لقد كنا على يقين من أنكم جائعون وظماء ولذلك جئنا مستعدين لحاجتكم"، فدعوا مرة أخرى للجلوس والأكل.

بالفعل كنا ظماء وجائعين، وكان التمر المقدم لنا من إنتاج الجوف، وأفضل ما يمكن أن تجده في شمال الجزيرة العربية، أما الماء فقد بدا صافياً وعذباً وبارداً، لا يحتاج لتزكية بعد ماء آبار "ميقوع" و"أويسط"، ولم يكن هناك داع للتردد وجعل مضيفينا يعيدان الدعوة. وشرعنا فوراً في تناول الوجبة التي أمامنا تاركين المستقبل للعناية الإلهية ولما تجيء به الأيام. و بدأت باغتنام الفرصة لدراسة المظهر الخارجي لمضيفينا.

كان أكبرهما في حوالي الأربعين من العمر، طويلاً وقوي البنية، وكان لونه يميل إلى السمرة، ويعطي الإحساس بعدم الثقة، وفيه شيء من غطرسة مكتسبة، وملامح من الذكاء، ويرتدي ملابس فاخرة بالمقياس العربي. وكان يلبس صدرية بأكمام طويلة، تتدلى فوق ثوبه الأبيض الطويل، وعلى رأسه منديل حرير بخطوط حمراء وصفراء، وعلى جانبه سيف بمقبض فضي. وباختصار كل ما ظهر فيه دل على أنه رجل ثري، وذو مكانة، وكان هذا الرجل هو غافل الحبوب شيخ عائلة مهمة، ومتمردة في الجوف، تعرف ببيت الحبوب. كانت هذه العائلة وحتى عهد قريب تحكم، ولكنها الآن مثل سائر أفراد رعاياها، خاضعون لسلطة حمود [العقلا]، نائب الأمير طلال بن رشيد حاكم جبل شمر. أما رفيقه فقد كان اسمه ضافي وهو أصغر منه سناً، وأقل منه في تكوينه الجسماني، وأقل منه في مستوى الملابس، ولكنه مثله، يحمل

السيف ذا المقبض الفضي ذاته، والذي عادة ما يحمله في الجزيرة العربية أبناء الأسر المعروفة. كان ضافي أيضًا يحمل اسم حبوب ولكن ملامحه تنم عن شخصية أكثر انفتاحاً ومرونة بالمقارنة بشخصية شيخه الذي يبدو أنه ابن لعمه الرابع أو الخامس.

بعد أن تناولنا الوجبة، ظللنا مكاننا لفترة، وأجبنا على بعض الأسئلة. ولما كنا نعلم أن الحاكم حموداً يقيم في بلدة الجوف، فقد اقترحنا على غافل أن نزوره عند دخولنا البلدة، ولكن الشيخ غافلاً، لم يحبذ ذلك لعدة أسباب سيعلم بها القارئ فيما بعد، وقال إننا ضيوفه هو شخصياً، ولذلك أصبح من حقه أن نزوره هو أولاً، أما حمود فيمكن أن نزوره فيما بعد وفي صحبته هو، وهذا يتيح وقتا مناسباً ليوم أو يومين لإجراء الترتيبات اللازمة. كما أن ظهوره معنا في مثل هذه المناسبة يمثل ضماناً لرضا الحاكم.

وأضاف ضافي أن بيته هو الأقرب، وأنه يعتبر نفسه مضيفنا لأنه جاء خصيصاً لاستقبالنا، وله نفس الحق، الذي للشيخ غافل في استضافتنا. على أية حال في النهاية تنازل ضافي لقريبه الشيخ، وامتثل لأمره لأنه أكبر منه مكانة وأعلى سلطة. تحركنا جميعاً نسير ببطء، وعندما كدنا نهبط إلى بطن الوادي، وكادت تغطينا بساتين النخيل بظلالها، أعرب ضافي عن أسفه لأننا نمر بداره دون أن ننعم بشيء من ضيافته. وبعد أن وجه لنا دعوة، على أن تتم في أقرب وقت، اختفى بين جدران البساتين العالية، ولكنه وهو يفارقنا رمق غافلاً بنظرة لها معنى، ورمقنا نحن أيضاً بنظرة لم نفهم جيداً حتى الآن معناها.

واصلنا السير في صحبة مضيفنا الجديد، الذي ظل يردد طول الرحلة ترحابه بنا، واستعداده لتقديم أي مساعدة تخطر على بالنا. تركنا تلة القلعة

والبرج إلى يميننا ودخلنا من بستان إلى بستان، ومن حديقة إلى حديقة حتى وصلنا إلى بوابة عالية، انفرجت عن تجمع لمساكن قامت حول ميدان مفتوح اصطفت فيه مقاعد من الطين المقوى بالحجارة، بجوار جدران البيوت هنا وهناك. وهذا الميدان يمثل مكان الانتظار للضيوف، الذين لم يتم بعد إدخالهم الدار. وهذا مما يدل على هيبة المنازل المجاورة له، وبالتالي يكشف عن مكانة ساكنيها. وعند مدخل عال الارتفاع يسمح بمرور الجمل ومن عليه، توقف غافل ثم ترجل وغاب لفترة قصيرة ليتأكد من أن كل شيء معد لاستقبالنا، وعاد مهرولاً ليقول: "تفضلوا" وقادنا إلى داخل المسكن. اجتزنا مدخلاً آخر، ووجدنا أنفسنا في فناء صغير تكونت جوانبه الثلاثة من شقق مختلفة وجانبه الرابع كان إسطبلاً للخيول والجمال، وفي الواجهة ارتفع جدار عال، عليه نوافذ صغيرة كثيرة من تحت السقف، وفي النصف يبرز باب كبير يؤدي إلى مكان القهوة كما ينطقونها هنا، أو إذا أردت غرفة الاستقبال. ولما كانت النساء لايدخلن لهذه الغرفة بتاتًا، فلا أستطيع أن أسميها بارتياح: غرفة استقبال الضيوف.

وصف واحدة من هذه الغرف، يمكن أن يكون كافياً رغم وجود اختلاف بسيط في بيوت القهوة في شبه الجزيرة العربية. إن وجود هذه الغرفة يعد شيئاً مهماً بالنسبة لكل بيت محترم في شبه الجزيرة، من أولها إلى آخرها، والاختلاف فيما بينها في كل مكان، هو اختلاف بسيط. فهي إما أن تكون كبيرة أو صغيرة، في حالة حسنة أو سيئة، مفروشة أو خلاف ذلك. وتتحكم في ذلك ظروف المالك، ولهذا السبب سأسمح لنفسي بوصف غرفة القهوة التي يملكها الشيخ غافل، لأنها يمكن أن تقف نموذجاً لآلاف الغرف الأخرى.

كانت غرفة القهوة في منزل الشيخ غافل عبارة عن بناء مستطيل كبير،

بارتفاع عشرين قدماً، وخمسين قدمًا في الطول، وستة عشر قدماً تقريبًا في العرض، وكانت الجدران ملونة بطريقة غير متناسقة، باللون البني والأبيض، مع وجود تجاويف في الجدران، هنا وهناك، تصلح للاستعمال كمكتبة. ولم يكن لدى غافل الكثير من المصابيح والأشياء المشابهة. كان سقف الغرفة من الخشب ومسطحاً والأرضية مفروشة بالرمل، ومزينة بقطع طويلة من السجاد وعليه نشرت الوسائد المغطاة بالحرير الباهت. وفي بيوت الفقراء، تفرش الأرض بنوع من البساط الخشن بديلاً عن السجاد. وفي الزاوية وبالتحديد الزاوية التي تبعد عن الباب يطل موقد النار وهو صغير، أو على وجه الدقة هو فرن مبني من حجارة الجرانيت، على شكل مربع كبير وهو إما من الطوب أو حجارة بطول عشرين بوصة لكل بعد من أبعادها. وهو مجوف من الداخل، وله فتحة في رأسه وأشبه بالمدخنة، ومن الأسفل بها أنبوب أفقي يسمح بمرور الهواء ليحرك الكير، الذي يزيد من اشتعال الحطب الموجود داخل الفرن المخروطي الشكل. وبهذه الكيفية يتحول الفحم إلى لهب أبيض، ويوضع إناء القهوة على الفتحة ليغلي الماء بسرعة. إن أفران القهوة في الجوف وجبل شمر تعتبر متقدمة، بينما في نجد وفي مناطق أخرى جنوبًا وشرقاً والتي زرتها، موقد القهوة يستبدل بمكان مفتوح للنار عبارة عن حفرة في الأرضية لها جوانب مرتفعة قليلاً تبنى بالحجارة، ولها شبك للوقود، مثل ما هو موجود في إسبانيا. وهذا الخلاف في أشكال مواقد القهوة في شبه الجزيرة العربية، يعزى إلى وفرة الوقود في الجنوب مما يمكن الناس من استعمال الوقود كيفما شاؤوا، بينما خشب الوقود في الجوف وجبل شمر نادر، والوقود المتاح من النوع الرديء يُستورد من أمكنة بعيدة، ولايستهلك إلا بحذر شديد.

إن ركن الموقد في غرفة القهوة يعتبر مكاناً متميزاً، فالقهوة والمكانة الرفيعة

يتألفان في هذا المكان، حيث يجلس صاحب البيت شخصياً، أو الضيوف الذين يسره إكرامهم وتشريفهم.

حول مواقد القهوة تصطف أرتال من الآنية النحاسية ذوات الأشكال والأحجام المختلفة. وهنا في الجوف تتشابه الآنية الخاصة بالقهوة، مع تلك التي في دمشق، أما في نجد، وفي المنطقة الشرقية، فتختلف أواني القهوة، وتتعدد أنماط الزخرفة والتصميم، فهي طويلة ورشيقة، تحمل دوائر مختلفة من الزخرفة، وتصنع في قوالب تمنحها الشكل الرشيق بجانب احتوائها على صنابير طويلة، يحاكي فمها منقار الطائر، ولها مشاجب للغطاء. وعدد هذه الأواني غالباً ما يكون مبالغاً فيه، وهو كبير. لقد رأيت اثنتي عشرة منها حول الموقد بينما صنع القهوة لايحتاج لأكثر من ثلاثة على الأكثر. وهنا في الجوف خمسة أو ستة منها هي المطلوبة. وفي الجنوب يضاعف عدد آنية القهوة أو أباريقها وكل هذا إشارة إلى ثراء ومكانة أصحابها، ودليل تردد الضيوف عليهم، لكرمه وكثرة القهوة التي تقدم في مجالسهم.

يجلس بشكل دائم في المنازل المترفة خلف موقد القهوة، رجل أسود ودائماً يكون اسمه مصغراً دليلاً على الألفة أو العاطفة. وفي هذه الحالة التي نحن بصددها كان اسمه سويلم وهو تصغير لاسم سالم، الذي وظيفته صنع القهوة وصبها للضيوف. وعندما لا يكون لدى الأسرة خادم يقوم بذلك العمل ربُّ البيت أو أحد أبنائه، وعملية صنع القهوة كما سنرى لاحقاً عمل شاق.

عند دخول عتبة القهوة يستحسن قول "بسم الله" لأن عدم البسملة يعتبر فألاً سيئاً للداخلين والجالسين. ثم يتقدم الزائر بصمت حتى يتوسط غرفة القهوة، فينطق بالتحية "السلام عليكم" وهو ينظر إلى جميع الحاضرين مع

التركيز الخاص على صاحب الدار. ويتم كل هذا بينما يبقى كل الحاضرين في مواقعهم بلا إشارة أو إيماءة أو كلمة. عند سماع التحية، يقف رب البيت مُرحباً. وإذا كان وهابياً متديناً، فعليه أن يجيب بالكامل قائلاً: "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته". أما إذا كان غير وهابي أو مناهضاً للوهابية فيقول: مرحبًا أو أهلاً وسهلاً أو غيرها من كلمات الترحيب والسرور باللقاء، وهناك مجموعة لاحصر لها من كلمات الترحيب. ثم يقوم كل الحاضرين ويردون على التحية. ويتجه الضيف إلى صاحب البيت، الذي يكون واقفاً وقد تقدم خطوات لمقابلة ضيفه ويضع الضيف كفه في كف صاحب البيت محيياً دون أن يهزها أو يلقفها بشدة. وبعد كل التحايا تتبع كلمات المجاملة مثل: كيف الحال ؟ وكيف دنياك، وكلها تقال بطريقة تظهر الاهتمام، وتردد لثلاث أو أربع مرات، إلى أن يقول أحدهما الحمد لله، وهي هنا تعني "حسناً"، وبهذا ينتهي مسلسل التحايا. وبعد ذلك قليل من المجاملة، ثم يجلس الضيف في مكانه مكرماً حول نار القهوة، بعد أن يكون قد حيًّا العبد الأسود، وأقرب جالس منه بالجانب الآخر. ويكون مكان الضيف قد جُهز بأفضل الوسائد وأجمل السجاد وبما يليق بمكانته الرفيعة. وتخلع الأحذية وتوضع على الرمل أمام السجاد. في شبه الجزيرة العربية، الصنادل هي المستعملة بكثرة، وتظل الصنادل في مكانها في متناول اليد. ولكن العصا التي يهش بها العربي على جمله التي تعتبر الرفيق الملازم للعربي بدوياً كان أم حضرياً، غنياً كان أم فقيراً، مهذباً أم غير مهذب، لابد أن تكون في اليد، وفي كل مكان معه. ويناجيها العربي عندما يسود الصمت الجالسين تمامًا، مثل المراوح اليدوية التي كانت تستعملها جداتنا أيام مجدهن.

بدون تأخير، بدأ سويلم بإعداد القهوة. يبدأ الإعداد للقهوة بالنفخ على

الكير لتشب النار في الفحم، وعندما يزداد احمرار الفحم، يضع عليها إناء القهوة الكبير مملوءً إلى ثلثيه، ويضع الإناء عادة بجانب لهب النار، حتى يغلي بالتدريج متيحًا فرصة لتحضير اللوازم الأخرى. بعد ذلك تناول سويلم خرقة متسخة من ثقب في الجدار، وبعد حلها أخذ منها البن بمقدار ثلاث قبضات من اليد ووضعها في صحن، وبدأ بتلقيط أي حبوب مسودة أو تالفة أو غريبة يمكن أن تدخل على البن عندما يباع بالجملة في شكل سائب غير معبأ. وتستمر عملية التصفية والتنقية هذه بعناية كبيرة حتى تتم النظافة فتوضع حبوب البن النظيفة في مغرفة حديدية كبيرة مفتوحة، ثم تقرب المغرفة من فوهة موقد القهوة، بينما صانع القهوة ينفخ الكير ويقلب حبات القهوة بلطف حتى يحدث البن طقطقة ويحمر لونه، ويتصاعد منه الدخان قليلاً، ويبعد الصانع المغرفة عن النار بعناية إلى أن تسودَّ حبيبات البن على غرار الطريقة الخاطئة التي تتبعها تركية وأوروبا. وبعد ذلك يترك البن ليبرد لفترة على طبق كبير من القش. ويضع إناء القهوة الكبير المملوء بالماء على النار حتى يغلي ويكون جاهزاً، ويضم رجليه العاريتين ويضع عليهما الهاون (النجر) المصنوع من الحجر، والذي له فتحه في منتصفه تسمح بمرور مدقة من الحجر في طول قدم وسمك بوصة ونصف، ويمسك بها بيده، ويبدأ بصب البن، الذي تم تحميصه في الهاون، ثم تبدأ عملية سحق حبيبات البن بمهارة ومثابرة منتظمة حتى تتم عملية تحويل الحبيبات إلى أجزاء صغيرة، ولكن ليست مسحوقة ناعماً، ثم تغرف الحبيبات التي تحولت إلى مادة محمرة خشنة ولكنها ليست شبيهة بتلك التي تصنع في بعض الأقطار بطريقة خاطئة فتدخل رماد الفحم في القهوة، بعد أن تحرق النكهة الحقيقية للبن. وبعد كل هذه العمليات الدقيقة المتعددة التي تنجز باهتمام وجدية فائقة، كأنما رفاهية الجوف كلها تتوقف على

هذه العمليات. ثم يأخذ صانع القهوة إناء صغيراً ويملؤه إلى أكثر من نصفه بالماء الساخن، من الإناء الكبير، ويضع فيه البن المسحوق ويرجها ويضعها على النار لتغلي ويحركها بعصاة ليضمن اختلاطها وعدم انسيابها خارج الإناء، والغليان هنا، يجب أن يكون خفيفاً. وأثناء هذه العملية يأخذ من خرقة قماش أخرى حب الهال، و هو منتج هندي ثم يطحنه برفق حتى يكسب القهوة نكهة طيبة، ويضيف أيضاً الزعفران. هذه البهارات تعتبر في شبه الجزيرة العربية مهمة جداً ولا غنى عنها، بينما في بعض أقاليم الشرق لا يُهتم بها كثيراً. أما السكر فبدعة لم يسمع بها في هذا المجال. ثم أخيراً يقوم بتصفية القهوة بصبها خلال ألياف دقيقة في فم الإناء، وتعمل كمصفاة. وتجهز الصينية وفناجين القهوة. وجميع هذه التجهيزات استغرقت نصف ساعة.

في تلك الأثناء دخلنا في مناقشات مع مضيفنا وأصدقائه ولكن مرشدنا الشراري، سليمان، كبدوي حقيقي، لم ترقه فكرة الجلوس مع علية القوم من الحضر، فافترش الرمل أمام مدخل دار الضيافة، بالرغم من تكرار الدعوة له ليشارك معنا. كانت الجلسة تضم الكثير من أقرباء غافل بمقابض سيوفهم الفضية، التي تشير إلى أهمية العائلة. وقد جاء آخرون لمقابلتنا، لأن وصولنا عُرف سلفًا، من خلال الناس الذين التقونا في مدخل الحي. وكان حضورنا حدثًا مهمًا بالمدينة بالنسبة لهم. وتدل ملابس بعض هؤلاء الناس على الفقر، وبعضهم في حالة أفضل ولكنهم كلهم مهذبون، وعلى قدر من اللباقة.

أثيرت مجموعة من الأسئلة حول: من نحن؟ وعن بلادنا، والمدن التي أتينا منها وعن سورية ودمشق. كانت أجوبتنا في انسجام تام، مع ما قمنا به من تنكر، كان علينا أن نحافظ عليه. ثم توالت أسئلة عن رحلتنا، وما نقوم به

من عمل، وماذا أحضرنا معنا، وعن الأدوية التي نحمل معنا، والبضائع والملابس التي معنا؟ . . . إلخ . . وكان علينا منذ البداية، أن نتوقع تجمع المشترين والمرضى حولنا. فمن النادر أن يكون في الجوف زوار في هذا الوقت من العام لأن زيارة الجوف في هذا الفصل من السنة ضرب من ضروب الجنون، أو شيء أقرب إليه أن نعبر الصحراء في هذا الجو الملتهب لنزور الجوف في شهري يونيو ويوليو، وأنا بصفة خاصة لا أرغب في تكرار هذه التجربة مرة أخرى. ولم يكن هناك احتمال لوجود منافسة قوية لما نحمل لسوق الجوف، فالسوق كان في أيدينا.

قبل مضي نصف ساعة من وصولنا، وبينما كان سويلم ما زال منهمكًا في إعداد قهوتنا، دخل علينا شاب طويل نحيل، عرفنا أنه الأبن الأكبر لغافل، وكان يحمل حصيرة كبيرة مستديرة مصنوعة من سعف النخيل، مثل بقية الحصائر التي رأينا، وضع الحصيرة أمامنا برفق، وأتى بإناء من الخشب مليء بالتمر، وعلى رأس التمر إناء مملوء بالزبدة السائحة. وضع كل هذا أمامنا على الحصيرة الدائرية، وقال: سموا! أي اذكروا اسم الله، والمعنى المفهوم لهذه العبارة: ابدؤوا بالأكل. قام صاحب الدار من جوار القهوة وجلس قبالتنا على الرمل، واقتربنا من الطبق، واقترب آخرون بعد أن أظهروا روحاً من الترفع والأناة، والتقط كل واحد تمرة أو اثنتين وغمسها في الزبد، وأكل كل واحد منا حتى شبع ونهض ليغسل يديه.

وفي هذه اللحظة، كانت القهوة جاهزة. وبدأ سويلم بتوزيعها. كانت دلة القهوة في شماله وفي يمناه صحن به فناجيلها. وبدأ على حسب الطريقة المرعية بشرب الفنجان الأول كإشارة إلى أن كل شيء على مايرام، وليس في الأمر تسمم، ثم يخدم الضيوف ويختم بصاحب الدار. ورفض القهوة، هنا يعتبر إساءة لا

تُغتفر. وعلى أية حال كمية القهوة التي يترتب على الإنسان شربها بسيطة لأن الفنجان الذي في حجم البيضة، لا يُملأ إلى آخره بل منتصفه فقط. وهذا يعتبر عاملاً تربوياً، فالذي يملأ الفنجان إلى آخره هنا يعتبر تماماً مخالفاً لمن يقوم بنفس العمل في أوروبا. وهذا ما لا أفهمه أنا، مالم يكن الأمر يتعلق بعدم وجود طاولات يستند عليها الفنجان، أو شيء مماثل لها، وهذا هو التقليد في شبه الجزيرة العربية. ولكن هذه التقاليد تبدو في مصر وسورية عالمية فالفنجان الممتلىء ربما يكون ساخناً بشكل يؤذي أصابع من يحمله بدون وسيلة تحميه من السخونة. وعلى أية حال فالمثل البدوي يقول: املأ فنجان عدوك إلى آخره، وهذا المثل شائع أيضًا بين الحضر في شبه الجزيرة العربية. ومشروب القهوة ذو رائحة قوية ومنعشة، وهو شراب مقوّ ومنشط. وعندما يقدم لك عبد أو سيد فنجاناً يقول (سم) اي اذكر اسم الله، وأنت لا تأخذه إلا قائلاً (بسم الله). وعندما يتناول الجميع القهوة، تبدأ دورة جديدة. وهذه المرة تبدأ بصاحب الدار ثم الضيوف. وفي مناسبات خاصة، كاستقبال للمرة الأولى يقدم هذا المشروب المحمر اللون ثلاث مرات، وربما أربع مرات. ولكن كل هذه مجتمعة لا تساوى ربع ما يشربه الأوروبي في وجبة الإفطار.

كان غافل يتمنى أن نفتح دكاناً في منزله، نبيع فيه الأدوية التي جلبناها معنا، وليس لديه في ذلك من سبب، سوى أن مخزونه من القهوة قد أوشك على النفاد. وبالنسبة له فإنه كان يطمع في أن يساومنا بطريقه مجزية له، لشراء كل ماجلبناه من القهوة. كنت وزملائي نشعر بأننا نحتاج للانفراد ببعضنا، الأمر الذي لم يحدث منذ أن وصلنا إلى الجوف، ولدينا الكثير من الأشياء التي نريد التشاور حولها، ولايصح أن يتم هذا أمام مضيفنا وأهله وأصدقائه. فأنا بصفتي صحفي كنت أحتاج بعض الوقت للكتابة. ولهذا

السبب، والأسباب الأخرى المشابهة، لم نجد وقتاً لها منذ أن غادرنا معان في السادس عشر وإلى الثلاثين من يونيو ١٨٦٢م، فكل أحاديثنا كانت في العلن، ولم نجد الفرصة في ضيافة رجل، وتحت سقف واحد معه، وفي بيته، أن نقوم بدراسة الأرض التي زرناها ومعرفة سكانها. ولهذا السبب لم نستجب لإلحاح الشيخ مضيفنا بكل الطرق المقبولة، في أن نبقى معه، وطالبنا بسكن مستقل. ومع إصرارنا، رضخ غافل أخيراً لطلبنا واضطر للاستجابة ووعد بالبحث لنا عن مسكن مناسب في اليوم التالي.

أمضينا ما تبقى من العصر في الراحة، وعند مغيب الشمس دعانا مضيفنا لزيارة بساتينه في ذلك المساء البارد.

وسأغتنم هذه الفرصة الآن، وأعطي قرائي فكرة عامة عن الجوف، وهذا سيساعد في فهم ما سأرويه لهم، وفي الوقت نفسه أروي عنها أشياء كثيرة جديدة على قرائي، وأحسب أن ذلك سيكون جديداً على أكبر عدد منهم.

إن هذا الإقليم أشبه بواحة، وهو عبارة عن منخفض كبير بيضوي الشكل بطول ستين أو سبعين ميلاً وعرض عشرة أميال أو أحد عشر ميلاً يقع بين الصحراء الشمالية التي تفصل الإقليم عن سورية ونهر الفرات، والنفود الجنوبية، أو الفراغ الصحراوي، الذي يربط بينها وبين الهضبة العربية الوسطى، التي تبدأ بجبل شمر. على أية حال، إذا قارنا أقصى امتداده من أوله إلى آخره، وتأملنا طقسه ومتجاته فإنه ينتمي بشكل كبير إلى الإقليم الشمالي والأوسط لشبه الجزيرة العربية وهو أشبه ما يكون ببوابة أو مدخل لهما.

وإذا رسمنا مثلثاً متساوي الأضلاع وكانت قاعدته من دمشق إلى بغداد فستكون الجوف تماماً على رأس هذا المثلث، وستكون المسافات من دمشق

وبغداد إلى الجوف تقريباً متساوية. وفي الاتجاه المعاكس ستكون المسافة إلى المدينة والزلفي أيضًا شبه متساوية. والزلفي هي المدخل التجاري لنجد الشرقية.

يقع جبل شمر في اتجاه الجنوب، وهو أكثر قربًا إلى الأماكن المحددة أعلاه. ويعزى اسم الجوف جزئياً إلى هذا الموقع الوسط وإلى شكلها الذي تكون بفعل عوامل التعرية. فكلمة الجوف تعني البطن أو الأحشاء أو الممر الضيق وهناك تطابق بين الاسم والمسمى.

الجوف، هي المدينة الرئيسية في هذا الإقليم، الذي يتكون من عدة قرى صغيرة. وبالرغم من ذلك، فهي تحمل اسم كل الإقليم. تتكون هذه البلدة من ثمانية قرى كانت ذات يوم محددة ومعروفة، ولكن بمرور الوقت تحولت إلى بلدة واحدة وأصبحت مركز الحركة التجارية، تعرف باسم الجوف.

وفي سوق الجوف، يسود اسم عائلة الحبوب التي نسكن الآن معها، والتي تشمل مساكنها القلعة الوسطى، التي ورد اسمها من قبل، وعدد من المنازل يصل إلى أربعمائة منزل. والأحياء الأخرى بعضها كبير والبعض صغير ممتدة أعلى وأسفل الوادي، ويربط بينها مجموعة من البساتين الممتدة، وبذلك يكون طول امتداد المدينة أربعة أميال كاملة، ومتوسط عرضها لايزيد عن نصف ميل، وفي بعض الجهات يقل عن ذلك.

تختلف أحجام المنازل باختلاف أحوال سكانها. فالفقراء مساكنهم تكون ضيقة، ولكنها مستقلة. ولا أعتقد أن العائلات في الجزيرة العربية تشترك في منزل واحد مهما كانت الحاجة إلى ذلك. ومنزل غافل، الذي سبق وصفه، يعطي فكرة عن منازل ميسوري الحال. وهي عبارة عن فناء خارجي لإناخة

الجمال وما يشابهها، وفناء داخلي، وغرفة استقبال كبيرة وغرف متعددة صغيرة ولها مدخل خاص حيث تسكن الأسرة.

وهناك ظاهرة محلية معمارية وهي الإضافات المتكررة التي يتم إنجازها في الجوف، وتتمثل في تشييد أبراج دائرية ترتفع من ثلاثين إلى أربعين قدمًا، وأحد عشر قدماً أو أكثر في الاتساع، ولها مدخل ضيق، وفتحات في أعلاها. ويكون هذا المبنى أحياناً امتداداً للمنزل، وفي بعض الأحيان منعزلاً في البستان الذي يملكه صاحب الدار. هذه الأبراج أدت نفس الأغراض التي أدتها الأبراج "torri" المعروفة للمسافرين إلى إيطاليا في مدن بولونيا، وسينا، وروما، وفي أماكن أخرى، وتشير في الوقت نفسه إلى تشابه حالة المجتمع، التي سادت هناك في السابق. لذلك تستخدم هذه الأبراج في أوقات العداوات التي يتكرر حدوثها بين الشيوخ وجماعاتهم المتنافسة ملاذاً وملجأ للشيوخ وأعوانهم عندما يتطور الخلاف بينهم إلى العراك والقتال. ومن هذه الأبراج كانوا يديرون هجماتهم. هذه الأبراج مثلها مثل الصروح الحديثة، التي أقيمت بالجوف، مبنية بالطوب الطيني، الذي يمتاز بأنه سميك وصلب، بسبب صلابة التربة، بالإضافة إلى جفاف المناخ الذي يكسب اللبن متانة الحجارة بالصلابة والدوام. وبالفعل إذا وقفت الجدران وتركت بنفسها بلا سقوف ولاصيانة سوف ـ وقد شاهدت ذلك عدة مرات ـ تبقى متحدية أمطار الشتاء، وعواصف الربيع لقرن كامل من الزمان ولا ترمز إلى عمرها الطويل. ومنذ الاحتلال النهائي لهذه المنطقة بواسطة جنود طلال بن رشيد أصبحت هذه الأبراج غير مناسبة لأغراض الدفاع. وقد كان بعضها نصف متهدم. وهنا مرة أخرى، هذه الظاهرة الأوروبية تكرر نفسها في الجزيرة العربية.

لا تكون المنازل هنا مفصولة عن بعضها البعض بصورة متكررة بالبساتين

والمزارع إلا في حالة منازل الشيوخ والرؤساء وأسرهم. وكل ما قيل عن الأبراج يفسر لنا وقوفها هكذا منعزلة. أما مساكن العامة فهي عموماً متصلة وقريبة من بعضها البعض بدون تنسيق أو تنظيم. ونفس الفوضى تنظم الساحات الموجودة في كل حي، والتي يلتقي فيها السكان، وليست لها صلة بالتخطيط الهندسي، ولا تشبه ميادين مثل ميدان جروزفنر أو ميدان كافندش، ولا صفوف المساكن في شارع ريجنت أو شارع أكسفورد بلندن.

إن بساتين الجوف مشهورة جداً في هذا الجزء من الإقليم. وهي تستحق هذه الشهرة. إنها أكثر إنتاجاً وتنوعاً من أراضي جبل شمر ونجد العليا، وأكثر إنتاجاً كذلك من أراضي الحجاز وما جاورها. فهنا لأول مرة في مسيرتنا جنوبًا، وجدنا النخيل عنصراً رئيسيًا للزراعة، وإذا كان إنتاج التمر فيه أقل جودة مما ينتج في نجد والأحساء، فهو جيد جداً بالنسبة لما ينتج في مصر وأفريقيا، أو وادي نهر دجلة من بغداد إلى البصرة. وعلى أية حال ينفرد النخيل هنا بالمكانة الأولى، أما المشمش والخوخ والتين والعنب فتزخر بها المزارع ويتفوق ثمرها في النكهة والإنتاج على إنتاج بساتين دمشق، وجبال سورية وفلسطين. وفي المساحات التي تقع بين الأشجار يزرع القمح، والبقول، والقرع، والبطيخ، . . . إلخ . . . بكميات كبيرة. والمسافر الذي يتوغل في الجوف يدرك أهمية الري في هذه الأرض ذات الطقس الجاف بالنسبة للفلاحة ونمو المزروعات. والري يعتمد على القنوات الجارية، التي تحمل الماء العذب الصافي، بينما في نجد وما جاورها يتحصل على الماء بمشقة من الآبار والحفائر.

يأتي موسم نضوج العديد من الفواكه هنا مبكراً عن موعده في سورية ناهيك عن أوروبا. فمشمش الجوف ينضج في نهاية مايو، ويقطف العنب في

يوليو، والخوخ في أغسطس، والتمر في أغسطس أيضًا وفي سبتمبر. وإلى الجنوب في نجد يتأخر النضوج لفترة شهر عما ذكرنا لكل محصول، وفي عُمان لمدة شهرين على الأقل. ولقد أسفت كثيرًا لأنني لم أحمل معي أثناء زيارتي لهذه المناطق ترمومتر أو أية وسيلة أخرى لقياس الطقس، ربما لأن وجود مثل هذه الأجهزة في أمتعتي قد يثير تساؤلات بحسباني أوروبياً ولأن مشقة الرحلة وركوبي الجمال لا تناسب هذه الأجهزة، لأنها قابلة للكسر. ولكن حالة الطقس يمكن أن تقاس قياساً غير دقيق بما ذكرناه عن نضج ثمر الفاكهة مبكرًا في هذا الإقليم بالمقارنة بأقاليم وأماكن أخرى، وأيضاً بدراسة بعض الظروف المشابهة. ففي يونيو ويوليو وأغسطس نقدر الحرارة من ٩٠ - ٩٥ درجة فهرنهايت ولا نكون مخطئين بالنسبة لطقس هذا الوادي، فالطقس بالليل بارد إلا فيما ندر. وقد يحدث تقلب في درجة الحرارة يزيد عن عشرين درجة خلال فترة قصيرة.

إن البساتين في الجوف مسورة بجدران طويلة من اللبن، وتجري داخلها جداول من الماء من شجرة إلى أخرى ومن جدول إلى جدول. وبين كل هذه المزروعات ينفرد التمر بالمكانة الأولى في البيع والتصدير، ويجني المواطنون منه دخلاً طيبًا ليس من بيعه في منطقة الجوف وحسب بل مما يدره من دخل عند بيعه في تبوك وحائل وبغداد ودمشق وفي أماكن أخرى. وللتمر في حياة العرب أثر كبير، إنه خبز الأرض، وقوام الحياة، والسلعة الرئيسية للتجارة. ولذلك فإن النبي محمداً يمكن أن تعزى نجاحاته الباهرة على الأقل إلى قوته مثلما تعزى إلى أمور أخرى طبيعية وما وراء طبيعية. فقد ذُكر أنه قال: "أكرموا أمكم النخلة" . . . . . . وعلى أية حال، لا أعتقد أن هذه الأم ذات الأوراق تستحق هذه التوصية المطلقة. والتمر شديد الحلاوة بحيث إنه في

النهاية يُتعب، وإذا جف فإنه يولد طاقة حرارية كبيرة ليست في صالح صحة الإنسان، لاسيما بالكميات التي يستهلكها الفرد الواحد هنا.

مدينة الجوف عبارة عن مجموعة من المنازل والبساتين المتداخلة بطريقة عشوائية، وهي بلا تحصين طبيعي، ولكن عدد سكانها وشجاعتهم كانا عنصرين كافيين لحمايتها ضد هجمات البدو، ولم يكن لهم عدو يخشونه لفترة طويلة حتى تم استيعابهم بنجاح في القرن الأخير من قبل الوهابية، وبعده بفترة بواسطة القوة المتنامية لجبل شمر وشيخه.

بالإضافة إلى الجوف نفسها، العاصمة، يوجد عدد من القرى تنتمي لنفس المنطقة وتخضع لحاكم مركزي واحد. من أكبر هذه القرى سكاكا وهي تقع على بعد اثني عشر ميلاً في اتجاه الشمال الشرقي، ورغم أنها أقل أهمية من عاصمة الإقليم، من حيث المكانة وخصوبة الأرض، فهي تساويها في عدد السكان.

فيما يتعلق بسكان هاتين المحلتين، فإنني أقدرهم مجتمعين وبكل فئاتهم بحوالي ثلاثة وثلاثين ألف نسمة أو أربعة وثلاثين ألف نسمة. هذا التقدير، مثل غيره من التقديرات قبل زيارتنا، هو تقدير تقريبي معتمد على تعداد المساكن، وجزئياً على التقديرات العسكرية، وعلى بعض ماسمعنا من أقوال المواطنين أنفسهم. فالتعداد هنا غير معروف ولا توجد سجلات للمواليد والوفيات والزواج. وبمساعدة سجلات الحرب يمكن الوصول إلى عدد السكان بالرغم من أنها تمثل عُشر العدد دائماً، ويظل التعداد تقريبياً في كل الأحوال.

على مسافة غير بعيدة من هذه المراكز الرئيسة، توجد قرى صغيرة حوالي

ثمان أو عشر كما أخبرني السكان، ولكني لم أتمكن من زيارتها لعدم توفر الوقت ولعدم وجود الفرصة. عدد مساكن كل قرية من هذه القرى تتراوح من عشرين إلى خمسين أو ستين مسكناً. وهذه القرى قامت حول ينابيع صغيرة للمياه وهي تنتج قدراً صغيراً من متطلبات العيش، بما يشبه الحال في العاصمة.

إن العدد الكلي للسكان في كل المنطقة، لا يتجاوز بحال اثنين وأربعين ألف نسمة. ويمكننا وصف هذه المنطقة بالشجاعة، فأهلها تتوافر فيهم مواهب بدنية قل أن توجد عند غيرهم. فهم عادة طوال القامة، متناسقو الأجسام، ألوانهم فاتحة، شعورهم سوداء، ويتصفون عموماً بالذكاء ولهم ملامح دقيقة وفيهم كبرياء. إن الجوفيين من عنصر جيد، يمكن أن يدعى العنصر العربي الإسماعيلي الشمالي الصافي، وهم الأصل الذي انبثق منه سكان جبل شمر. إن صفاتهم الجسمانية المتميزة، وتقاطيع وجوههم الواضحة تنأى بهم عن صفات البدو، الذين يميل بعضهم إلى القصر والتقزُّم. وهم بجانب ذلك قوم أصحاء يحتفظون بنشاطهم حتى عندما يتقدم بهم العمر. ويبدو شيئًا مألوفاً أن ترى رجلاً عجوزاً في السبعين من العمر مسلحاً بكامل عدته ضمن جماعة من الشبان، وإن كانت ظاهرة ربيع العمر الدائم يمكن أن تجدها في الأقاليم الوسطى إلى الجنوب من الجوف، كما لاحظت أنا ذلك. الطقس هنا جيد وجاف، وعادات الحياة خارج السكن، يمكن أن تلعب دورها في الحفاظ على الصحة والحيوية. وهم في أخلاقهم وسط بين البدو والحضر. وهم يشتركون مع البدو في كراهيتهم للمهن اليدوية، وعدم اهتمامهم بالحصول على الثقافة، وتقلب مزاجهم بلا هدف محدد، حتى في أساليب الغدر والخيانة. إلا أنهم عمومًا مأدبون ويحترمون أنفسهم أكثر من البدو. وهم لا يتظاهرون

بالعظمة والمجاملات المهذبة، التي تجدها عند شمر وفي نجد، وأقل بكثير من تلك التي تجدها في الأحساء وعُمان. أما فيما يتعلق بجوانب النظافة بالنسبة لذواتهم وعاداتهم وفي المهارة في الزراعة، وفي ضبط الأعصاب والإدراك العام، وفي إحساسهم بالانتماء لإقليمهم، والتعامل مع الغرباء، وإدارة التجارة وقابليتهم للتطور، هم أقرب إلى سكان المدن والقرى الكبيرة في شبه الجزيرة العربية. وإذا حكمنا عليهم من خلال حكمنا على قبيلة طيّئ التي تعود جذورهم لها فهم إلى حد معقول متحضرون، ولهم ميل فطري إيجابي ليكونوا كذلك مرة أخرى. إلا أن الظروف أرجعتهم إلى الخلف وخصوصاً الحروب والخلافات، بالإضافة إلى النفوذ المتردي الآن للقبائل المتوحشة، التي كانوا منعزلين عنها بسبب موقعهم الجغرافي. وهذه القصة التالية والتي لعبنا فيها دوراً هامًا نسبيًا، ربما تصور في شيء من المرونة حالتهم بين هذه الاتجاهات المتنازعة.

لقد ذكرت بأننا ونحن في مدخل الوادي، رأينا خيالة في أعلى الوادي وتبادل رئيسهم حديثاً سريعاً مع دليلنا ثم عاد وتحدث مع رجاله وقال لنا: اذهبوا آمنين. اسم ذلك الرجل الذي قاد الخيالة هو سليمان بن ظاهر، وهو رجل مغامر وذكي وفي مقتبل العمر، وكان قريباً منا، وبعد زيارات ومقابلات أصبح صديقًا لنا خلال إقامتنا بالجوف. وبعد ذلك دخلنا معه في مناقشة ودية فقال لنا: أتذكرون عندما التقينا بكم عند مدخل الوادي، وكنت أتشاور مع الرجال. لقد كان لنا رأيان: إما أن نستضيفكم لتبقوا معنا أو نقتلكم الثلاثة، ونأخذ ما معكم غنيمة. فأجبته بنفس البرود: لو قتلتمونا الثلاثة، فإن حاكمكم حموداً لا شك سيسمع ولن تفلتوا منه. وسخر الرجل قائلاً: "لا يهم كثيراً وكأن هدية من هذه الغنيمة غير قادرة على حبس لسان

حمود ". فقلت: إنكم بدو؟ فرد: نعم نحن كذلك ومازلنا حتى وقت قريب والنظام الجديد حديث عهد، حتى إنه لايستطيع تغييرنا بطريقة مؤثرة. وهنا، فأنا أعترف أنهم ارتاحوا لعدم قتلنا ليس لسبب أخلاقي، ولكن لسبب مصلحي.

إن أعظم سمة لسكان الجوف هي ميلهم للتحرر، فليس في أي مكان حتى في الجزيرة العربية تتم استضافة الضيف ومعاملته بالحسنى وإكرامه لدرجة عرض الإقامة عليه وتقريبه حتى يصبح بالتدريج واحداً منهم. أما الشجاعة فلا يستطيع أحد أن ينزعها منهم. إنهم وبنفس القدر كرماء في حياتهم وفي ممتلكاتهم ومع جيرانهم. وموقعهم في الوسط، الذي سبق أن أوضحنا من قبل مناسب للتجارة، إلا أن المسافة البعيدة من الوادي وإليه حددت حركة التجارة عدا استثناءات قليلة في مواسم معينة في السنة، وبالتحديد في فصل الشتاء البارد والربيع. ولم يتعلموا تقدير مزايا أن يكون لهم مكان منتظم لتسويق لحاجياتهم، ولا توجد دكان واحدة حتى في عاصمة الإقليم. فالبيع والشراء يباشر في أماكن السكن. وورشة الصانع هي أيضاً مسكنه. وهذا النظام أقر وتم الحفاظ عليه خدمة للاحتكار، ومازال هذا النظام ساري المفعول، ولكن سلطة التحكم به هي للشيخ في كل حي من أحياء البلدة، ومن المحتمل أن يتطور هذا النظام إلى الأفضل إذا استمر النظام الحالي لعدد من السنوات.

دعونا الآن نواصل القصة. في صباح اليوم الذي وصلنا فيه وكان يصادف أول يوليو، قام غافل استجابة لطلبنا السابق بتجهيز منزل صغير في المنطقة المجاورة له، يملكه أحد أتباعه. منزلنا الجديد يتكون من فناء صغير وغرفتين، كل غرفة في جهة من جهاته لأمتعتنا وسكننا، وكل السكن محاط بسور

خارجي وله باب يقفل ومزلاج. ولم نكن في حاجة ماسة لغرفة للمطبخ، لأن دعوات المواطنين الكرماء لنا كانت منتظمة. ولم يكن بيتنا من السعة بمكان إلا أنه أتاح لنا ما كنا نرغب فيه، أعني الخصوصية والانفراد مع بعضنا، أضف إلى ذلك، أنه كان على نفقة مضيفنا من ناحية الإيجار والتأثيث. قمنا بترحيل متاعنا إليه وأعددنا كل شيء بشكل مريح قدر استطاعتنا. ومن مناقشاتنا مع من عرفنا، أدركنا أن الخدمات الطبية قد لاتجد تشجيعا كبيراً، فما زال وعي السكان بأهميتها قليلاً. إن هذا النوع من النشاط، يحتاج إلى وسط متقدم من الناحية الفكرية، ولديه الاستعداد لتقبله. وبناءً على ذلك ركزنا على التجارة وبذل كل الجهود لتخفيف ما نحمل من قهوة وملابس. كان سكان الجوف أحرص منا في الشراء، فمنذ البدء ازدحم فناء بيتنا بالمشترين. ومن المناظر التي لا تنسى، منظر العربي ببساطته وذكائه وهو يساوم حول أسعار السلع المعروضة. إن ذلك النشاط المثير شغلنا لمدة أسبوع، ومضت حركة البيع والشراء، منديلاً إثر منديل، ياردة بعد ياردة من القماش، ومسبحة نسائية وراء أخرى، والسكاكين، والأمشاط، والمرايا، وأشياء أخرى، لأن بضاعتنا شملت الكثير من الأشياء. وقد تم بيع كل ماحملنا من هذه الأشياء، إما نقداً أو بالدين. ومن العدالة أن أقول إن كل الديون قد دُفعت لنا بكل أمانة في موعدها وحتى تجار شارع أكسفورد في لندن لم يكونوا في الأزمان السابقة محظوظين مثلنا. وفي الوقت نفسه اكتسبنا الشهرة وأصبحت تعرفنا كل طبقات السكان في هذا المكان وكل أفراد البلدة. وجاء إلينا الفلاحون من كل القرى بعد أن سمعوا عنا شائعات مبالغ بها وهم معروفون بالمبالغة وتخيلوا أننا نحمل معنا أكثر من الواقع فازدحم حولنا المشترون، وجاءنا عملاء أكثر مما نحمل من الملابس ومما هو في مخزننا.

لقد استخدم غافل العديد من الحيل ليحول دون بيعنا للبنّ الذي أحضرناه معنا، لأنه كان مصراً على اقتنائه لنفسه. وما إن يسمع بأننا على وشك الاتفاق على بيعه يرسل لنا أقرباءه وأصدقاءه ليطلبوا منا نقض البيعة، وعدم إبرامها. لقد أدركنا منذ البداية ما يهدف إليه، ولكن لأنه أول من قابلنا وهو مضيفنا رأينا أن يكون له الاعتبار الأول حتى لو كان سعره أقل. وأقول: إنه مضيفنا الأول لأن كل من لبينا دعوته للعشاء في الجوف أصبح مضيفًا لنا. وقد توالت علينا الدعوات بغزارة من كل جانب. وكان في عرفهم أن ترك الضيف يتعشى تحت سقف واحد لليلتين يعتبر عيباً ووصمة عار في جبين الكرم، وهذا أمر طبيعي لما عُرف عنهم من اهتمام بالضيوف.

وكان برنامجنا في قضاء الوقت كالآتي: كنا نستيقظ مبكراً، ثم نغلق باب بيتنا ونخرج للهواء البارد النقي في فضاء حول بساتين النخيل، ونمشي بمحاذاة جدران البساتين المرتفعة ونعبر الأحياء الفرعية الصغيرة إلى المزارع في المناطق الرملية المجاورة للوادي. وباختصار إلى أي مكان هادىء يمكن أن نقضي فيه ساعة صفاء بعيداً عن اختلاطنا بالسكان العرب، ويتيح لنا قدراً من الحرية والفراغ لنخطط لأعمالنا اليومية، ونعود إلى المنزل عند شروق الشمس، وربما نجد شاباً طويلاً أمام باب المنزل أرسله والده، وهو عادة يكون من أثرياء المدينة، ومن الذين لم نزرهم من قبل، ينتظرنا حتى نعود ليقول إن والده يدعونا لتناول إفطار الصباح معه. ونتبع الشاب إلى حيث والده، حيث الحفاوة الحارة ولقاء بعض الجيران الذين يكون الرجل الثري قد دعاهم ليحضروا المناسبة، أو ممن استهواهم تناول القهوة الطيبة فأقبلوا لمشاركتنا. وهنا يمكن تمضية ساعة أو مايزيد، ويمكن عقد صفقات تجارية أو تقديم خدمة طبية أو التمهيد لهما. وكنا نقود النقاش ما وسعنا ذلك، لتناول الموضوعات

المحلية لأن أمثال هؤلاء يمكن أن يقدموا لنا معلومات جيدة عن الأرض وسكانها. ونعود بعد ذلك إلى مقرنا، حيث نجد مجموعة كبيرة من المشترين في انتظارنا، ولا مجال لراحة أو هدوء لنا حتى الظهر. ويعقب ذلك فترة أكل التمر أو القرع في منازل الجيران، ثم نعود لتجارتنا مرة أخرى لمدة ثلاث أو أربع ساعات، وتعقب ذلك نزهة بين البساتين، وكنا نسير عادة مع مجموعة من الأصدقاء والمعارف وقل أن ننفرد. وفي الوقت نفسه دعوة للعشاء وقبولها. وهذه الدعوة المهمة في أي مكان في المدن العربية تكون قبل غروب الشمس بقليل. إن الوجبة الرئيسية في الجوف، وفي جبل شمر هي الجريش وهو قمح مجروش غير مسحوق، يغلى وتضاف إليه الزبدة واللحم وبعض الخضراوات مثل القرع وما شابه ذلك، والبيض المسلوق. ومهما كانت الخلطة، فإن كل ذلك يوضع في إناء واحد كبير من النحاس، أو إناء مستدير قطره قدم ونصف أو قدمان، ويقدم الطعام ساخناً ويؤكل باليد، ولا تعرف الملاعق والشوك لا لأي سبب فلسفي أو معنوي - كما ذكر أحد الكتاب وأعتقد أنه فرنسي - بل لأن مثل هذه الأدوات لا داعي لها، ولا أهمية لها حيث لا وجود للحساء والأوصال المشوية. الخبز لاوجود له في وجبة الجوف المسائية هذه، بينما يكون موجوداً في وجبة إفطار الصباح. إن الخبز يعتبر من أسباب تنويع الوجبات المتعدد في شبه الجزيرة العربية. ويقدم الخبز هنا أيضًا في شكل كيك أو كعكة بلا خميرة في سُمك معتدل. والتمر يضاف في الغالب زينة لهذه الوجبة، وهو تقريباً لايغيب عن كثير من الوجبات، والمشروب هنا هو الماء، ولكن في سالف الأزمان كان بعض العرب يصنع خمراً من التمر، وقد ذكر ذلك الشعراء القدماء والكتاب في شمال إفريقيا، ولكن يبدو أن صناعة الخمر بتلك الطريقة قد اختفت الآن ونسيها الناس.

بعد العشاء ينهض الجميع، يغسلون أيديهم ويتجهون إلى أرض فضاء، حيث الهواء الطلق، ليجلسوا ويدخنوا الغليون تحت السماء الصافية، التي تبدو شفافة بلا ضباب أو رطوبة ولا يظهر السحاب إلا قليلاً، ثم يلوح القمر ناشراً ملاءته الفضية على رؤوس النخيل، وآخر أشعة المغيب لا تقل صفاء ووضوحًا عن أشعة الشروق. يستمر القوم في السمر لساعة أو ساعتين ثم يذهبون إلى منازلهم للنوم في الغالب الأعم. وننصرف نحن لكتابة يومياتنا، أو لمقارنة ودراسة الملاحظات التي سمعنا، والشخصيات التي قابلنا.

في بعض الأحيان نتلقى دعوة من أحد الملاك الموسرين، لقضاء إجازة صباحية في بستانه، ونستمتع بأكل العنب ونحن جلوس تحت أشجاره المليئة بالعناقيد، وفوق رؤوسنا أشجار النخيل العالية، وحولنا قنوات جارية. وما أجمل تلك المناظر لو تذكرنا الصحراء القاحلة. وبعد ذلك تأتي زيارتنا الطبية، ووصفات الدواء، والواجبات المماثلة لها، التي كانت تأخذ جزءاً من اليوم، أو نلتقي الشبان الصغار، الذين يتطلعون لمعرفة أخبار سورية ومصر أو التاريخ عموماً أو العلوم الدينية، وكان هؤلاء الشبان يقتطعون ساعات من يومنا، بعض الأحيان نقضي هذه الساعات في مناقشات جادة، وكان ذلك مقبولاً لدينا.

والآن دعونا نقوم بزيارتنا الرسمية لحمود [العقلا]. لقد قبل غافل بعد أربعة أيام من وصولنا أن يمهد لتلك الزيارة، بعد تأخير تعلل فيه بعدة أسباب ببراعة. وبدأنا مشوارنا إلى حمود من منزل غافل. وكان برفقتنا عدد من فرسان حمود، وسار موكبنا المهيب بصرامة. ولربع ساعة ظل الطريق يتعرج بنا بين بساتين يظللها النخيل وفي أزقة صغيرة مظللة ومبتلة بالندى وحولها المياه جارية إلى أن وصلنا إلى ساحة كبيرة تؤدي إلى مرتفع القلعة. وفي أحد

الجوانب وعلى مسافة مًا برز البرج المستدير وحيداً، وهو برج "مارد" أو المتمرد والذي ذكرت جدرانه الحجرية الصلدة في الشعر العربي كثيراً. ولكن معماره لايشير إلى المعمار الروماني أو الإغريقي، ولكنه عربي خالص في تصميمه وتشييده وبهذه الصفة يترك مجالاً ضيقاً لعالم الآثار أو الفنان. وعلى أية حال فإن سكان المنطقة المحليين ينظرون إليه بإعجاب، لا يشاركهم فيه الأوروبيون. وتحتنا حيث وقفنا في المرتفع، تقع أطلال مساكن مشايخ أسرة حبوب الأوائل، الذين قُتل بعضهم أو نُفي. ومن حول المساكن أعجاز نخل خاوية قطعت أو أحرقت، وبساتين ذابلة جافة دمرتها الحروب الأخيرة، وفوقنا تشمخ القلعة نفسها، وهي الآن مقر سكن حمود. هذه القلعة، هي بناء كبير أو كتلة غير هندسية بنيت بطريقة غير منسقة، أضيف إليها هنا وهناك بعض الإضافات حتى فقدت شكلها الهندسي المستطيل. ولكن الجانب الجنوبي منها حافظ على بنائه الأصلي بلا تلف، حيث الحجم الكبير واستدارة الحجارة الدقيقة في الطبقات الدنيا، التي تعيد إلى الأذهان بداية هذا البناء، بينما تظهر نوافذ عديدة على ارتفاع عشرة أقدام إلى أحد عشر قدماً من سطح الأرض، وهي مرصوفة على طريقة - إذا لم تخني الذاكرة - أقواس سكلوب (العملاق ذي العين الواحدة في الأساطير الإغريقية) والتي يمكن معاينة أشكالها في قصر آتروس في مسينا. وهي نوع من الإنشاءات البدائية، يوضع فيها الحجر المسطح متعارضًا مع مثيله بطريقة مائلة. وبالقرب من منتصف القلعة يقف برج مربع، وهو عريض بالنسبة لطوله البالغ خمسين قدمًا، بينما جوانبه بعرض عشرين قدمًا تقريباً، ويبدو أنه بني في أزمان لاحقة لبناء الجدار الجنوبي. وفي الجوانب فتحات للدفاع ضد المعتدين. يلتف حول القلعة جدار شبه دائري، يربط ركن السور الخارجي، ويبدو أنه أضيف مؤخرًا، وتم بناؤه

على عجل بالحجارة وبدون نظام، بينما البناء الحجري للبرج التزم الدقة والنظام. وبوابة المدخل في الزاوية من هذا البناء المتعدد الألوان تبدو شبيهة للبرج أكثر منها بالمخالفات القديمة، فهي مقوسة وتختلف عن الأسلوب المستعمل في نجد، حيث الأبواب والسقوف كلها مسطحة، وعلى رأسها حوافّ. للمبنى جدران جانبية تحول دون الدخول رأساً إليه. وفي داخل القلعة ميادين وصالات مرصوفة بحجارة غير متساوية، ولكنها متماسكة أشبه بما يمكن أن تشاهد في مدينة فلورنسا، والممار التي تقودك إلى الداخل طويلة، مظلمة، ومقوسة. وهنا على الجدار لاحظت وجود صليبين غائرين، ويبدو أنهما يعودان إلى تاريخ بعيد. ومثل هذه الأشكال يمكن رؤيتها في حوران بسورية، ولكنها تحمل دلائل على أن الدين المسيحي كان هنا في غابر الأزمان. كان مدخل القلعة يعج برجال حمود ساعة وصولنا. وكان هؤلاء الرجال مسلحين بالسيوف والبنادق، وكانوا يلبسون زيًا موحداً، ولكن بلا أية علامات، وعبرنا بينهم بين تحديق العاطلين وتحايا المهذبين منهم إلى أن وصلنا إلى فناء آخر داخلي، محروس بالطريقة التي ذكرنا. كان يجلس هناك حمود حيث مجلس القهوة، أو غرفة الاستقبال، وهي غرفة كبيرة تبدو عليها الصرامة وبه مقاعد عالية من الحجارة على جانبيها بعيداً عن موقد القهوة، الذي وضع في الركن البعيد عن المدخل.

وهناك، في موقع الامتياز الذي لا يسمح حمود لأي فرد من الجوف أن يأخذه مهما كان ثراؤه أو منشؤه. ظهر لنا الحاكم حمود رجلاً قوي البنية، عريض المنكبين، ذا حواجب، وعيون سوداء، يرتدي ثوباً أبيض محلي الصناعة، وعليه عباءة سوداء أنيقة مطرزة بالحرير الأحمر، وعلى رأسه المهيب منديل حرير، أو ما يعرف بالكوفية، يشدها عقال أبيض منسوج من وبر الإبل

بدقة، وفي كفه مروحة من السعف. نهض برشاقة عندما اقتربنا منه ومد يده للمصافحة، وجعلنا نجلس بجواره، وجعل غافلاً بوصفه صديقاً قديماً بيننا وبينه ربما احتياطاً من اعتداء أو هجوم مفاجيء منا، لأن العربي مهما كان لا بد له من الحيطة والحذر في حضور الوجوه الغريبة. لقد أظهر لنا حمود الكثير من الحفاوة والاهتمام، واستفسر عن صحتنا بعد تلك الرحلة المضنية عبر الصحراء. وأشاد بدمشق والدمشقيين بطريقة غير مباشرة، وأعطانا سكنًا داخل القلعة. ولكن غافلاً استفاد مما تتيح له التقاليد العربية بوصفه المضيف الأول لنا وتحدث نيابة عنا معتذراً عن قبول السكن الذي أعطانا إياه حمود. ولم نهتم نحن كثيرًا بالأمر. قدمنا رطلاً أو يزيد من البن المختار هدية لصاحب السعادة بهذه المناسبة تعبيراً صامتاً عن أهداف رحلتنا، وكوسيلة أفضل لكسب تأييده، وقبلت الهدية بترحاب من الرجل العظيم، الذي فيما بعد قدم لنا أفضل خدماته. وقلنا له: إننا لانحتاج إلى شيء أكثر من أن يكون في أتم صحة وعافية، وهكذا يتحدث العرب في مثل هذه المناسبات. وطلبنا منه أن يساعدنا في الوصول إلى حائل آمنين عند فراغنا من مهمتنا في الجوف. وكنا نرغب في أن نضع أنفسنا تحت حماية الحاكم طلال في حائل، فوعدنا حمود بأن يحقق لنا كل ذلك، وفعلاً نفذ وعده فيما بعد.

وبالطبع قدمت لنا القهوة وأكلنا التمر. ثم وفي نفس الوقت دخل الرجال الثلاثة من شمر ـ الذين يشكلون مجلس استشارة حمود ـ في محادثة مألوفة مع الجالسين في مجلس القهوة، وكانوا صامتين لفترة وهم جلوس على المنصة الحجرية العالية في مواجهة الحاكم حمود. وكانوا ثلاثتهم ذوي هيئة حسنة، وفي مقتبل العمر، يلبسون مناديل القطن المخططة باللون الأحمر أو الأزرق الأمر الذي كان غريباً على سكان جبل شمر. وكان كل شيء يتعلق بمظهرهم

ينم عن درجة من الثقافة والذكاء، مما ساهم بوضعهم في مكانة متقدمة عن سكان الجوف، وحتى في وضع أرقى من حمود شخصياً، الذي بالرغم من أنه يتصف بالحكمة والمهارة في إدارة مسؤولياته، إلا أنه مازال نصف بدوي في تصرفاته وأخلاقه، ولهذا أصبح حاكمًا مقبولاً لمن حوله ولمن يحكم. بلباقة وسهولة قادنا هؤلاء الثلاثة إلى النقاش، وأظهروا اهتمامًا بنجاحنا في مهمتنا، ولم يتوانوا في تشجيعنا على التوجه إلى حائل وأكدوا لنا أننا سنلقى ترحيباً ومساعدة من حاكمها طلال. كانت هذه المناسبة هي الأولى لنا التي نسمع فيها اللغة العربية الفصحى، التي أعجبنا بصفائها وجمالها وما واكبها من بلاغة في النطق تلفت الأنظار. لا غرو في هذا الأمر فهي لغة القرآن وهذا يكفي. وهي بكل حلاوتها، وتصريف كلماتها، وأصالتها لم تفقد شيئاً ولم يستطع أحد أن ينال منها. وشد انتباهنا الرغبة التي أبدوها لمشاهدة عرض طبي يكشف المهارة التي توصل إليها الطب، ووعدوا بأن معرفتنا الطبية ستلقى الاهتمام في جبل شمر.

بالقرب من هؤلاء السادة، أعضاء مجلس استشارة حمود، جلس المطوع أو رجل الدين، وهو رجل متقدم في السن صارم التقاطيع، أرسل إلى هنا ليعلم أهل الجوف عقيدتهم، وهو غير محبوب بالنسبة للدارسين والزملاء، مما يجعله في وضع المستفز، وتصدر منه تصرفات حادة.

خلال الثمانية عشر يوماً في الجوف، قام حمود مع زملائه بكل مجاملة وأدب برد زيارتنا له. وقمنا نحن بزيارة القلعة مراراً، وشاركنا في مناسباتها الاجتماعية، وأهدرنا ساعة أو ساعتين ندرس ما نراه داخلها من أشياء مثيرة. يعقد حمود مجلسه القضائي كل صباح وفي بعض الأحيان بعد الظهر فهو صاحب السلطتين التشريعية والتنفيذية. يؤم هذه المجالس جمهور كبير

ويعرض فيها الشاكي شكوته أو دعواه ويتناظر المدعيان أمام حمود في مجلس قهوته. يستمع الحاكم في صبر ثم يصدر الحكم. وتجدر الإشارة إلى أن قضايا الحياة والموت وأوامر التشريع تحال إلى رئيس القضاء في حائل، وما هو أقل من ذلك يحول إلى نائبه الذي يتحمل عبئاً كبيراً، وعليه أن يقوم بها شخصيًا. والمحامي لا يستطيع العيش في شبه الجزيرة العربية، فكل إنسان هنا لديه من صفاء الذهن والفصاحة مايمكنه من الدفاع أو الاتهام دون تضييع وقت المحاكم في مثل هذ اللقاءات، التي تصبح بلا هدف، إلا أن الرشوة ليست ببعيدة، ولها تأثير ناجح. وقد كنت معجباً ببساطة ووضوح المتقاضين حتى إن المحاكم العسكرية تبدو أكثر تعقيداً بالمقارنة. وعندما يكون المدعي بدويًا فستكون لدينا تمثيلية رائعة ومحبوكة.

في ذات يوم، كنا أنا وزملائي في زيارة ودية للقلعة، ومررنا بكل الإجراءات وربما سببنا شيئاً من التوقف عن النشاط، الذي كان يجري، ولكنه بعد توقف قصير أستؤنف العمل. فقد كان هناك بدوي من قبيلة معاز يعرض شكواه أمام حمود وكان يتهم أحداً بسرقة جمله قسراً. كان الحاكم يجلس في هيبة كبيرة في ركنه يتكئ على وسادة، بينما جلس أمامه البدوي وعلى مسافة ستة أقدام على الأرض واضعاً قدماً فوق أخرى في استرخاء ويحمل بيده منجلاً للحصاد، أو مما يستعمل في قطع الأعشاب. وكان البدوي يشير إلى القاضي (الحاكم حمود) بهذا المنجل ليلفت نظره، قائلا: "أتسمعني ياحمود" وهو يشير بالمنجل في وجهه حتى أوشك أن يصل إلى جسم الحاكم، كأنه كان يرمي إلى اختراق جسد القاضي به: " لقد أخذ جملي، هل ذكرت الله" وشهر المنجل مرة أخرى في وجه القاضي الذي ظل ثابتا في مكانه دون أية حركة. "الجمل حقي أتسمعني" وإشارة مرة أخرى بالمنجل مذكراً القاضي:

"أن الجمل حقي أعطاني اياه الله وأنت أيضًا، هل تسمعني يا ولد"، ولم يحرك حمود ساكنًا وهو يستمع إلى أن تدخل أحد أعضاء مجلس القضاء قائلاً للرجل وهو يهدىء غضبه: "اذكر الله يا ولد فليس واردًا أن نخطئك".
وبعد ذلك، استدعى القاضي أحد أعوانه وطلب منه إحضار الرجل المدعى عليه. بعد أن استمع للشهود من الجوف الذين أكدوا صدق البدوي. أضاف القاضي قائلاً له: "حسنًا يا والدي سيعود لك حقك، فاطمئن وضع ثقتك في الله، وأشار إليه بالانصراف فعاد إلى مكانه في المجلس".

داخل القلعة يقع المسجد، الذي شُيد بأمر من عبيد ابن رشيد عند زيارته للجوف، وبالرغم من أن المسجد كبير، إلا أنه بسيط وغير مزخرف وبناؤه عادي، وهو أشبه ما يكون برواق ذي أعمدة، له أربعة عشر عمودًا في الطول، وثلاثة في العرض، وبين العمود والآخر مسافة أحد عشر قدماً، وطوله مائة وثمانون قدماً، وعرضه أربعون قدماً. الجدران من الطين، والأعمدة من الخشب والسقف من عوارض خشبية.

في هذا المكان، يلتقي الناس لصلاة الجمعة ويستمعون إلى خطبة الجمعة. كل من يحضر عليه أن يؤديها، ولكن حموداً لا يفرض ذلك على الناس. وفي غياب التشدد في أدائها يكون الحضور قليلاً، و المتشددون ليس لهم أثر كبير في الجوف، ولن يتمكنوا من إحضار عدد مناسب منهم. يُذكر اسم السلطان [العثماني] عبدالعزيز خان في الخطبة، وهذا كل ما بقي من نفوذ العثمانيين في الجوف، وربما في بلاد الحاكم طلال، أما إلى الجنوب قليلاً فإن "خاقان القارتين والبحرين" يُنكر عليه حتى ذكر اسمه.

مضى أسبوعان أو أكثر، ومازلنا في الجوف ضيوفاً مكرمين حسب التعبير العربي، وزال عنا نهائيًا تعب السفر في الصحراء، ومازال بيت غافل مأوانا

الرسمي. ولكن كان هناك أيضًا منزلان نحس بالراحة فيهما هما منزل ضافي، الذي جاء مع غافل لاستقبالنا أول مرة، ومنزل سالم الرجل المحترم، الذي كان بطريقته رجلاً كبيراً مثقفاً، وكان يسكن في جوارنا وتحيط به أسرة كبيرة مكونة من شبان صغار، كلهم تربوا على مخافة الله واتباع القدوة الحسنة. وكنا نرتاح في بيت سالم عندما نتعب من غافل وأمثاله، ونجلس في ساعة صفاء في مجلسه ننشد الشعر العربي، أو نستمع إليه ونتحدث عن أحوال البلدة ومستقبلها ونناقش القضايا الأخلاقية، أو نعلق على أساليب واتجاهات الناس في عصرنا الحالي. وفي كلا المنزلين كنا على يقين من أن نجد ترحيبًا حاراً ووداعًا أكثر حرارة. وحتى عندما ابتعدنا ورحلنا إلى حائل كنا نستلم الرسائل من سالم وضافي لنحقق لهما ما وعدنا به من عودة في المستقبل، حتى وإن كان موعدنا بدا لهما فيه شيء من الغموض والاستحالة. لقد كانوا جميعاً أصدقاء مخلصين وتصرفوا بنيات حسنة نحونا. وكانت لهم رغبة قلبية ليرونا بينهم في إقامة دائمة، و في علاقات عمل بل في علاقات زواج. حتى غافل كان إلى حد ما مخلصًا ولعلها ظاهرة عامة في سلوك العربي فالصداقة الحميمة أرفع بكثير من المساومات وانتهاز الفرص، وكان سلوكهم من هذه الناحية أروع تصوير لذلك.

نحن الآن أمام سؤال هام كيف نصل إلى جبل شمر، وبيننا وبينه صحراء النفود؟ حيث يخاف منها أجرأ المسافرين العرب في كل المواسم من السنة. وعبورها في منتصف يوليو من أصعب الأشياء، بل يعتبر أصعب من إبحارك في مضائق بهربخز في شهر يناير. وفي الحقيقة ابتداء من شهر مايو إلى سبتمبر يقل عدد الذين يعرضون حيواناتهم أو أنفسهم لمخاطر رمال كالجمر. وكل تحرياتنا عن هذه الصحراء، كانت تنتهي بعباره "انتظر حتى ينضج التمر" وهذا

التمر لا ينضج إلا عندما تظهر نجمة سهيل أو نجمة "كانوبس" وهذه تصادف الأسبوع الأول من سبتمبر.

ماذا نصنع؟ لم نكن نعرف، وكنا ننزعج انزعاجًا شديداً نتيجة لوجود فرصة تأخير طويل بعد أن لاحت لنا الفرصة المواتية لتحقيق أهدافنا.

إن طلالاً عندما استولى على الجوف، بدأ باستخدامها كقاعدة لتوسيع دائرة حكمه في كل المناطق المجاورة لها، حتى طريق الحجاج في الغرب وسورية في الشمال. وكان ما يفصل بينهما من صحراء موطنًا لبدو الشرارات الذين شن عليهم طلال هجوماً، انتهى في نفس السنة التي قدمنا فيها، أي سنة ١٨٦٢م، باستسلام قبيلة العزام آخر فرع كان مستقلاً من هذه القبيلة. وفي هذه اللحظات وفد إلى الجوف جماعة من رؤساء القبائل في طريقهم إلى جبل شمر حيث يلتقون طلالاً ويقدمون له فروض الطاعة في عاصمته. استقبلهم حمود وأسكنهم لعدة أيام ليرتاحوا من عناء رحلتهم ويعدوا أنفسهم لرحلتهم القادمة. وكان بعض سكان الجوف، ممن لهم أعمال وتجارة مع حائل، قد عزموا على مصاحبتهم في رحلتهم إلى حائل. أرسل حمود لنا وأخبرنا بأمر هذه القافلة المتجهة إلى حائل. وعندما ذكرنا له أننا نريد أن نغتنم هذه الفرصة لنصل إلى حائل أعطانا رسالة إلى طلال وذكر له في الرسالة بأننا دفعنا رسوم الدخول في أراضي شمر، وأننا كنا محترمين نستحق المعاملة الحسنة. كانت رسوم اجتياز الحدود لا تزيد عن أربعة شلنات للفرد أو أقل من ذلك، ولا يستطيع أحد أن يقول إنها مكلفة حتى عندما تُدفع كل رسوم الجمارك والجوازات، وليس هناك أية نفقات أخرى متوقعة. بعد ذلك، بدأنا مساومة تأجير جملين بحضور حمود، وكان السعر وهو شامل لكل الخدمات الضرورية معقولاً وغير مبالغ فيه، ووصل إلى مائة وعشرة قروش، وهي

تعادل تسعة عشر شلنًا بالنقود الإنجليزية.

وبدأنا بإعداد زادنا من تمر ودقيق، وأصلحنا قرب الماء واستعدنا الديون التي كانت لنا، وانتظرنا بداية الرحلة. لقد حاول أصدقاؤنا في الجوف منعنا من رحلة كهذه في هذا الفصل من العام. ولم يكن في مقدورنا شرح الأمر لهم وتوضيح الأسباب، التي جعلتنا نقبل بالرحلة في هذا الوقت غير المناسب، الذي يجعلها وكأنها مغامرة. ولم يكن مفهوماً لديهم إصرارنا على الرحلة، وأخيراً انتبهوا إلى أننا " شوام " أي من سكان سورية ولاسيما سكان العاصمة دمشق، المشهورين بالاعتداد برأيهم ولهم روح المخالفة. لقد حدثت إرجاءات للرحلة حتى يوم ٨ يوليو، عندما نضج التين. وكانت تلك حجة أخرى جعلت أهل الجوف يزدادون عجبًا من تصرفنا في الإسراع بالرحلة، بدلاً من التريث قليلاً والاستمتاع بنعم الأرض التي بدأت تظهر.

عند ظهيرة ذلك اليوم جاءنا من يخبرنا بأن علينا الاستعداد للانطلاق ذلك اليوم. وعند العصر، أي بين الثالثة والرابعة بعد منتصف اليوم تحركنا وودعنا جيراننا وامتطينا إبلنا وكانت هذه المرة خفيفة الحمل، وليس كما كانت عليه الحال عندما تحركنا من معان. صحبنا ضافي وعقيل الابن الأكبر لغافل نيابة عن والده، الذي كان في رحلة صيد خارج الجوف. كذلك رافقنا بعض معارفنا لمسافة قصيرة تمشياً مع التقاليد الشرقية، وكانوا من قلوبهم آسفين لمغادرتنا، ووجهوا لنا العديد من الدعوات للعودة إلى الجوف وكنا نرد عليهم قائلين: " إن شاء الله " ولم يكن هناك أفضل من ذلك لنقوله لهم.

وعندما غادرنا المنازل والحدائق، قادنا مرشدنا إلى طريق يؤدي إلى جنوب الوادي حتى وصلنا قبل غروب الشمس إلى نهاية الجانب الشرقي منه حيث مكان اللقاء بيننا وبين زملاء الرحلة، الذين لم يظهروا، لأنهم كانوا مدعوين

للعشاء مع حمود، وكانوا حريصين على حضوره. ترجلنا عن رواحلنا ووقفنا لوحدنا ودعانا شيخ ذلك المكان للعشاء فذهبنا إليه، وعدنا لننام في العراء مع أمتعتنا وجمالنا. وقضينا ليلة من ليالي الصيف في الهواء الطلق على فراش ناعم من الرمل، وهذا يُعد أمرًا عاديًا ولا يُعتبر من يقوم به بطلاً. وفي الصباح الباكر، وبينما النجم فينوس مازال مشعاً كأنه قطرة فضة ذائبة في سماء زرقاء، أقبل علينا ثلاثة من زملاء الرحلة، وقالوا: إن البقية في الطريق إلينا. حفزتنا تلك الأخبار على السير قبل شروق الشمس فارتقينا المرتفع المنحدر من الضفة الجنوبية، واستمتعنا بمنظر كامل للجوف، قلعتها وأبراجها وبساتين نخيلها وحدائقها على ضوء الفجر المحمر، وخلف ذلك تمتد الصحراء الشمالية إلى الأفق البعيد. وهبطنا الجانب الآخر من التلال المجاورة فاختفت الجوف عن أنظارنا ولا أحد يدري هل سنراها ثانية أم لا؟(٤).

الهوامش:

(١) اعتمدنا في المعلومات السابقة عن حياة بلغريف على ما ورد في كتاب:

Allan, Mea.**Palgrave of Arabia**, London: Macmillan ,1972.

(٢) حول المناقشات التي دارت بشأن هذه الرحلة راجع:

جاكلين بيرين، **اكتشاف جزيرة العرب: خمسة قرون من المغامرة**. نقله إلى العربية قدري قلعجي وتقديم حمد الجاسر. بيروت، الرياض: منشورات الفاخرية ودار الكاتب العربي، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م. ص ص ٢٩٨-٣٢٢. وكذلك انظر:

Peter Brent, **Far Arabia : Explorer of the Myth**. London, Melbourne, New York: Quartet Books, 1977. pp.130-131.

(٣) النص المترجم هو الفصل الثاني من كتاب الرحلة:

William Gifford Palgrave, **Personal Narrative of a Year Journey Through Central and Eastern Arabia (1862-63)**. London : Darf Publishing Limited,1985. pp.30-59.

(٤) انظر بقية الرحلة إلى حائل في كتاب: **الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية: منطقة حائل**، الجزء الأول، إعداد وتحرير عوض البادي، الرياض: دار بلاد العرب، ٢٠٠٢م.

رحلة

كارلو غوارماني

١٨٦٤م / ١٢٨٠هـ



كارلو غوارماني

Carlo Guarmani

ولد كـارلو كـلاوديو غـوارمـاني في لغـورن بإيطاليـا، في ١١ ديـسـمبـر ١٨٢٨م. كـان والده قد عمل في التأمين والشحن، وبعد ذلك تاجر حرير، وبعد خسارته في التجارة قرر الهجرة إلى بيروت وكان ذلك في عام ١٨٥٠م.
في بيروت، اشتغل كارلو غوارماني بالتجارة، ولكنها لم تناسبه، فحصل على وظيفة ممثل للبريد الإمبراطوري الفرنسي في القدس. من موقعه الجديد بدأ غـوارماني في رحلاته في صـحاري بلاد الشام حيث ركـز جهـوده على دراسة وبيع وشراء الخيول العربية. هذه الجهود قادته إلى التكيف مع الحياة الصحراوية، ومعرفة العادات واللهجات المحلية للقبائل المنتشرة في شمال الجزيرة العربية.

كانت نتيجة هذه الجهود، تأليفه لكتاب "الخمسة" الذي يتناول الحصان العربي. حيث يحدد أنواعه، ويضع نظاماً، يعتقد، أنه كفيل إذا تم اتباعه بتطوير هذه السلالة من الخيول. طبع هذا الكتاب لأول مرة في عام ١٨٦٤ وطبع طبعة ثانية في عام ١٨٦٦م، وكان الكتاب مهدى إلى الملك فيكتور عمانوئيل الثاني ملك إيطاليا [١٨٦١-١٨٧٨م].

في عـام ١٨٦٣م تم استـدعـاء غـوارمـاني إلى باريس وطورين من قـبل الحكومتين الفرنسية والإيطالية، فتم تكليفه برحلة لشراء الخيول العربية الأصيلة للحكومة الفرنسية وللملك إيطاليا.

بهذا الهدف المعلن، انطلق غوارماني في رحلته الشهيرة إلى داخل الجزيرة العربية، حيث تم له ما أراد في الحصول على حاجته والعودة إلى القدس. نشر غوارماني تفاصيل رحلته بعد عامين من انتهائها، في كتاب جاء بعنوان: «شمال نجد: رحلة من القدس إلى عنيزة في القصيم»، في القدس عن طريق "مطبعة القساوسة الفرنسيسيان" عام ١٨٦٦م. ثم توالت ترجمات هذه الرحلة إلى اللغات الألمانية والفرنسية والإنجليزية.

عاد غوارماني بعائلته بعد رحلته للاستقرار في جنوا بإيطاليا حيث أصبح أحد أكبر تجار هذه المدينة، وتوفي بها في شهر أكتوبر ١٨٨٤م، وهو في منتصف عقده السادس.

وصف غوارماني بكثير من التفصيل أحداث رحلته، ووصف المناطق التي زارها والذين قابلهم من الناس، في تيماء وخيبر وعنيزة وحائل، التي منها ذهب إلى الجوف: حيث عاد منها إلى القدس، المكان الذي انطلق منه في رحلته.

قام غوارماني برحلته وهو متنكر بشخصية مسلم من تركية، مسمياً نفسه خليل آغا(١).

أما ما ذكره غوارماني عن الجوف ووادي السرحان فنترك له الحديث عنه، علماً أننا قمنا بتحرير النص ليظهر كقصة واحدة، لأن المعلومات التي دونها غوارماني كانت موزعة إلى جزأين، فجاء جزء منها ضمن يوميات الرحلة والجزء الآخر ضمن وصفه للبلدان التي زارها. وهنا ما ذكره(٢):

« في الثالث عشر من شهر مايو ١٨٦٤م، وصلنا إلى حي خذما أحد أحياء جوف العمرو، ونزلنا عند شيخ سابق، هو سكران بن عبدالله. وكانت هناك

قافلة كبيرة مجتمعة استعداداً للسفر إلى وادي السرحان وقرى حوران، وسيرافق هذه القافلة فقراء سكان الجوف، الذين يذهبون كل عام في موسم حصاد الحبوب إلى تلك السهول الواسعة، ليعملوا في الحصاد وجمع بقايا الحبوب للدروز الفخورين والكرماء، والذين لايحرمونهم من ذلك العمل. أو للعمل لدى المسلمين الآخرين الذين لا يستطيعون جمع كل محصولهم. كان رئيس القافلة هو دهيري بن خميس شيخ قرية كاف، وكان الوقت المحدد للمغادرة هو يوم السادس عشر من شهر مايو ١٨٦٤م.

وصل الأمير طلال بن رشيد مع أتباعه إلى سكاكا في ليلة الثاني عشر للراحة هنا لمدة يومين، وبعد ذلك ليستطلع الصحراء بحثاً عن منازل قبيلة الرولة، الذين قيل إنهم ليسوا بعيدين عن منطقة الحماد . وكان الأمير قد تخلى في نفس الوقت عن فكرة غزو الشرارات، لأن هولاء البدو، الذين لهم صداقات كثيرة في جبل شمر، كانوا قد هاجروا إلى الشمال، قبل أن يغادر الأمير عاصمته . وهم الآن في مأمن في منطقة بني صخر. في يوم ١٤ مايو كلفت محمداً [دليل الرحالة] ليبيع إبلنا تلك الحيوانات الثمينة، التي كنا نحلبها صباحاً ومساء، طيلة عبورنا النفود، لنشرب حليبها، ولنسقيه خيولنا وحميرنا، عندما لا نحتاجه.

برفقة الأمير حمود العقلا [عامل الجوف] ذهبت إلى سكاكا، كمبادرة دبلوماسية لتقديم نفسي للأمير طلال، وتعبيراً للصداقة والتقدير، خصوصاً أنني على وشك مغادرة بلاده، ربما إلى الأبد. هذه المبادرة مني يظهر أنها لاقت استحساناً كثيراً. فلقد وجدته مخيماً خارج البلدة. وعندما رآني وقف وصافحني قبل الآخرين. وفي الليل قفلت راجعاً إلى الجوف حيث وصلتها عند الفجر.

كل شيء كان جاهزاً للمغادرة مع القافلة. الماء كان وفيراً في وادي السرحان لذلك بعت الإبل، فلا حاجة لحليبها. كان جملي قادراً على حمل حاجياتي جميعها ولكن ركوبي عليه سيجعله ثقيلاً، لذلك كان علينا إكمال الرحلة على ظهور الخيل. لقد استأجرنا جملاً من أحد أبناء قرية إثرة، حيث كان عائداً إلى قريته بدون حمولة، لحمل مؤونتنا والماء الذي نحتاجه لليوم الأول. وكان على صاحب الجمل قيادة حصاني الأدهم والمفضل لديّ بيده. خلال النهار قمت بزيارة البلدة، التي كنت أعرفها من قبل، حيث كنت هنا عام ١٨٥١م.

وفي مساء ذلك اليوم دفعت حقوق المرافقين لي في رحلتي إلى الجوف وهم رجل من قبيلة شمر وآخر من قبيلة الرولة، وليتمكنوا من المغادرة أيضاً، واحد إلى مخيم الأمير طلال في سكاكا والآخر إلى مخيم المشهور.

إن جوف العمرو بلدة صغيرة، يسكنها ستة آلاف نسمة، ومبنية بالطوب الطيني كما هي الحال في أغلب بلدان نجد، ولكن بعضها مبني بالأحجار الطباشيرية المأخوذة من جبال الحماميات.

إن سور البلدة، الذي كان في الأصل يحيط بأحيائها الأربعة عشر مدمر. وكل حي الآن له سوره الخاص به، كما هو الحال في عنيزة بالقصيم. لذا يمكن القول إن الجوف تتكون من ثلاثة عشر قرية (حي)، لأن حي الدلهمية كان قد دُمر، وكل قرية ترتبط بالأخرى ببساتين النخيل. ويمكن للتوضيح اعتبار أن كل حي بلدة بذاتها، بدل اعتبارها قرى، فهناك قرى كثيرة أخرى في المنطقة.

إن حي الحصيني، هو أول منطقة في غرب - شمال غرب الجوف، بعده تأتي أحياء: الغرب، الزارع، القعيد، الدرع ومن ثم ديرة حطاب. في الجزء

الواسع من بقعة الأرض المتجهة إلى جنوب - شرق توجد أحياء السلمان، الحبوب، السعيدان، الرحيبين، العلاج، عين زغبة، خذما، بقايا الدلهمية. هذه المناطق إلى حد كبير تقع على خط مستقيم، وجميعها تحتل فراغاً يعادل خمسين دقيقة مشيًا بالطول. ولكن في أي مكان لايزيد الاتساع عن عشر دقائق مشياً. فأوسع بقعة من ديرة حطاب تبعد عشرين دقيقة عن حي الحصيني، و٣٠ دقيقة عن بقايا الدلهمية.

تقف قلعة مارد على تلة حجرية إلى جنوب غرب ديرة حطاب، ومتاخمة لمنازلها. أما جهة جنوب - جنوب - غرب فيقع حي الدرع حيث يتصل به حائط طويل. إن هذه القلعة قديمة، ومكتملة البناء تقريباً. إن من المؤكد أن بناء قلعة مارد أعيد عدة مرات، فالجزء العلوي منه مبني بالطين، بينما الجزء السفلي مبني بالحجر. تأخذ قلعة مارد في الأصل شكل مستطيل، محاط بأربعة أبراج دائرية الشكل، ويوجد في وسطه برج أعلى من الأبراج الأخرى، والذي من خلاله يمكن استكشاف ومراقبة جميع المنطقة المحيطة. إن البرج الكبير متهٍ إلى بقايا، والإضافات المتواصلة التي تحاول أن تحافظ عليه شوهت شكله الأصلي.

يوجد في حي خذما عين ماء تمتاز بنقاء مائها، وتوجد عيون ماء أخرى، في الأحياء الأخرى من البلدة، لكن بعضها به بعض الملوحة. ويوجد عدد آخر من الآبار تم حفرها وسط الحقول والبساتين.

إن جوف العمرو يسمى الجوف نسبة إلى اسم الوادي المنخفض الذي يقع فيه وآل بني عمرو الذين بنوا المكان على بقايا دومة الجندل، ونزلوا في بعض أحياء البلدة.

هذه البلدة القديمة، فتحها خالد بن الوليد، وأصبحت ذات شهرة، بسبب التحكيم الذي جرى بها، وأدى إلى سقوط علي بن أبي طالب، المحارب العربي العظيم في زمنه.

في بداية القرن التاسع عشر، كان يحكم البلدة شيوخ، هم أسلاف عائلة، جاءت في الأصل من قرى مستقلة في وادي السرحان، وكانوا يدفعون إتاوة إلى قبيلة الرولة.

في عام ١٨٥٣م حاصرها طلال بن رشيد، و احتلها رغم الدفاع البطولي لأهلها الذي استمر عشرين يوماً. لقد تم أخذ الأمير حطاب بن سراح أسيراً في حينه، ولا زال حياً مقيداً بالسلاسل الحديدية في قلعة حائل، بينما أولاده تراجعو إلى وادي السرحان حيث بنوا قرية صغيرة اسمها الوشواس، تقع بالقرب من قرى، إثرة والأخيضر (شمال غرب قرية إثرة وشرق قرية الأخيضر).

أما القرى التي تتبع الجوف فهي: -

الجرعاوي، غطي، البحيرات، وادي الدربي في الوادي.

أما المرتفعات التي تتبعها فهي:-

حسياء، في غرب - شمال غرب حي الحصيني، وخذما، والمويسن في السهل المرتفع على طريق سكاكا على مسافة مسير ساعة من وادي الدربي.

البحيرات ووادي الدربي وغطي تقوم على أرض مرتفعة تحيط بالجوف، وبين وادي الدربي وغطي يوجد مجمع لماء المطر، وهي أرض ملحية.

أما خارج الجوف، وفي سهل يقع في الجانب الآخر من الوادي، فيقع الجرعاوي.

أما سكاكا، فهي بلدة يقطنها عشرة آلاف نسمة عند قاع جبال الحماميات وهي تقع على مسيرة ٨ ساعات شرق ـ شمال شرق الجوف . أما قرية قارا فهي على مسير أربع ساعات غرب ـ جنوب ـ غرب سكاكا وعلى مسافة ساعتين جنوب ـ جنوب غرب الطوير . يسكن قارا ١٥٠٠ نسمة بينما يسكن الطوير ٨٠٠ نسمة .

إن عامل أو حاكم الجوف وسكاكا، هو ابن لأخت طلال بن رشيد، واسمه حمود العقلا .

بعد صلاة الصبح يوم ١٦ مايو، ، كان موعدنا مع القافلة، التي يرأسها دهيري، و انطلقنا من الجوف إلى كاف . في اليوم السابع عشر، وقد كنا معتمدين على كثرة عددنا، حيث كنا مائة واثنين وثمانين رجلاً، وأغلبنا مسلح، وعند عبورنا ممر بين مرتفعات رملية بالقرب من بئر الجراوي، هاجمنا خمسة رجال من البدو ممتطون نياقاً من الإبل التي تستخدم في السباق . كان ظهور هؤلاء الرجال نذير شؤم . أعطى قائد القافلة دهيري الأوامر بإناخة الجمال، وأن توضع النساء - اللواتي يوجد عدد لابأس به منهن، وبعض الأطفال في الوسط، وأن يشكل الرجال الذين على أقدامهم حلقة في مواجهة أعدائنا المجرمين، الذين تخيلنا أنهم فريق استكشاف لمجموعة أكبر .

هؤلاء الخمسة الشياطين، أعاقونا لما يقارب الساعة . كانت صيحتهم الحربية "أخو جوزاء" و "عبد الشعلان" . تقدم هؤلاء الرجال وأطلقوا النار من بنادقهم ـ ولحسن الحظ بدون تصويب ـ ثم ولوا مدبرين بسرعة .

جميع الأشياء الحسنة تنتهي في وقتها، أو في وقت لاحق . إن وقاحة هؤلاء الرجال استمرت لوقت طويل . وكان عليهم التأسف للهوهم الطويل .

فهم لو كانوا مع مجموعة أكبر لكان لديهم الوقت الكافي للانضمام إليهم لصعوبة تحركنا. بعض أفراد مجموعتنا كانوا يظنون أنهم بعض اللصوص الذين يدعون أنفسهم شعلان لتخويفنا. على كل حال لم يكن من المستحسن أن يبقوا بجوارنا خلال الليل، الذي بدأ يسدل ظلامه. وبعد أن أعلن دريبي أنه من الجبن عدم مهاجمة مجموعة صغيرة من المعتدين، امتطى عشرون رجلاً جمالهم وانطلقوا لمقاتلتهم. تراجع المعتدون وهربوا في وادي الجراوي. بعد ذلك، تقدمنا إلى طريق شغار، حيث غيرنا طريقنا الأساسي خوفاً من أن يكون هؤلاء شعلان، وليسوا لصوصًا. ففي حالة كونهم شعلان فإن طريقنا الأساسي سيأخذنا إلى مضاربهم في الطريق بين الجراوي وبئر الميسري.

انتهت أربعة أيام منذ غادرنا الجوف، وعدا الحادث الذي مر بسهولة ويسر، لم يعترض سبيلنا شيء. قطعنا أكثر من ٤٤ ساعة مسير من رحلتنا، حيث كنا نخيم في الليل وهذه كانت عادتي وعادة المرافقين لي خلال رحلتي عبر النفود، وفي الطريق بين جبل شمر وتيماء.

عند مطلع فجر اليوم الخامس، انطلقنا في مسيرنا. وعند بداية شروق الشمس كنا قطعنا مسافة ساعتين في مسيرتنا بعد انقشاع الظلام، لاحظت امرأة شرارية جمعاً بدوياً كبيراً في أفق السهل الواقع إلى يسارنا. خلال نصف ساعة من هذه الملاحظة، كان عدد آخر من مرافقينا قادرين على ملاحظة هذا الجمع، بل حتى تحديد عددهم الذي كان يقارب المائتين. أمرنا قائدنا دهيري أن نعطف إلى اليمين، وخلال نصف ساعة وصلنا إلى صدع في تلال بازلتية، حيث وضعنا القافلة في مكان آمن. وُضع ستون رجلاً مسلحاً من جمعنا في موضع دفاعي، عند مرتفعات مجاورة لنا للدفاع عند الضرورة. اتجه البدو إلى موقعنا بهدوء، واحداً بعد آخر، وكان عددهم مائة وستين

رجلاً، حيث وصلوا سفوح التلال ودخلوا وادياً صغيراً في الشمال وبدؤوا بصعود التلال إلى نقطة تقع تحت موقعنا بمسافة قليلة، ولكن عندما كانوا في الحدود، التي يمكن إصابتهم من بنادقنا، وقبل وصول قمة تلنا أنذرهم رجالنا المسلحون والمستعدون للدفاع عنا، للتوقف. لقد أطاعوا الأمر وتوقفوا. سألهم دهيري عن نيتهم، فأجابوا بأنهم شرارات، وأنهم سمعوا أن طلال بن رشيد موجود في منطقة الحماد، وأن لا خوف منهم، وهم عائدون إلى خيامهم.

كان الشرارات ودودين، وليس لديهم شيء يخافون عليه منا، ولا نخافه نحن منهم، لذلك فقافلتنا تستطيع التقدم في طريقها، بدون خوف. كان الدريبي هو الشخص الوحيد الذي شك في كلامهم. بعد الأمر بأن لايتحرك أحد بما فيهم دهيري حتى يعود، أخذ جملي ونزل إلى الوادي، ولكنه توقف على مسافة معقولة من جمع هؤلاء البدو، فتفحصهم بشكل جيد فتأكد أن بعضهم شرارات، ولكن ليتأكد أكثر طلب من أحد الشيوخ أن يتبعه، بعد ذلك استدعى أحد الشرارات المرافقين لنا وسأله إن كان يعرفه.

لقد تعرف مرافقنا على الشيخ وكان دغمان شيخ فرع الضباعين من قبيلة الشرارات. تأكدنا من هؤلاء البدو، فهم لم يكذبوا.

غادرت القافلة بعد ذلك التلال بأمان ورجعنا إلى السهول، لكن الشرارات تقدموا إلى مواقعنا السابقة التي ابتعدنا عنها. هذا التقدم من جانبهم، واحتلالهم لموقعنا السابق جعل بعضنا يرتاب بالأمر، ولكن كان من المستحيل العودة. قسمنا مجموعتنا إلى ثلاثة أقسام. قسم في المقدمة، وقسم آخر في الجناح أو الجانب القريب من الجبال، والقسم الأخير لمراقبة المؤخرة. بقي البدو بدون حراك لما يقارب عشرين دقيقة وبعد ذلك تبعوا مسارنا لما يزيد على

الساعة، ولكنهم لم يقتربوا في الواقع إلى الحد الذي يكونون فيه على مرمى بنادقنا، لم نفهم ما الذي يجري. كان هناك خمس عائلات من الشرارات، عائلتان منهم ينتسبون إلى قبيلة الضباعين، مثلهم مثل الجماعة التي تبعتنا. الدريبي كان من بني صخر لذلك كان محترماً منهم. أما بقية القافلة فهم من أبناء الجوف، الذين يحتفظون دائماً بعلاقات حسنة مع الشرارات.

لقد بدأنا الآن وبسبب متابعتهم لنا بإظهار بعض المشاعر العدوانية.

كان الشباب الذين ضمن قافلتنا يغنون معظم الوقت، وكنا قد وضعنا بعض قطع الشال على ثلاثة رماح كأعلام. بعض من الشباب خرجوا عن الخط وبدؤوا يرقصون ويرمون ببنادقهم إلى أعلى ويلتقطونها قبل أن تقع على الأرض.

لم ينبس دهيري حتى بكلمة واحدة، فتولى الدريبي، الذي مازال راكبًا على جملي، القيادة العامة كأمر واقع.

فجأة بدأت جمال المتابعين لنا بإسراع الخطا والاندفاع إلى الجانب الأيسر لنا، الذي دافعنا عنه بحزم، وعندها استداروا إلى الأمام و بدؤوا بإطلاق مايقارب مائة رصاصة مع صيحات الحرب الخاصة بهم (أخو جوزاء وشعلان)، كما كان يفعل الخمسة الذين قابلناهم يوم ١٧ مايو الذين تعرفنا عليهم الآن في مقدمة مهاجمينا.

اتضح الآن الغموض في الأمر، فمهاجمونا هم من الشعلان الذين يقودهم حامد بن بنية. أما الشرارات الذين معه فهم تحت قيادته لفترة محدودة فالجميع ضد طلال بن رشيد في قضية واحدة.

توقفت القافلة، وقاتلت لمدة ساعتين، رغم الحذر والابتعاد قدر المستطاع

عن موضع المعركة . الشرارات المرافقون لنا لم يشاركوا في النزاع ولكنهم قدموا أسلحتهم لأبناء الجوف، الذين ليس معهم سلاح . أنا نفسي لم أطلق أية طلقة لأنني لا أريد أن أضيع ذخيرتي مع الريح . لقد أصبح الاستمرار في المعركة مهزلة لأنه لايوجد أمل لنا بالنجاح . فنحن لانملك إلا ٦٥ بندقية ضد ١٤٠ بندقية على الأقل مع الطرف الآخر . وفي الأخير أمر دهيري وقف إطلاق النار موضحاً أنه يريد الاستسلام . ستة رجال من البدو المهاجمين تقدموا باتجاهنا، عرضنا عدة مقترحات عليهم لكنهم رفضوها . لقد قالوا " أصدقاؤنا بأمان ولكن الأعداء يجب أن يعتبروا أنفسهم مسلوبين " . بكلمة أصدقاء عنوا العائلات الشرارية، التي ضمن القافلة، دهيري وجماعته، وأنا ومحمد والدريبي . أما " الأعداء " فهم أبناء الجوف، الذين عليهم الاستسلام .

إن التخلي عن مرافقينا، سيكون معيباً، فنحن جميعًا قاتلنا، وجميعًا علينا حمايتهم . لقد أعلمنا هؤلاء البدو، بأننا سنباشر المسيرة . ابتعدوا عنا بعد ذلك مؤكدين أنهم سيسلبوننا جميعًا إذا رفضنا مقترحاتهم . بدأ القتال مرة أخرى، ولكن هذه المرة كنا على مقربة من بعضنا البعض وخلال عشر دقائق كان عندنا قتيلان وعشرة جرحى . العائلات الشرارية استسلمت وبقيتنا فقدت شجاعتها، لذلك تقدم دهيري باتجاه العدو ورمى سلاحه على الأرض وأعلن استسلامه . في الوقت نفسه، كان الدريبي يخفف من أحمال المؤونة، وأبعد الرسن من الجمل والحمار وقفز على واحد من الخيول، محمد وأنا كنا قد سبقناه على أشدة خيولنا . كان محمد ممسكاً بالحصان الحر أما السرحاني فركب الأدهم . لقد استدار حولنا الشعلان والشرارات – وهم يلوحون بسيوفهم ويصرخون بنا للتخلي عما نحمله معنا . فانطلقنا مسرعين وأطلقنا النيران باتجاه العدو، فردوا علينا بالمثل . لقد أصابت إحدى الطلقات حصاني

وسقط، لكن الدريبي أخذ الحصان الحر الذي يقوده محمد وأحضره لي فامتطيته وانطلقت هارباً مرة أخرى. أما الحمار والجمل المعتادان رفقة الخيول وعلى صوت الدريبي فأسرعت تلاحقنا. استمر ثلاثون بدوياً بمطاردتنا. ولكن كلما رأيناهم انفصلنا عن بعضنا البعض، بسبب عدم تساوي الأرض وسرعة مطاياهم، وكلما استدرنا لمواجهتهم كلما تراجعوا إلى جماعتهم. ولكنهم تبعونا مرة أخرى واستمررنا هكذا حتى وصلنا جبال وادي محيضر. في هذا المكان، اعتبرنا أنفسنا في أمن، والذين يطاردوننا تركونا بسلام ليعودوا إلى المشاركة في سلب القافلة. بقينا في هذا المكان طيلة النهار في الجبال. أما في الليل فإننا نترك محمداً والسرحاني مع الحصانين والحمار والجمال قريباً من محيضر لإخفاء مسارنا الذي يمكن رؤيته مرسوماً في الأرض. بعد ذلك ذهبت أنا والدريبي عائدين إلى ميدان المعركة. كان مرافقونا مايزالون في مكانهم. الرجال شبه عراة والنساء بأثوابهن الطويلة بدون غطاء لرؤوسهن. فقد سلبوهن حتى أغطية رؤوسهن. بعد أن رأينا هذه الحالة وأننا لانستطيع أن نفعل شيئاً قفلنا راجعين إلى محمد والسرحاني اللذين كانا في الانتظار في محيضر. من هنا سرنا حوالي أربع ساعات ونصف الساعة حيث وصلنا إلى العظيمات، واسترحنا قليلاً وبعد ذلك لم نرخ العنان، حتى وصلنا إلى كاف بأمان.

وصلت القافلة قرية إثرة يوم ٢٢ مايو في حالة يرثى لها، لقد ذهبت لمقابلتها ووزعت خمسين صاعاً من التمر وساعدت المطبب في القرية في متابعة حالات الجرحى. أربعة من هؤلاء سيؤوا الحظ، ماتوا ودفنوا في قبر واحد. بعد ذلك عدت إلى كاف، رغم الدعوات المختلفة من الذين سبق وأن استضافوني في أوقات مختلفة في إثرة، والذين يرغبون بأن أمضي الليل

معهم حتى اليوم التالي. في اليوم الثاني كنا في طريقنا إلى حوران. و بدلاً من المسير عبر الطريق المباشر المؤدي إلى عرمان في ٣٢ ساعة شمال - غرب، ذهبت إلى شيماء رغم أني أعرف أنها ستأخذني ٣٨ ساعة.

في كاف حصلت على الأخبار الآتية: -

أولاً: بينما كان الضباعين يساعدون الشعلان في سلب قافلتنا، سلب حمدان بن معجل من قبيلة المحلف العنزية ومعه ستون فارساً جميع ما كانوا قد تركوه في خيامهم ومصادرة قطعان أغنامهم وإبلهم.

ثانياً: إن شيوخ الشرارات الذين وجدوا أن كل القبائل البدوية عدا الرولة وبني صخر، يغزونهم دائماً، قرروا العودة إلى مضاربهم الأصلية لذا فقد أرسلوا وفداً يرأسه سليم اللحاوي، للبحث عن الأمير طلال لإعلان ولائهم له من جديد ولدفع متأخرات الإتاوة المقررة عليهم بالإضافة إلى هدية على أمل إرضائه والحصول على عفوه.

ثالثاً: إن الشيوخ سطام (ابن عم)، وهزاع (أخو) فيصل الشعلان ومعهم ألف وخمسمائة فارس من العمران والفدعان والسبعة والسوالمة فاجؤوا قبيلة المشهور، بين الجوف وسكاكا واستولوا على كل ممتلكاتهم. في هذه المعركة لم يكن يتواجد من شيوخ المشهور إلا جروح بن محسن وحمود بن حسين، أما بقية الشيوخ فكانوا مرافقين للأمير طلال في غزوة له. لقد استطاع المدافعون أن يقتلوا خمسة من مهاجميهم قبل أن يتراجعوا إلى الجوف مع النساء اللاتي لم يلحقهن أذىً، إلا أنه تم مصادرة كل ما له قيمة منهم، وحتى الرعاة فقدوا مهنتهم، لأن قطعان مواشيهم تم سلبها.

غادرت كاف ووصلت دمشق، ثم منها إلى طبريا، الناصرة، جنين، نابلس فالقدس حيث تقيم عائلتي".

الهوامش:

(١) اعتمدنا حول حياة غوارماني على المعلومات التي أوردها محرر رحلته دوقلاس كارثرز عنه في تقديمه الطبعة الإنجليزية للرحلة . انظر :

Guarmani, Carlo. **A Journey from Jerusalem to Anaiza in Qasim**. Trans. by Capel Cure, With Introduction by Douglas Carruthers.London: The Argonaut Press,1938. pp. ix-xxi.

(٢) النص المترجم من المصدر السابق : ص ٥٨ - ٦٣ . و ص ١٠١ - ١٠٣ .

رحلـــة
الليدي آن بلُنت
و
ويلفرد بلُنت
١٨٧٩م/ ١٢٩٥هـ



الليدي آن و ويلفرد بلُنت (رسم)

الليدي آن بلُنت

Lady Anne Blunt

الليدي ان بلُنت، هي السيدة آنابلا كنج - نؤل، التي ولدت في الثاني والعشرين من شهر سبتمبر ١٨٣٧م، وهي حفيدة، من جهة امها، للشاعر الإنجليزي اللورد بيرون، وابنة للورد وليام لوفليس. بعد وفاة والدتها، وهي وحيدة اللورد بيرون الشاعر، وجدتها، ورثت نصيباً كبيراً من المال يمنحها دخلاً سنوياً مقداره ثلاثة آلاف جنيه إنجليزي. تعلمت الليدي آن الموسيقى والرسم في سن مبكر، وتعلمت اللغات الألمانية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والعربية. كما سافرت كثيراً في أوروبا. في واحدة من رحلاتها إلى إيطاليا، عام ١٨٦٦م، تعرفت على الدبلوماسي البريطاني ويلفرد سكاون بلُنت، و تتوجت علاقاتهما بالزواج عام ١٨٦٩م، فأصبحت منذ ذلك التاريخ تُعرف باسم عائلة زوجها[١].

أما زوجها ورفيقها في رحلتها ويلفرد بلُنت، فقد ولد في السابع عشر من شهر أغسطس ١٨٤٠م، وهو من عائلة إقطاعية، دخل العمل الدبلوماسي في سن الثامنة عشرة، وعمل في عدة سفارات بريطانية، في اليونان وفرانكفورت وفرنسا وإسبانيا والبرتغال والأرجنتين حتى استقال من عمله الدبلوماسي بعد الزواج من السيدة آن. اشتهر بكونه شاعراً وكاتباً ومعارضاً لسياسات الحكومة البريطانية الاستعمارية في إيرلندا والهند ومصر والسودان، وتعاطفه مع

الحركات الوطنية في هذه الدول وزعمائها. وله صداقات شخصية مع عدد منهم، وكان يعتبر الاستعمار استغلالاً للشعوب. كتب عدد من الكتب التي تعبر عن آرائه واشتهر منها "مستقبل الإسلام" عام ١٨٨٢م، "أفكار حول الهند" عام ١٨٨٥م، و"التاريخ السري للاحتلال البريطاني لمصر" عام ١٩٠٦م، وله دواوين شعرية وكتابات أدبية كثيرة. كما شارك في تحرير وكتابة بعض الأجزاء لكتب الرحلات، التي أعدتها زوجته، واعتبره البعض أنه الكاتب الحقيقي لهذه الرحلات[٢].

سافر ويلفرد بلنت وزوجته آن بلُنت في رحلات عديدة في بلاد المغرب، ومصر ثم سورية والعراق، بهدف شراء الخيول العربية الأصيلة حيث أسسا في بريطانيا إسطبلاً شهيراً للخيول العربية، هو اسطبل كرابت واستمرا بإدارته حتى انفصالهما عام ١٩٠٦م عن بعضهما، ولكن ابنتهما حافظت عليه بعد ذلك.

قام الزوجان في عام ١٨٧٨م برحلة إلى العراق وبادية الشام، حيث اختلطا بالقبائل العربية، ورافقوهم في حلهم وترحالهم واشتروا بعض الخيول التي أرسلوها إلى بريطانيا. كتبت الليدي آن وصف تجربتها وزوجها في هذه الرحلة في كتاب جاء بعنوان "قبائل الفرات البدوية" وتم نشره باللغة الإنجليزية عام ١٨٧٩م. وتمت ترجمة ونشر هذا الكتاب باللغة العربية عام ١٩٩١م في دمشق[٣]. كما قاما برحلة أخرى، بعد وقت قصير من انتهاء رحلتهما الأولى، ليحققا حلمهما بعبور الصحراء التي أحباها، إلى نجد، موطن الخيول العربية الأصيلة.

انطلقا في رحلتهما الجديدة من دمشق في الثالث عشر من ديسمبر ١٨٧٨م متوجهين إلى حائل عبر قرى سورية ووادي السرحان والجوف والنفود فحائل

التي غادراها بعد انتهاء زيارتهما إلى بغداد في السادس من شهر مارس من عام ١٨٧٩م. نشرت الليدي بلُنت قصة رحلتها في كتاب من جزأين، بعنوان " حج إلى نجد: مهد العنصر العربي " في عام ١٨٨١م. قدم للكتاب وحرره زوجها ورفيق رحلتها، وأضاف اليه بعض الأجزاء الجغرافية والتاريخية، ترجم محمد انعم غالب بعض فصول هذا الكتاب، التي تتعلق بنجد إلى اللغة العربية وتم نشرها تحت عنوان " رحلة إلى بلاد نجد "(٤). فيما يتعلق ببلاد الجوف و وادي السرحان فإنا نقدم جزءاً مما قالته، وليس كله، لتوفر الترجمة العربية، وبما يتماشى مع المنهج المتبع في هذا الكتاب.

في السابع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٨٧٨م، بعد أربعة عشر يوماً من مغادرتهم دمشق وصلت الليدي بلنت وزوجها ومرافقوهما وأبرزهم محمد بن عبدالله بن عروق ابن شيخ تدمر إلى قرية كاف في شمال الجزيرة العربية، لتبدأ رحلتهما إلى نجد. ونترك القارئ الآن برفقة الليدي آن تصف مارأته في بلاد الجوف ووادي السرحان (٥).

" كاف قرية صغيرة وجميلة، ولها طابعها الخاص، الذي هو مختلف إلى حد ما عن أي شيء يشاهده المرء في سورية. وكل شيء بها هو شكل مصغر، الستة عشر بيتا المربعة الصغيرة، والأبراج الحربية الصغيرة، والأسوار الحصينة التي ترتفع ٧ أقدام. والسبعون إلى ثمانين شجرة نخيل في البستان و تسقى من الآبار، وبعض الأشجار، التي كنت أظن في البداية أنها أشجار سرو، والتي عرفتُ فيما بعد أنها من أنواع الطرفاء، يطلق عليها اسم الأثل.

ورغم أنها بلدة صغيرة، إلا أن كاف لها منظر فريد مزدهر. كل شيء فيها متقن وفي حالة جيدة، ليس هناك حائط متهدم أو باب مخلوع من مفصلته كما هو الحال في سورية. وهناك أيضا نخيلات صغيرات مزروعة بين النخل

القديم، وشجر تين وكروم، نادراً مايجدها المرء في الشمال. الناس ذوو أشكال حسنة ومؤدبون، رغم أنهم روعونا في البداية، لأننا مررنا عليهم وسيوفهم في أيديهم. والسيوف إما متنكبوها على أكتافهم او ممسكون بها بكلتا أيديهم من الغمد، يشبه تلك النقوش المنحوتة على الصخور لشهداء عصر النهضة أو لتماثيل الحملات الصليبية.

استقبلنا شيخ القرية، عبدالله الخميس(٦) بحفاوة كبيرة، وكنا نحمل له رسالة من حسين الأطرش، شيخ صلخد(٧)، وقد نظف غرفة في منزله، وذلك لاستخدامنا. وكما هو الحال بالنسبة للغرف الأخرى، كان بابها يفتح على الفناء، الذي ربط بحبل طويل في وسطه لمهر عمره سنتان. وغرفتنا كانت مستودع حطب، وليس بها أي نوع من الأثاث، ولكننا كنا سعداء لعثورنا على مكان خال. والبناء هنا بسيط جداً، الجدران من الطين الخالص، بدون نوافذ أو أي شكل من أشكال الفتحات، ماعدا بضع فتحات مربعة صغيرة قريبة من السقف. والسقف مكون من أعمدة جذوع الأثل ومغطى بقواطع من النخيل، ومسقوف بأغصان شجر النخيل. الغرفة الرئيسية في البيت يطلق عليها القهوة او غرفة القهوة، وفيها يوجد موقد مربع الشكل، في أحد جوانب غرفة القهوة، أو في وسطها. ليس هناك مدخنة، والدخان يخرج حيثما يستطيع، ولكنه غير مزعج كما هو متصور، أما بالنسبة للحطب المشتعل هنا فهو يشتعل مع لهب ساطع، ويعطي حرارة عالية جدًا، مع دخان بسيط. إنه حطب الغضى. الناس جالسون حول الموقد بينما القهوة تُعد، واستغرقت عملية إعداد القهوة نصف ساعة تقريباً.

وحالما وصلنا قُدم لنا صحن من التمر، من محصول العام الماضي، وهو لزج ومهروس، ولكنه لذيذ. وفي المساء قُدم لنا العشاء وهو مكون من البرغل

ولحم الديوك المسلوق. وقد أدهشنا أدب كل شخص فيهم. لقد سألنا مضيفنا الشيخ عبدالله الخميس عن صحتنا أكثر من عشرين مرة، قبل ان يبدأ أي شيء آخر، لذلك ليس سهلاً أن تجد المقدار الكافي لرد هذا الأدب والكرم. كل شيء بالطبع ينم عن الفقر والبساطة، ولكن لايستطيع المرء إلا أن يشعر أنه بين أناس متحضرين. وقد أطروا كثيراً على محمد، الذي عومل على أساس أنه شيخ. تدمر معروفة بالاسم، ومن هذا البعد تعتبر بلدة مهمة. إنه لمدهش أن يعمل شخص بمركزه بعمل وضيع كخادم لنا، وذلك كان موضع تساؤل مؤدب عند المساء عن دوافع الرحلة. لم يُر من قبل أي إفرنجي في كاف، وهذا ما قاله الناس، ولذلك لا يفهمون مدى احترام الأوروبيين في أماكن أخرى. شرح محمد إخوته مع البيك (ويلفرد بلُنت)، وأكد أن رحلته هي شرفية، وليست لمصلحة، ولذلك عوملنا وكأننا عرب بالولادة. أما مرافقنا عواد الشمري، فأثبت أنه مفيد لنا جدا، فهو معروف هنا، ويقوم بدور المعرف بنا.

كاف بلدة مستقلة تماماً عن السلطان (الدولة العثمانية)، رغم أنها نُهبت مرتين بواسطة الجنود الأتراك، مرة تحت حكم إبراهيم باشا سنة ١٨٣٤م، ومرة أخرى قبل سنين قليلة عندما أرسلت حكومة دمشق حملة عسكرية إلى وادي السرحان [٨]. وقد شاهدنا بعض آثار قصر الصعيدي، على قمة الجبل المشرف على القرية، التي دمرها المذكورون، وسمعنا الكثير عن الفجائع التي سببتها الأحداث الأخيرة. يعترف سكان كاف بأنهم يتبعون ابن رشيد، شيخ قبيلة شمر، الذي كان بعض رجاله موجودين هنا منذ بضعة أيام ليأخذوا الإتاوة السنوية، والتي هي مبلغ صغير حوالي ٢٠ مجيدياً (أي مايعادل ٤ جنيهات استرليني)، والتي كانوا سعداء بدفعها لقاء حمايته لهم. إنهم

متحمسون "للأمير" الذي يلقبونه بهذه الصفة. ومن المؤكد أنه ليس هناك سبب يدعوهم لتمني الانضمام إلى سورية. وكاف البلدة الصغيرة وجارتها إثرة التي نحن بها الآن، مرتبطتان تجاريا مع الشمال أكثر منه مع الجنوب بسبب ثروتهما الرئيسية التي مهما كان قدرها، فإنها تأتي من تجارة الملح مع بصرى.

يبدو أن عبدالله الخميس ميسور الحال، ويملك عدداً من العبيد، ومتزوج أكثر من امرأة، أما بالنسبة للمُهر الذي ذكرته فهو الوحيد الذي يملكه من ذوات الأربع. وكان عبدالله بن خميس يرغب بالذهاب معنا لو كان يملك ذلولاً. وقد لاحظت وجود عدة جمال وحمير وماعز حول القرية.

لقد غادرنا مرافقنا، مقبول الخريشة، عائداً من حيث جاء، ونحن الآن نبحث عن شراري يأخذنا إلى الجوف.

قدمنا إلى إثرة، الواحة التوأم لكاف، وتبعد عنها ساعتين ونصفاً شرقاً وهي كذلك في وادي السرحان، وهذا لم يذكر او يوضع في كثير من الخرائط الحديثة، لذا أشار تشسني [٩] إلى موقعها خطأً في خريطته. وقد وجدنا بواسطة مقياس الضغط الجوي، أن كلتيهما على مستوى واحد، وهذا ما أكد حدسنا عن أن وادي السرحان لا توجد له انحدارات.

إن وادي السرحان منخفض غير منتظم ولافت للنظر، وربما كان قاعاً لبحر قديم يشبه البحر الميت، وهو يتسع من هنا حوالي ١٢ ميلاً، لو حكمنا عليه من خلال التلال المحيطة به، التي هي بدون شك في الجهة المعاكسة له. ويوجد كثير من الآبار هنا وفي كاف، عريضة وسطحية، والماء يوجد على عمق ٨ أقدام تحت سطح الأرض، وتسقى مزارع النخيل من هذه الآبار. وهناك آبار خارج البلد وجميعها سطحية وعلى مستوى واحد. والماء يمكن شربه، ولكنه

ليس ممتازاً بأي معنى من المعاني. وقطعنا بحيرة ملح كبيرة، وهي جافة الآن. والملح مجموع للقوافل لتحميله.

وفي طريقنا أمتعنا محمد بقصص ولادته ونسبه. وأهل كاف يسمعون بابن عروق، وأخبروا محمداً بأنه سوف يجد له أقرباء في أجزاء كثيرة من الجزيرة العربية، بالإضافة إلى الجوف. وقالوا إن هناك شخصاً في بريدة، وبالتأكيد هو ابن حميدي، الذي سمع محمد بأنه ابن عم له. وفي إثرة، كانت زوجة الشيخ من الجوف. ويبدو أن كل شيء يسير حسب ماتوقعنا.

إن بلدة إثرة أصغر من كاف، ولكنها تتباهى بالبناية القديمة، القلعة المصغرة داخل أسوارها، شيء ما على غرار منازل حوران. وهي مبنية بالحجر الأسود بدلاً من الطين الشائع عند العرب، ومبني بطريقة منتظمة وبشكل جيد. وعلى عتبة المدخل هناك نقش برموز قديمة، ربما تكون حميرية، والتي كنا كتبناها لو كانت واضحة، ولكن تأثير المناخ قد طمسها بشكل شبه تام (اخبرونا أن هذا النقش له علاقة بكنز مدفون، وهو تهيؤ شائع بين العرب الذين لا يستطيعون القراءة). هنا في إثرة قام بتكريمنا جروان [المذهن] الشاب، غير المرتب، ونصف ذكي، وله شعر طويل في جدائل ووجه صغير، وهو ابن مرزوقة ابنة عم محمد وبناء على ذلك، فهو ابن عم نفسه. رغم أنه ليس هناك ما يدعو للفخر بهذه القرابة، ولقد وجدناه مضيفاً لطيفاً. والدته ذكية وحسنة التربية، و يبدو من الغرابة أن يكون لها ولد بهذا المستوى الأقل منها. أما أبناؤها الثلاثة الآخرون، الذين يكون جروان هو أكبرهم، فإن لهم طرافتهم مثل الناس الآخرين. ولكنهم موضوعون بالخلف. جاءت مرزوقة لتراني حاملة صحناً كبيراً من التمر وتوقفت عن الكلام. وجهها مازال جذاباً، وأعتقد أنها كانت جميلة جداً. وكما لاحظت، فإنها تلبس عدداً من الخواتم الفضية في

أصابعها، كتلك الخاصة بالزواج.

أخبرتنا مرزوقة - التي هي نفسها من الجوف - أننا سنجد أفراداً كثيرين من أقرباء ابن عروق هناك. وأما هي فقد غادرت الجوف وهي فتاة صغيرة. تتكلم مرزوقة عن الجوف وكأنها جنة الأرض، التي غادرتها لتعيش في هذه الواحة الصغيرة البائسة. إثرة بالطبع مكان بائس ماعدا بستان جروان [المذهن]. وبعد نزهة في بستان النخيل، الذي منعني عرجي (كانت قد وقعت من على ذلولها قبل وصولها إلى كاف) من المشاركة فيها، جلسنا جميعًا حول عشاء خروف ممتاز، مع خبز منقوع بمرق اللحم، والخبز كان مذاقه كفطائر ممتازة، وقدم لنا جروان الأكل شخصيا وهو واقف طبقاً للعادات العربية عندما يأكل الضيوف. ووالدته تعتني به كثيراً، وتعلمه كيف يتصرف، وهذا واضح، ولهذا لديه القليل ليقوله، وهذا دليل على أنه هو الشخص الذي تعتمد عليه العائلة. يصف ويلفرد النزهة في البستان، بأنها كانت مدهشة، ومحمد وعبدالله قالوا كلام مدح كثير عما شاهدوه، وأخبروا جروان قصصاً مثيرة عن عظمة تدمر وغناها. وبستان جروان هو الوحيد الجيد في إثرة، حيث يحتوي على ٤٠٠ شجرة نخيل، وأغلب هذه النخيل حديث الزراعة، وعنده واحدة من النخيل زُرعت قبل ٢٥ سنة. وبينها شجرة الحلوة، أو حلوة الجوف، المجلوبة من ذلك المكان، والتي تعتبر شيئاً عظيماً ونادراً. وحول هذه النخلة، كان هناك حالة من الإعجاب بها وترديد للمديح لها. كذلك كان هناك إعجاب شديد بشجرة الأثل التي تُنمى لاستعمال أخشابها، وست سنوات من النمو يجعل ارتفاعها يبلغ ٢٠ قدما.

قدم رجلان من الجوف بأخبار سارة، وهي أن كل شيء على ما يرام، من هنا إلى الجوف، وأن ليس هناك أي عرب في وادي السرحان. وهي أخبار

سارة لنا لأنه لا يوجد علم مسبق بنا وليس معنا تعريف، وأي لقاء قد لا يكون موافقاً عليه. إن الموسم لهذا العام قد تأخر والمرعى سيئ جداً، لذا فإن الوادي قد خلا منذ الربيع الماضي. ولأنه ليس هناك علامات طريق أو أثر من أي نوع إلى الجوف، التي تبعد على الأقل حوالي ٢٠٠ ميل، لذا كان يجب علينا أن نجد دليلاً يدلنا على مواضع الماء. لقد وجدنا شخصاً شرارياً قصير القامة وعجيب المنظر، الذي كان بالصدفة موجوداً هنا، وقد وافق على أن يذهب معنا مقابل ١٠ مجيديات".

* * * *

في صباح اليوم التاسع والعشرين من شهر ديسمبر ١٨٧٨م، غادرت الليدي بلُنت إثرة متجهة إلى الجوف عبر وادي السرحان. استغرقت الرحلة حتى الوصول إلى الجوف سبعة أيام، تخللتها بعض المعوقات. فقد تعرضت مجموعة الرحلة لهجوم أصيبت به آن هي وزوجها ويلفرد، ولكن الأمور سويت مع المهاجمين عندما علموا أنهما إفرنجيان وبحماية ابن شعلان وأعيد لهم ما سلب منهم، وانتهى الأمر بالاعتذار عما جرى.

فيما يتعلق بقبيلة الشرارات، فقد ذكرت الليدي أنها سألت حمدان مرافقهم وقالت: "وكنا نستجوب حمدان عن قبيلة الشرارات، وقد أعطانا مايلي كأقسام رئيسية:

١ - العويرة.................. الشيخ اللحاوي

٢ - الحلسة.................. الشيخ ابن دعيجا

٣ - الخيالي.................. الشيخ زيد الوردة

٤ - شمالات.................. الشيخ فضل الدندة

ليس للشرارات خيول، ولكنهم يربون أفضل الإبل في الجزيرة العربية. ويسمى هذا النوع من الجمال بنات عدهان (بنت عدهان). وقال: لو أنك امتطيت بنت عدهان، وابتدأت من حيث مكاننا عند غروب الشمس، فإنك ستصبح عند شروقها في كاف وهي مسافة ١٨٠ ميلاً. فقد سرق لص منذ مدة ليست بعيدة ذلولاً شرارية من مزيريب في حوران وامتطاها إلى حائل في سبع أيام بلياليهن".

في اليوم الخامس من يناير ١٨٧٩م وصل الركب إلى الجوف وهنا نترك للقارئ مرافقة الليدي بلُنت في إكمال قصتها:

" كانت رحلة شاقة وطويلة لمسافة عشرين ميلاً، ونحن نتوقع باستمرار أن نرى الجوف، إلاّ أن آمالنا تخيب دائماً، فقد تحولت الأرض إلى تلال وأودية مذهلة، لكن كان مستوى الأرض أقل ارتفاعاً مما كان عليه بالأمس، إذ كنا في حقيقة الأمر ننحدر على طول اليوم. وكنا بين فترة وأخرى نلحظ وادي السرحان إلى يميننا، على مسافة بعيدة. من الجهة الأخرى تلال زرقاء. بينما بدت الأرض أمامنا سلسلة مستمرة من التلال الصخرية. وأخيراً، ومن على قمة أحدها، ظهر خط أسود، يشمخ بسواده عاكساً بصفاره خليط تلال الصخور الرملية، والأودية الجرداء، وعرفنا أنها لابد أن تكون قلعة مارد. وبدت شامخة في حقيقة الأمر، وإن كانت مرعبة وسط هذا العراء المقفر. ومضينا نحوها تائقين إلى مشاهدتها عن قرب. ومن ثم وصلنا إلى معبر طبيعي من الحجر الأبيض، وأكد لنا عواد وحمدان أنه امتداد للطريق الروماني، الذي يبدأ من صلخد. وكنا نتمنى لو استطعنا أن نصدقهما، لكن من الواضح أن الطريق من فعل الطبيعة. ومضينا على هذا الطريق لبضعة أميال حتى اختفي. وفجأة وصلنا إلى حافة فسحة منخفضة، وهنالك تحتنا

امتدت واحة كبيرة من النخيل، يحيط بها جدار ذو أبراج متباعدة، وقرية صغيرة تحلقت حول القلعة السوداء. لقد أصبحنا في الجوف.

ليست الجوف كما توقعنا ابداً. لقد كنا نعتقد أننا سنجدها منطقة واسعة ومعتنى بها. لقد انتهى اعتقادنا إلى أن وجدناها مجرد بلدة صغيرة، لاشيء هناك على الإطلاق خارج الأسوار، سوى بضع بقع مربعة الشكل، كل منها نحو نصف فدان، مخضرة بالحنطة حديثة الزرع. وتسقى هذه من آبار، وتروى تمامًا مثل البساتين داخل الأسوار، بمجار صغيرة خطت بأنماط مختلفة.

كل حوض الجوف حقيقة، بالكاد يبلغ اتساعه ثلاثة أميال في أوسع نقطة منه، ويبدو، وهو كذلك بدون شك، الحوض المفرغ لبحر داخلي، أما كيف، أو متى، أو لماذا جف في الأصل، فأمر أعلى من أن أخمن (يستطيع المرء فقط أن يقول مع محمد، إنه "من الله")، ولكن براهين أصله البحري واضحة في كل مكان، ويبدو أوطأ من بقية وادي السرحان، الذي من المحتمل أنه يتصل به، وفي البداية، اعتقدنا أنه ربما كان آخر بقعة ماء للبحر، عندما جف، ولكن القضية ليست كذلك في الواقع، من حيث أن أوطأ جزء منه يقع على نفس مستوى تجويفات الوادي الأخرى. إن آبار هذا الحوض ترتفع ما بين ١٨٠٠ و١٩٠٠ قدم فوق سطح البحر، وهي ضحلة، على عمق بضعة أقدام من سطح الأرض، ويجلب الماء بواسطة جمال تجر حبلاً طويلاً مربرطاً بدلو، يفرغ نفسه عندما يصل إلى السطح فيما يشبه الحوض.

إن البلدة، مع بساتينها، محاطة بسور من اللبن، ارتفاعه عشرة أقدام، وطوله نحو ميلين من الشمال إلى الجنوب، ونصف ميل عرضًا. أما بقية السهل فرملي منبسط قاحل، مع بقعة هنا وأخرى هناك من الأرض الصلبة،

وصلصال رملي حيث تتجمع المياه عندما ينزل المطر، ويبقى الملح عندما تجف.

وأينما حُفرت بئر اتخذ بستان صغير، مسيّج بحائط، ومزروع بأشجار النخيل. ويوجد حوالي اثني عشر من هذه الحقول القاصية يحتل كل واحد منها حوالي فدانين أو ثلاثة. وفي كل مكان واحد يوجد أربعة أو خمسة بيوت ببساتينها، ولها منظر قرية. والحوض بكامله، باستثناء هذه الواحات، أبيض باهر، وتظهر بساتين النخيل كبقع سوداء على سطحه.

الجوف نفسها، لا تحتوي على أكثر من ستمائة بيت، وهي كصناديق مربعة من الطين، ملتم معظمها، حول بقايا قلعة مارد، ولكن ليس جميعها، إذ يوجد حوالي ستة منها، منفصلة تلتم في أجزاء مختلفة من البلدة. وكثير من هذه البيوت لها نوع من الأبراج، أو طابق علوى، وهناك أبراج صغيرة على مسافات غير منتظمة حول السور الخارجي. إن إحدى القسمات الرئيسية للمدينة، بالإضافة إلى مارد، هي قلعة جديدة، خارج صحن الحصن تماماً، يعيش فيها نائب ابن رشيد، وتقع على أرض مرتفعة، وهي مبنى مؤثر في النفس، مربع الشكل، وله أسوار ذات شرفات، وذات ارتفاع قدره ٤٠ قدمًا، ومجنحة بأبراج دائرية ومربعة تستدق أطرافها وتعلو بارتفاع ٢٠ قدماً على البقية، وليس لها نوافذ، بل ثقوب للرمي منها ولكل برج زوائد تشبه القلنسوة لنفس الغرض.

ليس في الجوف ما يمكن أن يعتبر سوقاً، ولا شوارع، كما يفهم المرء عموماً من هذه الكلمة، بل مجرد عدد من الأزقة المتعرجة، ذات جدران من اللبن على الجانبين. فعندما دخلنا المدينة راكبين، وجدنا هذه الخطوط مزدحمة برجال مسلحين، جميعهم يحملون سيوفًا حسب الطريقة التي رأيناها في

كاف، مظلمة طلعتهم. وغير مسرورين من رؤيتنا، كما ظننا. ردوا على تحيتنا (السلام عليكم) ببساطة، وبدون حركة، وتركونا نمر دون بادرة معينة للكرم. أن نفترض أنهم غير مكترثين كان على أيّة حال خطأ، كان برودهم مجرد رسميات عربية، فعندما بدأ محمد يستفهم عن بيت أقربائه أشاروا إلى الطريق بأسلوب حضاري، وجاء معنا واحد أو اثنان منهم، وأخذنا باتجاه عدد من المسالك الضيقة، ومن خلال بساتين النخيل إلى الجانب الآخر من المدينة، ثم خارج المدينة من خلال بوابة أخرى، بعدها إلى أحد الحقول المنعزلة، التي رأيناها من المرتفع. وكان قريبا، على بعد لا يبلغ الميل، وفي بضع دقائق أخرى ترجلنا، وعوملنا بكرم بالغ في (قهوة) حسين الأنيقة. أما عَما هي بالضبط علاقة حسين بمحمد، فلم أستطع حتى الآن اكتشافها - ومحمد نفسه لا يكاد يعرف - غير أنه من الواضح هنا، أن أية قرابة عصب مهما كانت خفيفة، تعتبر ذات أهمية عالية. لم نكد نجلس إلى نار حسين نراقب تحميص البن، حتى وصل قريب آخر، جذبه نبأ وصولنا، ثم آخر، وكلاهما يضجان بالعتاب لكوننا قبلنا ضيافة حسين لا ضيافتهما. وقبّل محمد، وعونق، وكل ما استطاع أن يفعله لتهدئة هذين القريبين، هو أن يعد بأن يقيم أسبوعًا عند كل منهما بمجرد انتهاء زيارتنا لحسين. حقًا إن الدم هنا أثقل من الماء. إن الظهور المفاجىء لابن العم العشرين يسبب الشقاق فيما بينهم بسبب رغبة كل منهم في استضافتنا. تم ذبح خروف، واستمتع كل واحد منا بترف الاغتسال في خيمتنا. وتغيير تام للملابس. لقد نُصبت الخيمة في بستان نخل صغير خلف المنزل، ونحن إلى حد ما في سلام، وفي قدرتنا أن نفكر في كل ماحدث، ونضع خططنا من أجل المستقبل.

٦ يناير ١٨٧٩م:

الليلة البارحة، بينما كنا جالسين نتناول القهوة للمرة التاسعة أو العاشرة منذ وصولنا، دخل إلى القهوة شابان وجلسا. كانا في ملابس زاهية، جُبَب حريرية وقمصان مطرزة تحت عباءتهما الصوفية السنجابية اللون، وكل منهما وضع على رأسه كوفية حمراء من القطن، وعقالاً أبيض، وكان سيفاهما بمقبضين من الفضة. وقف كل واحد في (القهوة) عند دخولهما وظن كلانا أنهما ابنا الشيخ، أو من شخصيات الجوف البارزة. وهمس ويلفرد بسؤال عنهما إلى حسين، الذى ضحك وقال: إنهما ليسا من أبناء المشايخ ولكن "زلمات ابن رشيد" - رجال ابن الرشيد، من جنوده، في الواقع. كانت الكوفيه الحمراء والسيف ذو المقبض الفضي، نوعًا من الزي الرسمي. لقد جاءا، كما اتضح الآن، من عند دَوّاس نائب الحاكم في الجوف، ليدعوانا إلى القلعة ومع أننا كنا آسفين أن نترك بستان حسين الهادىء، وكرمه اللطيف، فقد ظننا أن من الحكمة أن نستجيب. فحسين، ولا أي شخص آخر، كما يبدو، يعتقد أنه من الممكن أن نستطيع أن نرفض، لأن حكومة ابن رشيد مطلقة في الجوف، ورغبات نائبه ينظر إليها على أنها أوامر، ولا يبدو أن هناك أي شعور سيىء بين الحامية والمدينة. ويظهر أن الجنود الذين رأينا، على وفاق تام مع كل الناس وهم حقاً ذوو أرواح مرحة، ومن الصعب أن تتخاصم معهم. ولكن الجوف مكان منتزع بالقوة، وفي حالة حصار دائم، والنظام المحافظ عليه صارم جداً. لقد انتقلنا بكل مخيمنا إلى محيط المقر الرسمي، وأقمنا المخيم تحت أسواره. إن القصر، وهو ـ كما قلت ـ خارج البلدة، قام ببنائه منذ حوالي اثني عشر عامًا، متعب ابن رشيد، أخو الأمير طلال (صديق السيد بلغريف)، ورغم أنه حديث جداً في تشييده، فله مظهر العصور

الوسطى الكامل، لأن الهندسة المعمارية لا تتغير قط في الجزيرة العربية. إنه مبنى بهيج بأبراجه الأربعة في الأركان، تتخلله الثقوب، ولكن بدون نوافذ، ويوجد باب واحد فقط، وهو صغير في زاوية من زوايا السور، ويبقى دائماً موصداً. وفي داخله يدور المدخل ويتعرج، وبعد ذلك يوجد فناء صغير تحيط به أسوار عالية، و(قهوة) بالإضافة إلى بضع غرف صغيرة ولكنها مظلمة وكئيبة كالزنزانات. هنا يعيش نائب الحاكم مع ستة جنود شبان من حائل، الذين يحكمون ويقومون بأعمال الحامية وأعمال الشرطة في الجوف. والحاكم نفسه غائب الآن في سكاكا، وهي البلدة الصغيرة الأخرى في منطقة الجوف، على بعد ٢٠ ميلاً من هنا. والحاكم كما أخبرونا عبد زنجي، ولكنه شخص على درجة كبيرة من الأهمية، وصديق شخصي للأمير.

والجوف، بقدر ما استطعنا أن نعلم من محمد، لأننا لا نحب أن نسأل أسئلة كثيرة، كانت في السابق إقطاعية لابن شعلان، مشايخ الرولة، وما تزال تدفع إتاوة لسطّام، ولكن متعب بن رشيد فتحها منذ حوالي ٢٠ سنة، وعوملت منذ ذلك الحين كجزء من نجد، وقد حدث تمرد مرة أو مرتين، غير أنه أخمد بعنف، وتخاف الجوف الآن من أن تحرك أصبعاً ضد الأمير. وبمناسبة واحدة من هذه التمردات قطع متعب عدداً كبيراً من أشجار النخيل وترك المدينة في حالة نصف خراب، لذا فهم ملزمون بالانتظار، والحصول على أعلى فائدة من الوضع القائم. في الحقيقة لا تستطيع الحكومة أن تكون شديدة القهر، فهؤلاء الستة الجنود بأقوى إرادة في العالم لا يستطيعون أن يستبدوا كثيراً في مدينة ذات أربعة أو خمسة آلاف من السكان. إنهم جميعاً شبان أشداء، نشيطون، لطاف الروح، يخدمون هنا سنة مرة واحدة، ثم يعفون، إنهم متطوعون، ولا يحصلون على رواتب، ولكن لهم، كما

افترض، بعض ميزات، حينما يكونون قد أدوا خدمتهم، انهم كما يبدو شديدو الولاء للأمير. وكما أخبرونا، فإنه منذ أربع سنوات، أرسل حاكم دمشق التركي، حملة عسكرية ضد الجوف (نفس الحملة التي سمعنا عنها في كاف)، واحتفظ بها لعدة أشهر، ولكن ابن رشيد احتج إلى السلطان، وهدد بطردهم وبعدم استمراره بدفع الإتاوة لشريف المدينة إذا لم تسحب القوات، وهكذا كان عليهم أن يذهبوا من حيث أتوا. وهذه الإتاوة يدفعها الأمير بسبب أملاكه النائية مثل كاف، وتيماء، والجوف، التي حاول الأتراك في عدة مناسبات أن يتدخلوا بها. وهو، على أية حال، مستقل تمامًا عن السلطان، ولا يعترف بالسيادة لأي مكان. إن عظمة ابن سعود والوهابيين الآن شيء يتعلق بالماضي، ومحمد ابن رشيد أقوى حاكم في جزيرة العرب.

إننا نسمع تقارير ساحرة عن نجد، على الأقل عن الجزء الشمالي منه، فيمكنك أن تسافر في أي مكان، كما يقولون، من الجوف إلى القصيم بدون حماية. إن الطرق آمنة في كل مكان، وقطع الطريق لم يعرف في مسالك بلاد الأمير منذ سنين كثيرة، والناس الذين يوجدون يتسكعون قرب الطرق تقطع رؤوسهم. ولا يسمح ابن رشيد بالغزو ضد المسافرين، وعندما يقوم بحرب فهي ضد أعدائه. إن ابن هذال وابن معجل صديقان له، ولكنه ليس على وفاق مع سطام الشعلان وشيوخ السّبعة.

يوجد في القلعة مدفعان زنة ١٢ رطلاً، إنجليزيا الصنع. وهما قطعتان قديمتان لاقيمة لهما، ولكنها أُستعملا كما يبدو، في حصار الجوف بواسطة متعب.

إن الجوفيّين، من عنصر مختلف عن شمر نجد، فهم خليط في أصلهم تقريبًا مثل التدمريين أو القرويين في الفرات. حسين القُلب، مضيفنا الأول،

أخبرنا أنه ينتمي لطيٍّء، وإن آخرين من جيرانه من السرحان، أو بني لام وهو ليس في الحقيقة ابن عم لمحمد، ولكن ابن عم لابن عم، فأبناء العم الحقيقيون يعيشون في سكاكا. ومع أننا كنا مرتاحين جداً معه، فلسنا هنا أقل ارتياحًا، وإنه لأمر أكثر إمتاعًا أن نكون في القصر، ودواس، نائب الحاكم، امرؤ ينتزع الحب، وجميع جنوده متحضرون ومؤدبون للغاية. إنهم مجموعة من الناس الذين يثيرون البهجة، ويتكلمون معنا بصراحة، في السياسة وفي كل شيء. ويؤكدون لنا أن ابن رشيد سوف يسر لرؤيتنا، ولكن ينبغي علينا أن نرى جوهراً الحاكم أولاً. هناك عدد من الأرقاء الحقيقيين في الحصن، غير أنه لا يوجد نساء. إن الجنود يتركون زوجاتهم خلفهم في حائل، حينما يذهبون في الخدمة العسكرية.

لا توجد خيول في الجوف، باستثناء مهر عمره سنتان لأحد الجنود. لقد أبدو إعجابًا شديداً بشقراتنا قائلين إنه لا شيء يوجد بجمالها في نجد. كما لا يوجد أي نوع من حيوانات الحمل، حتى الحمير. والجمال القليلة الموجودة في المدينة يحتفظ بها لمتح المياه من الآبار، وكل ما رأيته من المخلوقات ذات الأربعة أطراف، هي فقط عدد قليل من الماعز، وثلاث بقرات في القصر يعانين من الجوع.

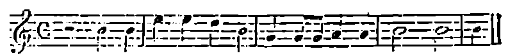
ولا توجد ذرة من الخضرة في نطاق أميال من الجوف، وعلى الجمال وهذه البقرات أن تأكل التبن مقطعًا، ولا تقبل أن تأكل التمر.

تألف عشاؤنا اليوم من حمل، وثلاثة أطباق أخرى - أحدها نوع من المعجون يشبه العجينة المستعملة في لصق الورق، وآخر مجرد زبدة زنخة مع بصل مفروم، والثالث خبز مفتوت في الماء - وكلها غير مستساغة عدا الحمل. وعلى أية حال، فقد كان هناك طبق إضافي أحضر لنا كمفاجأة، قطع لحم

البدن من النفود، مشوي في الرماد، كان من أحسن اللحوم التى ذقتها.

وفي المساء رتب لتسليتنا رقص وغناء، اشترك فيه دواس والجنود، لعبوا نوعًا من رقصة السيف، وكان أحد اللاعبين يدق على طبل صنع من خشب النخيل وجلد الحصان، بينما رفع الباقون سيوفهم على أكتافهم وغنوا لحناً مهيبًا، ورقصوا بمهابة وجلال. ومن وقت لآخر كانت السيوف ترفع ويلوح بها، ثم تنطلق صرخة تشبه إلى حد كبير ما قد يسمع في حلبات الصيد في بلادنا. ومرة أو مرتين كان هناك "هو - هوب" مميزة، ومضبوطة في المفتاح الموسيقي الملائم، وبالتفخيم المناسب، كانت أكثر الألحان أخاذة، على طريقة الموسيقى العربية، وجرى أحدها على النحو التالي :-

(صورة النوته الموسيقية على صفحة ١٢٢ من المجلد الأول من الكتاب)



انتهى الرقص، وفي صحن كبير مزج الدبس وعصير الأترنج، وشربت كميات هائلة من هذا السائل المهدىء. ونحن الآن هادئان خارج القلعة، التي تكون مغلقة طيلة الليل، حيث نستمتع بحريتنا لنكتب أو نضع رسوماً تخطيطية على ضوء القمر، أشياء لا نجرؤ على فعلها خلال أوقات النهار.

٧ يناير ١٨٧٩م.

حمدان، دليلنا الشراري الذي كان قد اختفي، عاد هذا الصباح خلسة من أجل الحساب المستحق له، ويقول: إنه خائف من القوم الذين في القلعة، ولا يستطيع البقاء معنا.

جاء رسول من سكاكا بدعوة من جوهر [عامل الجوف] لنا، ولهذا فنحن ذاهبون هناك غداً، ولن نقيم مع جوهر، فليس له منزل خاص به، بل سنقيم

مع آل عروق، الذين تم اكتشافهم أخيراً. أرسل ناصر بن عروق رأس الأسرة عند سماعه بوصولنا، ابنه، حاملاً رساله تتضمن كل أنواع المجاملات، وإلى بيته سنذهب. والشاب متواضع، مهذب بدون رياء، أمين وصريح، إذا كان بإمكان أي أحد أن يقرأ أي شيء في الوجوه، وبكل وضوح كان شديد التأثر بالشرف الذي ناله بزيارتنا المعتزمة.

لقد كنا نقوم بزيارات طيلة الصباح، الأولى لمضيفنا السابق حسين، والأقرباء الآخرين، ثم لواحد أو اثنين من وجهاء المدينة. ويقول حسين: إن بيت الحبوب الذي ذكره المستر بلغريف موجود، ولكن أنبل العائلات هي عائلة محسن ابن درع، الذي كان شيخ الجوف في السابق، ولكنه الآن أنزل إلى حالة واحد من رعايا الأمير. وابن درع (يخبرنا محمد) ليس راضيًا عن التغيرات السياسية في الجوف بأية حال، ولكنه يخاف أن يظهر أكثر عدم رضائه لأن محمد بن رشيد يحتفظ بابنه الأكبر رهينة ليضمن حسن سلوكه. ويقيم هذا الشاب في حائل، وهو هناك ليس سجيناً بالمعنى الحرفي، لكنه لا يستطيع أن يعود إلى أصدقائه. أطعمنا، وأكرمنا في كل المنازل. وكان علينا أن نشرب فناجين لا نهاية لها من القهوة المطعمة بالهيل، وأن نأكل ما لا يحصى من التمر، حلوة الجوف، التي يقولون عنها: إنها الأفضل في جزيرة العرب، إنها ذات نكهة ممتازة، ولكنها شديدة الحلاوة وشديدة اللزوجة للاستعمال العام، إن أهل الجوف يكادون يعيشون كلية على التمر، ليس على (الحلوة) فقط، وهي ليست بأية حال نوعاً شائعاً. فهنا توجد أصناف من التمر هي من الكثرة بقدر التفاح في حقول بلادنا، وكل صنف مختلف عن الآخر تمامًا. والنوع المفضل لدينا للأكل الاعتيادي مجعد وفاتح اللون وأكثر دائرية من الحلوة، وفي حين أن هذه لا شكل لها إلا أن لونها أشقر كلون الفرس الشقراء.

إنه لخطأ كبير أن نفترض أن التمر أحسن ما يكون عندما يكون حديث الجنى، على عكس ذلك، إنه ينضج مع الحفظ. وأحلى الأنواع تحتوي على سكر كثير، لدرجة أنها حين توضع في طبق مكشوف تتحول إلى شراب يتكون فيه السكر على شكل قطع كبيرة. ولا أشك في أن السكر العادي يمكن تصنيعه منها.

إن طريقة صنع القهوة هنا هي إلى حد كبير نفس الطريقة المعروفة بين بدو الشمال، باستثناء أنها أكثر إملالاً. فهناك، أولاً، عملية لا متناهية لتنقية وفرز حبات البن، وهي أصغر حجمًا وأخف لونًا مما يلقى المرء في أوروبا، ثم بعد التحميص، عملية سحن طويلة في الهاون، ولو أن البن لا يسحن ناعماً قط، ثم غسيل مفرط لآنية القهوة، خمسة أو ستة منها، وأخيراً الغلي الفعلي، وهو يجرى ثلاث مرات، إن هواوين الجوف أنيقة جداً، ومصنوعة من الصخر الرملي الأحمر، الذي هو الصخر الشائع في البلاد، وهي، كما أعتقد، سلعة للتصدير، وإني لأرغب أن آخذ واحداً منها معي، ولكنها ثقيلة جداً، كل واحد منها ربع حمل الناقة. وتصميمها بسيط ولكنه أنيق، ولن أكون متفاجئة إذا تبين أنها قديمة جداً.

أما صناعة الجوف الوحيدة الأخرى، التي سمعت عنها، فهي فقط أحزمة الخراطيش، وعباءات صوفية. والأولى رائعة ومطرزة بالفضة، وجميع الخدم، اشتروا منها، أما الأخيرة فهي مصنوعة من الصوف الذي يجلب من بغداد. واشترى عواد واحدة بستة مجيديات ونصف.

بعد ذلك ألقينا نظرة على قلعة مارد، البناية الوحيدة من الحجر في الجوف، ويرجع تاريخ تشييدها، كما أعتقد، إلى العصور الوسطى وإنها بالتأكيد ليست كلاسيكية، وليس لها ملمح خاص يجعلها مثيرة للاهتمام. وتبدو

أجمل عن بعد. تضع الخريطة القلعة في محاذاة الطريق من الجوف، ولكنها في الحقيقة داخل أسوار المدينة، على الطرف الغربي. وتقف على ارتفاع ٢٠٠٠ قدم فوق سطح البحر.

. . . .

بينما كنا نجلس في منزل ابن درع، رأينا نموذجاً لعمل حكومة ابن رشيد الأبوية، وأولى علامات الوهابية. كان قد نودي لصلاة الظهر من سطح المسجد القريب، إذ ليس هناك منارة في الجوف، و لم يبد على أي فرد لبرهة من الزمن، أي ميل لأن يتحرك، متخذين من زيارتنا عذرًا. ثم ابتدأ رجل مسن ذو وجه فظ يحاضر الأصغرين ويخبرهم أن ينهضوا ويذهبوا للصلاة، وعندما لم يجد لأمره أي جدوى معهم، ضرب لهم المثل في النهاية. ومع ذلك ظلت المجموعة الرئيسية للضيوف جالسة، إلى أن نهض فجأة الجنديان الشابان اللذان جاءا معنا وأخذا يصيحا بكلمات "قم، قم"، واضعين صفحات سيفيهما على البقية وساقوهم جميعًا إلى المسجد، ما عدا مضيفنا الذي جعله مركزه بهذه الصفة مرعوباً من الإهانة. ومن الواضح جداً أن الدين ليس مقدرًا حق قدره هنا، وباستثناء الرجل ذي المنظر المسن والوجه الفظ، لم يبدُ أن أحدًا ينظر إلى الصلاة نظرة جدية، فالجنديان بعد أن أديا واجبهما في سوق الآخرين إلى المسجد عادا من دون صلاة. إن التعبير المادي للدين لا يبدو طبيعياً بين العرب.

٨ يناير ١٨٧٩م:

صباح غائم، يلفه الضباب تقريباً، مع زخة من المطر. ودعنا دواس وجنوده. وبدا عليهم الأسف حقاً لفراقنا. إنهم أناس ذوي مزاج حسن وأمناء

بشكل غير عادي، و قد عاملونا بلطف بالغ. كانت آخر التفانة من دواس نحوي هدية من الأترغ كبيرة في حجم جوزة الهند الضخمة. إن الاترنج ليمون حامض وليس حلواً، ولكن له قشرة سمكها بوصة، وذات حلاوة تكفي لأن تؤكل ولو أنها كثيرة الزغب.

تقع سكاكا، حيث وصلنا اليوم، على بعد حوالي ٢٠ ميلاً من الجوف. يوجد طريق بين المكانين، وهو مستخدم كثيرًا. كنا جماعة كبيرة العدد نسبيًا، لأن عددًا من الجوفيين جاؤوا معنا للمرافقة، وكان معنا عريبي بن عروق، ابن نصر بن عروق، وعروق آخر، ابن عم له، ورجل معه بندقية، كان في طريق ذهابه معنا إلى حائل. كل الجماعة ما عدانا كانت تسير على الأقدام، لأن الجوفيين لا يركبون أبداً، فليس لديهم خيل ولا جمال ولا حتى حمير. وكان مع أحد الرجال صدفة بيضة نعام مدلاة في شبكة من نوع ما، وتستعمل كقلة لحفظ الماء. أخبرنى أن النعام مألوف في النفود، الذى هو الآن قريب من هنا. كان المنظر على طول الطريق رائعًا، وأحيانا يستحق التصوير. عبرنا أولاً حوض الجوف إلى الناحية الأخرى، مارين بعدد من الحقول البور، السطح مجدب تماماً، وأدناه مغطى بالملح. إن هذا الانخفاض بكامله ليس إلا ميلاً واحداً عرضاً. ثم فجأة ارتفع طريقنا مائة قدم فوق ضلع من الرمل، ثم مرة أخرى مائة وستين قدماً فوق سلسلة صخرية، منحدرين مرة أخرى لنعبر سبخة ذات حاشية من شجر الطرفاء في حالة إزهار الآن، ثم بقع من حصباء ناعمة من الصخور الحديدية لايمكن تمييزها عن فضلات الأغنام.

وعلى بعد ساعتين من الجوف يوجد تجويف مائى يسميه الجوفيون نبعاً، والماء على انخفاض حوالي ٨ أقدام تحت سطح الأرض. وفي الوديان حيث قد جرى الماء (لأن المطر نزل هنا منذ شهر تقريبًا)، وجدت نباتات بصلية زاهية

ذات زهور زعفرانية تضفي على المكان مظهرًا زائفاً للخصوبة. وفي أماكن أخرى أحجار عجيبة من الصخر الرملي الوردي مكللة بالحديد. وعلى مسافة، ناحية الشمال، عدد من الكتل التلالية، جبل الحماميات، (أو جبال الحمام)، وهي أكثر شيء لافت للنظر. وهذه يمكن أن تكون أعلى من الجوف بألف قدم. وبعيدًا وراء ذلك، إلى الشمال الشرقي، وإلى الشرق جرى خط الأفق مستويًا على ارتفاع متساو، حتى الحماد، لأن كل الجهة التي كنا نقطعها، هي في نطاق بحر قديم، من المحتم أنه شمل كما نفترض، وادي السرحان، والجوف، وسكاكا.

وعلى إحدى الصخور لاحظت نقشًا، أو بالأحرى صور جمال وخيول محفورة على وجه مسطح عرضه حوالي خمسة أقدام، ولم نستطع، على أية حال، في مثل ظروفنا أن ننقشه نسخاً.

إن سكاكا، مع انها ليست مقر حكومة جوهر، بلدة أكبر من الجوف - سبعمائة بيت، كما يقولون، وبساتين للنخيل على الأقل ضعف ما في الأخرى. ومركز المدينتين يكاد يكون واحداً، تجويف عريض محاط بحروف من الصخور الرملية، ولكن حوض سكاكا أقل انتظاماً، وتنتصب فيه تلال رملية وتلال نائية من الصخور. وسكاكا كالجوف ذات قلعة قديمة، تجثم على مرتفع يبلغ علوه حوالي مائة قدم، ويهيمن على البلدة، المبنية بطريقة غير منتظمة وليس لها سور متصل حول بساتينها. يوجد عدد كبير من البساتين والمنازل المتفرقة عن بعضها، وهي ليست مخربة مثل تلك الموجودة بالجوف، والتي خربتها الحروب الأخيرة. جميع هذه البساتين والمنازل ذات منظر مزدهر، ولا يوجد فدان واحد يمكن ريه ولم يُزرع. كل شيء مرتب ونظيف، الأسوار جديدة الشرفات، وكل منزل منسق وكأنه جديد البناء. وقطع

الأرض المربعة الشكل المزروعة بالشعير مسيجة بأسيجة مصنوعة من أغصان النخيل المجدولة، والشوارع والأزقة أنيقة بشكل دقيق. سرنا عبر هذه الشوارع والأزقة وبدون توقف، لما يقارب ميلين بعدها إلى بستان ناصر.

نحن الآن في قلب عائلة ابن عروق، وهي بعد كل شيء ليست أسطورة بل واقع مضياف، فقد استقبلونا بسواعد مفتوحة، وكأنهم ينتظروننا كل يوم على مدى المائة سنة الأخيرة. إنهم يعرفون الملحمة الشعرية لابن عروق، ونسب محمد أكثر مما يعرف هو نفسه، لذلك يمكننا الآن على الأقل أن نأمل أن نكون في ترف، حتى لو لم نذهب إلى أبعد من هنا، فربما نشعر أن سفرتنا لم تكن قط عبثاً.

أقمنا ثلاثة أيام مع نصر وأولاده وزوجاتهم وأولادهم في منزلهم الريفي الهادىء. وكانت استراحة نحن في أمس الحاجة لها، وأثبتت أنها تجربة مثيرة وفرصة ممتازه للتعلم أكثر عن الحياة العربية البيتية، أكثر مما علمناه في رحلاتنا السابقة. . . . . (١٠).

* بينما كانت الترتيبات العائلية تجري بشأن زواج محمد، كان بين أيدينا أيضًا مفاوضة أكثر أهمية تتعلق بنا، وكانت تلك هي الحصول على موافقة الحاكم على رحلتنا إلى حائل. كان أول شيء يجب عمله، هو أن نقيم صداقة مع جوهر، لأن كل شيء في هذه البلاد الاستبدادية يعتمد على حسن نيته ورضاه، وإذا اختار أن يعيدنا إلى كاف عند وادي السرحان، فإني لا أعلم إن كنا نستطيع أن نُبدي أي مقاومة. الجوف ليست مكاناً يسهل الخروج منه. إنها تبعد أكثر من ثلثمائة ميل عن أقرب نقطة على الفرات، وبدون تصريح من الحاكم لم يكن أي إنسان ليجرؤ على أن يسافر معنا ميلاً واحدًا. لذلك، ففي اليوم التالي لوصولنا سكاكا، زرنا جوهراً، الذي كان قد أبلغ مسبقاً عن

زيارتنا، واستقبلنا استقبالاً رسمياً.

كان جوهر أسود اللون بشكل كامل، ذا ملامح إفريقية منفرة، طويلاً وسميناً جداً، ومختالاً جداً. ارتدى جوهر أفخر ملابسه لاستقبالنا، عدد من الجبب الحريرية المزخرفة، واحدة فوق الأخرى، وسراويل بزرقة السماء - أشياء جديدة علينا في بلاد العرب - وعباءة سوداء ومذهبة وكوفية أرجوانية. كان قميصه قاسياً بسبب النشأ، وتصدر عنه فرقعات كلما تحرك، ويحمل بيده سيفاً ذهبياً أنيقاً، ويبدا بشكل عام، كحاكم بربري مستبد، يتمنى المرء مشاهدته. لقد جعلنا ننتظر عشر دقائق تقريباً في القهوة ليزيد، كما افترض، من أهميته، ثم دخل خلف موكب من الرجال المسلحين والمجهزين بسيوف ذوات مقابض فضية، وأحزمة مزخرفة بالفضة، وكوفيات زرقاء وحمراء، مثبتة بعقل بيضاء ثخينة. تصنّع جوهر إضفاء جو من اللطف، باهت نوعاً ما، لشخصية ملكية، متنقلاً في الحديث من موضوع إلى آخر بدون تمهيد، وأحيانًا يطلب تفسيرًا لملاحظاتنا أو أسئلتنا من شخص أو آخر من الحاضرين. ولقد أدهشني أن أشاهد هذا الزنجي، وهو مازال مملوكًا، مركزًا لمجموعة متملقة من رجال الحاشية البيض، ولهؤلاء العرب، الذين كثير منهم نبلاء بالدم، ينحنون أمامه، وعلى استعداد لإطاعة أدنى إشارة من طرف عينه ويضحكون لأتفه نكتة من نكاته. بعد بضع لحظات من الصمت المهيب، أصبح جوهر، كما قلت، ودودًا، وبدأ يسأل عن الأخبار. إننا قدمنا من الشمال، وكنا قادرين على أن نخبره بكل شيء عن الحرب. ماذا كان يفعل سطام الشعلان، وماذا كان يفعل ابن سمير، الذي من الواضح أنه بطل بالنسبة للجوفيين، أو على الأصح لأهل حائل، لأنهم ليسوا أصدقاء لسطام، ومحمد الدوخي، الشيخ، الذي يعتبر المنافس الكبير لسطام. وكنا مسرورين لأننا نستطيع أن

نقول إننا رأينا ابن سُمَير في دمشق منذ مدة لا تبلغ الشهر. أخبرنا جوهر بالمقابل عن تقرير حمله مؤخرًا إلى سكاكا بعض الصَّلَبَ يفيد إن قبيلة الرولة قد هُزمت في قتال مع محمد الدوخي، وإن سطاماً قد قُتل - تقرير أسفنا لسماعه.

ثم سألنا، ولكن بنغمة تعبر عن اهتمام أقل، عن السلطان. فأخبرناه أن السلطان عقد صلحاً مع المسكوف (الروس). كان جوهر مسروراً لسماع ذلك قائلاً: الصلح خير! والآن " إن شاء الله السلطان مبسوطون " قال هذا بلهجة عاطفية مصطنعة معاضدة، وبرنين أغن في الصوت، كان مضحكاً إلى حد كبير. عندئذ دار همس قصير بين محمد وواحد من الحاشية، انتهى بخروجهما معًا، ليسلما لجوهر الهدايا التي جئنا بها له.

أعتقد أن محمداً قد وضع موضع الاستجواب بالنسبة لمركزنا وأهداف رحلتنا، وأجاب، كما كنا اتفقنا من قبل أن يفعل، بأننا ذاهبون إلى البصرة لمقابلة أصدقاء، وأننا جئنا عن طريق الجوف حتى نتجنب الرحلة البحرية. كان هذا صحيحاً، ولو أنه لم يكن بأية حال كل الحق. كان حقًا بالنسبة لما حدث، وكانت قصة فُهمت بسهولة وقبلت من أولئك الذين رويت لهم. وأضاف محمد فوق ذلك، أنه وبما أننا حدث ومررنا في المناطق الخاضعة للأمير، فإن البيك الإنجليزي كان حريصًا على أن يقدم احتراماته لابن رشيد في حائل، قبل أن يذهب أبعد من ذلك، وطلب من جوهر أن يقدم لنا الأدلاء اللازمين. بعد بعض النقاش وبعض التردد اقتنع الحاكم بفعل ذلك. لقد رق قلبه بفعل الثياب الجميلة التي قدمناها له، وأعتقد أن هدية صغيرة في شكل نقود جرى حديث في أمرها بينه وبين محمد.

عندما تم استدعاؤنا مرة أخرى إلى مجلس جوهر، على سطح المنزل هذه

المرة، وجدنا وجه الزنجي غارقًا في الابتسامات، وأن رحلتنا قد بحثت كأمر مفروغ منه. ثم مدت البسط، وجلسنا جميعا على السطح، وتناولنا طعام الإفطار، لحما مسلوقاً ورزًا، ومرقاً لاذعاً يوضع على الرز، وبعد الغسل المعتاد، و-الحمد لله- انسحبنا، في غاية السرور لنتخلص من الذباب والشمس الحارة على سطح جوهر، ولم يكن امتناننا قليلاً لتتحول الأمور لصالحنا، وكما أشار ولفرد، عندما استوينا على أمهارنا مرة أخرى متجهين إلى المنزل، إن جوهراً صورة لمستبد متقلب الأطوار، الذي يمكن، إذا كان مزاجه متكدراً، أن يأمر بقطع رؤوسنا باحتفال أكبر من احتفاله بإصدار أمر بإعداد طعام الإفطار. لقد كان آخر أيامنا في سكاكا يومًا هادئًا.

١١ يناير ١٨٧٩م:-

كل صباح منذ أتينا إلى هنا يوجد ضباب، واليوم السبت كما ذكرت، هطل المطر غزيرًا، مصحوباً برعد وبرق، وكما أعتقد، فإن الحال هي دائماً في الغالب هكذا في هذا الجزء من العالم. لقد اندهشت جداً عندما علمت، عند الحديث عن البرق، أنه لا أحد في سكاكا سمع عن أناس قتلهم البرق، ومحمد يؤكد ذلك القول ويؤكد أن نفس الوضع هو الموجود في تدمر. بدأ محمد مندهشاً عندما سألته إذا كان يعتقد أن البرق خطر؟ ويقول: إن حوادث بسببه لم تحصل مطلقًا في الصحراء. إن هذا غريب. إن سطح التربة في سكاكا يكاد يكون رملاً نقيًا، ويجري المطر من خلالها بالسرعة التي يسقط بها، ويبقى فقط في تجاويف قليلة، حيث يوجد نوع من الرواسب الصلبة بما يكفي للاحتفاظ بالماء.

صفا الجو بعد الظهر، وقمنا باستطلاع صغير إلى قمة التل المنخفض خارج مزرعة ناصر، والتل من الصخر الرملي، ذو لون برتقالي من الأسفل، ولكن

عوامل الجو جعلت لون سطحه العلوي أسود، وارتفاعه لايزيد على مائة قدم، وينتصب وحيداً، ويسيطر على منظر ممتد، غريب ككل المشاهد في منطقة الجوف، الجميلة جداً أيضاً. في الأرض المقابلة والواقعة أسفل التل يقع الحقل، مسور بسياج، وهو مربع الشكل، ثلاثة أو أربعة فدادين، بنخيله وأثله، ومنزليه الواطئين المبنيين باللبن، وآباره، يبدو منسقًا ومرتباً وكثير الخيرات. وما وراء ذلك، يرى الناظر إلى ناحية الغرب ثلاثة حقول أخرى، بقع من الخضرة العميقة، في برية متكسرة من الرمال والصخور الرملية، ثم خلفها سكاكا، التي لا يُرى منها غير أطراف قمم نخيلها فقط، والكتلة السوداء للقلعة ترتفع فوقها في معلم رائع. وامتد الخط الطويل لحقول النخيل إلى الجنوب، مختفية في النهاية في كتلة مشوشة من التلال الرملية. جذبت هذه التلال بصفة خاصة ملاحظتنا، لأنها حدَّدَت معالم بداية النفود، ليس النفود الكبير حقًا، بل مجموعة من الكثبان المنعزلة، التي نما عليها الغضى، إن طريقنا كما نعرف، تمتد عبرها، وإننا سننطلق غداً.

بينما جلست أعد رسماً تخطيطيًا لهذا المنظر الغريب، عاد ويلفرد الذي كان قد تسلق إلى قمة صخرة طويلة، تتوج التل - عاد ليخبرني أنه اكتشف نقشاً. لقد كنا نبحث، منذ وصولنا في منطقة الصخور الرملية، عن آثار لكتابات قديمة، ولكننا حتى الآن لم نجد شيئاً إلا بعض خدوش مشكوك فيها، وقليل من هذه هي تصميمات بسيطة يجدها المرء في كل مكان في الصخور الرملية، تمثل جمالاً وغزلاناً. وهنا، على أية حال، كانت ثلاثة أحرف واضحة التكوين 0، H II، اثنان منهما ينتميان إلى الأبجدية اليونانية.

وكان واضحاً من نوع النقش، أنها وجدت هناك منذ سنين كثيرة، وعلى هذا بنينا عدداً من التخمينات التاريخية تتعلق بسكاكا وحالتها في الأزمنه الكلاسيكية.

وعندما عدنا إلى المنزل، وجدنا أن محمدًا كان يعد الترتيبات الأخيرة مع جوهر من أجل رحلتنا. لقد أثار الرجل العظيم اعتراضات على نقطة من نقط المفاوضات، ولكن هذه سويت بقطعة ذهبية، وقد وافق الآن على أن يرسل معنا دليلاً محترفاً لعبور النفود. يبدو أن هناك طريقين، من خلالهما يمكن الوصول إلى حائل، أحدهما يُقطع في ثلاثة عشر يوماً، والآخر في عشرة أيام. ويقولون إن الأول أفضل بالنسبة للجمال المحملة، لأن الرمل أقل عمقًا، إلا أن من المحتمل أن نختار الطريق الأقصر، ولو من أجل أن نرى النفود في جزئه الأسوأ فحسب، فالنفود كان موضوع أحلامنا طيلة هذه الرحلة، كصحراء ليس هناك ما يفوقها في العالم. لقد سمعنا عنها تقارير عجيبة هنا، وعن الناس الذين فقدوا فيها. إن رحلة العشرة أيام هذه، تشكل مسافة ما يقارب مائتين من الأميال، وليس هناك إلا بئرين على الطريق، الأولى على مسافة يومين، والأخرى على مسافة ثمانية أيام. سيحضر الدليل جمله، وسيحمل قربتين من الماء، وقد اشترينا نحن أربعًا أخرى، ليصبح المجموع ٨ قرب. وهذه سوف تكفي أمهارنا وتكفينا، وعلينا أن نكون حريصين. لقد حملنا كميات كافية من التمر والخبز، وما زال لدينا واحد من الجديين، لنستعمله لحمًا، أما الآخر فقد أُكل كما سبق أن قلت، ولا يمكن التعويض عنه بآخر. إن المؤن من أي نوع يصعب الحصول عليها في سكاكا.

واستطاع جوهر أن يحصل لنا على حمولة جمل من الحنطة باستعمال بعض التهديد تقريبًا بالأسلوب التركي.

كف المطر، والقمر مشع، واستعداداتنا لعبور النفوذ قد تمت، وفي بضع ساعات سنكون في طريقنا *.

غادرت الليدي بلُنت وزوجها ومرافقوهم سكاكا في اليوم الثاني عشر من شهر يناير ١٨٧٩م في طريقهم إلى حائل.

الهوامش:

(1) Archer,Rosemary.,and James Fleming. ed. **Lady Anne Blunt : Journals and correspondence 1878-1917**. Cheltenham: Alexander Heriot&Co.Ltd, 1986.pp.11-18.

(2) Longford, Elizabeth. **A Pilgrimage of Passion: The life of Wilfrid Scawen Blunt**. London: Weidenfeld And Nicolson,1979.

(٣) الليدي آن بلنت . **قبائل بدو الفرات عام ١٨٧٨م**، ترجمة ، أسعد الفارس و نضال خضر معيوف . دمشق : دار الملاح للطباعة والنشر ، ١٩٩١ .

(٤) الليدي آن بلنت . **رحلة إلى بلاد نجد**، ترجمة ، محمد أنعم غالب . الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٩٧٨م . هذا وتجدر الإشارة إلى استفادتنا الكاملة من الترجمة العربية هذه في هذا الكتاب لتجنب تكرار كافة النص الذي تناول منطقة الجوف ووادي السرحان ولتجنب الأخطاء التي وردت في هذه الترجمة .

(٥) النص المقدم في هذا الكتاب اعتمد على ما ورد في طبعة حديثة لكتاب الرحلة وعلى الترجمة العربية المتاحة:

Blunt,Lady Anne. **A Pilgrimage To Negd** ..London: Century publishing,1985.pp84-149.

والليدي آن بلنت . **رحلة إلى بلاد نجد**. ص. ص ١٣-٩٦ .

(٦) في الترجمة العربية المشار إليها سابقاً ورد الاسم عبدالله القاسم، والصحيح هو عبدالله الخميس.

(٧) حسين الأطرش شيخ صلخد .

(٨) انظر في ذلك ما سيرد لاحقاً في رحلة جوليوس أويتنغ .

(٩) ضابط إنجليزي ومكتشف جغرافي وهو الذي أعد عملية المسح الأولى لخط قناة السويس والذي أعتمد في عملية حفرها . كان مهتماً بتطوير خط تجاري عبر الفرات إلى الهند . في عام ١٨٣١م مبدأ مهماته في مسح منطقة الفرات وإمكانية استخدام نهر الفرات للاستخدام البحري . وقد رسم خارطة للمنطقة . حول تشسني انظر :

The Encyclopaedia Britannica,Vol.3.P.177.

(١٠) تورد الليدي بلنت بشيء من التفصيل وبعدة صفحات، تفاصيل مهمة وكثيرة عن الحياة في بيت مضيفهم، وعن كيفية وتفاصيل خطبة إحدى بنات العائلة إلى مرافقهم محمد بن عروق ابن شيخ تدمر . ونظراً لكونها مترجمة ومتاحة فضلنا عدم إضافتها . للاطلاع على التفاصيل راجع الترجمة العربية من ص ٧١ إلى ص ٨٨. وفي الكتاب الأصل باللغة الإنجليزية من ص ١٢٩ إلى ص ١٤٢ .

رحلة
تشارلز هوبر
١٨٧٩م/ ١٢٩٥هـ



تشارلز هوبر باللباس العربي

تشارلز هوبر
Charles Huber

ولد تشارلز هوبر عام ١٨٣٧م في مقاطعة الألزاس الفرنسية. وهو واحد من الرحالة المغامرين، الذين دفعوا حياتهم ثمناً لطموحاتهم. لم يحظَ هوبر باهتمامٍ كافٍ في أدب الرحلات، لذلك فالمعلومات عن خلفيته الشخصية والعلمية نادرة. نال شهرته بعد وفاته، لاسيما في مجالات البحث الأثرية، ويعود له الفضل الأول في اكتشاف حجر تيماء الأثري.

بدأ هوبر رحلاته في عام ١٨٧٤م فأقام في سورية لتعلم اللغة والثقافة العربية. جعل هذا الرحالة المولع بالاكتشافات الجغرافية، الجزيرة العربية إقليمه المختار. و بدأ رحلاته إليها بتكليف من وزارة التعليم الفرنسية، بهدف اكتشاف نجد. قام هوبر برحلته الأولى عام ١٨٧٨م و استمرت أربعة أعوام حتى ١٨٨٢م. ما رأى هوبر في هذه الرحلة أثار لديه الرغبة الشديدة لتكرارها خاصة وأنه لم يتمكن من نسخ كامل نقوش حجر تيماء، الذي اكتشفه عام ١٨٨٠م. وفي شهر يونيو سنة ١٨٨٣م سافر في رحلته الثانية تحت رعاية وزارة التعليم العام وأكاديمية التسجيلات والآداب الجميلة للجمعية الجغرافية الفرنسية. توقف هوبر بعض الوقت في دمشق، وزار الجوف و حائل، وتيماء و حصل على حجر تيماء، و عاد إلى جدة بعد أن تأكد من الكنز الذي حصل عليه.

غادر هوبر جدة عائداً إلى حائل، ولكنه قُتل وهو في طريقه إليها يوم ٢٩ يوليو ١٨٨٤، إذ قتله أدلاؤه الذين اختارهم لقيادته.

لم يتسنَّ لهوبر كتابة قصص رحلاته مثل غيره من الرحالة، رغم ما جمعه من معلومات ونقوش، وقد تم بعد مقتله، وبالاعتماد على أوراقه ويومياته إصدار كتاب عن رحلته الأخيرة (١).

أما ما يتعلق برحلته الأولى، التي قام بها بين عام ١٨٧٨م وعام ١٨٨٢م فقد تم نشر ما كتبه عنها في مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية عام ١٨٨٤م تحت عنوان "رحلة في وسط الجزيرة العربية : حماد، شمر، القصيم، الحجاز". خصص هوبر جزءاً من رحلته عن منطقة الجوف ووادي السرحان، وهو الجزء الذي نقدمه هنا. أما ما كتبه عن رحلته الثانية والذي تم نشره بعد وفاته فلم يحتو على أية معلومات مهمة، وما نُشر كان عبارة عن يومياته التي تركها بدون تفاصيل (٢).

أما فيما يتعلق بمنطقة الجوف ووادي السرحان التي عبرها هوبر في رحلته الأولى عام ١٨٧٩م فنترك له الحديث مباشرة عنها (٣):

"عندما كلفت مهمةً علمية في الجزيرة العربية سنة ١٨٧٨م من قبل وزارة التعليم العام، قابلت منذ البداية صعوبات وعوائق، أشرت إليها في تقريري للوزير. وأول محاولة للوصول إلى الجوف برفقة الشيخ محمد الدوخي أخفقت بسبب تمرد الدروز. كما أن الاتفاق الذي عقدته بعد ذلك مع سطام ابن شعلان شيخ الرولة، لم يتحقق له النجاح، بسبب تراجع هذا الأخير في كلامه. وحدث الشيء نفسه بالنسبة للاتفاق الذي وقعته مع الشيخ علي القرشي، وأخيراً وجدت المرشدين الذين لم يكن لي غنى عنهم عند محمد

الخليل شيخ بصرى، وكانوا في ذلك الوقت ضيوفًا عليه. كان اثنان من هؤلاء المرشدين من البواقس (البواقس هم أفراد لاجئون و غرباء عن المدينة)، و اثنان منهم كانوا من سكان كاف. اتفقت مع هؤلاء ليكونوا برفقتي رغم تحذيرات شيخ بصرى لي، الذي صرح بأنه لا يستطيع أن يضمن لي أن هؤلاء الأشخاص سوف يوفون بوعدهم. وأقل ما يمكن أن أتعرض له هو أن يقوموا بسرقتي وتركي في الصحراء. لقد كنت متعجلاً للرحيل، ولم يكن لدي الوقت لسماع مثل هذه النصائح الحكيمة.

غادرت بصرى في اليوم التالي وكان يوافق يوم ١٤ مايو ١٨٧٩م بمعية رفاقي الجدد. في المرحلة الأولى من مسيرنا وصلنا إلى عنز بعد أن عبرنا أم الرمان. عنز قرية بها ٣٠٠ نسمة وتقع على تل صغير، وهي آخر منطقة قبل الدخول إلى الصحراء. تضم هذه القرية رغم موقعها المتقدم، حيث تقع بين الدروز والبدو المسلمين الرحل، سكاناً مسيحيين. وقابلنا هناك خمسة من العرب، مخيمين خارج الأسوار ويرغبون في الذهاب إلى كاف أو بالقرب منها، وكانوا ينتظرون مسافرين آخرين ليلحقوا بهم ليشكلوا معاً قافلة صغيرة.

وفي اليوم التالي، رحلوا معنا ولأن عددنا كان صغيراً، توجب علينا أن نتحاشى المقابلات التي غالبا ما تكون خطرة، في هذه المنطقة الأولى من الصحراء.

بدأنا المسير في يوم ١٥ مايو عبر الصحراء، وكان المسير متعرجا، طبقاً للمعلومات التي جمعناها في بصرى وعنز عن المخيمات المختلفة للعرب. في صباح يوم ١٦ مايو خيمنا على بعد ثلاث كيلو مترات شمال شرق قصر الأزرق، الذي للأسف لم أتمكن من الاقتراب منه، لأن كل الأراضي المحيطة

كانت ماتزال موحلة على إثر أمطار الشتاء. وعلى قدر ما استطعت أن أحكم، وعن بعيد فقد كان برجًا مربعاً من الحجارة، معزولاً تمامًا، وقمته متساقطة. يعود بناء هذا القصر على الأرجح إلى العصور القديمة جداً. ولابد أنه كان واحداً من المحطات في الطريق المؤدي إلى وسط الجزيرة العربية عبر دومة الجندل. والأراضي المحيطة بهذا المكان أطلق عليها الكتاب العرب القدامى اسم "عمري".

أما الدرويش المجهول كاتب "مسار طريق الحج من القسطنطينية إلى مكة" فيشير إلى هذه النقطة، ويضيف قائلا إن النبي محمداً [ﷺ] أثناء رحلته إلى الشمال تقدم حتى وصل إلى هذا القصر ونهره الصغير، الذي هو ربما وادي راجل. وهذا المكان له أهمية كبيرة، فوادي السرحان يبدأ عنده ويمتد إلى الجنوب حتى آبار الجراوي، التي تقع على مسافة يومين من المسير إلى الجوف. وصلنا إلى وادي راجل بعد الظهر من نفس اليوم، وكان مايزال هناك ماء في بعض الحفر، بالرغم من انتهاء موسم الأمطار. لم نتوقف قبالة قصر الأزرق الا لتناول الغداء، ثم رحلنا في الحال، حيث كنا في العادة لا نتوقف. فمجموعة ضعيفة مثل مجموعتنا لا يمكنها التوقف بالقرب من هذا المكان لأنه يتمتع بسمعة سيئة. فالقصر مكان مرور، غالبًا ما يتجه إليه اللصوص وقطاع الطرق. أما السهل الذي يحيط بقصر الأزرق فيمتد عدة كيلو مترات. كل الأرض صالحة للزراعة وباطن الأرض كالصلصال وشجيرات الصحراء التي تكون غذاء الإبل كثيفة وقوية. وما كدنا أن نترك هذا المكان حتى وصلنا من جديد إلى أرض متحركة تحمل آثاراً عديدة ذات أصل بركاني. ومن وقت لآخر كنا نعبر أجزاء من الصحراء، تكسوها الحجارة بشكل كامل، وتصبح أكثر وعورة عند الاقتراب من كاف، التي وصلنا إليهاعند مساء اليوم التالي

الموافق ١٧ مايو، وقد كنا نسير الجزء الأكبر من الليل.

ينقل الرحالة سيتزن عن أحد مرشديه ويدعى يوسف المالكي مساراً يضع كاف على بعد خمسة أيام من السير من بصرى ولكننا سرعان ما نلاحظ الخطأ عندما نراه يذكر إثرة وقرقر قبل كاف [انظر مخطط كاف والمنطقة المحيطة في أويتنغ].

إن سيتزن يعطينا أول معلومات نمتلكها عن هذا المكان، فهو يقول: "إن كاف قصر متهدم، يقع على قمة تل يحيط به من جميع الجوانب مستنقع لا يمكن الاقتراب منه، ويوجد هناك بعض الآبار وأشجار النخيل البرية التي لاتعطي ثمراً". عند وصولي إلى منطقة الدروز علمت أن كاف هي اليوم قرية صغيرة مأهولة. وقد أعطاني نجم الأطرش شيخ الدروز خطابًا لشيخ كاف.

عندما وصلنا إلى كاف نزلت ضيفا على مرشدي محمد، ولكن بما أنه كان فقيراً وكذلك الحال مع والديه، فقد اقترح عليّ منذ اليوم الثاني أن أقيم عند الشيخ الذي طلب ذلك منه.

عبدالله الخميس، شيخ كاف، هو رجل في الخمسين من عمره (هو نفسه يجهل سنه الحقيقي) ذو بنية ضعيفة، وعظام بارزة، تثبت أصله البدوي. أما فيما يختص بتاريخ القرية فقد ذكر لي عبدالله، أن والده دهيري الخميس كان أول من أقام فيها منذ حوالي خمسين سنة، بينما كان هو نفسه مايزال طفلا صغيراً. وعيون الماء الصغيرة والعديدة المتوافرة في هذا المكان، كانت تشكل في ذلك الوقت بحيرة في أسفل التل، وذلك يتفق مع ما قاله يوسف المالكي. وبالنسبة لعبدالله لم يعد يتذكر كيف أن العيون الاثني عشرة الموجودة هنا، تحولت إلى أحواض صغيرة. عندما أخذت في الساعة الرابعة صباحاً درجة حرارة عشرة من هذه الأحواض المائية، كانت درجة حرارتها أكثر من ٢٤,٥

درجة مئوية في المتوسط للاحواض المعروضة للشمس، و٢١,١ درجة للمتوسط لتلك الأحواض التي تقع تحت النخيل، ومعنى ذلك أن متوسط الحرارة في المنطقة مرتفع جداً.

أكد لي الشيخ عبدالله : أن درجة الحرارة في كاف هي أكثر ارتفاعاً خلال الصيف منها في الجوف، و إنه نادراً ما يهطل المطر في الشتاء. وهناك مؤشر آخر عن هذه الحرارة يعطينا إياه وجود أشجار النخيل، التي تنمو جيداً هنا. ونجد كذلك أن الماء مالح قليلاً، ولكنه مع ذلك صالح للشرب. القرية تتخذ شكل الهلال وتمتد من الشرق إلى الغرب، وتتكون من مجموعتين من البيوت، مجموعة تضم ثمانية بيوت، والمجموعة الأخرى تضم تسعة بيوت، تفصل بينهما الينابيع و٤٥٠ نخلة، وبالإضافة إلى النخيل، نجد أيضاً أن هناك شجرتين من شجر الرمان وبعض شجر الأثل. إن خشب الأثل يستخدم في عمل دعامات لصناعة الأبواب وتغطية أسقف المنازل، وبالنسبة للسكان الذين يبلغ عددهم ٩٠ نسمة فيمتلكون ٣٠ جملاً ونفس العدد من الماعز وحوالي ١٥ من الخراف، بالإضافة لبعض الدجاج، وليس لديهم ثيران ولا خيول. هذه الواحة الصغيرة تدين أولاً بوجودها لوجود ينابيع الماء بها ثم لوجود منجم للملح، يخصص دخله للشيخ فقط. وهذا المنجم يأتي من جبل صغير يقع على بعد خمسة كيلومترات جنوب كاف، وتحمله الجمال بالقرب من القرية، لوضعه في حفر بها بعض الماء ليذوب فيها الملح ثم يتبلور بالتبخر. وهذا الملح ناصع البياض، لكنه ذو طعم مر ويتم بيعه لقبائل الصحراء. كما يتم تهريبه على ظهور جمال شيخ بصرى إلى حوران و جبل الدروز.

المنازل هنا نظيفة من الخارج، ولكنها قذرة من الداخل، ويلبس كل الناس اللباس البدوي، ولا أحد يعرف القراءة ولا الكتابة، وتنتشر فيها أمراض

العيون. في صباح يوم ١٩ أحضر لي عبدالله المتزوج من ثلاث نساء ابنه الوحيد وهو طفل في العاشرة من عمره مصاب بحموضة في المعدة، وأحضر في الوقت نفسه فنجان قهوة مملوءاً بالماء. وطلب مني القراءة على هذا الماء الكلمات الضرورية حتى يشفى ولده المريض.

وهنا سأكون أول أوروبي يقوم بالصعود إلى الصخرة التي يقع عليها قصر الصعيدي، وهي صخرة حقيقية معزولة. كما إنه مايزال يوجد قصران آخران أقل حجماً في سهل كاف. يبلغ ارتفاع هذه الصخرة حوالي ٨٠ متراً فوق السهل، وقمتها تأخذ شكل الطاولة، ويبلغ طول محيطها ٣٠٠٠ متر. وهي تتكون من كتل بركانية سوداء، كبيرة وصلبة جداً، مغطاة بمادة ترابية مع بعض طبقات رسوبية، جميلة وصلبة جدًا، ولكنها بيضاء. وكنت قد قابلت مثلها من قبل على الطريق من الأزرق إلى كاف. والأطلال التي تتوج الهضبة العليا، تتكون من حائط يبلغ ارتفاعه من ٣ إلى ٤ أمتار و يبلغ سمكه ما بين نصف متر و متر واحد. وهذا الحائط هو الوحيد الذي يحيط بالقمة الشرقية للصخرة، والثلاث الجوانب الأخرى ليس بها حيطان. ومن المرجح أنها كانت هكذا دائماً لأن جوانبها راسية، والطريق المتهدم كاملاً و يؤدي إلى الهضبة يقع أيضًا على الجانب الشرقي، ويبدأ عند مقابر كاف. وهذه المقابر تقع في قاعدة الكتلة الصخرية، وباب حائط الدفاع هذا كان مقفلاً بمتراسين من الحجارة السوداء، تشبه تلك التي رأيناها بكميات كبيرة في كل المدن المتهدمة في لجة وجبل الدروز وحوران، وتلك التي رأيتها أيضاً مستخدمة في بعض حدائق تدمر. أحد هذه المتاريس يوجد بالأرض تحت المدخل، وفوق الهضبة يوجد أيضاً غرفتان صغيرتان بلا أسقف مسنودتان على حائط الفناء. وفي الشمال نرى أسوار مبنى صغير يشتمل أيضاً على غرفتين، وعند باب

حائط الفناء، يوجد حوض مستدير مسيج يبلغ محيطه أربعة أمتار، وعمقه متر واحد. وعلى بعد قليل من الحوض المستدير تشكل الأرض حفرة طبيعية، تأخذ شكل المغارة، وهاتان الحفرتان ربما استخدمتا كخزانات للماء. وبين هذين الخزانين توجد صخرة بركانية كبيرة ذات شكل غير منتظم، يبلغ حجمها متراً مربعاً واحداً تقريباً، وتوجد بعض العلامات المحفورة عليها، وهي علامات تشبه العلامات، التي مازال يستخدمها البدو لتمييز جمالهم، وهو مايسمى بالوسم. لايبدو على الصخرة أية علامات للبناء، وأعتقد أنه لم يوجد أبدًا في هذا المكان نقطة محصنة تحصيناً طبيعياً غيرها، ومازال من السهل اليوم، جعلها قلعة منيعة مرة أخرى. ومن فوق قصر الصعيدي، يستطيع المرء كشف هذه الأرض، وهذه الجبال، بكل ما تمثله من ذعر، فهي جرداء ومقفرة. كما أن بريق الحجارة السوداء، التي تغطيها تجعلها موحشة أكثر، ولذلك فإن العين تستريح عندما تنظر إلى الواحة التي تقع تحت الجانب الجنوبي من الصخرة. ومن بعيد وعلى مسافة ستة أميال، نجد منخفض وادي السرحان.

على مسافة ستة أميال جنوبًا، وعلى ٧٠ درجة شرق كاف، توجد واحة صغيرة أخرى تسمى إثرة. المساكن في إثرة ليست مبنية بالطين كما هو الحال في كاف، ولكن بالحجارة السوداء مثل مساكن حوران. وهي واحة قديمة هجرها الناس في السابق، كما هجروا كاف. ثم سُكنت مرة أخرى بعد عشرة سنين من استيطان كاف، وتضم الآن عشرين بيتًا يقطنها حوالي ١٠٠ نسمة. يتوفر بها نبع ماء طوال العام، مثلها مثل كاف، ويطلق يوسف المالكي في خط سيره على هذا المكان اسم اترى.

إن منطقة كاف - إثرة لها أهمية جغرافية، فهي تمتد بين حوران والجوف،

كما أنها المنطقة الأقل ارتفاعاً، وعندها تنتهي الأودية الصغيرة الممتدة من حوران وتنساب في الحماد ووادي السرحان. وهذا ما يشرح لنا أيضاً أنه على الرغم من ندرة المطر فإن منسوب العيون يظل ثابتاً، وهذا المنسوب ليس كثيراً كما رأينا من قبل لأن ٤٥٠ نخلة فقط بدون مزروعات أخرى لا تكفي لامتصاصه. متوسط قراءات الضغط البارومتري التي قمنا بها في كاف أعطتني لهذه المنطقة ارتفاع ٤٩٨ متراً فوق سطح البحر.

لا أستطيع أن أترك الحديث عن واحة كاف دون أن أذكر رحالة مر بها عام ١٨٦٤م ولكن دون أن أصحح ماذكره. المقصود هنا الرحالة غوارماني. يقول هذا الرحالة: إن كاف دُمرت في القرن الخامس عشر الميلادي وأعيد بناؤها في القرن الثامن عشر. وكانت في الماضي محطة للقوافل التي تنطلق من دمشق إلى المدينة. وبخلاف كاف التي يقدر سكانها بـ ٢٥٠ نسمة، وإثرة التي يقدر سكانها بـ ٣٠٠ نسمة، فإن هذا الرحالة يذكر أيضا عقيلة ويقدر سكانها بـ ١٥ نسمة، وغطي بـ ١٥٠ نسمة، والاخيضر بـ ١٥٠، والوشواش بـ ٢٠٠ نسمة. أما بالنسبة لزمن تدمير كاف فلم يتكلم عن هذا أحد من قبل حسب معرفتي، فلذلك من الصعب أن نؤكد أن هذا التدمير وقع في ذلك القرن. أما بالنسبة لتاريخ إعادة بنائها فلقد ذكرت رواية ابن من أقام الواحة.

وأخيراً، وفيما يخص موضوع محطة القوافل، فلا أعتقد أن طريقاً كهذا كان يمر من كاف ويربطها بدمشق. فالقافلة تتحرك ببطء شديد، ولاتستطيع أن تعبر هذا الاتجاه، لأنها بحاجة للتوقف مرتين على الأقل. كما أن القافلة تحتاج إلى خمسة أيام للوصول إلى هنا لذلك لا يمكنها أن تعبر هذا الطريق لعدم توفر أماكن للماء فيه. أما بالنسبة للأماكن الأربعة الأخرى فلم يتكلم عنها أحد من قبل.

وبالنسبة لتعداد السكان، فأنا أتمسك بأرقامي، فالتعداد سهل جداً عمله بحيث لا يمكن أن نخطيء فيه.

اتفقت على السفر إلى الجوف مع الشيخ عبدالله الخميس، الذي قدم لي نفسه مرشداً حتى الجوف. وحددنا موعد الرحيل يوم ٢١ مايو. وكان هناك اثنان من سكان الجوف ينتظران منذ بعض الوقت، ليكونا رفيقي طريق، فانضما إلينا عند بزوغ الشمس، يصحبنا بعض السكان الذكور حتى مسافة طويلة من الواحة. وعلى الرغم من أننا كنا نسير على أرض مستوية، فإننا مع ذلك في منطقة جبلية، لكنها ذات شكل خاص جداً. إنها هضبة كبيرة وصخرية يخرج من أرضها عدد من النتوءات على شكل الأهلة، ورؤوس جبال معزولة تماماً الواحد عن الآخر دون أي رابط بينها، وتكون قممها مسطحة كالطاولة. وعلاوة على ذلك، ليس بينها أي وحدة في الاتجاه، فهي تجري من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب. وارتفاع هذه النتوءات يتراوح مابين ٢٠ متراً و١٠٠ متر. ومن الغريب أن نلاحظ أن هذه المرتفعات مكونة من حجر جيري يعطي تربة من نفس اللون، كما لو كانت قد هطلت عليها أمطار من كرات سوداء مؤكسدة. وهذا أيضاً هو نفس النوع من الأرض التي عبرتها قبل وصولي إلى كاف. كل هذه الهضاب المميزة لهذه المنطقة ولاسيما بين إثرة وكاف ووادي السرحان الأصلي تحمل اسماً عاماً هو " قدير ".

في منتصف النهار رأينا منظراً وهو للأسف مازال يتكرر كثيراً في الصحراء، فبينما كنا ندخل في مجرى وادي السرحان قابلنا واحداً ثم ثلاثة أشخاص يحتضرون، ثم بعد ذلك بقليل وقعنا على جثة شخص آخر. إنهم أربعة من فقراء الجوف تجرؤوا على الخروج بمفردهم سيراً على الأقدام منذ ثمانية أيام، بهدف الوصول إلى كاف ثم إلى دمشق، ولم يحملوا معهم قرب ماء وبدون

مؤونة، وقد كانوا يأملون وجود مخيمات للبدو، ومن خلال التنقل من مخيم إلى آخر قد يصلون إلى هدفهم. لم يعد على هؤلاء الأفراد إلا الجلد والعظم كما يقال في الأمثال. أما الجثة فقد كانت ممزقة تقريباً وعارية تماماً، وأصحابه الثلاثة، ورغم أنهم على وشك الموت فإنهم تقاسموا ثيابه الممزقة. أعطيت كل واحد منهم لترين من الماء تقريباً، وبعض الدقيق، الذي أكلوه في الحال. لاحظت أن عبد الله أشار إليهم في اتجاه إثرة، وذلك لكي يوفر على بيته مؤنة غذائهم. أيضاً وفي منتصف النهار كما ذكرت سابقاً، دخلنا مجرى وادي السرحان ومشينا حتى الساعة الثالثة، ثم تركناه بعد ذلك إلى ناحية الغرب، حيث دخلنا من جديد في منطقة جبلية مغطاة بحجارة سوداء، تسمى المسمى. وهذا الاسم أخذته المنطقة عن الجبل الرئيسي، الذي يقع على مقربة منها، والذي رأيته في صباح اليوم التالي على مسافة اثني عشر ميلاً شرقاً، وهي سلسلة جبلية طويلة تمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. في ذلك اليوم دخلنا من جديد في وادي السرحان وهناك وقع نظري على منظر رائع. فعلى مرمى البصر كانت الأرض ملساء تماماً، مغطاة بطبقة رقيقة من الملح الناصع البياض. وعندما تركنا هذه الأرض وسرنا حولها لمدة ثلاث ساعات، حيث كان من الصعب حتى التفكير في عبورها لأنه فوق طبقة الملح كانت الأرض ماتزال رطبة ولزجة للدرجة التي تجعل الإبل لا تستطيع أن تسير فوقها. كان هناك ممر ضيق يحاذي هذه السبخة وفي بعض الأماكن توجد بعض الصخور في الجانب الأيمن لنا تجبرنا على عبور أجزاء منها. و كنا لا نفعل ذلك إلا بحذر كبير، لنترك الحرية للجمل الذي يكون حذراً في الابتعاد عن الدرب، وأن لا يبتعد أيضاً عن خطوات الرجل الذي يمشي أمامه ويحثه على السير. علاوة على خطر الانزلاق والوقوع من على ظهر الجمل أرضاً،

وذلك من أخطر الأشياء، إلا إن الأكثر خطورة هو الوقوع في هذه السبخة التي تسمى "حضوضى". وفي المساء خيمنا بالقرب من أربعة آبار ماء تدعى "الملاحات" واسمها ينطبق عليها جداً، فماؤها الموجود على عمق متر ونصف المتر مالحة جداً.

في صباح اليوم التالي، الموافق ٢٣ مايو أخذنا ماءً من آبار غدير الأمغر، وفي المساء تزودنا في الماء من بئر "قدير" الموجود في الميسري، وأقمنا مخيمنا في الليل في مكان يسمى المابية، الذي هو اسم كل المنطقة الممتدة من آبار الأمغر حتى وصولها. اسم المابية مشتق من اسم حصن صغير متهدم يوجد على مسافة كيلومتر واحد من الجنوب الغربي لآبار "قدير". جميع الآبار التي صادفتها حتى الآن، يتوفر بها الماء طيلة العام، ولكن كما لاحظ السيد غوارماني فهي مياه مالحة، وذات روائح كريهة. وهذه الآبار ليست في الواقع إلا حفر بسيطة غير مسيجة. أشار يوسف المالكي في وصفه لخط سيره إلى آبار الأمغر، ولكنه اسماها "قدير". وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر مايو وصلنا إلى آبار "القصايم". وفي مساء ذلك اليوم وصلنا إلى آبار الجراوي التي كان الماء قد جف منها، وأقمنا مخيمنا هناك.

من كاف وحتى النبك [أبو قصر]، يستمر الطريق في مجرى الوادي، الممتع للسير فيه، فالأرض دائماً رملية وتُرى فيها الخضرة. عند النبك تبدأ الخضرة في الندرة، وتصبح الأرض صخرية، وغالباً ما كنا نسير على حجارة، وعند آبار "الجراوي" تنتهي الخضرة تماماً، ويأخذ مكانها الرمل والحصى. ونظراً لأننا لم نجد ماء في "الجراوي" فقد اجتهدنا في المسير ولم نخيم إلا بعد منتصف الليل في عويلمة "Ouelma".

كان يوم الخامس والعشرين من شهر مايو يوماً صعباً، فلم يكن لدينا ما

يكفي من الماء إلا لعمل الخبز. وبما أنه لا توجد أي منابع ماء بعد "الجراوي" فقد توجب علينا المسير حتى الجوف. لقد سرنا من الساعة الرابعة صباحاً ولمدة اثنين وعشرين ساعة متواصلة، ونحن على ظهور جمالنا.

وصلنا إلى الجوف عند الساعة الثانية صباحاً من اليوم السادس والعشرين من شهر مايو ١٨٧٩م. و قد عانيت الكثير من العطش. لقد كان مسيرنا ومنذ الصباح على أرض صخرية تماماً، مغطاة بشظايا صغيرة تشبه شظايا البنادق، ولونها قاتم وتلمع كما لو كانت مدهونة، ورؤيتها متعبة للعين. كما أن الأرض تخلو من أية خضرة. وفي الساعة الثامنة مساء جاءتنا لفحة هواء شرقية، دامت ساعتين. وعندما قست درجة الحرارة وجدتها تشير إلى ٤٢ درجة مئوية. كانت الحرارة خانقة، وتغطت السماء في حوالي الساعة التاسعة بالغيوم، ورغم بعض قطرات المطر فقد ظل الهواء محرقاً طوال الليل.

إن تحديد مسار السفر في الصحراء، لا يعتمد أبداً على طبيعة الأرض أو مدى ملاءمتها للسير، ولا يعتمد أيضاً على مدى توفر الأعشاب الضرورية للإبل، بل تعتمد على أماكن وجود الماء. وبناءً على ذلك، فإن اتجاهات السير لا تمثل إلا خطوط مواقع الآبار. إن الجزء الأكبر من هذه الآبار، حفرها البدو في أراضي الرعي التابعة لهم. وعندما تكون هناك مصلحة تجارية أو سياسية أو دينية تتطلب العبور الدائم لأراضي القبائل، التي عادة تمنع أعداءها من الماء، فإنها لا تمتلك آباراً في حدودها بل يحفرون بئراً أو بئرين لكي يرابطوا بينها، وبخلاف ذلك، فإنه كلما كانت البئر تتطلب عملاً أقل فإنه يتم الإكثار منها، وتلك هي الحالة في الآبار الموجودة في وادي السرحان. كما إن هذا يشرح لنا، لماذا نرى أسماء جديدة كل مرة نقارن فيها المسارات المعروفة حتى اليوم بين حوران والجوف.

ولكي نبين جيداً التشابه القائم بينها، سأوضح هذه الأسماء المعروفة حتى اليوم، من خلال المسارات التي اتبعها الرحالة الآخرون الذين سبقوني:

مسار يوسف المالكي: بصرى، هابكة، الأزرق، إثرة، قرقر، كاف، قدير، أم الفناجيل، قلية، الجوف.

مسار غوارماني: كاف، البيضاء، قصيبة، أبو طرفين، العظيمات، المحيضر، أويسط، الميسري، النباج، شيبة، الوصيص، النبك، الجراوي، صبيحاء، شغار، الجوف.

مسار السيد بلنت وزوجته: ملاخ، كاف، إثرة، شيبة، غرايز، المابية، مغيرة، شيبة، النبك أبو قصر، الجراوي.

مساري (مسار الكاتب): بصرى، عنز، وادي راجل، الأزرق، كاف، الملاحات، غدير الأمغر، الميسري، قدير، القصايم، الجراوي.

بالإضافة إلى هذه المسارات الأربعة، يوجد مسار خامس ذكره لي أحد سكان الجوف المولود هناك، ويسكن الآن في حائل وهو غانم صانع السلاح. وهذا المسار هو: الأزرق، الهزيم، العمري، جبل عرابي، المعاصر، المشاش، قراقر، أويسط، [عيون] البيض، النباج، شغار، شقير، النبك أبو قصر، صبيحاء.

إن من السهل أن نجد على الخارطة نقاط التماس لهذه المسارات المختلفة، التي تلتقي عندها بعد ذلك الاتجاهات، التي يسار فيها. كما أن هناك بئراً معروفاً جداً في الوادي هو بئر ميقوع.

في الجوف، تمت استضافتنا عند الشيخ سلطان بن حبوب، وهو ابن أخي غافل الذي استضاف من قبل الرحالة بلغريف. لقد مات غافل منذ عشرة أعوام، وسلطان هو صهر الشيخ عبد الله الخميس.

استقبلني جوهر مملوك الأمير محمد بن رشيد، الذي يحكم الجوف بالنيابة عن الأمير استقبالاً حاراً. إن جوهراً مملوك وسيم، يبلغ طوله ١٧٥سم، عمره خمسون عاماً، ويبدو عليه الذكاء، ويحتفظ بابتسامة على شفتيه، وطريقة تصرفه مميزة. لقد كان يستقبلني دائماً استقبالاً ودياً، ويعطيني مكان الشرف ليس فقط في المجلس، ولكن أيضاً عندما يزورني في بيتي. في كل زيارة من زياراتي له كان يقدم لي ماء حاراً به سكر (ذلك هو شاي البدو)، وقهوة مصفاة ثم يحضر أحسن التمور مع الزبدة، وقبل كل شي يقدم لي النارجيلة. يمارس جوهر عادة التدخين، وهو بذلك يخالف المبادئ النقية للوهابيين، ولكنه في المقابل يتمسك بالمبادئ التي تحرم الموسيقى والغناء في الجوف، الذي كان قديماً يمتاز بالفرح كما ذكر بلغريف، ولم يعد به ربابة واحدة. لقد ذهب جوهر في لطفه حداً بعيداً في مقابلتي الأولى معه، حتى إنه قال لي " مسلم ونصراني سوى سوى " أي إن المسلم والمسيحي واحد.

إن الجوف واحدة من أقدم الواحات في الجزيرة العربية، ولقد ذكره بطليموس وبعد ذلك ذكره عدد كبير من المؤلفين العرب. فبطليموس ذكر الجوف تحت اسم دُميثه، بينما المؤلفون العرب ذكروه باسم دومة الجندل، وهي تسمية مازالت معروفة عند العرب الحاليين. يشير أحد النصوص الآشورية التي ذكرها راولينسون، إلى وجود هذا المكان في القرن السابع قبل الميلاد تحت اسم دومات وكان فيها ملك يسمى آكبارو "Akbarou" ، و قد هُزم في حملة قامت بها الجيوش الآشورية تحت حكم اسرحدين من سنة (٦٨٠-٦٦٩ قبل الميلاد)، ولكننا لم نعد نعرف شيئاً كثيراً عن هذا المكان. ولكي نخرجه من الظلمات، يجب أن نصل حتى عهد هجرة النبي محمد

[ﷺ]، ففي هذا الوقت، كان على هذا المكان ملك لقبيلة كندة يدعى أُكيدر وكان مسيحياً، أرسل له الرسول جيشاً قوامه ٤٢٠ فارساً لكي يخضعه ويدخله الإسلام. هذه المجموعة القليلة العدد حاصرته وأجبرته على أن يخضع لهم، وهذا مايعطي فكرة هزيلة عن قوة وإقدام الأخير أو بالأحرى عن قوة اعتقاده بما يؤمن به.

لقد اشترى شخصه الغالى دافعًا ٢٨٠ جملاً و٤٠٠ درع، وكذلك نفس العدد الأخير من الأقواس، وقد حضر شخصيًا إلى المدينة أمام الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يرتدي ثوبًا من الحرير، ويضع على صدره صليبًا من الذهب. لقد ارتد واعتنق الإسلام هو وشعبه، واحتفظ بذلك بمكانته بين قومه كأمير.

كان أهالي الجوف من قبل، وعلى حسب قول بعض المؤلفين، يعتقدون بعدد من المعتقدات. فقبل أن يكونوا مسيحيين كانوا يهودًا، وقبل اليهودية كانوا وثنيين، لهم صنم يعبدونه اسمه ود.

ابتداء من تلك الحقبة، أصبح للجوف أهمية كبيرة، ولكن لايعرف الكثير عن أحوالها إلا ماذكره بعض الجغرافيين العرب مثل الإدريسى وياقوت أو الهمداني.

عند نهاية القرن الماضي، عمت الجوف الحرب الأهلية، التى أصبحت مظهرًا من مظاهرها، فغزاها الوهابيون وخضعت لهم، وقد بعث ابن سعود عاملاً لكى يعمل على تهدئة الأوضاع، كما بعث أيضًا خطيباً للعمل على نشر دعوته الوهابية.

لقد أدى القضاء على الدولة الوهابية بواسطة محمد علي حاكم مصر إلى

تحرير الجوف التي انتهزت الفرصة ، وبدأت مرة أخرى حربها ضد القرى والأرياف التي حولها ، واستمرت هذه الحالة حتى عام ١٨٣٨م . وفي هذه السنة قام عبدالله ابن رشيد أمير حائل بحملة لنجدة أصدقائه في حي الجرعاوي ، الذين تعود جذورهم إلى قبيلة شمر ، و كانوا في حرب مع جيرانهم في حي الدلهمية . أدت غزوة عبدالله ابن رشيد إلى الاستحواذ على الجوف وجعلها خالصة له ، وأصلح بين الناس وجعلهم فى وفاق تام فيما بينهم .

هذا النير الجديد ، كان ثقيلاً على أهالي الجوف ، وبالنظر لضعف حكومة ابن رشيد ، فقد فكروا في استرداد استقلالهم ، لذا فقد انتفضوا ، وعملوا على طرد الحاكم الشمري . إن هذا النصر الذى تحقق من المحتمل أن يكون قد تحقق بالدعم الذى قدمته لهم قبيلة الرولة ، وهم قبائل النايف والشعلان ، التي أصبحت قبل فترة جزءاً من قبائل الجوف ، وكانت فى عداء مستمر مع شمر ، فضلاً عن أنها كانت طوال فترة ازدهارها في عداء للوهابية .

لقد أعاد أمير شمر ، طلال ابن رشيد الأمر إلى ما كان عليه ، فطلال لم يكن الرجل الذى يتحمل الهزيمة . لقد كانت النفود قاسية إلا أنها لم تكن تشكل عائقًا بالنسبة لأعراب الأمس . حدث ذلك عام ١٨٥٣م أي بعد شهر من العصيان . حيث عسكر طلال أمام الواحة ، وذلك على الأرجح لكي يعمل على زعزعة وإضعاف معنويات المحاصرين . وقد عمل على قذفهم بمدفعين جلبهما معه من حائل ، وبالتالي زعزع معنويات المقاومة داخل السوقين " سوق المارد" و " سوق عين أم سالم " المأهولين بالعرب الرحيمات ، الذين ترجع أصولهم إلى المناطق المحيطة بالنجف في الهلال الخصيب .

بعد عشرين يومًا من الحصار ، اقتحم طلال السوقين ودمرهما كليًا . لقد رأيت الحطام بنفسي . سوق مارد الشهير تم ترميمه ، والسكن فيه مرة أخرى .

أما بالنسبة لسكانه الأقدمين فمن لم يقتل منهم فقد لجأ تاركًا الواحة إلى الأبد، ومنذ تلك الفترة لم يعد هناك شيء يعكر صفو السلام.

إن الذى يفسر هذا الانقسام الداخلي، هو أن الجوف ليست واحدة، وإنما تتكون من خمس عشرة قرية [حي] قائمة إلى جانب بعضها البعض. وكل قرية من هذه القرى محاطة بسور له باب واحد، ولكل قرية شيخها الخاص بها وهذه القرى أو الأسواق هي:

١ - الهويدي و يقع فى اتجاه الشمال الشرقي وعلى بعد ميلين من مارد.

٢- القراطين و يقع أسفل الواحة.

٣- عين أم سالم وهي الآن أطلال و كان يسكنها البدو الأقحاح من قبائل عنزة.

٤ - ديرة المارد وتقع جنوب عين أم سالم وهى أطلال، سكنها قوم أصلهم من شقراء، وهى بلدة تقع شمال القصيم. وهذا السوق يطلق عليه الدرع وهذا الاسم هو الأكثر شهرة بعد اسم المارد. ومن المحتمل أن يكون سوق المارد قد بنى كليًا بالصخور الجبلية وكما أسلفتُ فإن هذا السوق قد أعيد ترميمه، وتم بناء الجزء العلوى الذى كان قد هُدم أيضًا.

٥ - القعيد ناحية الغرب.

٦ - السعيدين وأطلق عليها "والن" السعيديين، ولها قلعة قوية تسمى "القصير" وسكانها خليط من خمس قبائل، كانوا أعداء لسكان ديرة مارد.

٧ - السلمان بالقرب من مركز الواحة.

٨ - الحبوب.

٩ - السعيدان ووضع سكانه مثل وضع سكان غطي .

١٠- الرحيبين، كان يسكنه البدو من تميم سابقًا، أما حاليًا فيسكنه مهاجرون من رحيبة في سورية .

١١- علاج، أسستها وسكنتها عائلات من الطفيلة .

١٢- الشعيب .

١٣- خذما، ويقطنها بدو سرحان، وكان بها بئر يعتبر ماؤها من أفضل مياه الجوف. كما قطنها المولدون وهم أفارقة ينحدر أصلهم من الزنوج القادمين قديمًا من مكة .

١٤- الدلهمية، دمرها أمير شمر عند انتصاره ١٨٣٨م. وفي هذا الحي شيد حاكم شمر سكنه الذي يعد بحق قلعة حصينة .

١٥- غطي، يقع في قاع الواحة وتسكنه عائلات تعود في جذورها إلى شمر. وقد قدموا من جبة .

نلاحظ أن هناك اختلافاً بسيطاً بين الأسماء الوارده أعلاه، وتلك التي أوردها "والن" و "غوارماني" وهذا الاختلاف يعزى إلى أن جميع الأسواق لها أسماء أخرى، فمثلاً سوق عين أم سالم يسمى أيضًا الغرب .

منذ أن أصبح أمير شمر حاكمًا مطلقًا على الجوف، فإن صلة الواحة بالبدو الرحل أصبحت أقل مما كانت عليه سابقاً .

لم يتأثر البدو بانقطاع هذه الصلة، فيما يخص تسويق منتوجاتهم من منسوجات وسمن، كما أن عدم وصول المتوجات إلى سكان الجوف لم يكن مشكلة أيضًا، لأنهم يتحصلون عليها من قبيلة الشرارات، التي تخضع لسلطة شمر. كما أن الرولة لهم علاقات مع سورية، ففيها يبيعون منتوجاتهم، كما يتحصلون على الملابس والأرز والقمح ويبيعون أيضاً إبلهم في سورية ويحصلون على أرباح جيدة .

في القرن الأخير، كانت الجوف وقبل أن تدخل تحت حكم الوهابيين، تتعرض لعمليات سلب متكرر من قبل بدو بني صخر.

أما الشرارات فلم يكن لديهم شيء غير أن يعملوا للآخرين، ولكن ونظراً لوقوعهم فى الطريق بين الجوف وفلسطين، و بين تيماء وجبل شمر، فإنهم يعملون على التعرض للقوافل. ولأنهم يقطنون منطقة صحراوية معزولة، وتعوزهم الوسيلة للاتصال بالمناطق الأخرى المحيطة بهم، فهم يمدون الجوف بالمنسوجات والسمن ويحصلون فى المقابل على التمور والعباءات والبرانس، وكذلك بعض الأشياء الضرورية لحياة البدو، والأشياء الأخرى التى لايستطيعون إنتاجها، مثل الملح والجلود المدبوغة. الجوف لاتنتج غير التمور، إلا أن التمور المنتجة فيها تعد من أفضل أنواع التمور الموجودة فى الجزيرة العربية. أما القمح فينتج بها، ولكن بكميات قليلة. توجد أيضاً بعض الصناعات ولكنها تقتصر على صناعة العباءات الخفيفة، التى تباع على حسب النوعية، وتتراوح أسعارها بين واحد واثنين من المجيديات، وبها صناعة الأحذية وبعض الأشياء الأخرى المصنوعة من الجلد، والملح، وبعض المنتوجات المصنوعة من الحديد.

العملة كانت غير معروفة تقريباً بالجوف، فقد كانت المقايضة هي القاعدة لكل المعاملات. عندما وصلت إلى منطقة الجوف توقفت فى أول منزل صادفني وذلك لكي أسجل زمن وصولي في المفكرة. لقد كان الزمن الساعة الثانية صباحًا، وبالرغم من ذلك الوقت المبكر، خرجت امرأة من المنزل تحمل كأس ماء وقدمته للرجل الذي كان معي. لقد كان رجلاً شهمًا فقد طلب منها أن تقدم لي الماء أولاً، ولقد فعلت ما أمرها به. وبعد أن شربت قدمت الكأس لرفيقي، لقد أردت أن اعترف لها بذلك الجميل، فأعطيتها ربع مجيدي

فأخذته باستغراب شديد وسألها عبدالله إن كانت قد رأت العملة قبل ذلك. فردت أبدًا.

تُعتبر الجوف واحة، لتواجد الماء بها، وهو الذي يتغذى منه الإنسان وشجر النخيل. و الماء يتوافر بالواحة، إما من الآبار أو الأحواض، وبالتالي فإن الآبار والأحواض تأخذ حصيلتها من الماء عن طريق الأمطار التي نادرًا ما تهطل بالواحة. وغالبًا ما يكون الماء ذا طعم غير جيد، ومن ثم غير مستساغ، وليس هناك استثناء للآبار الأخرى ما عدا عين خذما الموجودة بالسوق، الذي يحمل نفس اسم البئر والتي يعد ماؤها مقبولاً نسبيًا.

لقد أخبرني العديد من السكان، بأن كمية الماء قد قلت عما كانت عليه فى السابق. حيث كانت كمية الماء معتبرة، وهذا أيضًا يفسر لنا سبب نقص السكان في المنطقة عما كان عليه فى الماضي.

فى الشرق، الذى لاتوجد به عمليات لإحصاء السكان، فإن تعداد سكان منطقة ما يتم إما عن طريق النيران المتقدة، أو عن طريق عدد الشباب القادرين على حمل السلاح، والطريقة الثالثة عن طريق التعداد إذا كان ذلك ممكنًا. كل هذه الطرق، تجعلنا نتوصل إلى نسبة تقريبية عند استعمال واحدة منها. وهذه الطرق تستعمل فى سائر البلاد ولايمكننا استثناء بلد معين فيما يتعلق بهذا الموضوع. كما أن النتيجة في هذا الشأن دائمًا موضع شك.

إن هناك طريقة للتقدير أكثر أصالة وأكثر دقة وبالتالي لم أر أنها قد ذكرت من قبل أحد الرحالة سابقاً، كما أنها لا تستعمل بطريقة صحيحة إلا فى منطقة نجد بالذات. هذه الطريقة ترتبط بمعرفة عدد الأماكن الموجودة بالجامع الرئيسي.

إن أحد المبادئ الأساسية للدعوة الوهابية، هو حضور صلاة الجماعة بالجامع يوم الجمعة. أما باقي صلوات اليوم وكذلك باقي صلوات الأسبوع فيمكن القيام بها في المسجد الموجود في كل سوق أو حي أو كما هو معروف عندنا بالكنيسة، التي يخدمها الكاهن. أما صلاة يوم الأحد فتقام بالكنيسة الكبيرة (الكاتدرائية)، وكذلك الحال في وسط الجزيرة العربية فإنهم يحرصون على أن يكون الجامع كبيراً، حتى يتمكن كل البالغين بالمنطقة من تأدية صلاة الجمعة بالجامع. وبالتالي يجب أن يتحصل كل منهم على مكان، وهذا ما يجعلنا نقول: إن عددهم يكون معروفًا لكل الناس. كما أن العدد الفائض يمكن تقديره أيضًا إذ إنه عند الصلاة تصطف الناس جنبًا إلى جنب فيأخذ كل واحد منهم مساحة ١,٧٠ متر (متراً واحداً وسبعين سنتمتراً). وإذا قسمنا مساحة المسجد على المساحة التي يشغلها كل مصل فإننا سنحصل على عدد السكان.

بالنسبة للجوف، فإن هذه الطريقة يتعذر تطبيقها، فبالرغم من أن قلعة الحاكم تحتوي على جامع إلا أنه لا توجد إلزامية للقيام بأداء صلاة الجمعة في الجامع. و يمكن القول إنها لم تكن موجودة قبل ذلك البته، وذلك لكثرة عدد سكان الجوف ومحدودية مساحة المنطقة، التي لاتتجاوز خمسة كيلومترات.

إن بيركهارت هو أول رحالة يقدر سكان الجوف ب٦٠٠٠ نسمة. وفي سنة ١٨٦٢م حدد لها بلغريف ٣٤٠٠٠ نسمة، وحدد لها غوارماني بعد سنتين من ذلك في عام ١٨٦٤م، ٦٠٠٠ نسمة لـ ١٣ ثلاثة عشر سوقًا أو حياً. حسبما علمت إبان إقامتي في الجوف، ومن بعدها في حائل، فإن هناك ١٥٠٠ بندقية بالجوف، إلا أنني لا أصدق أن تعداد مدينة الجوف يمكن تقديرهم بأكثر من ١٢٠٠٠ نسمة.

هذه بعض المناطق التي كانت قائمة حول مدينة الجوف المعروفة بالاسم :

١ - سكاكا، وهي بالقرب من جبل الحماميات على بعد حوالي ٤٥ كيلومتراً تقريبًا في اتجاه الشمال الشرقي من الجوف، ويبلغ عدد سكانها ٨٠٠٠ نسمة، وهذه المنطقة لم تكن موجودة قبل قرن، وبالرغم من أنهم قدموا من مدن الجوف إلا أنها كانت مزدهرة وبالتحديد قبل أن تكون تابعة لشمر . لقد كانت منطقة جذب لسكان المناطق الأخرى، لوفرة مياهها وقصر عمق آبارها بخلاف الجوف .

٢ - قارا، وتقع على بعد حوالى ٣٢ كليومتراً باتجاه ٧٠ درجة شمال الجوف، و يبلغ عدد سكانها ١٠٠٠ نسمة .

٣ - سحارة، وتقع على بعد ١٠ كليومترات باتجاه الشمال الغربي من الجوف ويسكنها ٥٠ نسمة .

٤ - حسياء، وتقع على بعد ٧ كيلومترات باتجاه الشمال، وعلى ٣٥ درجة غرب الجوف ويسكنها ٥٠ نسمة .

هاتان المنطقتان الأخيرتان، قديمتان قدم الجوف ذاتها . ولقد كانت لهما أهمية كبيرة، إلا أنهما الآن أطلال .

٥ - جاوة : على الطريق المؤدي إلى سكاكا على بعد ٢١ كيلومتراً .

٦ - مويسن : أكثر بعداً من جاوة وبالتحديد في منتصف المسافة بين الجوف وسكاكا .

وتعتبر مويسن وجاوة مناطق معاصرة للجوف تاريخياً وهما اليوم أطلال مهجورة .

منذ مقابلتي الأولى لجوهر عامل الجوف، أخبرته برغبتي بزيارة حائل

فأوضح أن الرحلة شبه مستحيلة، وأبلغني بصعوبة ومخاطر النفود، واستحالة اجتيازها في فصل الصيف.

لقد أخبرني جوهر أن النفود الآن بحر من النار، سوف يلتهمني، فضلاً عن أنه ليس هناك شخص يرغب في الذهاب معي كمرشد. لقد أجبته بأنني أعرف أن البدو يعبرونها أحيانًا في منتصف فصل الصيف، وأنني أستطيع أن أفعل ذات الشيء. في ذلك اليوم لم أصر عليه كثيراً. . . . . في صباح الغد وبعد أن قدمت له بعض الهدايا كررت له نفس الطلب الأول. ووجدت أن كل العقبات قد زالت ماعدا مشكلة المرشد "الدليل" ولكن عندما بينت له رغبتي في زيارة سيده محمد بن رشيد، اقترحت عليه أن يتولى القيام بالبحث عن الدليل.

في آخر يوم من أيام شهر مايو ١٨٧٩م عثرنا على المرشد، وقد حُدد موعد المغادرة في اليوم التالي. هذا المرشد واسمه محارب كان رجلاً عجوزاً صغير الجسد، له ملامح صارمة، وهو من أبناء الجوف، وكذلك مساعده صايل. وقد عبرا النفود مرات عديدة في السابق. في صباح أول يوم من شهر يونيو استيقظنا قبل الفجر، إلا أن شد الرحال وتحميل القافلة وتجهيز الزاد وتوديع الأهل والأصدقاء، إضافة إلى حذر العربي من خطة المغادرة، حالت دون بدء الرحلة قبل تمام الساعة السادسة والنصف صباحًا باتجاه حائل[٤].

الهوامش:

(١) حول قصة هوبر ومقتله انظر تقديم المحررين لكتابه والذي عليه اعتمدنا في تعريف الرحالة:

Charles Huber, **Journal d'un voyage en arabie (1883-1884)**. paris,1891.pp. V-XII.

(٢) أورد عبد الرحمن بن أحمد السديري في كتابه " الجوف : وادي النفاخ " ص ص ١١٧ - ١١٩ ، ما كتبه هوبر عن يومياته في رحلته الثانية في عام ١٨٨٣م / ١٢٩٥هـ وكانت عبارة عن مذكراته اليومية عندما كان في المنطقة.

(3) Charles Huber, "voyage dans L'Arabie Centrale: Hamad, Sammar ,Qacim, Hedjaz,1878-1882". **Bulletin de la Societe de Geographie**,vol. 5,1984.pp 304-326.

(٤) انظر تكملة الرحلة في كتاب: **الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية: منطقة حائل**، الجزء الأول، إعداد وتحرير عوض البادي، الرياض: دار بلاد العرب، ٢٠٠٢م.

رحلة
جوليوس أويتنغ
١٨٨٣م/ ١٣٠٠-١٣٠١ هـ



جوليوس أويتنغ باللباس العربي

جوليوس أويتنغ
Julius Euting

ولد جوليوس أويتنغ في مدينة شتوتجارت بألمانيا، في عام ١٨٣٩م. تلقى تعليمه الجامعي في علم اللاهوت، والدراسات الشرقية، في جامعة توبنجن بألمانيا لمدة أربعة أعوام مابين ١٨٥٧-١٨٦١م. وتلقى دراساته العليا في الدراسات الشرقية في جامعات لندن و أكسفورد وباريس. بدافع موهبته بالنقش والرسم درس أويتنغ علم الآثار والنقوش واللغات القديمة و اتخذ من هذه الاهتمامات وظيفته التي استمر بها حتى وفاته، وهي السفر والبحث العلمي والكتابه حول النقوش و الآثار والدراسات الشرقية. كما أنه كان ناشطاً في مؤتمرات الاستشراق.

بدأ أويتنغ رحلاته في عام ١٨٦٩م فزار تونس، اليونان، تركية، مصر، سورية، فلسطين، الجزائر، والجزيرة العربية.

كانت رحلة أويتنغ للجزيرة العربية من أهم رحلاته العلمية حيث حصل من خلالها على آلاف النقوش الآرامية والنبطية والسبئية واللحيانية، ونشرها في مؤلفات عديدة.

بدأت رحلة أويتنغ للجزيرة العربية في شهر مايو ١٨٨٣م وانتهت في شهر أغسطس ١٨٨٤م، وكان برفقة الرحالة الفرنسي تشارلز هوبر (الذي ورد ذكره سابقاً). ساهم في تمويل هذه الرحلة حاكم مقاطعة الألزاس واللورين

الكونت مونتفيل.

بدأ أويتنغ بنشر يوميات رحلته إلى الجزيرة العربية بعد عشر سنوات من انتهائها، فصدر الجزء الأول منها في عام ١٨٩٦م، أما الجزء الثاني فصدر عام ١٩١٤م بعد عام من وفاة المؤلف، التي كانت عام ١٩١٣م في مدينة ستراسبورغ[١].

تضمن الجزء الأول من يوميات الرحلة المنشورة ثلاثة فصول عن منطقة وادي السرحان والجوف، تناولت جميع مظاهر الحياة التاريخية والسياسية والاجتماعية. ونترك للقارئ الكريم الآن متابعة ما كتبه أويتنغ في يومياته عن هذه المنطقة [٢]:

"تقع قرية كاف في سهل مالح، يسمى النبك وعقيلة. وهذا السهل يمتد نحو الغرب والجنوب الغربي بحوالي مسيرة يوم واحد. ومن الجوانب الأخرى يحيطها إطار من سلسلة جبال غير مرتفعة تنحدر إلى السهل ليس لها اسم موحد. و يذكر أن وادي راجل الذي ينحدر من الجنوب الشرقي لجبل الدروز يُطلق عليه بدءاً من قصر الأزرق، اسم وادي السرحان، الذي يمتد متصلاً إلى هنا. ولكنني سوف أسجل هنا ملاحظة رغم ذلك، وهي أن مرافقي البدوي يذكر أن وادي السرحان يبعد ثماني ساعات فقط إلى الجنوب الشرقي من وراء قرية إثرة حيث تكون بدايته. إن منازل القرية، وعددها حوالي ٣٠ منزلاً، تنقسم إلى مجموعتين رئيسيتين تربط بينهما بساتين النخيل. يقدر عدد السكان من الذكور حوالي ٩٠ شخصاً. الجزء الشرقي من القرية قليل الأهمية، وله مدخل واسع بدون بوابة، وبه بساتين قليلة وآبار ضئيلة. وفي الجزء الغربي يسكن الشيخ عبدالله الخميس، وكانت مجموعة منازله مجهزة بأحواش وأفنية متعددة. وبالرغم من الدخل الذي يحققه بيع

الملح من نقود للشيخ عبدالله، مما يجعله ثرياً، إلا أنه كان يميل كثيراً إلى البخل، ويضع نفسه في وضع الفقير. لم يكن عليه أن يدفع مختاراً ضرائب لأمير حائل فحسب، بل أيضًا للدروز وفوق ذلك أيضًا لبعض قبائل البدو المختلفة. وإذا ما أراد اليوم وقف هذه المدفوعات المعتادة لهؤلاء السادة أو لخلفائه، فإنه سوف يفقد هيبته، وستخسر تجارة الملح الخاصة به خسارة فادحة. إن بساتين القرية كانت ملكية خاصة خالصة، وكانت مسيجة بحوائط خاصة. ويوجد في البساتين الكبيرة بئر أو أكثر، ويقسم الماء على برك، مع نظام مجار. بهذه الطريقة، يمكن أن تسقى أشجار النخيل بوفرة، و أن يجري الماء بصورة فائضة ويستفيد منه صغار الملاك. في السنوات الجيدة فإن الحبوب أو الخضراوات تزرع على الجوانب الخارجية لمجاري الماء الموجودة.

إن قرية كاف بامتلاكها مابين ٤٥٠ إلى ٥٠٠ نخلة يمكن اعتبارها قرية حضرية استقر بها البدو.

إن لهجة كاف تختلف اختلافا كبيراً عن العربية العامية في سورية، فالأصوات الحلقية تشكل مقياسًا أكيدًا للهجة البدوية. فحرف "ي" يصبح بديلاً للحرف "ج"، وحرف "ك" يصبح "تش" بصورة مستديمة، وبمثل هذا النطق يمكن اذاً لل "ك" وال "ق" أن لايختلفا أبداً[٣]. إن الحرف "ج" غير سعيد الحظ فقد عانى مثل الحروف الأخرى شتى أنواع التنوع، فهنا نجده ينطق بأربعة أوجه: فلقد سمعت على سبيل المثال كلمة: جبل تنطق:

١ - كالمعتاد: جَبَلْ ٢ - يَبَلْ، ٣ - (العربي المكتوب) چَبَلْ ٤ - تْشَبل (النطق الدمشقي) بـ "تش" خفيفة كالفرنسية لحرف (J) والتي تشكل حركة صوتية مزدوجة (أو au) والتي تسمع وكأنها (جُو) كما هو موجود في كلمات مثل جُوع، الجوف، جوهر. علاوة على ذلك فإن أنماط التخاطب

الأكثر استخدامًا تختلف تمامًا عن تلك التي تستخدم في المدن السورية : مثلا ماهذا؟ تنطق وشو وكذلك شنو . وكيف ذلك ؟ إشلونو؟ (أيُّ شيء لونه)، (غداً) باتشر أو باكر وبعد غد" (عقب باكر)، والبعيد (العام) والحاضر (هالسنة)، في "هذه البلاد" ، بها الديرة، "حسن" ، زين، "لاشيء، لايؤثر" تقال مايخالف، وكلمة المجاملة المعتادة، لا أدري والله (ما أدري والله)، (وأيضًا كلمة الشكر) هي "الله يسلمك" ، وهكذا.

بالنسبة للحيوانات، فإن هناك نداءات خاصة لها : فمثلاً كلمة طرد الجمال هو بلفظ "داه داه" ، والخيل بـ "قش قش" ، والحمير والخراف بـ (خر خر)، والأغنام بـ "خ خ" . أما نداء الاستدراج للجمال هو (هوط هوط) وللخراف (تر ترتر)، والجمال السائرة بعيداً يناديها المرء عدة مرات بـ (هرتسبو)، ولحث الجمال يصاح عليها بـ هيك هيك، ولكي ينيخ الإبل يجب على المرء أن يربت على رقبتها بصورة خفيفة وينادي عليها "خُل خُل" .

حول طبيعة ونشأة بعض الناس من العرب، فقد أنيرت هنا بصيرتي . فمن يقضي أيضًا بعض الوقت مع الإبل ويعيش معها، فلابد أن يتوصل إلى القناعة بشكل قاطع، بأن أُناساً معينين ممن يتكلمون العربية كانوا قد استقوها من الإبل أو قلدوها . وأنه سيكون من السهل لعالم وظائف الأعضاء البارع أن يبرهن ويوضح أن نغمة اختناق الصوت المتحشرجة والغرغرة خاصة، التي تخرج من الأنف كالعين والغين هي في أصلها من أصوات الإبل . إنني لا أملك إلا الدهشة من أن هذه الملاحظة لم تُطرح في السابق .

لقد قام الشيخ بضيافة كل المشاركين في القافلة، على شكل مجموعات حيث جلس غالبيتهم في العراء مباشرة بعد المدخل، وآخرون في الساحة أمام منزل الشيخ . ونحن كمميزين، تناولنا القهوة والتمر والخيار في الديوان المشهور أو القهوة (ينطقها البدو قهوه) وهي غرفة تبلغ حوالي ١٢ خطوة طولاً

و٤ خطوات عرضاً، تمت تهيئتها بفتحات عالية على الجدار، وبذلك يدخل الهواء والضوء فقط من الباب. وكان الأثاث الوحيد يتكون من موقد مع منفاخ وهاون حجري، وأيضًا على الجدار كانت هناك بعض خوابير خشبية، وعلى الأرضية حصير، و هذا كل ما كان هناك. لقد استوعب جزء كبير من الحجرة صناديقنا وأمتعة الرحلة الأخرى، حتى أصبح لا يوجد متسع في المكان للزوار. بالرغم من ذلك تواتر سكان القرية طوال اليوم، وكذلك رفقاؤنا في الرحلة، جيئة وذهابا، كل واحد منهم كان يأمل بأن نقوم بعرض بنادقنا. كان السؤال المعتاد عما إذا كانت البنادق من نوع مارتيني - أي سلاح الجيش التركي. كانت الإجابة "كلا، إنها ماوزر، "ماهذه؟ "أنظر هناك". تعلو صيحات الدهشة تتطاير الطلقات الجديدة الواحدة تلو الأخرى عند تعبئة البندقية بالطلقات. ولا يزال يتقاطر أناس جدد إلى الداخل، يجلسون القرفصاء لساعات عديدة، أو يستلقون على الأرض وينظرون بنظرات ثابتة إلى البنادق العجيبة المعلقة على الحائط. ويكون الواحد منهم محظوظا، عندما تتاح له فقط نظرة إلى الجراب.

بما أنني اشتقت إلى نظافة جذرية مرة أخرى لجسمي، ذهبت إلى البساتين، وذهب معي أحد العبيد، الذي كان من المفترض أن يكون عوناً لي، وحينما هم بصب أول سطل ماء على جسمي، اكتشف وجود حشرة قراد ضخمة منغرسة بشكل محكم في ذراعي الأيسر، ولمحَ مبتسما بأنني لابد وأن أكون قد أحسست بها. إن مثل هذه الحشرة لم تكن لتؤثر كثيراً عليّ مثلما أثر ذلك الذئب اللئيم، الذي نال من اللحم الطري لمؤخرتي أثناء سفرنا من عرمان إلى كاف. لم يكن العبد ليتصور أن قطعتي الدماء المستديرتين في جسدي كانتا بسبب تلك الحادثة، وأبدى العبد أقصى علامات الدهشة.

وعندما انتهى ذلك الحمام تطلعت مجددا إلى البساتين والآبار، وبدأت أرسم.

بعد طعام المساء، حضر زوار آخرون، أو ربما هم أنفسهم الذين زارونا في السابق وعادوا مجدداً - بالنسبة لي فإن الجميع تقريبًا يبدون الواحد مثل الآخر - على كل حال لم أكن أستطيع في البداية أن أُميز المعالم الفيزيولوجية بصورة صحيحة. ولم يخل هؤلاء الزوار الساحة إلا في ساعة متأخرة من الليل. بسبب حرارة الجو في القهوة، قمنا بإعداد موقع المبيت الخاص بنا في الفناء، ولكن كان لابد لنا أن نتقاسمه مع حصان الشيخ. كان ذلك الحيوان مضطرباً طوال الليل، ومع أنه كان مربوطاً بحبل، إلا أنه كان يستطيع أن يدور في الحوش، وقد قرض فراشي مراراً.

الثلاثاء ١١ سبتمبر ١٨٨٣م:-

بعد أن استيقظت وجدت أن القافلة التي أتينا معها، قد ذهبت منذ مدة طويلة، وهي الآن في طريق العودة إلى عرمان، ولكن ذلك لم يكن دون أن يخلفوا ذكريات بغيضة خلفهم، حيث اختفى معهم كيسان من الملح وثلاثة مسدسات. لقد خصصنا يوم الراحة للعناية بأجسامنا، ولغرض النظافة والراحة سلمنا أنفسنا للخادم محمود ليقوم بحلاقة كل شعر الرأس باستثناء اللحى حلاقة جذرية بموسى للحلاقة، وهي تجربة لم تخل من الألم. أيضًا لم يسر الإجراء بالنسبة لموسى الحلاقة دون أثر، حيث أن الغبار الكثير والرمل والذي علق بإحكام بالشعر وفروة الرأس جعل الموسى تترك آلامًا كثيرة. بالرغم من ذلك فإن النظر إلينا والشعور برؤوسنا البيضاء الملساء، جلب لنا الكثير من المتعة. أيضًا اللحى تم تشذيبها بهيئة شرقية نوعًا ما، فقبل كل شيء كان يجب أن يكون الشارب فوق الشفة العليا لتكون ظاهرة مرئية، فوجود

الشعر في الفم أو فوقه يعتبر بمثابة تصرف معيب، وليس ذلك بغير حق. إنه ليبدو من الطريف حقًا، حينما يكون المرء بصحبة الإنجليز والأمريكيين وهيئة شواربهم التي تشبه شوارب القرود في عرضها، والتي تجعل كل الأطعمة والمشروبات تسيل على الشعر العالي الكثيف، ثم بعد ذلك من وقت لآخر بشفته السفلى الممدودة أو بلسانه يلعق بقايا الأكل، أو حتى يقوم بمسحه على اللحية بواسطة منديل.

لاحقاً بدت الملابس أنها تحتاج للتغيير بصورة حتمية، لأنها كانت خلال الأيام الثمانية الماضية تستخدم إضافة إلى كونها ملابس كمناديل وفوط وما شابه ذلك من الأشياء.

عند العصر حضر إلى قهوتنا غلام في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من العمر، نصف بالغ، يسمى علياً وكان دون ثوب ودون غطاء رأس وكان ملتفاً بخرقة معطف تغطيه اضطراراً. ألقى السلام على الجميع، وانتحى في زاوية مظلمة. وعند استفساري عما يبتغيه بالفعل، أوضح أنه يريد فقط رؤيتنا، وليقوم بتدخين النارجيلة. قمت بمواجهته مباشرة عما إذا كان من التقاليد والأدب أن يقوم المرء - مثل الوحش - بدون أي ملابس بزيارة الآخرين. وعلى ذلك رد متمتماً أنه لا يملك غير تلك الأسمال، وليس في مقدوره شيء آخر. إنه كما اتضح قد تيتم منذ زمن مبكر. وليس لديه نقود بالطبع، وللاشتراك في الغزوات فإنه مازال صغيراً، فمن أين له إذاً ملابس أخرى؟

قبل مغيب الشمس قمت بجولة حول القرية. ثم عدت للعشاء حيث قدمت لنا وجبة مكونة من لبن وخيار وباذنجان وخبز. لقد اعتذرت عن هذه الخلطة واكتفيت بالبلح.

في المساء فر حصان الشيخ، ومما زاد الطين بلةً، جاءت بعض الأغنام التي بدأت تشمشم مكاننا بفضول.

الأربعاء ١٢ سبتمبر ١٨٨٣م:-

في هذا اليوم، قمنا بزيارة قرية إثرة المجاورة. امتطى الشيخ عبدالله حصانه، وركبنا نحن على جمالنا، وفي الطريق قابلنا عدد من الفتيان الأوغاد الذين كانوا في غالب الأمر ذاهبين للصيد. وبعد مضي ساعتين بدأ قصر الوشواش يظهر للعيان في السهل، ويضم عشرة منازل متجاورة، وبها ينابيع ماء ويسكنها ١٢ رجلاً. وعلى بعد مسيرة نصف ساعة من هناك تقع في خليج من سهل الملح الأبيض قرية إثرة، وسكانها ١٢٠ - ١٣٠ شخصاً.

كانت هناك بعض خيام تم نصبها خارج القرية، وكان في واحدة منها فاصل من قطعة كبيرة من السجاد الإيراني، والتي تعتبر آنذاك قطعة فنية رائعة (من المحتمل أن تكون من غنائم الوهابيين في كربلاء التي حصلوا عليها في ١٨٠١م عندما غزوها). ورغم أنها الآن في حالة يرثى لها، إلا أن جمال ألوانها ملفت للنظر. وعند دخولنا القرية لاحظت على الأرض حجراً في منتصفه فتحة. قال لي أحدهم إن الناس يجهزون بارود الطلقات فيه. أمام منزل الشيخ ذي الشعر الأحمر نزلنا من على دوابنا. إنه يسكن منزلاً أو قصراً أثرياً، وهذا القصر على النقيض من المنازل الأخرى مبني من الحجر الأسود الداكن، الذي منشؤه حوران. قام الشيخ بضيافتنا بتمر أصفر غير ناضج (بسر) وبالقهوة، ولاحقاً بالباذنجان والبامية، والخبز، وأوعز إلى أحد الرجال الحاضرين بإصلاح قرن سرج ناقتي المكسور، وأن يسمره مع بعض بقطعة صفيح. لهذا العمل الرائع تقاضى الرجل ربع مجيدي . بعد الأكل جلست في حدائق النخيل. وأثناء ماكنت عند أحد الينابيع أو البرك مستلقياً لغفوة

مابعد الظهيرة جاء عدة شبان ليستحموا. لم يمض وقت طويل في هذا المكان، حتى أفزعتني طلقات بنادق. تبين لي أن الغلمان قاموا باصطياد طائرين أصفرين، ووسط دهشتي الكبيرة قاموا بأخذهما، وهما نصف أحياء لشوائهما على عصا فوق نار من جريد النخيل دون نزع الريش. كانت النتيجة كتلتين سوداوين تبدوان عند النظر إليهما كبطاطس شويت في رماد.

عندما كنت أتامل منزل الشيخ عن قرب، لاحظت أنه توجد فوق باب المدخل وعلى عتبة الدار العليا الحجرية شكل هلال متقن الصنع، وبجانبه بعض علامات الوسم المنقوشة، وفي الموضع الحجري فوقها توجد كتابة كوفية (الكتابة العربية القديمة، بالشكل الذي يوجد بالضبط على العملات النقدية العباسية) ونصها : "بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله وحده لاشريك له. محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون".

على الحائط الشرقي للقصر الأثري، وبالقرب من إحدى النوافذ كان يوجد رأس إنسان غائر، ومن فوقه حجر جميل يقف على حاملين.

بالرغم من أن الشمس بدأت تميل إلى الغروب إلا أن عبدالله لم يبد أي نية نحو العودة إلى كاف. ولمح بوضوح أنه يمكن أن يحضر ضيوف من الجوف. قمنا مرة أخرى بزيارة أطلال بيت أسود يقع خارج القرية، فما كان إلا أن رأينا خمسة فرسان مدججين بالسلاح، على ظهور نياق ممشوقة القوام وجميلة الشكل، وقد اتجهوا إلينا مباشرة. لقد كانوا في حالة من الدهشة لوجود غرباء غامضين، لذلك كبحوا جماح إبلهم، ووضعوا أسلحتهم في وضع الاستعداد.

قمت أنا وهوبر كذلك بأخذ أسلحتنا، وحدقنا بهم متسائلين عما إذا كانوا عصابة نهب أم أصدقاء؟. قاموا برفع كوفياتهم التي كانوا يتلثمون بها. وفجأة صرخ أحدهم كالمجنون "هوبر"! "هوبر"، فعلق البندقية على رأس السرج وقفز من على ظهر ناقته وجاء مهرولاً نحو هوبر واحتضنه وأمطره بعدها بالأسئلة. وقبل أن أنتبه لنفسي، وجدت أنني مشتبك في مشهد مماثل للسلام. فبدلاً من تقديم أي إيضاح أقبل نحوي البدوي النحيف الطويل مباشرة وكاد أن يقتلني بقبلاته، التي تفوح منها رائحة المسك، واسئلته اللحوحة المكررة أربعة وخمسة مرات: تشيف أنت؟ "تشيف أنت؟. أخيراً، وبعد أن توقفت عاصفة السلام اكتشفت أن ذلك البدوي هو حمود المجراد(٤) من حائل من إمارة شمر، وأن الأمير محمد بن رشيد أرسله ليأخذنا من دمشق. لفهم هذا الموضوع أجد لزاماً عليّ التحول إلى استراحة قصيرة وبيان الأمر. قبل مغادرتي للرحلة من "ستراسبوغ" كنت قد وجهت خطاباً في أوائل مارس ١٨٨٣م إلى أمير حائل(٥) أخبرته فيه عن نيتي، ونية هوبر بزيارة ديرة شمر، و أشرت له بصراحة أننا سوف نُحضر له معنا ما يسر قلبه (نعني بذلك السلاح). علاوة على ذلك أوضحنا أننا نرغب في كرمه بإرسال رجل مسؤول يعتمد عليه، ليقابلنا في دمشق، ومن المستحسن أن يكون ذلك الرجل حمود المجراد، الذي تعرف عليه هوبر في رحلته الأولى عام ١٨٧٩م. وكذلك بعثت بخطاب آخر لابن عم الأمير حمود العبيد الرشيد، أكدت فيه على نفس الأمر. بعثت بمضمون هذه المراسلات عن طريق شيخ الدروز نجم الأطرش، الذي تسلمها من نائب القنصل الألماني في دمشق الهر ليتكه للاهتمام اللاحق. لكن يبدو أن الرسالة الموجهة إلى الأمير قد ظل في قرية عرمان [في منطقة جبل الدروز، جنوب سورية] وقتا طويلاً إلى أن وجد

إنساناً يجازف برأسه ويقوم برحلة الأربعة عشر يومًا مع تلك الأوراق إلى حائل. وعلى كل حال فإن ذلك الساعي لم يكن في عجلة من أمره وترك نفسه لضيافة بعض سكان المناطق بصفته حاملاً خطاباً للأمير والاحتفال بكرمهم. وبالمناسبة، فإن الشيوخ [٦] لم يكونوا موجودين في ذلك الوقت في حائل لتسلمها، بل حسبما علمنا الآن أنهم كانوا في إحدى الغزوات، ويعتقد أنها كانت في جهة عنيزة، أي على الأقل رحلة عشرة أيام إلى الجنوب من عاصمته، ولم يستلم خطابي إلا هناك [٧].

لقد اشترك حمود المجراد أيضًا في هذه الغزوة، وهناك تلقى الأمر بأن يتحرك حالاً إلى دمشق لمقابلتنا، وإحضارنا إلى الأمير. تحرك حمود حال تلقيه الأمر وتوقف فقط لمدة يومين أثناء سفره في حائل، لكي يجهز بعض المهام المتعلقة بدمشق. ومن هناك إلى هنا كان مسافراً لمدة ١٤ يوماً. كان معه كمرافقين أحد أنصاف الزنوج يدعى إبراهيم أبو خليل، وآخر يدعى محيثل أبوحامد من الجوف، وتاجر جمال دمشقي يدعى حسين، وشخص آخر من سكان قرية إثرة، والذي انضم إليهم في الجوف. كان حمود يحمل معه عدداً كبيراً من الخطابات والمهام إلى دمشق. وكان هذا الشيء الأخير - أي الخطابات والمهام الواجب أن ينجزها في دمشق، أمراً إضافيًا ومرعبًا إذ أن ذلك يعني ببساطة تأخير الرحلة لمدة ثلاثة أسابيع. لم يكن لدي المزاج للرجوع مرة أخرى إلى دمشق، وحتى لو كان هوبر مستعداً لمرافقة حمود إلى هناك فإنه سيبقى لي بالتأكيد الخيار العسير للصبر والإقامة لأسابيع عديدة في قرية كاف المقفرة.

إن رسول الأمير ذا المكانة العالية سوف يتم بالطبع استقباله واستضافته بصورة مختلفة تمامًا عن استقبالنا. لقد قُدم لنا في هذا الصباح أولاً بلح ناضج

(تمر) لا (بسر) مع الزبدة. كذلك قام الشيخ بذبح ذبيحة على الفور، ووضعت الدماء على رقاب وأفخاذ نياقنا علامة للتكريم، ويعتبر هذا عند البدو بمثابة تكريم واحترام للضيف، وحتى يفطن جميع من يصادفهم على الطريق بأنهم من المسافرين ذوي الشأن، الذين تم الذبح لهم. وإلى هذه الوليمة هب كل المجتمع ويمموا شطر المنزل، الذي كان يقيم فيه الضيوف. وهناك هاج وماج الجمع. وجبة طعام ثانية شاملة كاملة، والتي يمكن فقط لمعدة البدوي أن تتناولها مباشرة، الواحدة تلو الأخرى. كان كل شيء وافراً وأكثر نظافة. وعلى كل حال أنظف مما كان عند الشيخ.

أثناء التحضير للقهوة أحضرت مبخرة مصنوعة من الخشب، ومرصعة بصفائح النحاس الأصفر، وعلى الجمر المتقد كان يوضع خشب الصندل بكمية كبيرة حتى يتكون دخان كثيف. الأشخاص المحترمون يقومون في الحال بتبخير اللحى، وذلك بحمل المبخرة باليد اليمنى تحت اللحية، وفي الوقت نفسه مسح اللحية باليد اليسرى. أما البدوي العادي، فيقوم بتبخير الجانب الداخلي للكوفية، كما يقوم بحمل المبخرة تحت الثوب حتى مستوى الإبط. كانت المبخرة تملأ في حالات الضرورة، وتدور على الجمع مرة أو مرتين.

مرة أخرى في وقت متأخر من الليل، وأمام القرية، يقام أيضًا مجلس لشرب القهوة لدى تاجر الجمال حسين، وهنا فقط وأمام الصفوة المختارة من المجتمع يدرو الحديث حول أهم الأخبار السياسية من نجد.

ولفهم الأوضاع السياسية الحالية في نجد يتحتم عليّ حقاً أن ألقي الضوء بصورة موجزة على تاريخ الوهابيين.

بشكل عام تتنازع السيادة حالياً على داخل الجزيرة العربية عائلتان حاكمتان تعترفان بدعوة محمد بن عبدالوهاب، وهما في النصف الجنوبي والجنوبي الشرقي، عائلة ابن سعود، ومقرها الرياض، وفي الشمال والشمال الغربي عائلة ابن رشيد ومقرها حائل. إن الرشيديين كانوا قد ارتقوا بصفة مضطردة نحو استقلال أكبر، بحكم أنهم كانوا الحكام الذين عينهم آل سعود منذ عشرينيات هذا القرن لحائل.

إن الأمر في منتهى الصعوبة للحصول على تقارير أكيدة يعتمد عليها حول حقيقة المواقف والأحداث في داخل الجزيرة العربية. إن القدرالقليل، الذي يرد إلى أوروبا يكون في أغلب الأحيان قد انساب عبر غربلة تركية. أما إذا ما سمع الإنسان في الموطن والمكان من بدوي مستقل فيجب عليه أولاً وقبل كل شيء أن يضع في اعتباره، خاصة عندما يتعلق الأمر بالأعداد، أن يتحسب كثيراً للمبالغات اللانهائية (مثل الإفادات عن الغنائم والخسائر). وثانياً أن يضع في تقديره مدى تعاطف أو كراهية الراوي، حيث إن الأمر يتضمن جهتين متعادتين والأحاديث حول نفس الحدث تختلف اختلافاً جوهرياً.
وعلى سبيل المثال: كنا قد سمعنا قبيل بداية رحلتنا إلى الجزيرة العربية، وفي القسطنطينية أخباراً مزعجة، بأن محمد ابن رشيد قد مُني في إحدى غزواته ضد منافسه الجنوبي بواحدة أو أكثر من الهزائم النكراء على يد عبدالله بن سعود [عبدالله بن فيصل بن تركي آل سعود]. وكان سبب انزعاجنا هو أننا كنا واضعين في خطتنا التوجه من حائل إلى الرياض لتيسر لنا فرصة التعرف على الوضع من خلال معلومات موثوق بها. ولقد تلقينا رواية مشابهة، لكنها تتصف بالشماتة، وذلك في منطقة (بني عيسى) بجهة بلدة امتان بجبل الدروز [جنوب سورية]، حيث لم يجد أحدهم إلا أن يعطينا رواية تقول: إن ابن سعود كتب خطاباً إلى ابن رشيد، يقول له فيه: "إن نجداً يحكمها رجل واحد

فقط، إما أنت وإما أنا" ، وإن ذلك سوف يقود إلى قتال حاسم. وفي الرواية الأخيرة هذه، يقولون إن ابن رشيد انهزم هزيمة مزرية في جنوب مدينة عنيزة، وتم سحقه بصورة شاملة، وفقد قطعاناً كبيرة من الإبل وعدداً كثيرا من الخيل. قام الشيخ عبدالله بتطمينا مباشرة، بعد وصولنا إلى قرية كاف، وإيضاح أن الأمر كان على العكس تماماً. لقد وقع ابن سعود في أسر ابن رشيد، ولكنه بدافع من الكرم والسماحة منحه الحرية مرة أخرى، وأرسله على ذلولين إلى الرياض. يمكن لنا الآن على أحسن الأحوال، أن نحصل من حمود المجراد على توضيح صحيح للأمر. وقد أوضح لنا أخيراً الأمر وأدلى بالصياغة التالية: -

نتيجة للتذمر الشديد من أتباعه فقد اضطر ابن سعود إلى خوض غمار حملة حربية. ولهذا الهدف تحالف مع قبيلة عتيبة. قام ابن رشيد فجأة، وبعد أن حصل على معلومات مؤكدة، بهجوم عنيف على عتيبة ودحرهم بصورة لم يتبق معها لهم شيء. نجا ابن سعود بأعجوبة، وكان في نيته أن يحتمي في وادي نجران، ولكنه وهو في الطريق وقع في أيدي قبيلة حرب. قامت قبيلة حرب بإخبار ابن رشيد بأن ابن سعود قد وقع أسيراً في أيديهم، وأنهم مستعدون لتسليمه، لكن ابن رشيد لم يكن يرغب بالقبض عليه عبر غرباء، فأبلغهم عدة مرات ناصحاً بإطلاق سراحه وإعطائه نياقاً ليغادر عليها. إن عرض الحكاية الأخيرة مع قبيلة حرب ومنذ البداية أثار شكوكي بالحكاية كلها ولكنني احتفظت بها لنفسي. ولاحقاً قال لي خليف العجوز أن الرواية بكاملها رواية خرافية. وهكذا حتى عندما لم يكن بمقدوري التصور الذكي للمسألة تأتيني كثير من الأخبار من الروايات المتنافرة المتباينة، التي تؤكد أن الغزوة ضد ابن سعود وعتيبة لم تكن باهرة بالشكل الذي أشاعه ابن رشيد، وأيضًا لم تؤد إلى الفصل في أمر المنافسة بين الخصمين.

الخميس ١٣ سبتمبر ١٨٨٣م:-

في الصباح الباكر، تم تقديم وجبة طعام دسمة مرة أخرى. وفي الساعة السابعة والنصف ونحن في طريق عودتنا إلى كاف عبر قصر الوشواش، ولم يكن بالفعل في نيتنا أن نتوقف هنا أبداً، ولكننا وحتى قبل أن نشعر، كانت جمالنا قد لطخت من جديد بالدماء. وفي الساعة العاشرة صباحاً كانت هذه الوليمة قد تم إنجازها أيضًا. في الساعة الثانية عشرة ظهراً غادرنا عائدين مرة أخرى إلى كاف يعززنا رهط من أهالي قصر الوشواش في موكب رسمي. لقد تحرك رجلان قبلنا لكي يبلغوا بقدوم عدد كبير من الضيوف. في الفناء كان يقف أطفال الشيخ وهم يرتدون ثياباً نظيفة، وعدد من رجال وصبيان الحي، بعضهم في القهوة، والبقية في فناء منزل الشيخ.

تم تقديم بلح طازج للمجلس، ولاحقاً خيار طوله متر. عند العصر اصطاد أحد الشبان طائراً ذا لون رمادي وأصفر، وكعلامة على حظه في الصيد قام الصائد بتلطيخ خشب بندقيته بدم وريش الطائر المقتول، وبعدها قام بشويه على عصا إلى أن تفحّم.

الجمعة ١٤ سبتمبر ١٨٨٣م:

عند شرب القهوة، حدث مشهد لا يتكرر إلا هنا فقط، حيث شجع الشيخ عبدالله ابنه خميس ذا الثلاث سنوات، وعلمه كيف تتم عملية تدخين الشيشة (غليون الماء).

وبسبب سرقة ملح في الليلة الماضية، كانت هناك معركة حقيقية هنا الصباح في الساحة أمام القرية. هجم المتنازعان على بعضهما موسعين أنفسهم ضربًا وتكسيراً، وتدخل آخرون فيها بالعصي والسيوف. لقد دارت

رحى معركة حامية، وتلقى أحد الأولاد الزنوج عدة ضربات بارعة من عبدالله بغمد السيف حتى سالت دماؤه. وبإبعاد الفاعل الحقيقي إلى بستان الشيخ انقلبت المناسبة إلى رضاء عام.

لوجبة الصباح كنا في النصف الشرقي للقرية، بناء على دعوة من المدعو منصور، الذي يعد أغنى رجل في قرية كاف بعد الشيخ، ويمتلك حصاناً، ويعجبه كثيراً أن يرتدي سترته المصنوعة من القماش الأحمر القاني، والذي لابد وأن يكون قد غنمها من مكان ما. وعن كونه قد شارك في عدة معارك، تشهد عليها الندبات العديدة وبعض من الأسنان المكسرة. واليوم كان يرغب عبر استضافتنا في وليمة هائلة، أن يشير إلى تفوقه على الشيخ، ولقد نجح بالفعل في ذلك. وفي مساء اليوم نفسه كان لابد لنا من أن نلبي الدعوة منه مرة أخرى.

تحدثنا اليوم مع حمود المجراد عن خططنا المستقبلية، ولقد فتح لنا آمالاً طيبة، بأنه طالما كنا في منطقة شمر، فإننا لا نحتاج لأن نهتم لأي شيء، وبأن ابن رشيد سوف يقدم لنا أفضل المرافقين وأي كمية من مخزون الزاد كيفما نرغب. وكان يرى أنه من المحتمل جداً، أن يأتي ابن سعود إلى حائل في نفس الوقت الذي نصل فيه إليها، ومن ثم سيهتم ويبذل مافي وسعه نحو رحلتنا إلى الرياض. وحتى إذا ماحضر في وقت لم نكن موجودين فيه فإن الشيخ سوف يحاول إبقاءه حتى عودتنا، وتحت كل الظروف سوف يحدثه عن زيارتنا المزمعة للرياض، وأن يحصل منه على الوعد برعايتنا.

في المساء، جلسنا طويلاً تحت ضوء القمر، وجرى تبادل الحديث مطولاً إلى أن أخذ أحدهم ربابته، وهي آلة ذات وتر واحد، يتم العزف عليها بأربعة أصابع ويجرى عليها بالقوس، ومع رنين النغمات، ألقى رجل عجوز

قصيدة. والتي لم أفهم بالطبع أي جزء منها. كان الناس في حالة خجل وارتباك بسبب وجود حمود، الذي يجيء من حائل ذات التدين والورع الوهابي. وحيث يُعتبر إظهار الفرح المكشوف وخاصة الموسيقى أمراً مخالفاً للدين.

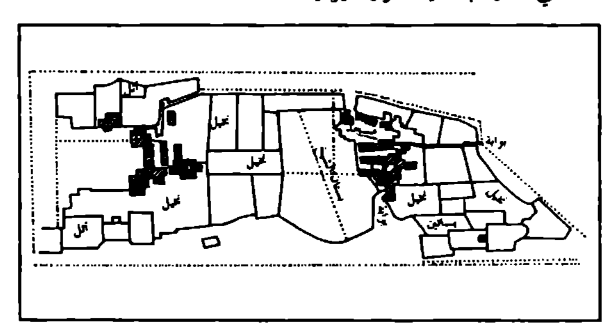
السبت ١٥ سبتمبر ١٨٨٣م:-

بدأ التجهيز لرحلة العودة لهوبر مع حمود ورفاقه إلى دمشق، في الصباح الباكر قبل انبلاج الضوء. كان حمود يعد رسائله بين فترة وأخرى خشية أن يكون قد فقد واحدة منها. لقد كانت بعض الرسائل موجهة إلى الحكومة التركية، وأخرى إلى محمد بن دوخي بن سمّير من ولد علي (عنزة)، رزمة كاملة من الرسائل موجهة إلى دمشق. كما أنه أخذ وعداً من هوبر بالإبراق للسفير الفرنسي في القسطنطينية ليسأله عما إذا كان في مقدوره أن يحرك الباب العالي (الدولة العثمانية)، لإعادة خيبر مرة أخرى إلى ابن رشيد، والتي احتلها باشا المدينة منذ عهد غير بعيد. ثم أعد حمود قائمة بما سوف يقوم به من مشتريات في دمشق، وآمل أن يتمكن من البقاء في دمشق لمدة أربعة أسابيع - وآمل أنا شخصيًا أن لا تكون المدة بهذا الطول - وطلب أن يأخذ جملي الذلول الجميل للرحلة، ولم يهدأ إلا بعد أن انتزع موافقتي بأن يأخذ معه بندقيتي المزدوجة لوفوشو، التي كانت مؤتمنة لدى محمود للحفظ وللزينة. وللزيادة في أبهته رغب حمود أن يتمنطق أيضًا بمسدس محمود، ولكنه وجد معارضة شديدة، حيث باءت كل محاولاته بالفشل. وضمر محمود منذ تلك اللحظة كراهية لاتنطفىء ضد ذلك الرجل. ولاحقاً كان لايدع أقل فرصة تمر دون أن يحتك به. وفي اللحظة الأخيرة حضرت النساء بالطبع ببضع طلبات، فهيدة، إحدى نساء عبدالله كانت ترغب أيضًا في سوار

من الفضة وخواتم وما إلى ذلك. وكان حمود مرتابًا وفطناً، ولم يكن شهماً بما فيه الكفاية، عندما طالبها بالنقود مقدمًا. ولـم تـستطع رغم كل الجهود من الاستدانة من النساء الأخريات أن تكمل النقود الضرورية ذات الفئة الصغيرة مما أغضبه، إلى أن قمت بتسديد الباقي بتبرعي بمجيدي واحد. في الساعة السابعة رحلوا مصحوبين بدعواتنا لهم بالتوفيق.

الآن جلست هنا وحيدًا مع الخادم محمود، وبدا لي الأمر وكأنني سجين. ماذا يجب عليّ إذاً أن أقوم به من عمل صائب معقول؟. لكي لا أضيع الوقت الطويل هباءً في كاف، بل أيضًا أستغله وأنتفع به. كانت خطتي بشكل عام أن أتعرف على الأعراف والتقاليد التي ماتزال غريبة عليّ، وكذلك لهجة البدو عن قرب، إضافة إلى ذلك كنت أرغب تعود حياة الخشونة والمشي حافي القدمين. وبسبب استيطاني القسري في كاف، شعرت حالاً وكأنني برجوازي صغير من برجوازيي القرية. فاطلعت على تلك الحياة الهادئة لقرية قانعة للبدو.

بعد رحيل الغرباء الكثيرين، بدأت النساء والأطفال في الظهور تدريجياً، مما مكنني أن أراقب الحياة المنزلية اليومية.



مخطط قرية كاف (رسم أويتنغ)

أولاً وقبل كل شيء، كان للسكون التام بعد ضجيج الأيام الأخيرة أثر ممتع، وبدأت أحاول قدر الإمكان أن أقوم بتأثيث القهوة بشكل مريح. فقمت بصنع طاولة باستخدام غطاء أحد الصناديق ومع سرجين لأتمكن من الكتابة والرسم بشكل مريح أكثر منه على الركبتين. ولطرد الذباب الكثير قمت بصنع مروحة من سعف النخيل.

زارني اليوم رجل عجوز من الجوف، اسمه خليف، وروى لي تفاصيل مثيرة للاهتمام - والتي بكل أسف لم أفهمها كلها آنذاك من حيث اللغة وكذا من حيث الموضوع، وكانت حول إخضاع موطنه إلى حكم أمير شمر في حائل.

تمتعت تلك الواحة (الجوف) عقب غزوة إبراهيم باشا عام ١٨١٧م بنوع من الاستقلال. ولكن في أعقاب خصومات داخلية، لم يتمكن أهلها من الاحتفاظ بالاستقلال لمدة طويلة، بل وقعت على الأرجح في تبعية بدو - الرولة الذين يقيمون في الشمال. استغل طلال الرشيد أمير حائل منازعات العائلات والقبائل بها، وبعد أن ضرب على أوتار الرفق في البداية، قام بإرسال عمه عبيد [ابن الرشيد] الملقب بـ "الذئب" في عام ١٨٥٥م (وفي رواية أخرى عام ١٨٥٣م) ومعه مدافع إلى هناك فقصف الأسوار والمنازل وقطع رؤوس ٨٥ شخصًا ممن كانوا متمردين أو حتى فقط ممن يشتبه بهم، واقتلع أشجار النخيل، وقد أرسى على هذا النحو بالرغم من ذلك العنف نوعاً من الهدوء والنظام. ومنذ ذلك الوقت تبعت الجوف منطقة شمر.

كان خليف، الرجل المذكور أعلاه من ضمن الناجين من حمام الدم الكبير ذلك. ولقد تم أخذه مع ٦٥ من الوجهاء المتبقين لاحقاً إلى حائل، وهناك وضعوا في القيد بالسلاسل لمدة ستة أعوام، ولكن فيما بعد أطلق سراحه. لقد

دُهش كثيراً عندما سمع مني بأنني علمت مسبقًا بحقيقة الحادثة الأخيرة هذه من بلغريف، وكان متلهفًا لمعرفة كيف وماذا أعلمه عن شخصه. ومنذ ذلك الحين دأب ذلك الرجل على الحضور بانتظام يومياً ليؤانسني اجتماعياً.

بدأ الشيخ عبدالله بالتدريج يكشف عن شخصيته الحقيقية بعد أن تأكد من أنني سوف أظل لمدة ثلاثة أو أربعة أسابيع بمنزله. لقد كان من الواضح أنه أخذ اعتبار رعايتي كضيف لمدة لاحقة بمثابة الأمر غير الضروري، وحتى يمنع أي خيبة أمل أو ادعاء أو اتهام، قام بمفاتحتي بملامح وجه تعبر عن الشكوى بأنه الآن وبكل أسف ليس لديه دقيق وأرز في منزله. و لكنني أعفيته من الأعذار اللاحقة، ورجوته بأن لا يهتم بالأمر البتة، وأنني راض تماماً من استضافته. وجدت تلك الظروف الجديدة المتسمة بالرياء والنفاق، في واقع الأمر، الترحيب من ناحيتي، فلقد كان لديّ من الزاد المخزون من أرز ودقيق وبن مايكفي. بعد ذلك، أمرت الخادم محموداً بأن يقوم بكل مايخصني من تدبير منزلي وطعامي، وخاصة بعد انقضاء يوم دون أن يدعوني الشيخ حتى لشرب القهوة.

إن النظام المنزلي المعتاد بالنسبة للوجبات لدى السكان في معيشتهم اليومية هو :-

مع طلوع الفجر شرب القهوة، وفي حوالي الساعة التاسعة توجد وجبة الصباح وهي الغداء والتي تتكون من البلح مع الزبدة، أو الأرز مع الزبدة السائلة مسكوبة عليه، بينما تقدم أرغفة الخبز على قطعة من الخشب أو صحن نحاس. ومباشرة بعد غروب الشمس، تكون وجبة المساء أي العشاء، وهي الوجبة الرئيسية. أولاً القهوة، ثم الأرز مرة ثانية أو البرغل، وفي الحالات المتيسرة يوجد اللحم إلى جانب ذلك، وعندما يكون ممكنا بعض (البامية

الخضراء والباذنجان والخيار). وفي أوائل ساعات الليل، يتم تحضير القهوة مرة أخرى. وإذا ما جاء ضيف أثناء النهار، بعد الغداء، سوف لن تقدم له وجبة تامة، بل مجرد القهوة وبعض التمر. وعليه الانتظار للأكل حتى حلول الليل.

بعد وجبة مساء هذا اليوم، جلست في الفناء المظلم ضمن مجموعة زوار يدخنون النارجيلة، لكنني أصغيت إلى الحديث. قام أحد الزنوج بتقديم القهوة للضيوف، أما أنا فلم تُقدم لي القهوة إلا آخر الموجودين. ولأنني لم أكن معتاداً أن يقدم لي الشيء آخر شخص، نهضت واقفًا، وقفلت عائداً إلى مكان إقامتي. بسبب الارتباك الذي حدث، استيقظ الشيخ، الذي كان أثناء هذا المشهد ينام بالقرب من المجلس، وأسرع نحوي واعتذر بإلحاح شديد لعدم الاحترام الذي تلقيته، مردداً أن ذلك العبد مخلوق فظ وجاهل ولا يعرف التقدير، وأنني من أنبل الرعايا المسيحيين. وأنه شخصياً كان نائماً ولا توجد لديه أدنى فكرة عن الأمر الذي حدث. وأنني يجب أن أقتنع بأن مثل ذلك الأمر، لن يحدث مرة أخرى. بناء على توسلاته تحركت خارجًا لأجلس معهم، ومن قهوة قام بإعدادها بنفسه تناولت أول فنجان من يده. كان لابد لي من أن أتصرف وفق مافعلت، لأن الأمر بلا ريب مع هؤلاء الناس اتخذ صفة اللامبالاة وعدم الاكتراث. و إذا ما احتمل المرء خرق التقاليد دون عتب ولوم، فإنهم وإلى إشعار آخر يحكمون على كرامة ووجاهة الآخرين فقط، وفق مايقوم بحسمه هو شخصياً.

الأحد ١٦ سبتمبر ١٨٨٣م:-

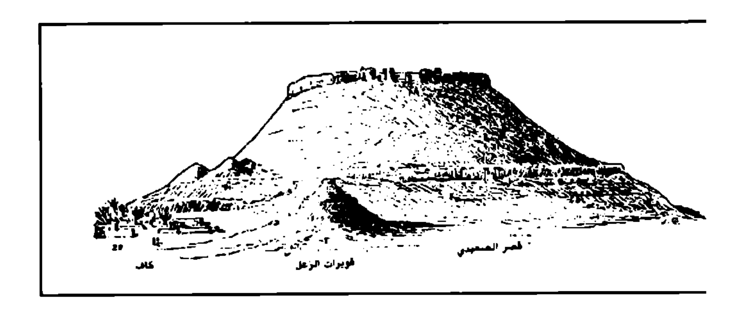
في الجانب الشمالي الغربي للقرية يشمخ بعناد وإصرار إلى علو بحوالي ٣٠٠ قدم "قصر الصعيدي"، الذي كان فيما مضى جبلاً حصيناً. يتكون القصر في ثلثه الداخلي من شرفة من قطع صخرية رملية سوداء من بقايا

بركان، ومن نفس الخصائص تتكون القمة المخروطية المنتظمة الشكل إلى الناحية الشرقية من الشرفة. وتسمى قويرة الزعل، ومن الشرفة ذاتها يعلو ظهر الجبل ذو الشكل البيضاوي في امتداد من جنوب الجنوب الشرقي نحو شمال الشمال الغربي، معظمه مبني من الحجر الرملي الأبيض مع آثار للجبس الكرستالي بينها، وكل القصر متوج بطبقة قوية ارتفاعها من ١٠ أقدام - ١٥ قدمًا من الصخر والتي بدت لي كإكليل رمادي. الأسطح العليا للقصر مسورة بأسوار وأبراج حجرية. وبما أن الإنسان يستطيع أن يحصل من أعلى القمة على منظر بعيد ممتد، لذلك طلبت من الشيخ أن يصطحبني إلى أعلى وأن يشرح لي ما أرى من مناظر. خلف القرية عبرنا مقابر غير منمقة أشار لي الشيخ إلى قبور عائلته، ورجاني أن أنتظر لبضع لحظات حتى يؤدي ركعتين. في هذه الأثناء تأملت المقابر، كانت تعلوها حجارة سوداء بارتفاع قدم واحد إلى قدمين، وهي جميعها غير منحوتة وأيضًا غير مكتوب عليها - إن الكتابة والقراءة لا يعرفهما هنا أي بشر -، على البعض منها غرست عصي من عسب النخيل، وعلى قبر إحدى النساء لاحظت بقايا من قميص أزرق، وكذلك خصلة من الشعر، و يُعتقد أن الضباع قد قامت بنبش القبر. لقد استغللت تسلق الجبل في ذات الوقت، كمحاولة أولى لتعلم المشي حافي القدمين. أثناء النهار سار الأمر بصورة جيدة للغاية وتمكنت من التعرف على الطريق بصورة لا بأس بها، وبما أنه مع انتعالي الحذاء لايمكن تفادي دخول الرمل والحجارة الصغيرة، فلابد من القول إن الأمر كان بالنسبة لي مريحاً، إذ إن الأمور ليست دائماً كما هي في كل موقع.

خلال ٢٥ دقيقة كنا في أعلى الجبل، وعبر باب مازال قائمًا صعدنا فوق درج صخري إلى أعلى، مروراً على مواقع قديمة للحراسة يميناً ويساراً، ودخلنا

السطح المستوي للقمة. في الجانب الجنوبي الغربي، كان الحائط غير موجود، بينما مازال متماسكاً في الجانب الشمالي والشمالي الشرقي، ومحصناً أيضاً بأبراج بارزة رباعية الزوايا. بقية المنازل قليلة الشأن لاتستحق التعليق.

في منتصف الجانب الشمالي الغربي، كان يقف ذلك البناء الضخم في هدوء ورزانة كبيرين، وإلى الجوار بركة مسطحة، وبعيداً نحو الجنوب الشرقي بئر ماء طمره التراب. في منتصف الجميع، كان يوجد مايطلق عليه الجامع بمحراب نصف دائري، وبما أن هذا الأخير لم يكن مطابقًا لاتجاه القبلة في مكة، لذا فإنه يجوز الافتراض بأن كنيسة مسيحية كانت موجودة في هذا المكان.



قصر الصعيدي (رسم أويتنغ)

حول تاريخ ومصير القلعة، كان الشيخ لايستطيع بالطبع أن يفيد بخبر مبين. ومن الآثار القديمة لم يكن هناك من شيء يُكتشف. عند البئر وجدت

حجرًا نُقش عليه هلال وشمس، وعدا ذلك كان هناك بعض النقوش التي يبدو أنها تعود إلى عهد قريب. على أحد البيوت وجدت هذين الشكلين: Ψ ، ⫩ ، ونقوشاً أخرى كانت عبارة عن وسم، جزء منها مرسوم باللون الأحمر. و يعتقد "ويلفرد بلنت" أن القلعة قد دُمرت بواسطة إبراهيم باشا.

كان المنظر من قمة الجبل بعيد المدى، و يستحق المجهود لرسمه. على مسافة ليست بعيدة توجد ثلاثة جبال تقع إلى الشمال الشرقي من هنا وهي مقل وشمسانه و أبغيث. وهذا الأخير يطلق عليه أيضاً اسم شامة. على قمم هذه الجبال الثلاثة يُفترض أن يتساقط الثلج، وإن كان حدوث ذلك نادراً. لقد روى لي أيضًا عن طائر ضخم يسمونه نعجة الطرفه، الذي يعيش فقط في هذه الجبال العالية في الشتاء البارد جداً، ولكنه دائمًا لايمكث إلا قليلاً. كان الوصف غير الواضح ينطبق على النسر صائد الخراف أو على أي طائر مشابه. في الجنوب الغربي اختفى السهل المالح (النبك وعقيلة) إلى بضع طرق متقاطعة في خطوط متساوية تنتهي إلى الجنوب مع الجبل الأزرق الفاتح، أم الفناجيل (وتنطق الفناجير).

على مسافة ٢ أو ٢,٥ ساعة تبينت نقطة سوداء كانت تتحرك فأوضح لي عبدالله أن تلك النقطة السوداء هي لزنجي يملكه، وكان يقوم بأخذ الماء من بئر عند قليب الملح، ويصبه على الأرض المالحة حتى يجفف القشرة الأرضية. أمضيت كل عصر ذلك اليوم أردد ثم أكتب الأسماء التي سماها الشيخ، الجبال والأماكن وماشابه ذلك، ولكن بالرغم من ذلك ظل معظمها مشكوكاً فيه بالنسبة لي : إن أذني آنذاك، لم تكن معتادة أن تفرق بين الأصوات الجهورية المترابطة.

عند المساء، واصلت التمرين بالأقدام الحافية، وقمت بتعليق حذائي بخيط على كتفي. خلف القرية كانت هناك خيام بدائية نصبها رعاة الضأن أو الماعز، وبجوارها جلس بعض البدو. من بين هؤلاء الأخيرين نهض أحدهم واتجه صوبي وطلب مني أن أكتب له حجابًا. كنت حائراً ومتردداً في كيفية تلبية هذا الطلب. أفهمته أنه يجب عليه أن يحضر إليّ في الصباح الباكر، حينئذ سأرى مايلزم عمله.

ثم جاء آخر أيضًا وسألني " لماذا تمشي حافي القدمين ؟ لقد رأيتك بالفعل هذا الصباح وأنت تسير دون حذاء. وإنك رجل محترم وغني، ولديك بالتأكيد حذاء" . أجبته: " نعم ولكن إلى متى؟ إلى حين أن تسرقوها مني، وفي هذه الحالة فإنني قادر على مطاردة اللص وانتزاعها منه" . " أنظر، إنه ذكي، إنه يعرفنا" . هكذا قالوا.

في وجبة المساء اليوم، كان هناك بيض وبلح مع زبدة ساخنة. لاحقاً، حضر زوار كثيرون لتناول القهوة ولم يكن بالكاد بينهم من لم يشحذني تبغًا، أو أراد أن يرى المسدس، ولم أعط أياً منهم شيئاً.

هبت عاصفة من الجنوب الشرقي، وأثارت غباراً مزعجًا للجلسة، ودفعت باللذين خابت آمالهم في تلبية طلباتهم إلى منازلهم.

الاثنين ١٧ سبتمبر ١٨٨٣م:-

في الصباح الباكر، ذهبت إلى قصر الصعيدي و أخذت معي ابن الشيخ ذي الثلاثة عشر عاماً، ويسمى سالماً إلى الخارج، وجعلته يعيد علي مرة أخرى أسماء المناطق المجاورة التي يعرفها. وعند نزولنا من الجبل إلى أسفل كان ذلك البدوي الذي طلب مني حجاباً بالأمس يقف هناك، وكان اسمه غيران ويريد

أن يأخذ حجابه. حقاً لم يكن لديّ مزاج أن أقحم نفسي في حماقة، وحاولت أن أقنعه، ولكنني فشلت. إنه يعتقد أن الأمر مجرد سوء نية من قبلي لأنه بائس وفقير، ولأنه لايستطيع أن يقدم شيئًا في المقابل. رددت عليه بأن التفكير في كسب نقود لايمكن على أقل تقدير أن يكون مسيطراً عليّ لتنفيذ مطلبه، وأنه يجب عليه يوماً ما أن يناقش معي طلبه عن كثب. حكى لي أنه صائد غزلان، ولكنه منذ زمن طويل لم يصد أي شيء، وأنه أيضاً غالباً مايشترك في مغامرات خطرة، وأن أكبر أمنياته أن يحصن نفسه ضد الرصاص. لقد كنت في وضوح تام حول القرار الحرج الذي سأتخذه - إذ يمكن تحت هذه الظروف أن تتم محاكمتي في صباح الغد بشكل واضح بالكذب، حول فعالية حجابي. لذا أبديت بعض الملاحظات بتحفظ حول شروط معنوية وأخلاقية وأخرى لايمكن السيطرة عليها، والتي بدونها لايكون الحجاب شافيًا فحسب بل إنه يمكن أن يجلب الضرر لحامله في الحال. بعد أن أكد لي بأنه يمتلك كل الصفات المطلوبة، ونظراً لأنه ألح بشغف للانتهاء من تحرير المكتوب المليء بالأسرار.

هكذا كتبت له على ورقة الأمنية التالية باللغة الألمانية:

الله

أيها التعيس الفقير! فلتجعلك عقيدتك مباركًا وبما

الله أنك فتى طيب، لذا أتمنى أن تخرج الطلقات مرة الله

أخرى من جسدك مثلما دخلت فيه.

الله

"كاف"

التاريخ ١٦/ ٩/ ١٨٨٣م

جي. أويتنغ

وقبل أن يتم تسليم هذا الكنز جعلته يعدني بأن يحضر لي هدية من صيده، عندما يصطاد أي شيء. في عناية مهيبة قمت بثني هذه الورقة إلى شرائط رقيقة وتقصيرها إلى عقدة ذات خمس زوايا. بالسؤال عن كيفية حملها وضحت له الأمر بأن يحافظ على الزوايا الخمسة وأن تحاك في جلد غزال نظيف وبشريط جلد يُربط حول الرقبة وأن يوضع على الجانب الأيمن من الرأس، هذا كل ما هناك. وما كاد البدوي يحصل على تلك الورقة التي كان يطمع فيها حتى نهض، وألقى التحية، وابتعد كعادة آبائه وأجداده دون كلمة شكر.

كان عبدالله خلال المحادثة وإهداء الحجاب مطبقاً الصمت، جالساً هناك إلا أنه كان متبهاً. ولم يترك الحسد بالطبع له أي راحة، وما إن ابتعد البدوي، إلا وأوضح أنه وابنه الأصغر يحتاجان إلى حجاب. ماذا يجب علي أن أفعل؟ وتحت الرجاء وبعد وعد بعدم التقدم بأي التماس من هذا النوع في المستقبل كتبت للرجل بعض العبارات، ولابنه خميس ذي الثلاثة أعوام. وكتبت له بروح طيبة وطبقت الورقة إلى خمس زوايا. كتبت في هذه السطور مايلي:

الله

أيها البريء القذر، اغسل نفسك، وبذا ستصبح طفلا

الله غير عادي. وإذا ما أراد الله تعلم لمرة واحدة كرمًا الله

آخر للضيافة غير حال أبيك، وأثناء ذلك أتمنى لك

كل ما هو طيب، ودمت في أحسن حال

الله

كاف ١٦/ ٩/ ١٨٨٣

جي. أويتنغ

عبدالوهاب

لوجبة الغداء أمرت بأن يُجهز أرز مع بعض الغلال وقمر الدين، ثم استلقيت بعد ذلك في القهوة المظلمة وأخلدت للنوم.

في حالة الاستيقاظ كنت قد تعودت وجود ٢٠ إلى ٣٠ ذبابة على وجهي وعلى الأيدي والأقدام دون أن أهشها، ولكن عند النوم اليوم، غطيت كل جسمي بملاءة بيضاء شفافة طولها متران، آملاً أن أتمكن من الاستمتاع بالنوم من هذا المجهود المضني من النظر والسمع، وأن أستسلم إلى راحة تامة دون إزعاج. لكن شيوع أمر هذا الغطاء جعل الرجال والنساء والأطفال يتنادون فيما بينهم من خلال الأبواب المفتوحة، ويشيرون إلى تلك الأعجوبة. كان كل المجتمع من الناس يقفون هناك جامدين دون كلمة، وبتعبير وجه كالأطفال. كانت النظرة المجردة غير كافية أبداً، كان الأكثر متطفلين لاينفكون يقتربون أكثر وأكثر مني، تلك الأعجوبة لابد أن تُلمس بالأيدي وأن تُرفع إلى أعلى، وقد ضربت البعض منهم على أصابعهم لكن دون جدوى. في السابق كان للذبابات الأولى الفرصة أن تدخل وتستشفي وتنتقم مني، ولكنني أرى أنه من الفطنة تحت هذه الظروف، أن يؤثر المرء الاستيقاظ على أن يستسلم ويضع نفسه تحت رحمة هذا التلمس والتحسس والجس غير المحدود للملاءة الشفافة. جلست الآن في العراء لأدخن النارجيلة، وكان لابد لي أن أقوم بالإجابة على كل الأسئلة التي يمكن تصورها من النساء. وعبر ذلك، أصبحت معروفًا عن قرب لكافة سكان كاف من العنصر النسائي لا سيما عائلة الشيخ. كان الزي الذي ترتديه السيدات يتكون من ثوب ذي لون أزرق غامق، مصنوع من القطن، بأكمام طويلة وذيل يتفاوت في طوله ويوضع على الرأس غطاء يكون من القماش نفسه، يغطى به الوجه عند الاقتراب من الرجال الغرباء. وبالنسبة للحُلي فإنهن يلبسن على جانب الأنف اليمنى شيئاً مثل الزرار،

أسود، أو فيروز أو وردة مكونة من عدة أحجار مُركبة مع بعض، ومن الخواتم أكبر عدد ممكن، وإذا لم تكن من الفضة فهي في حالات الضرورة من الرصاص، وإلى جانب ذلك أساور من البلاستيك أو المعدن على السواعد، وتضع الفتيات الصغيرات أساور على أقدامهن أيضًا. نادرًا ما كانت النسوة يخجلن أو يستحين مني، بل كن على العكس قد أصبحن تدريجيًا يأنسن بي ويألفنني. في كثير من الأحيان، كنت أذهب إلى الفناء الداخلي لأشاهد الأعمال المنزلية كطحن الحبوب و الخبز والطهي والخياطة وما إلى ذلك. في العادة يكون هناك ثلاثة نسوة من نساء عبدالله هن فهيدة، مقبولة، وفضة، واللائي تمتلك كل منهن غرفة يمكن إغلاقها. أما الرابعة حاكمة، التي ماتزال صغيرة جدًا وجميلة بالإضافة إلى تورد خديها فإنها تستبقي الشيخ معظم الوقت داخل منزل خاص بها. لقد شاهدتها وجهًا لوجه مرة واحدة فقط، وقد أملت أن يترك جمالها انطباعًا في نفسي حتى لا تفوتها الفرصة لكي تطلب مني خاتمًا ذهبيًا، لكنني خيبت أملها. أما الأخريات فكنت أهديهن أحيانًا بعض الأشياء الصغيرة، مما يجلب السرور لقلوبهن. إضافة إلى هؤلاء جاءت أخت الشيخ طريفة وهي غير مقبولة من أحد وذات صوت جهوري. لقد تم تزويجها إلى أحد البدو ولكن لم يره أحد منذ ست سنوات. وعلى العكس كان ابنها ذو الخمسة عشر عامًا "غثيان" صبيًا رائعًا. "فهيدة" كانت والدة الابن المدلل ذي الثلاثة أعوام خميس، والابن الأكبر سالم. وبالسؤال عن عمر الأخير، قالت إنه قد ولد في سنة الجوع. لقد كلفني جهدًا كبيرًا حساب هذا التاريخ، وفي النهاية اتضح أنه ولد قبل ١٢ سنة. آنذاك، أي عام الجوع هذا لم تنمُ أو تثمر أي نخلة، كما أن الناس اضطرت لذبح إبلها" . وكان صاع واحد من التمر القديم يكلف مجيدياً واحداً (مايعادل ٥, ٣ مارك).

لم تكن الفتيات يتم عدهن عند حساب عدد الأطفال. وكان الوالدان ممن لديهم نصف دزينة من الفتيات عند سؤالهما عن عدد أطفالهم يجيبون بزفرة وتنهيدة، بأنه للأسف ليس لديهما أي أطفال. بالرغم من ذلك، كان أصغر الأولاد طالما كان قادراً فقط على الإمساك بالمفتاح، فإنه يجوز له المجالسة في أوساط الأهل والمعارف، ولكن لا يسمح له بالحديث، إنما الرد على الأسئلة، ذلك أنه ليس من السهل بالنسبة للكبار توجيه كلمة لطفل صغير، كما أنه لا يجب بأي حال من الأحوال لمسه أو الإمساك به لملاطفته من قبل الكبار. ومن المستحسن أن يتفادى المرء النظر إليهم نظرة إعجاب، وإلا فإن المرء يقع بكل بساطة تحت دائرة الشك بأنه سيصيبهم بالعين. وماذا يمكن أن يعني للمرء حديث مع الأطفال؟ أيسألهم الإنسان، كما هي العادة في أوروبا عن عمرهم. إن ذلك بالنسبة لهؤلاء الصغار والكبار أيضًا أمر غير مفهوم، فالكبار البالغون يجدون صعوبة في تحديد أعمارهم بالضبط، وهذا يفرق عادة مابين أربعة إلى خمسة سنوات. يمكن للإنسان أن يراقب ترتيب الناس على أحسن الوجوه عند وليمة يتم الذبح فيها: فأولاً وقبل كل شيء، في صف التدرج يأتي كل من هو من جنس الذكور، إما في مجموعة واحدة، أو على مرحلتين، ليأكل الضيوف مع الكبار البالغين، وبعدما يشبعون يتركون المتبقي للأولاد الغلمان، والذين يقضون عليه، ويرسلون الصحون الفارغة إلى جناح النساء، وهؤلاء يحصلن من الحيوان المذبوح كاستحقاق الأقدام والأحشاء وماشابه ذلك، ولكن بعد تسليم الكبد. وفي النهاية يحصل العبيد والحيوانات المنزلية الأليفة ليس على أكثر من الجلد والعظام.

كنت أمزح كثيراً مع إحدى الزنجيات واسمها بلوى، والتي كانت في العادة تجلس في الفناء أثناء عمل زوجها في الملاحات طوال اليوم. في أحد الأيام، طلبت مني أن أقوم برسمها، ولقد كانت حقًا غير النساء الأخريات من حيث

الشكل وكانت من أضخمهن بنية. بعد دقائق قليلة حينما عدت إلى الفناء من القهوة وجدت بلوى غارقة في الدموع والشكوى، ماذا حدث؟. لقد أدخل محمود الخبيث في روعها بأنها الآن وقد تم رسمها أصبحت تحت سيطرتي دون حماية، وأنني في أي وقت يخطرُ لي يمكن أن أحضرها عبر الهواء إلى بلاد المسيحية. كما قام محمود بعمل بعض الحركات الخاصة، لكي يُعبر كيف أنها سوف تؤخذ في زوبعة في الهواء، وأنها أثناء ذلك سوف تتقلب عبر الهواء - ويعلم الله وحده ماسوف يواجهها هناك. وبالرغم من محاولاتي لتهدئتها، إلا أنها من شدة الخوف لم يغمض لها جفن طوال الليل. ولكي أجعل عدم ضرر الرسم شيئًا مفهومًا، قمت بعرض عدد من الصور الأخرى لأناس وحيوانات. وآنذاك شهدت بشكل ملحوظ الانطباع المتغير، الذى أحدثته الصور الفوتغرافية على هؤلاء البسطاء الذين على سجيتهم. في بادىء الأمر أمسكت النساء الصور بأيديهن دون أن يتعرفن على ماهيتها، وفجأة تركن الصور تسقط مع صرخة وقشعريرة فزع غير اعتيادية وكأنهن أمام عفريت. احتاج الأمر إلى إقناع خاص بأن عليهن الإمساك بالصور بارتياح دون حرج ويتأملنها عن قرب. تلك القشعريرة تحولت مباشرة بعد التعرف إلى ضحك ولم يكن للدهشة أى نهاية: "ياعبدالله، تعال هنا، أسرع شوف". دفعات عديدة من الناس تأتى يومياً ولابد لي من أن أخرج الصور مرة أخرى. "صورة المرأة مع طفلين والفتيات"، وحول اللبس النادر، تسريحات الشعر، الأحذية والجوارب كانت تجرى مداولات لا نهاية لها، وفي كثير من الأحيان كنت أضطرُ لأن أحمل الحجاب والعباءة السوداء المصنوعة من قماش واحد والفساتين المخيطة في أوروبا لأريهن الحياكة الرفيعة والمتساوية والخيط الرفيع وما إلى ذلك، وكانت جميع هذه الأشياء مثاراً للدهشة والإعجاب. وعندما أردت أن أحكي لهن عن ماكينات الخياطة لاحظت في فترة وجيزة أن ذلك

المجهود هو من الأباطيل السخيفة، وأنني على أقل تقدير أدخلت نفسي في دائرة الشك، بأن يعتبرنني مخبولاً؛ فهن أنفسهن يفهمن فقط بالإبرة السميكة والخيوط الخشنة ولايعلمن حقًا شيئًا عما أقوله لهن عن الخيوط الرفيعة، و لم يكن هناك صندوق خياطة، أو إبر شك بل كن يعضضن القماش ببساطة بين الأضراس والأسنان الأمامية ويشددنه. لإنجاز الأعمال الخشنة، كن يغزلن بأنفسهن خيطًا أسود من الصوف، والذي يبدو بالرغم من كل شيء قابلاً للمقاومة، وعند الخيام خلف القرية شاهدت عدة استخدامات له في أعمال نسج قماش الخيام وقماش المعاطف.

جاءت لزيارة منزل عبدالله، فتاة جميلة ذات السبعة عشر عامًا تقريباً تدعى "لهود"، وهي قريبة له من قرية إثرة. ببساطة وسذاجة كبيرتين عبرت هذه الفتاة عن أمنيتها بأن أتزوجها. كذلك كانت الأخريات ورائي بشكل دائب لكي أتزوج. كيف يتسنى لي إذاً أن أدافع مؤيدًا حججي بالرفض؟ قد يتبين من هذا الحديث المثير للدهشة بيني وبين لهود:

قلت: "إنني أسافر الآن في أرض البدو، وهناك ليس من هدوء وراحة، لذا فإنني لا أحتاج امرأة، وإلا لكنتُ قد صحبت إحداهن من بلدي".

قالت: - "نساؤكم لسن معتادات على السفر، أما أنا فيمكنني ركوب الإبل ليلاً ونهارًا بشكل جيد مثل الرجل".

قلت: - "لكنني لا أملك إلا ذلولاً واحدة فقط كما تعلمين".

قالت: - "هذا لا يهمُ؛ سوف أركب رديفاً لك بشكل جيد؛ إنني لا أحتاج إلى حبل ولا إلى رباط".

قلت: - "حقًا، ولكن يعلم الله أنني أقضي كل حياتي هائمًا في بلاد موحشة، وأنني يومًا ما سوف أعود إلى موطني في بلد المسيحية، وإلى هناك لايمكنك حقًا الذهاب معي".

قالت :- "لماذا لايمكن ذلك ؟ هل سيقوم المسيحيون بضربي حتى الموت وأنا امرأة؛ ألا يمكنك أن تحمي الأنثى التي تخصك ؟ إنه سيكفيني للعيش اليومي البرغل أو حفنة رز وبضع تمرات؛ وأن تشتري لي ثوباً إذا ما احتجت إلى واحد منها".

قلت :-" إن هذا لهو أقل شيء، ولكنني أعلم مسبقًا أنه إذا ما جئت إلى بلادنا فلن تفهمين اللغة، وسترين بشراً غرباء، وبعد ذلك سوف تقلقينني طوال الوقت وتبدئين بالنواح والحسرة على أمك وأبيك".

قالت: - "أتحسبني مغفلة أو مخبولة. لماذا لايمكنني أن أتعلم لغتكم؛ وكيف يتعلم أطفالكم؟ خذني امرأة لك، وهكذا سوف أظل. أما بشأن والديّ و أشقائي فسوف لن تنبس شفتي بكلمة شكوى واحدة".

بسلاسة وطلاقة لسان لم تترك لي أية حجة.

هكذا بدأ موضوع الزواج يتداول ويُطرق كل يوم، وكانت الأحاديث البريئة والساذجة حقًا مثار تسلية كبيرة، ولابد لي أن أقر بأنني لم أجد أي فتاة ذات جرأة، وبالتالي سهلة الانقياد. من يدري، فربما كانت الأمور لو طاوعتها ستصبح على ما يرام، مثلما كان الحال مع بيترو دي لافالي [رحالة إيطالي تزوج بفتاة شرقية خلال رحلته في الشرق].

الثلاثاء ١٨ سبتمبر ١٨٨٣م: -

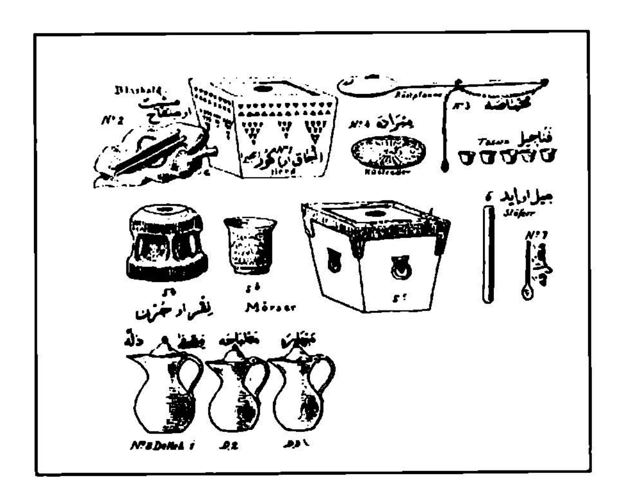
مثل ما كان بالأمس، فإن الرياح الجنوبية الشرقية غطت السماء بالسُحب هذا الصباح أيضًا. كان في نيتي أن أقوم بزيارة لمنصور ذي السترة الحمراء فإذا بخمسة من بدو الحوازم، وهم من قبيلة بني صخر وشيخهم سطام الفايز، يحضرون راكبين عند الباب، لكي يحصلوا على ملح من قرية كاف.

الشيخ عبدالله، الفزع من الفقر، أتى إليّ بملامح تجأر بالشكوى، بأنه

لايستطيع أن يكرم ضيوفه حتى بالقهوة، وأراد أن يستلف مني بعض البن.

قبل غروب الشمس بقليل قدم بعض الناس راكبين من قصر الوشواش، الذين كانوا قبل بضعة أيام قد ذبحوا لاستضافتي. استغل عبدالله رقة وعذوبة زوجته "فهيدة" لتتوسط لديّ لاستلاف بن.

كانت الرياح الجنوبية الشرقية مع حلول الليل قد تحولت إلى عاصفة غربية وأثارت الغبار في الفناء، وبذلك رفعت الطبقات القذرة فيه وقلبتها في الجو. كان المرء لايمكن أن يجلس في العراء، لذلك دعوت المجلس كله ليجلسوا معي في القهوة..... (٧).



أدوات إعداد القهوة (رسم أويتنغ)

الأربعاء ١٩ سبتمبر ١٨٨٣م:-

الغلام الشاب، الذي عادة يقوم بتحضير القهوة في منزل الشيخ عبدالله، وهو إنسان سيئ يدعى مطيلق، جاء صباح هذا اليوم، وقميصه ملطخ بالدماء، ومعه بعض قطع الملابس الغريبة يحملها على جسمه. محمود الذي يعتقد بشكل دائم بأن مطيلق هو لص أتم تلمذته، افترض، وكان بالفعل على حق، بأن مطيلق لابد وأنه قد أقحم نفسه في مغامرة في الليلة السابقة، وقام بالاعتداء على أحد الشبان المساكين.

غادر عبدالله القرية اليوم، مع الأشخاص الذين جاؤوا من الوشواش أثناء الليل للصيد.

قضيتُ فترة مابعد الظهيرة في بستان "فضي" صاحب الربابة، وكان لابد لي من أن أتحدث عن الحرب، والمدافع والبنادق وماشابه ذلك.

الخميس ٢٠ سبتمبر ١٨٨٣م:-

أحضر عبدالله ستة من طيور الحجل، غنيمة صيد، ووهبني اثنين منها للتغيرعن الأرز. لهذه المناسبة كان لابد لي من شراء بيض، كل خمس حبات بقرش واحد. وعن ذلك الطائر الحجل يدفع المرء مابين ٣ - ٦ قروش. وقد كانت هذه المرة الأخيرة خلال كل الرحلة التي تقع فيها عيناي على شيء من ذلك.

كان الهواء اليوم يتحرك بصورة قوية مليئًا بالغبار، وكانت السماء بكاملها رمادية اللون، وكانت الجبال كأنما حُجبت بخمار أسود. لكي أفر من الناموس خرجت قُرب المساء متمشيًا بالخارج في السهل المالح حافي القدمين. كان الملح مُبللاً الأرض، وكانت قشرة جليد تغطيها، وكان يُسمع صوت خشخشة

على الأرض مع كل خطوة. باستمتاع كبير استلقيت على الأرض الصلبة، وتطلعت إلى السحب، وتركت الرياح الشمالية الغربية القوية ترطب أعضائي.

في المساء تجمع مجلس أنس ومرح عند نار قهوة مضطرمة حول الربابة. كان من الحمق أن أطلقت لنفسي العنان لشرب كمية كبيرة من القهوة، ولذلك لم أجد طريقًا للنوم لفترة طويلة. كان لابد لمحمود أن يتحدث لي طوال ساعتين عن الحج (قوافل الحجيج إلى مكة). لقد كان محمود (محمود باشا عجليقين) يعمل كاتباً لدى محمد سعيد باشا أمير الحاج، ورافقه سبع مرات؛ وكان أيضًا معروفًا عن قرب لسلفه أحمد باشا بوظو أثناء مدة وظيفته، التي دامت أربع سنوات، وبالمثل مع سلف الأخير سبع سنوات في الوظيفة. لقد وصف لي محمود الاستعدادات والتنسيق والترتيبات التي تتم في رحلة الحج بصورة مسهبة، ومحطاتها التي تتكون من ٤٩ محطة بين دمشق ومكة. في صباح اليوم التالي قمت بتدوين إفاداته كتابة، لاسيما الملاحظات الطوبغرافية حول مسار الطريق، وربما سوف أكشف في مجال آخر عن هذه الملاحظات المدونة، والتي دونتها من منطلق الاهتمام العلمي الخاص.

الجمعة ٢١ سبتمبر ١٨٨٣م:-

عاد اليوم "غيران" الصياد المحصن ضد الرصاص، بعد إقرار بأنه لم يصد أي حيوان خلال عامين، عاد بغزال وأرنب، مقتنعًا للغاية بأن مثل هذا الحظ يعزى فقط إلى الحجاب الذى كتبته له، وقام بتسليمي الغنيمة عن رضاً تام وتلقى نظير ذلك هدية عبارة عن ١٥ قرشًا (٥ر١ مارك).

وعند المساء أخرجت من أمتعتي خشبة تسمى "بُومرنغ" (مجدَاع) وقمت بقذفها في السهل بالخارج عبر الهواء، لكي تعود مرة ثانية إليّ بحركة في شكل قوس جميل. هذه الأداة أثارت بالطبع دهشة وتعجبًا لاحدود لهما، وكان معظم الناس يميلون إلى الاعتقاد بأنها عمل من ضروب السحر. عندما طلبتُ منهم أن يقوموا بتجربتها بأنفسهم، وبإمساكهم للطرف الطويل غير الملحوظ، طارت قطعة الخشب تلك إلى الأمام، ولكنها بسبب طريقة القذف الخاطئة لم تعُد راجعة إلى مكانها. تدفق كل سكان القرية، خارجين لمشاهدة تلك الأعجوبة الجديدة. قمت على سبيل الدعابة بقذف البُومرنغ إلى بُعد مسافة ٢٠٠ خطوة بصورة أشبه بالمجازفة فوق رؤوس بعض النسوة، اللائي كن قد خرجن مسرعات إلى الباب، وبصرخة مدوية ألقين بأنفسهن على الأرض، وعندما خاطرن بالتطلع إلى أعلى، ارتفعت تلك الخشبة بشكل عمودي فوقهن إلى الأعلى، وعادت بهدوء إلى نقطة انطلاقها، والناس تقول "ماشاء الله". كان من قبيل المصادفة النادرة، أن "البُومرنغ" عند عودته وللمرة الخامسة يعود إلى نفس الرجل والحقيقة أنه فقط في تلك المرة عاد إليه بقوة لامثيل لها حتى أحدث شقاً في معطفه وثوبه اللين، فاعتقد أنني قصدته بهذه الخشبة الشيطانية، ولكنه هدأ مطمئنًا عندما علم بنيتي في تعويضه عن الضرر، لكنه أراد أن يتلقى التعويض من يدي شخصيًا، وليس بواسطة محمود، الذي كان [لمصلحتنا] بخيلاً وغير طيب.

وجبة عشاء ذلك المساء خرجت فاخرة مترفة بصورة غير عادية: أرز بلحم طائر الحجل، وغزال ولحم وعن طريق محمود قمت بإرسال الفائض من بعض قطع اللحم إلى النسوة في الفناء المجاور. كالعادة قمت بدعوة الشيخ عبدالله بنفسي للطعام، الذي لم يجلس إليه إلا بعد أن انتهيت من الأكل،

وتحت جذب وشد من نجله خميس.

السبت ٢٢ سبتمبر ١٨٨٣م:-

قبل طلوع الشمس مثُلَ أمامي الرجل الذى شُق ثوبه بالأمس لكي يأخذ تعويضه عن الضرر. وكان التعويض، مقدار "زهراوى واحد" (ربع مجيدى = ١ فرنك)، و اتضح بأنه مقدار كاف، على أقل تقدير، وإن الآخرين سوف يأسفون لأنه لم يحدث لهم ضرر.

لم أكن أشكو من شيء في صحتي، لكن عيني التهبتا بسبب الغبار الكثير والرمال. وكانتا عندما أستيقظ كل صباح تكونان مغلقتين بسائل، مما أوجب معالجتهما بمحلول زنك بحامض الكبريت. لم تكن الحمامات من ماء البئر الرئيسية للبستان، والتي كنت أعني بأخذها يوميًا مفيدة للعينين فقط، ولكنها كانت مفيدة للشعور العام بالوجود. كان تأسيس البئر التي كان يسحب منها الماء يدويًا عتيقاً للغاية وبدائياً، وكانت توجد في نفس البستان، بضع آبار مشابهة في حالة تصدع كبير.

بناء على طلبي، تمت اليوم نظافة الفناء أمام القهوة، العديد من السلال المليئة بالتراب والزبالة والقاذورات تم تفريغها في البستان، وأخيراً عندما ظهرت الأرضية إلى الوجود، برز مكانان جديدان لإشعال النار، وتم قفلهما بالبناء. وفي القهوة ذاتها قمت بالكنس ورش الأرضية بالماء. أثناء هذا الشقاء اليدوي غير الممتع وغير المريح لبيت دعوة للقهوة من المدعو شاهر، وهناك كان بالإضافة للقهوة، دبس، وهو عسل ثقيل من نوعين، الأول يتم تحضيره من "الزبيب" والنوع الآخر من "المصع" وهو نوع من الكرز الصغير الأحمر لنبات صحراوى. لقد أحسست بثقل ظل، فالناس عندما تبدر مني أو أردد

جملة بصورة رديئة أو حتى جملة نصف مفهومة، يصرخون في وجهي مما يعطي الانطباع بأن القدرة على الفهم لابد وأن تكون بحق تفارقني.

فيما بعد، وعند الظهيرة كانت هناك كتلة كبيرة من البشر في الانتظار حتى أخرجت "البومرنغ". وللأسف لم تدم الفرحة إلا فترة وجيزة، إذ أن تلك القطعة الخشبية، وبعد رميات قليلة تحطمت على حجر أثناء هبوطها مما سبب حسرة لدى جميع السكان.

الأحد ٢٣ سبتمبر ١٨٨٣م:-

لماذا يصحو الناس هنا في وقت مبكر جداً في ظلام الليل الدامس، وعلى الأقل قبل ساعة من طلوع الشمس يكونون في غالبيتهم على أقدامهم ؟. من غير الممكن أن يكون الأمر مجرد نزعة دينية بأن لاتفوت عليهم الصلاة الباكرة في وقت الفجر، وليس استعجالاً للأعمال التجارية. إنني أعتقد أن الغالبية يصحون لأنهم يتجمدون من البرد. ثلاثة أرباعهم ليس لديهم أي نوع من الفراش، ولا أي مطارح، وبعضهم ليس لديهم - سوى الثياب والكوافي، ويندر أن يكون لديهم معطف، وهم يرقدون في ثيابهم طوال الليل على الأرضية، وفي أي زاوية من الزوايا. فإذا ما كانت ليلة دافئة مقمرة، فإنه لايوجد أبدع من أن يتخذوا السماء سقفًا لهم، ولكن عند قرب طلوع الشمس عندما تزداد الرطوبة وتصل الحرارة إلى أدنى درجة، يتجمد البؤساء وينهضون ويتجولون هنا وهناك.

بعد الفطور، كانت هناك حاجة لأن ألعب دور ذواقة الماء أوالباحث عن الينابيع. "أو بيراز" (اسم خاص بمن يبحث عن الينابيع). على أحد المداخل عند أسفل القصر الصعيدي وحواليه تأملت هيئة الأرض بعناية، ولاحقًا بعد

اكتشاف نوع من تكوين واد منخفض رسمت أربعة مواقع، وأعلمت الشيخ وأتباعه عنها، والتي إذا ما تم حفرها سيكلل العمل بها بالنجاح. وقد أكدوا لاحقًا أن اثنين من تلك المواقع نفسها كانت مواقع حفر في السابق، ولكن الرمال طمرتها. لقد راق المكان الواقع مباشرة خلف القرية كثيرًا للشيخ، بسبب مجاورته لبستانه، ولم يرتح إلى أن قمت بعمل دائرة كبيرة بعصًا على الرمال لتحديد محيط الحفرة. لقد أراد بالطبع أن يعرف إلى أي عمق يجب أن يكون الحفر. ولكي أكون متأكدًا وصفت ارتفاع بيت كعمق ضروري لابد منه، وأضفت إلى ذلك بأنهم لو لم يكونوا جميعهم أشقياء كسالى لما تركوا آبار أجدادهم الجيدة تندثر، بل كانوا بنوها بالطوب. انتهزت حالة المزاج الطيبة لكي يعرفوني بأسماء أماكن المياه، والآبار، والينابيع في البلاد، ولقد أفادوني بالآتي: -

أولاً: مواقع الماء بين جبل الدروز وحائل:

١- الأزرق (نهر)، ٢- العمري، ٣- الهزيم، ٤- الرقبان، ٥- كاف، ٦- إثرة، ٧- الوشواش، ٨- قصيبة (عين)، ٩- البيضة (عين)، ١٠- عدوانه، ١١- المحيضر، ١٢- اشقيق الذيب، ١٣- الأمغر، ١٤-مغيرة، ١٥- فاي شمال، ١٦- القدير، ١٧- العصُبي، ١٨- أويسط، ١٩-الميسري، ٢٠- النباج، ٢١- شيبه، ٢٢- حليقيم، ٢٣- النبك أبو قصر، ٢٤- الجراوى، ٢٥- شغار، ٢٦- صبيحة، ٢٧- ميقوع، ٢٨- الجوف، ٢٩- الشقيق، ٣٠- جُبة، ٣١- قناء، ٣٢- اللقيطه، ٣٣- الوقيد، ٣٤-حائل[٨].

ثانياً: مواقع الماء بين حائل والمشهد (النجف على طريق لينه):

١- الخاصرة، ٢- بقعة أو بقعا، ٣- شعيبة، ٤- خضرة، ٥- لينه،

٦- السلمان ، ٧- السيد ، ٨- المشهد .

ثالثاً: مواقع الماء بين الجوف والمشهد :

١-الحذل ، ٢-الشيكه ، ٣- الرهيمه ، ٤- المشهد .

رابعاً: مواقع الماء بين كاف ومعان :

١- غُطي ، ٢- باير ، ٣- الجفر ، ٤- معان .

خامساً: مواقع الماء بين كاف وتدمر (رحلة ٧ أيام) :

١- غصين السعادة (ماء جار) ، ٢- ضمير (ماء جار) ، ٣- تدمر .

سادساً : مواقع الماء بين تدمر و دمشق :

أ- إلى ناحية اليسار (جنوب شرقي) :

١- تدمر ، ٢- عين الوعول ، ٣- اللقائط ، ٤- البصير ، ٥- حفير ، ٦- الزبيدي ، ٧- لفاعي .

ب - إلى الناحية اليمين (الشمال الغربي) :

١-أبو الفوارس ، ٢- حزل ، ٣- جحار ، ٤- الجبا ، ٥- القريتين .

سابعاً: مواقع الماء بين تدمر وجبل الملوزا (في منتصف الطريق بين دمشق وهيت على الفرات) :

١- المبطح (٨ ساعات) ، ٢- الهيل (٤ ساعات) ، ٣-المربعة (٢ ساعة) ، ٤- الصقرى (٢ ساعة) ، ٥- القعره (١٢ ساعة) ، ٦- وركه (٢ يوم) .

وبهذه المناسبة ، علمت بالنبأ غير السار ، وهو أن بئر "الشقيق" - التي هي أهم بئر بالنسبة لطريق رحلتي في المستقبل ، والوحيدة الواقعة على مسافة خمسة أيام في منطقة لا ماء فيها عبر النفود بين الجوف وجبة - قد أصبحت غير صالحة للاستعمال نتيجة لطمرها بالحجارة والرمال بناءً على أمر من أمير

حائل، لكي يجعل الغزوات من قبل جيرانه وأعدائه في الشمال (خاصة قبائل الرولة والصخور) مستحيلة (على الأقل من ذلك الاتجاه الذي تقع فيه البئر). إن تلك البئر المتماسكة يبلغ محيطها مترين وعمقها من ٦٨ إلى ٧٠ متراً - مثل ارتفاع قاعدة "ستراسبورغ" في مدينة مونستر (بألمانيا) - قد حفرت عبر الطبقة الصخرية، إذ أن المرء في هذا العمق فقط يجد سطح الماء، وبما أنه لاتوجد في هذه البئر مثلما هو الحال في الآبار الأخرى في صحراء الجزيرة العربية أي تحضيرات أو استعدادات، لإخراج الماء منها، فقد أحضرت معي من أوروبا أربعة حبال رفيعة من القنب (طول كل واحد منها ٢٥ متراً) وأربعة جرادل من قماش الكتان، بالتحديد لهذه البئر. هذا التحوط أصبح الآن لا فائدة منه و كان لابد لي أن أحرص على تدبير "قرب" للماء إضافية على أقل الفروض من الجوف لهذه المسافة العديمة الماء.

أحد الصيادين ويدعى "ذيبان" أحضر لي اليوم أرنبًا قام باصطياده، وطلب في مقابله حجابًا. ولبعض الناس الآخرين، كان لابد لي أن أفعل نفس الشيء بعد أن أقحمت نفسي في هذا الجنون. أي أقوم بكتابة تعويذات ورُقى لأكثر الأغراض سذاجة. كنت غالبًا ما أنتج أكثر السخافات جنونًا، وأعتقد، أنه إذا ما قام أحدهم بعد ٢٠٠ سنة بجمع حجب البدو سيجد حتمًا تهريجًا مثيراً للضحك. بعد ذلك تجولت قوة من الجيش حول القرية كان يرتدي أفرادها أغطية جميلة من الجلد على الرأس. وعليه، لابد لي من أن ألتزم حدودي، إذا ما أردت أن أُبدي جدية عند المواجهة.

بقدوم عدد كبير من بدو الرولة، حصلت على بعض الهدوء من الزوار. حدث ترحيب وسلام وتقبيل كبير للضيوف. جلسوا جميعهم معًا في الفناء، وفيما بعد، اتضح أن زعيمهم كريِّم ابن دغمي كان لديه إفادة هامة ليدلي بها.

لقد أرادوا أن يقيموا لبعض الوقت في الجوف. و قد تركوا بضع جوالات هنا إلى حين رحلة عودتهم في فصل الشتاء. يستشعر الإنسان حلول الربيع تدريجيًا بصورة غريبة، إذ يمكنني الآن أن أخرج في الثالثة ظهرًا بوجه مكشوف وأقدام حافية، وأمشي في السهل الرملي دون أن يحترق جلدي، فمنذ ١٤ يومًا لم أكن في حالة جيدة. في الطرف الخارجي للقرية وخلف حائط شاهدت لهود جالسة ومعها فتاة أخرى مسبلة شعرها، وكانت كل منهما تحمل دلوًا من نحاس في حجرها به سائل أصفر. بسؤالي لهما عما تفعلانه هناك، أجابتا ضاحكتين بأنهما يريدان غسل شعرهما. طلبت منهما أن يتقدما حيث كنت أرغب أن أرى ما الذي في الدلوين. لم يكن معهما مشط، وكان لابد لهما أن ينتظرا صديقة أخرى تمتلك واحدًا ويأملان أن تحضره معها. أعلمني "محمود" لاحقًا أن السائل الأصفر ليس زبدًا كما اعتقدت من مظهره، بل كان بول الجمال. وإن من الأشياء المحببة أن تسرع الفتاة جريًا وتضع الرأس أسفل الجمل عندما يتبول. البول هذا هو دواء شامل، يصلح كعلاج ولطيف وممتع معًا، مثلما هو الحمام الدافيء عندنا، ويحل أيضًا محل الصابون وماء الكلونيا (يروي هـ. جي. بفايفر في مقالة له عن بوليفيا في أمريكا الجنوبية شيئاً شبيهاً للغاية). في "معان" هناك طلب من النساء على الرائحة العطرية والشذا العبق والطعم لعصارة "النيكوتين" المستخرج من الشيشة"، والذي يقمن بمسحه على شفاههن وأسنانهن.

بينما كان بدو الرولة يجلسون بالخارج، تركتُ محموداً يروي لي في القهوة عن العلا وعن مدائن صالح. وصف لي المساكن الصخرية (محفورة حقيقة داخل الصخر) لبني ثمود، وروى بأن الإنسان يجدُ في القرية الأخيرة

قطع حجارة صغيرة في حجم القرش عليها كتابة، وأنه شخصيًا كان قد أخذ واحدًا منها ذات مرة، إلا أنه فُقد منه، إذ أنه لم يكن حريصًا عليه. كانت هناك أيضًا أوان من الصلصال المحروق، مثلما هو معروف بكثرة في تدمر.

الاثنين ٢٤ سبتمبر ١٨٨٣م:-

مع انبلاج صباح اليوم، قدمت مجموعات جديدة من قبيلة الرولة، وبما أنه لم يكن لدي اهتمام بتلك الجماعات، فقد بقيت طوال اليوم بداخل القهوة، وتركت محموداً يملي عليّ أسماء الأسلحة النارية وأجزائها - مطيلق أراد أن يدخل علي، ليجلس القرفصاء في أحد الأركان، إلا أنني طردته خارجًا ليصب جام غضبه في مكان آخر. لقد شعر حقاً بإهانة عميقة لأنه سحب سيف عبدالله، الذي يعرض به أمام النساء من غمده، إلا أن سالم بن عبدالله أخذه منه، من شدة غضبه لم يعد يوجد عند الأكل مرة أخرى.

قدم إلى القرية شاكيًا، أحد أوغاد الشرارات، ويدعى حوران وهو مالك ٤٠ رأسًا من الضأن، يهيم بها طوال العام في الصحراء، ليعيش منها، وأوضح أنه بالأمس عندما كان على مقربة من القرية تم حجزه، وجره إلى مسافة بعيدة، ونهبت أغنامه، إن اللصوص هم من الصخور وعددهم ١٦ رجلاً كانوا على ٨ جمال، وهم من جهة الحذل جوار الجوف.

كانت الشمس قد غربت، عندما سمعت أصوات طلقات نارية، فخرج الناس إلى خارج القرية لمقابلة القافلة، التي كانت قد غادرت من هنا إلى حوران، وهي تحمل الحبوب، ثم الاحتفاء بالخمسين إلى ستين رجلاً بتقديم القهوة في صورة احتفالية. أما أنا فقد سحبت نفسي إلى مقر إقامتي، لأنعم بالنوم إلى أن أقلقت راحتي مراراً. جاء أولاً مطيلق الرديء ليأخذ أواني

القهوة، فقام محمود بإعطائها إياه. بعد ذلك بفترة وجيزة حضر طالباً مصباح الزيت الذي لا أسطوانة له، والذي لم أستطع استعادته منذ ذلك الوقت، رغم كل توسلاتي وتكرارالوعود الكاذبة. في وقت لاحق، حضرت أيضاً طريفة العجوز إلى الداخل وسببت عن نفس المصباح ضوضاء قاتلة. وحتى بعد أن بدأت أغفو لأنام، ظهر شاب تحت الباب يحمل سعفة نخيل مشتعلة ذات لهب يبحث عن المصباح مرة أخرى، وأمرت محموداً بطرده.

الثلاثاء ٢٥ سبتمبر ١٨٨٣م :-

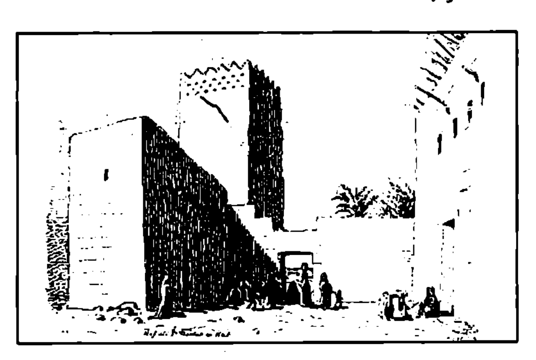
صحوت مبكراً قبل شروق الشمس. وراقبت منظر تبادل السلام وتبادل ماهو جديد من أخبار. لوجبة الصباح كان يوجد "سمح" (وهو نبات ينمو في كل مكان في شمالي الجزيرة العربية، يشبه العشب ذا الأوراق الصغيرة، ويزهر بلون أصفر فاقع، وله ثمر بحجم البازلاء، ويحتوي الثمر على بذور بنية ويجمع ويطحن ويعجن، وبعد خبزه يخلط بالسكر والزبدة، وكان يبدو كشكولاتة الجبن، وطعمه ليس ردئياً، إنه حقاً خبز الصحراء.

في الليلة قبل الماضية، اصطادوا ضبعاً بواسطة فخ حديدي وأراد بعض الشبان أن يقدموه لي كلحم للشواء، في معدة الحيوان وجدت يد بشرية. وقام محمود بطرد الشبان شر طردة.

لكي ألقي نظرة على البناء والتعرف عليه، كان لابد لعبدالله أن يطوف بي اليوم على منازله. كانت المنازل جميعها مبنية من الطوب الطيني المجفف في الشمس، ومعظمها ذات طابق واحد. الحيطان بسمك قدمين إلى ثلاثة أقدام، ولها أسوار مزينة بسور مسنن من الطوب الطيني، وتبدو من بعيد محصنة، وعن قرب تبدو في منتهى البراءة. تسمى تسنينات الأسوار العادية والبسيطة

" حمام " نفس اسم الطائر، و تسنينات الأسوار المرصوفة المتدرجة تسمى " شمروخ " والجمع شماريخ بمعنى صفوف متدرجة. عند مداخل المنازل توجد غرفة الاستقبال (القهوة) وهي عالية الارتفاع للغاية، عادة مابين ٤ - ٦ أمتار.

السقوف والأسطح على السواء مبنية بطريقة وضع أعمدة وعصي من خشب الاثل، وعليها يوضع في تقاطع جذوع أشجار النخيل، وفي النهاية فوق ذلك الطين والجير، وعبر الارتفاع الرصيفي على السطح، يتم تركيب المزاريب، لتصريف مياه الأمطار من السطح. يترك المرء بين المنازل أفنية إما صغيرة أو كبيرة، وزاوية للقاذورات والزبالة. الفناء الداخلي الكبير محاط بمداخل مختلفة منخفضة للغاية، يمكن إغلاقها، وهناك غرف التخزين، والمطبخ والغرف الأخرى لكل أنواع الأعمال المنزلية. أعتقد أنني قد لاحظت أن النسوة المختلفات وكل مع أطفالها لديها على الأقل مدخل مغلق بصفة دائمة تحت تصرفها.



منزل الشيخ عبدالله (رسم أويتنغ)

كيف تبدو البيوت العربية الغنية ؟ هذا الموضوع، سوف أتطرق اليه بالوصف والرسم الوافي عند وصفي للإقامة في حائل.

اليوم شحذني أحد البدو من قبيلة عنزة، فرع الدهامشه، من جهة مشهد علي على الفرات، مدعيا أنه وزملاءه عندما كانوا في الحرة، تم الاعتداء عليهم و نهب جميع ما يملكون من إبل، فقمت بإعطائه ربع مجيدي. بعد مضي ستة أيام سمعت بأن ماذكره كله محض كذب وافتراء، فعلى العكس تماما اتضح أنه وشركاءه في الجريمة قد قاموا بسرقة ٢٥ جملاً من الجانب الشرقي لجبل الدروز.

بعدما سافر عبدالله ومطيلق معاً حوالي المساء في رحلة يومين إلى إثرة كان لابد لضيوفه أن يكونوا في "حلقي" لشرب القهوة. كانت تؤخذ الربابة ويؤدي معها الغناء إلى وقت متأخر. لقد وجهت بوضع سريري في الفناء على طول أحد الجدران، ورقدت لكي أنام. أحد الشبان عديمي الأدب يدعى نزال كان من الوقاحة بحيث حشر رجليه بيني وبين الجدران على السجاد، أمسكت رجليه في الحال، وقذفت به إلى مكان مخصص له، مع بعض السباب والشتم. كان ذلك بمثابة إشارة تحذيرية للآخرين لأن يقبعوا في واحد من الأركان. بالرغم من دفاعي المستمر لكن الهراء لم يكن له أي نهاية. عندما جاءت ماعز إلى موضعي قفزت واقفا وامسكت بسيفي الموضوع بجانبي. اعتقد الشبان أن الأمر يسري عليهم، وعند سماعهم بإخراجي للسيف من غمده، تركوا معاطفهم خلفهم وأطلقوا سيقانهم للريح. عند سماعه للضجة قفز محمود أيضاً مع عصاه ومسدس جارياً خلفهم، ولكنه فقد العصا عند المطاردة. قام بعد قليل بكيل سباب لم يُسمع به من قبل ضد ذلك المعقل وسكانه، وهدد بنقل إقامتي إلى قرية إثرة الأكثر ضيافة وكرماً.

خرجت كل من طريفة وفهيدة مندفعتين خارج منزلهما. وبعد إيضاح قصير لهما عن ما حدث اتخذت طريفة موقفاً آخر، وأوضحت من تلقاء نفسها، أنني سوف أطلق الرصاص من المسدس على أي شخص يتعدى بدخول الفناء ليلاً مرة أخرى.

الأربعاء ٢٦ سبتمبر ١٨٨٣م:-

استيقظت مبكرًا قبل شروق الشمس، فجاء أحد الذين تمت مطاردتهم مساء أمس، وأحضر العصا المفقودة على اساس أنه عثر عليها ببراءة.

أحضروا اليوم مرة أخرى ضبعاً إلى القرية، لقد وقع ذلك الحيوان في الشرك المنصوب خلف القرية، قرب المقابر وكان فيما يبدو قد هام، والفخ ممسك به حول قصر الصعيدي، جنوبًا وشرقًا حتى أسفل جبل (أم الجراس) ساحباً معه الشرك، حيث تم اكتشافه وضرب حتى الموت بالعصي.

كان الجو بعد شروق الشمس بساعة مايزال باردًا ومنعشًا. لذلك حملت بندقيتي على كتفي وسرت نحو قمة "سمرة عريق" جنوب شرقي كاف. ومن هناك كانت الجبال العالية في الشمال الشرقي، وهي جبال الشمسانة ومقل وابغييث، ظاهرة للعيان وتبدو وكأنها قد زحفت من مكانها واقتربت.

في كل صباح من التاسعة صباحاً وما بعدها، يبدأ السراب يتكون بصورة مستمرة حتى يبدو كسطح الماء، وهو حقاً شيء مضلل، إذ قد يسير نحوه الإنسان الذي أخذ منه العطش ويضل دون أن يشعر بالخطر، يسرع برغبة جامحة لايمكن السيطرة عليها نحو ذلك البحر الجميل. تلك التمثيلية تستمر في كل مرة حوالي نصف الساعة أو أطول حتى تضع طبقات الهواء التي تبدأ بالتسخين، نهاية للصورة الخادعة (السراب).

في طريق العودة من "سمرة عريق" التقيت بالمدعو ذيبان الذي كان قد

أحضر لي أرنباً، و كذلك المدعو غيران المحصن ضد الرصاص. وقد أكدت البنادق المخضبة بالدماء أنهما قد اصطادا غزالاً بريًا، قمت بمقايضته بمجيدي واحد مع شرط الحصول على أرنب بالإضافة إلى ذلك. لاحقًا بعد بضعة أيام تم إحضار الأرنب حيًا.

عند الظهيرة، حضر جمع من النسوة من قرية إثرة، لقد سمعن بالصور (الفوتغرافية) ويرغبن رؤيتها بشغف. لقد تكرر بالضبط نفس المشهد الذي كان في المرة الأولى.

بما أن عبدالله لم يرجع بعد من رحلته، سادت الفوضى وعدم الطاعة مثلما كانت الحال بالأمس.

الخميس ٢٧ سبتمبر ١٨٨٣م:-

يجب أن لا يؤاخذ المرء شخصًا من بافاريا (ألماني) عندما يكون في الغربة سواء كان في أمريكا أو في الجزيرة العربية ويفكر في عيد ميلاد الملك ويلهلم فون فورتنبيرج، والاحتفالات الشعبية، دون أن يصاب بحسرة وألم. المسارح الخشبية الصغيرة والمغنون على الكنبات الطويلة، والنساء ذوات الأحجام الضخمة، والـ ١٠٠,٠٠٠ من الكرنب المخلل من تايشمان مع المقانق. صورة مكان الاحتفال بكامله طفت إلى ذاكرتي كسراب ألماني.

للاحتفال بذلك اليوم، يوم عيد ميلاد ملك بلادي، كنت بكامل هيئتي. فارتديت الجاكيت الحريري الأحمر الطويل، وتمنطقت بكل الأسلحة، وتأملت كيف أنني فتحت كرم ضيافتي للذين يستحقون والذين لايستحقون. كل من قدم حظي بالقهوة، والشاي والشيكولاته السائلة، التبغ، البلح، الخبز، ومرق اللحم وماشابهه. كما حصلت النسوة على ما فيه الكفاية دون

انتظار . دُهش عبدالله الذي عاد للقرية عند الظهيرة بالوليمة ، التي لم يشهد لها مثيلاً من قبل ، وترك لنفسه التلذذ بالأكل ، إذ وجد نفسه استثناء على مائدة طعام العشاء معي ، وتم تناول الحساء والأرز ولحم الغزال وعصير قمر الدين .

عند مغيب الشمس ، حلق صقران عالياً في الجو . فثار اضطراب بين جميع مالكي البنادق . اشتعل الفتيل وهرول الجميع بشغف لإطلاق الرصاص ، ولكن بكل أسف لم يعجب الصقران أن يسقطا في قرية كاف ، فسحبا نفسيهما في دوائر كبيرة هادئة صامتة نحو الشمال .

الجمعة ٢٨ سبتمبر ١٨٨٣م:-

من أجل أصغر زوجاته السيدة حاكمة ، كان الشيخ عبدالله ينوي أن يبني لها سكناً جديداً ، رغم أنه أكد لي مؤخرًا ، بأنه سوف يهجر هذه المرأة ، لكن ذلك كان محض رياء ، وأعتقد أن التكلف قد بلغ منه مابلغ ، وأنه يرى أن من المعيب أو العار أن تكون هي التي ضغطت عليه ، لبناء البيت الجديد .

في الفناء الداخلي ، توجد الآن كميات من أعمدة وأخشاب الأثل القوية ، لكي يتم بها سقف الغرف الجديدة ، وما كان قد أحضره عبدالله معه من قرية إثرة في حزم ضخمة لم يكن سوى تجهيزات التأسيس لمنزل السيدة المفضلة (التي لايمكن استبدالها) .

أردت أن أرى المكان الذي وقع فيه الضبع في الفخ أمس الأول ، فسرت إلى أسفل شمالي قصر الصعيدي ، في السهل المسمى "ساس القف" . جلست عند حطام منزل بالقرب من بئر مطمورة ، لكي أرسم جبلاً أبيضياً معينًا ، الذي عرفت لاحقاً أنه يسمى "قصر الضبع" .

من هذا المكان ، يمكن للمرء أن يراقب تكوين الصحراء بصورة واضحة

وصحيحة. وكان الصخر المتفتت من جهة الجبل، يسقط في شكل ردم مخروطية من حجارة خشنة أو ناعمة. ويبدأ تدريجيًا بالتحلل والاندثار، ثم تغطيه الرمال.

بعد الظهيرة سرت في "سهل النبك" حافي القدمين، وفي عدة مواقع قابلت صبية عرايا، وأيضًا رجلاً عجوزاً وكان منهمكاً في عمل لم يكن مفهوماً لديّ في بادي الأمر. فقد كان يقف إلى منتصف جسمه في الماء ويغرف واقفًا الماء من حفر على عمق ٥ - ٦ أقدام بواسطة دلو جلد، ويصبها في شكل سيل رفيع إلى برك بعمق قدم واحد. وكان يوجد في الجوار أكواخ طينية بسقف أو بدون سقف. اعتقدت أن الأمر يتعلق باستخراج الملح، ولكن تم إعلامي بأنه ليس كذلك، بل لاصطياد الطيور. ففي هذا الوقت، الذي يشح فيه الماء تكون الطيور في حاجة شديدة للعثور على مكان للشرب، وهناك في الأكواخ يقبع الصيادون ببنادقهم ليلاً ونهاراً، ليقوموا عبر فتحات صغيرة بإطلاق الرصاص على الطيور المسكينة التي تأتي لشرب الماء.

يمتاز الماء هنا، وحتى ذلك الذي يستخرج من باطن الأرض، بملوحته الشديدة. و تكسو الأرض الطينية قشرة بيضاء.

حول الخبرة في استخراج الملح في هذه الناحية، تمكنت من معرفة الآتي: إن قاع وادي السرحان العريض بشعباته الكثيرة، يضم في ثلثه الأعلى مقادير من الطبقات المالحة، التي تكون في أوقات السنة الغنية بالمياه بحاراً أو مستنقعات من المياه المحتوية على الملح. في ترابط وثيق، يوجد ذلك الملح ظاهراً للعيان بقرب قريتي إثرة وكاف، واللتين تدينان بوجودهما له. وفي غير هذا المكان أيضاً و عندما تفيض الغدران بالمياه، يظهر ذلك الملح بكميات وافرة على سطح الأرض. ويمكن لأي بدوي أخذ أي كمية يرغب فيها منه

بالمجان، ولكن هذه الغنيمة تكون رطبة، وتحتاج إلى تجفيف خاص.

اشتهر هذا الملح بأنه حلو وليس مراً مثل ذلك الملح، الذي يستخرج في تدمر. في هذه الناحية اعتاد سكان كل قريتين أن يقوموا باستخراج الملح بصورة منتظمة نوعا ما، وطوال السنة. على مسافة ساعتين من قرية كاف إلى الجنوب الشرقي تشمخ في "سهل النبك" جبال سمرا غطي وقليب الملح. تحت سفح كل من تلك الجبال أنشا الشيخ عبدالله، شيخ كاف، مستغلاً المياه السطحية، قناة وموقعاً لبركة ماء، لكي يجري الماء المستخرج باستمرار ويغسل التربة، مستخرجًا بذلك الملح. وهناك أحد الزنوج، الذي هو زوج بلوى يقوم بالذهاب إلى هناك صباحاً ويعود بالماء، وهو يقضي اليوم بأكمله في غرف المياه وسقي التربة وجمع الملح على شكل أكوام. وبعد أن يتم تجفيف وتنظيف المتحصل عليه من الملح، يتم تخزينه في غرف طينية ومسورة عند مدخل القرية. يقوم بدو السرحان وبدو بني عيسى بأخذ ٣٠٠٠-٤٠٠٠ حمولة منه سنويا (يتم حساب الحموله بأنها تساوي ٦٠ رطلاً = ١٦٠ عُكاز= ٢٠٥ كغم وهي تساوي ٣٠ صاعاً. وسعر الحمولة ثابت مقداره مجيدي واحد لبيعه في حوران. بمعنى أنهم عادة يقايضون البضاعة بنفس مقدار الوزن المساوي لوزنها من الحبوب. يتم قياس الوزن بمقياس خشبي يسمى صاعاً، الذي إذا تمت تعبئته يزن حوالي ١٣ إلى ١٤ رطلاً. وحتى لايختلط العد أثناء العمل كان يتم ترديد العدد الأخير المستخرج عشرين مرة أو أكثر بصوت عال، مما يسبب الإزعاج إذا ما أراد بعض الأصدقاء اللطفاء أن يقوموا بالعد الصامت إلى جوار البدو الذين يعدون دائماً بصورة صعبة، وتوتر يصبب العرق. وبعد عد ١٥ صاعاً، وهي نصف الحمولة، أي بالكاد تساوي جوالاً، يبدأ المرء في عمل كوم جديدة.

أثناء الاحتلال التركي المؤقت لوادي السرحان عام ١٨٧٠م فُرضت ضريبة جباية على الملح في كاف، وكان مقدارها مجيدياً واحداً عن كل حمولة. يبقى نصف هذا المجيدي للشيخ والنصف الآخر يأخذه موظف الضرائب التركي، وتسمى هذه الضريبة ميري (أي ضريبة الحكومة). وبعد أن يكون الموظف قد سرق مقداراً جيداً منه وعاد سعيداً إلى دمشق يسلم هذا الموظف مبلغ ٢٠٠٠ (ألفي) مجيدية في السراي (مركز الحكومة) في دمشق، والتي يستلمها الأفندية المذهولون. و هم الذين ليست لديهم أدنى فكرة عن تلك الضريبة القادمة من كاف، ودون أن ينطقوا بكلمة مدح واحدة، يدخلونها في جيوبهم.

عند المساء رأيت في ساحة القرية رجلاً جالسًا، لفت نظري بياض سحنته، وعلى جسده ثوب فقط، وعلى الرأس منديل أبيض بسيط، وفي يده عصاه، ومن الأمتعة لا شيء مطلقاً. وبسؤالي له، من أين أتى، وماذا يفعل هنا؟ أراد أولاً أن لا يدلي بكلمة، إلا بعد أن طمأنه عبدالله بغمزة من عينيه. عرفت منه أنه هارب من الحامية التركية، التي أقامها الأتراك في الحديدة وصنعاء معاً، وتتكون من أربعة كتائب ضعيفة. وقد هرب مع عدد من زملائه، وكانوا يبيتون تلك الليلة في قرية إثرة. كان قد هرب منذ حوالي ٦ شهور سيراً على الأقدام، وكانوا يستجدون البدو حتى حلوا في ضيافة ابن رشيد في حائل. وهناك تلقى كل منهم ثوباً وكوفية وربع مجيدي هديةً، وقد تم إطعامهم جيدًا لعدة أيام. والآن يرغب مع زملائه في العودة إلى وطنهم في جهة دمشق، ويأمل أن يتسنى له أن يجتاز الجزء الأخير من الطريق بسلام. وعن أسباب هربه من الجندية قال إن الحرارة غير العادية، ومياه الشرب الملوثة ومايعقب ذلك من حمى وأمراض أخرى كانت هي الأسباب التي دفعته للهرب. وذكر

لي الشيخ عبدالله، أن مثل هؤلاء الشحاذين يأتون كل بضعة أسابيع. إن من المدهش حقاً أن يكون هناك جنود أتراك في اليمن حتى الآن.

بمجرد أن يترك هؤلاء الجنود حامياتهم، كانوا يتركون وراءهم كل مايشير إلى الجندية، وخاصة السلاح، ولا يحملون أي شيء يجلب الضيق لهم. وبعد مغادرتهم يجدون لدى البدو وهم أعداء أشداء للدولة (الحكومة التركية) كل أنواع كرم الضيافة، ويظل البدو يدفعون بهم من قبيلة إلى أخرى حتى يصلوا إلى مواطنهم. في طريق عودة هؤلاء الجنود يتوقفون في حائل، لأنهم هناك يحصلون على هدية الضيافة المذكورة، دون أن يراهم أحد، ويستطيعون أن يخلدوا إلى الراحة بعض الوقت. في وقت لاحق، أثناء إقامتي هناك قابلت أيضًا للمرة الثانية مجموعة كبيرة منهم.

وعدني عبدالله هذا الصباح، بتوفير الخبز مساء هذا اليوم، إلا أنه وقد علم أنني قد دعوت التركي الهارب من الخدمة العسكرية إلى وجبة العشاء معي، خشي من توفير قطعة أخرى إضافية لهذا الأخير. وهكذا في المساء لم يكن هناك بكل بساطة اي خبز، و عندما اخذت بسكويتاً من حقيبتي السحرية دون أن أنتظره، وقدمت له منها بكل أدب، قفز عبدالله خجلاً وأحضر بعض رقائق الخبز. وفوق ذلك لابد وأنه قد سمعني أيضًا، وأنا أطلب من محمود الشاي، والقهوة والشيوكولاته وأشياء أخرى، وادعوه للاحتفال معي بضيفنا.

السبت ٢٩ سبتمبر ١٨٨٣م:-

في الصباح الباكر حضر الهاربون الأربعة زملاء الجندي التركي في حالة تبعث على الأسى والحزن. بعد أن قمت نوعاً ما بإسعافهم بالمأكل والمشرب،

وأيضًا لإكمال المساعدة ناولت كلاً منهم ربع مجيدي، لعلي أحصل منهم على وصف لطريق العودة الذي قطعوه. وبالرغم من كل ذلك لم أتمكن من أن أحصل على معلومات مرضية. وحصلت فقط على عدد من الأسماء، بعد ضغط عن الأماكن التي هاموا بها خلال ثلاثة شهور. ذكروا لي في ترتيب غير مؤكد: صنعاء، ملح، جبل يام، مأرب، وادي خاب، مخلاف (سبيع)، جبل عسير، خلعت، بيشة، تربه، الطائف، وادي الدواسر (مكتظ بالسكان)، شقراء، بريدة، حائل، الجوف.

في مكان فضاء في القرية عسكر بدو بني سرحان، المتآخين مع بني صخر والقادمين من جهة تقع بين البلقاء والسلط في شرق الأردن، وقد أحضروا على ٤٦ جملاً إلى هنا الحبوب، ليخزنوها حتى الشتاء، و يأتوا عند الحاجة، لحمل ما يحتاجونه منها. وقد أخذ بنو صخر عند عودتهم بعض الحبوب.

تجولت اليوم عبر الجماعات، التي تتعاطى التجارة، لمحت بالصدفة في فناء المسجد المجاور وجود هارب آخر يتكور في إحدى زاويا المسجد، دون أي اهتمام ولم يقدم له أي شيء من الطعام. طلبت من هذا الرجل أن يتبعني، لقد كان يعاني من الحمى، وكان لديه إضافة لذلك جروح في قدميه، حتى إنه كان بالكاد يستطيع أن يسحب نفسه لمسافة الـ ٢٠٠ خطوة للوصول إلى منزلنا. وبعد تناول الخبز والحساء ولحم الغزال والقهوة، بدأ يتحسن بصورة سريعة، وتناول أيضًا بعض بودرة الحمى للطريق، والتي كان يعرف قيمتها جيداً. لقد عبر الرجل عن امتنانه بكلمات شكر - والتي لم أعد منذ زمن طويل أسمع منها شيئاً - بقوله: "الله يطول عمرك ويخليك".

في فترة مابعد الظهيرة، بدأت تتشكل سحب كثيفة، ومع غروب الشمس هبت رياح جنوبية شرقية عاتية، وخلال عشر دقائق ثارت عاصفة من التراب

من المكان القفر إلى أعلى في شكل دوائر، وانقضت على رؤوس أشجار النخيل المتأوهة، لتلتف مع بعضها البعض. وفجأة ساد سكون تام، ومن الجهة الغربية بدأت قطرات المطر الباردة تتساقط مع الهواء.

ياإلهي ما أمتع هذا! فمنذ إبريل لم تسقط أي قطرة مطر من السماء. بقيت درجة الحرارة بدون تغيير جذري، ففي المساء عند الساعة التاسعة لاحظت أن درجة الحرارة ماتزال ٣٤ درجة مئوية. لم تدعني حرارة الجو أن أنام لفترة طويلة. وفي الصباح استيقظت على تحية أمل كالبلسم من سماء صافية ملأى بالنجوم حيث سقطت قطرات خفيفة من المطر على موضعي.

الأحد ٣٠ سبتيمبر ١٨٨٣م:-

نصحني الشيخ عبدالله بأنه من المستحسن أن لا أتنزه اليوم، وعلى الأقل ليس بمفردي، وليس بدون سلاح، لوجود أعداد كبيرة جداً من البدو، يهيمون في الطريق، ولوجود ضيوف كثيرين مع إبلهم في الحي.

حسب إفادة أحد الشرارات فقد كان في السهل ٢٠٠ شخص من قبيلة الشرارات ومعهم إبل كثيرة. هذه المجموعات تجيء إلى القرية خاصة بالليل فرادى أو في مجموعات، وأنهم سوف يأتون الليلة للقرية للتزود بالماء.

صحيح أن الشيخ يدفع خوة للشرارات، مثلما يدفع لبني عيسى، والرولة وحتى الحويطات، ولكن الحركة غير مأمونة في الوقت الحاضر كما كان الحال في السابق. إن غرور بني عيسى يزداد مع ازدياد عدد بنادقهم، ويفترض أنهم يمتلكون الآن ٤٠ بندقية من نوع مارتيني.

قبل أن آخذ موقعي لتناول وجبة الإفطار بالقرب من موضع النار، كان أحد البدو قد جلس مسبقاً على سجادتي، وتم طرده، فولى هارباً وهو يشتم

بقوله "الله يقطع النصارى" . رد عليه محمود بالمثل من الشتائم . كان الشاب يحمل معه حيوانًا ملفتاً للنظر في شكل السحلية - إلا أن جلده الخارجي أشبه بالدرع ذلك الحيوان يسمى ضباً ، ويدعي الشاب أن ذلك الضب ذا الطول غير العادي يأتي إلى الأرض الصخرية الرملية ، ويضع بيضه هناك ، وأن له لحماً أبيض طرياً ، وأنه يطبخ على النار مع الملح ويؤكل .

عند فترة مابعد الظهيرة ، سمعنا فجأة صوت صراخ وعويل غريب صادر من حوش النساء . لقد تلقت لهود خبرًا بوفاة شقيقها المفاجىء في قرية إثرة ، وانفجرت في عويل لايتوقف بينما تشاطرها النساء الأخريات النواح والتأسي . بعيون دامعة ، تم إرسالها في المساء في رحلة إلى بلدها ، مددت لها يدي مودعًا ، ولم أرها بعد ذلك على الإطلاق .

بعد غروب الشمس ، حضر من السهل جماعة تتكون من ٣٥ ضيفاً . جلسوا في دائرة واحدة ، في الفناء . وقدم لهم ثلاث صحائف كبيرة من التمر ، بينما أضاء أحد العبيد المكان بسعفة نخيل موقدة جيدًا من أجل الأنس . كان يمكن للمرء أن يراقب الأوجه واللحى بوضوح تام ، ولكن وبما أنني كنت شبه متعب من ليلة الأمس ، فقد انسحبت دن أن أنتظر القهوة ، وكنت بالكاد أسمع صوت الربابة ، التي لم تصمت ويصمت الجمع معها إلا عند الفجر .

الاثنين ١ اكتوبر ١٨٨٣م:-

كان صباح هذا اليوم بارداً نسبيًا . وانسحب بنو عيسى في الصباح الباكر متجهين إلى حوران واخلوا المكان للشرارات . وبالرغم من أن هذه القبيلة الأخيرة تعدادها كبير نسبيا إلا أنها ضعيفة . . . يعلقون أسلحتهم البدائية البائسة على حائط ، أو يضعونها بجوارهم على الأرض ، وإلى أن يحصلوا

على شيء من الأكل يعسكرون، بعض منهم مستلق على بطنه، ساندًا الرأس على المرفقين، أو يلعبون ببعر الجمال على الرمال. أحدهم قام بمضغ عشرين نواة تمر أو أكثر، بنفس الطريقة التي تمضغ بها حبوب البن المحمصة عندنا. عندما لاحظ هذا الرجل أنني أراقبه اتى نحوي وطلب تبغًا. وبنفس الوقت أخذ جمرة ملتهبة من النار، التي قام بتفتيتها إلى قطع صغيرة بيده ووضعها على مكان جلوسه.

بالقرب من مكان جلوسي المعتاد، الذي كان يقع عند المدخل الرئيسي لبستان الشيخ يوجد شابان في مقتبل العمر، هما بقعان وسعود يقومان بالحراسة. وكانا يوجدان بشكل دائم أثناء النهار والليل، ولكن الأمور كانت تجري طوال اليوم دخولاً وخروجًا وكأننا في سوق، ولم أشاهد أن أحداً قد حُرم من الدخول.

من الأشياء التي لايمكن أن أنساها، الباب الخشبي اللئيم، والذي يتم فتحه رجاً كل ساعة ثلاث أو أربع مرات. وبما أن الباب يكون مغلقاً بشكل دائم فقد كان ينادى غالباً " يابقعان، ياسعود" افتح الباب، فالمفتاح نادرًا مايكون في حالة جيدة. كانت أسنان المفتاح السبع أو الثماني مصنوعة من الخشب القوي، وهي إما قصيرة جدًا أو طويلة جدًا، وفي الغالب مكسرة. وهكذا كان يهدر وقت غير عادي، في تركيب أسنان جديدة ووضعها في الموضع الصحيح والعض عليها بالأسنان.

كنت في الغالب أستلقي لساعات طويلة في البستان، لأن ذلك كان مصدراً لتجاذب أطراف الحديث كثيراً. كانت الحفر الصغيرة التي تمد أشجار النخيل بالمياه تقفل لوقت قصير عدة مرات في اليوم ثم تفتح أو تنظف. في كثير من الأحيان كان يجيء الضيوف إلى البستان، أو حتى ضيف واحد حيث

يقوم في كل مرة وبدون أداة مساعدة، بتسلق جذع شجرة النخيل، وقطف تمر طازج وإحضاره في قميصه. لقد أدهشتني المرونة وعدم الكلل من القيام بهذا العمل. ان شجرة النخيل الكاملة النمو يتراوح ارتفاعها ما بين ٥٠ - ٧٠ قدماً. و تجد أن هناك ما بين ٦ - ١٠ قنوان [جمع قنو] معلقة على كل نخلة، ويحمل كل قنو بضع مئات من الرطب. تتخذ الثمار التي لاتزال بلون اخضر فاتح كلون البازلاء في شهر يونيو لوناً أصفر في شهر أغسطس. و بعد تعرضها الطويل للضوء والحرارة يتحول لونها إلى أحمر غامق في شهر سبتمر. ومن ثم تقطف ناضجة، بعد أن تكون قد اتخذت لونًا أسود فاتحاً. طعمها وهي طازجة لذيذ بشكل نادر، وعند النضج التام تبدو وكأن العسل يسيل منها، بحيث أنه عند جني الرطب يتحول اللب الذي يتبقى على النواة إلى مادة سائلة.

ربما يكون من الجدير ذكره هنا أن أشجار النخيل ذات جنسين منفصلين، إما مذكر أو مؤنث، حيث يوجد في كل ١٠٠٠ شجرة أنثى مابين ٥ إلى ٦ أشجار مذكرة. الأشجار الأنثى فقط، هي التي تحمل الثمار، لكن لابد لها أن تلقح صناعياً بواسطة اليد البشرية، ولهذا الغرض، يتسلق المرء الشجرة المؤنثة ويقوم بقطع الجريد القديم، وينظف تاج الشجرة جيداً. وبعد ذلك يقطع الجزء المؤنث في الشجرة ويلفه بحبوب اللقاح المزهرة، التي يكون قد أخذها من الشجرة المذكرة في حزام إلى أعلى، ويأخذ جزءاً صغيرا من ذرات اللقاح وينثره على الزهر في الشجرة المؤنثة. لقد شاهدت هذا العمل لاحقًا في تيماء، في شهر فبراير عدة مرات. إن شجرة النخيل تظل هكذا تنمو، حيث تروى بالماء، إما عن طريق جذورها من باطن الأرض، أو عن طريق الري الصناعي لتحصل على الترطيب اللازم، فجذورها في الماء وبقية هيكلها في

النار. وحيثما يرى المرء أشجار نخيل قائمة، فإنه لابد أن تكون هناك مياه في عمق غير بعيد، أو في مكان قريب.

إن وجود أشجار النخيل واقفةً في أرض، وحيدة وصامتة حزينة على حائط صخر ملتهب، لهو تعبير شاعري، صيغ ببراعة، ولكنه حقيقةً أمر غير معقول. إن أشجار النخيل البرية، التي تنمو دون رعاية، ولا مالك لها، لا توجد في كل أنحاء الجزيرة العربية. وإذا ما رأى المرء مثل هذه الأشجار بعيداً عن سكن الناس، فليس من غير المصادفة أن لا تجد المالك ولكن بمجرد أن تظهر الثمار الأولى لن تُترك الشجرة ساعة واحدة دون حراسة، ليلاً ونهاراً من اللصوص الذين لا يتركون حتى الثمار غير الناضجة بدون قطف. إن قطع شجرة نخيل يسبب أسوأ أنواع المنازعات والحروب، إلا أن ذلك نادراً مايحدث هنا، ويعتبر من المنكرات وعملاً وحشياً.

عند الساعة الرابعة والنصف من مساء هذا اليوم، عاد هوبر وحمود المجراد من دمشق مع جمع غفير من المرافقين. وكانوا قد قطعوا مسافات طويلة سيراً على الأقدام، ووقعوا إضافة إلى ذلك في وسط غزو لقبيلة الرولة ولكن كان اللقاء سعيداً دون كارثة. و روى هوبر بأنه لاحظ في قصر الأزرق نقوشاً بخط كوفي رديء.

اشترى حمود أدوات مثيرة للضحك من دمشق، من بينها كمية كبيرة من اجربة المسدسات، وليس أقل من ثلاثة حقائب فارغة. لقد أثقل عليَّ وأرهقني بفضوله وتوسلاته، التي بدون حدود، وكذلك بالروائح العطرية، التي كان يدهن بها جسمه وملابسه بكثرة. ولم ينصرف من عندي إلا بعد أن شاهد نصف محتويات حقيبة الزاد وتلمس معظم الأشياء بيده. ولابد أنه عانى ألماً كبيراً في تحمل خيبة الأمل، لأنه لم يحصل على أي شيء من هذه

الحقيبة الممتلئة، لا عن طريق الغنم ولا طريق الاستجداء. وتصرفت وكأنني لم ألاحظ قط نزاع نفسه العنيف، وصددت كل محاولاته، وحتى محاولات المقايضة رفضتها رفضاً شديداً.

الثلاثاء ٢ اكتوبر ١٨٨٣م:-

منذ بضعة أيام بدأ ينمو بين أصبع قدمي اليمنى الأول والأصبع الثاني بثر متقيح مؤلم للغاية، بحيث أصبح المشي أمرًا عسيراً. وخلافًا لكل نصح بالعدول عن ذلك، كنت أضع قدمي يوميًا في جدول ماء جار في البستان عدة مرات. ولما لم ينفتح البثر بصورة صحيحة، قمت بوضع لزقة داياشيلون عليه، لكن ذلك لم يفد بشيء كثير، ولذلك تركت ذلك الشيء ليأخذ دورته. إن هذا نوع من المرض يرتبط بعدم تعود الطقس، وتغيير نظام المعيشة المعتاد. افترض الشيخ، ويبدو أنه كان على حق، أن الناس الذين لم يولدوا في الجزيرة العربية، وأيضًا أولئك الذين نشؤوا في الجوار (صلخد، ودمشق) يصابون بمثل هذه الدمامل التي يرجع مصدرها إلى نوعية المياه، وكونها تسبب ألماً لهو دليل على الصحة الجيدة، وإنني يجب عليّ ألا أفعل أي شيء تجاه ذلك.

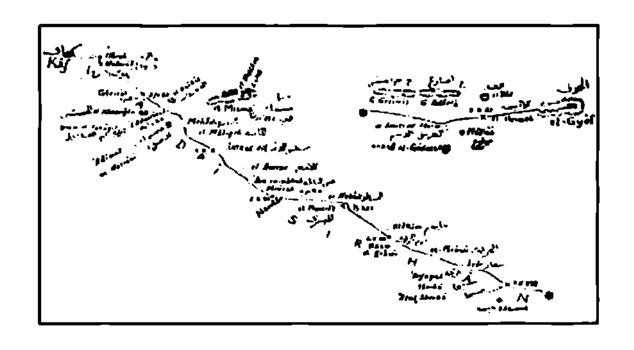
من الواضح أن نوعًا من الكائنات الحية القوية، تعمد إلى المواد الفاسدة التي تصل إلى الدم عن طريق المياه الملوثة، وعن طريق الترشيح مرة أخرى وتظهر بذلك الشكل على الأطراف. لذلك تركت هذا الدمل وقروحاً أخرى ظهرت لاحقاً كما هي رغم أن التراب والغبار يزيد من التهابها.

الأربعاء ٣ اكتوبر ١٨٨٣م:

مباشرة بعد طلوع الشمس، تم إحضار الجمال والبدء بتجهيز الأمتعة

للرحلة عبر وادي السرحان إلى الجوف. لم يخبرني هوبر مسبقاً بموعد الرحيل الذي سوف يتم اليوم. ولابد لي أن أعترف، بأنني دهشت نوعًا ما - ليس لأن وداع كاف قد أصبح صعباً على نفسي، ولكن لأنني كنت أتوقع من هوبر، الذي منحته مطلق الحرية في أمر تنظيم الرحلة، أن يعلمني عن موعد الرحيل، الذي حدده هو وحمود.

عند الوداع منحت النساء بعض الأشياء الصغيرة، واستفسرت من الشيخ عبدالله عما إذا كان لديه أي رغبة أستطيع أن ألبيها له. فطلب مني أن أقرضه بعض المال وسوف يرده لي مرة أخرى عند عودتي فأعطيته ٥ مجيديات وطلبت منه أن يحتفظ بها حتى نلتقي مرة أخرى بالجنة. بعد ذلك تجمع أهل القرية جميعاً عند البوابة متمنين لنا سفراً سعيداً ".



طريق الرحلة من كاف إلى الجوف(رسم أويتنغ)

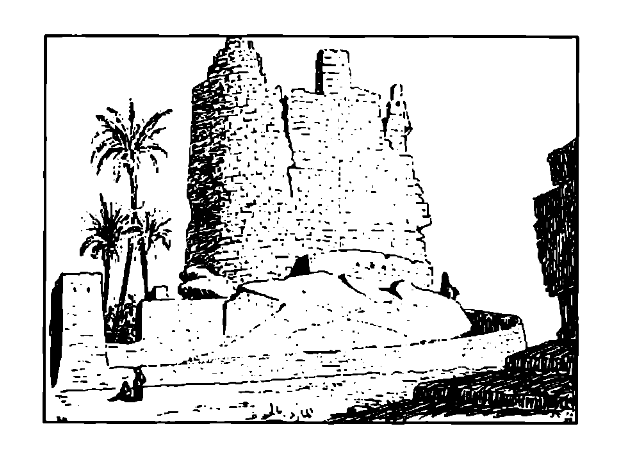
ارتحل أويتنغ مع رفاقه بعد ذلك عبر وادي السرحان إلى الجوف، التي كان الوصول إليها يوم ٩ أكتوبر ١٨٨٣م. ونترك القارئ الآن مع ما كتبه عن الجوف(٩).

"تضم واحة الجوف العديد من القرى والأماكن التي تتباعد عن بعضها البعض مسافات كبيرة تصل إلى أبعاد تقدر بسفر يوم كامل، وتقع هذه القرى والمدن على مستويات ومرتفعات مختلفه، ولكنها تنتمي جميعاً إلى حوض مائي واحد. وهذه القرى هي: سكاكا (٨٠٠٠ نسمة)، قارا (١٠٠٠نسمة)، الطوير (٣٠٠ نسمة). وقد ذكر العديد من الرحالة الآخرين قرى أخرى مثل سحارة، حسيا، جاوة، مويسن، ولكن يبدو أن جميعها مهجورة وغير آهلة بالسكان. ولكن المكان الرئيس هو الجوف التي يبلغ تعداد سكانها حوالي ١٢٠٠٠نسمة، ويبلغ طول الوادي مسيرة ساعة ونصف إلى ساعتين، ومسيرة حوالي ثلاثة أرباع الساعة بالنسبه للعرض. وفي نفس الوقت يتكون حوالي ثلث مساحته من منازل وحدائق والتي تنتشر في الناحية الجنوبية عند حافة التلال. وكانت أسواق أو أحياء البلدة الاثنا عشر(١٠) قبل سيطرة شمر عليها، يشكل كل واحد منها قلعة أو حي بذاته. أما بالنسبة للعديد من السكان وأهل البلدة الذين جاءوا من أماكن وقبائل مختلفة (١١)، فقد دبت بينهم الخلافات والقسوة والوحشية ولذلك كان لابد من وجود يد حديدية مثل يد عُبيد ابن رشيد والسياسه القاسية لطلال والتي تمكنت من تحقيق العديد من التغييرات. ويمكننا أن نقول بأن النظام والأمن يسودان المنطقة، ولكن لايوجد أي نوع من أنواع التجارة. لا توجد أي بازارات أو أسواق أو محال تجارية على الإطلاق ولكن عدد محدود من الورش اليدوية التي تختص بدباغة الجلود وصنع الصنادل، والسروج، ولصنع أنواع من الملابس والعباءات.

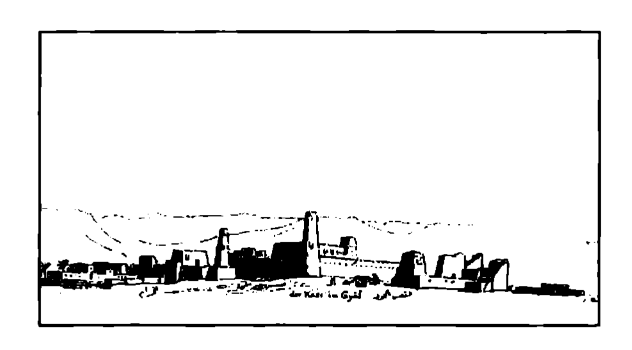
وتتعرج الأزقة بين الحارات الضيقة وبين أسوار الحدائق والمنازل على طول امتدادها داخل البلدة.

يبلغ ارتفاع المنازل الجيدة من ٣٠ إلى ٤٠ قدماً، وتحتوي على أسوار مُسننة، وتجويفات وأبراج عمودية كانت تستخدم أساساً للأغراض الدفاعية في الحروب على أساس أنها تعتبر آخر مكان أو موقع للدفاع عن النفس وللاختفاء بداخلها، ولكنها الآن تعتبر من مظاهر الزينة والثراء. لايوجد في الوقت الحاضر إلا القليل من الأبنية والآثار القديمة. وفي النهاية الغربية للوادي، وبالتحديد أسفل رجم البرج تم سد بوابة الدخول الموجودة في السور الحجري لعمارة الأكيدر والاكتفاء ببوابة صغيرة. ومن الأبنية التي لها شأن كبير وتعتبر من الآثار الهامة هي بقايا القلاع أو الأبراج القديمة (المارد)، وهو مبني من أحجار منزلية في ثلاث طوابق لها سلم دائري ومحاط بسور دائري مرتفع. وقد تعرض هذا البرج بعد قصفه بواسطة عُبيد ابن رشيد في عام ١٨٥٥م إلى فقدان نصف ارتفاعه تقريباً ولم يتبقَّ منه غير حطام، تسكنه الآن أسرة فقيرة. لقد أطلقت العديد من الخرافات عن هذا البرج، فادعى يوسف المالكي في عام ١٨٠٨م أن هذا البرج بلغ في ارتفاعه حوالي ٢ أو ٣ مرات ارتفاع أعلى أبراج المساجد في القدس ولكن حالياً يبلغ ارتفاع هذا البرج حوالي ٥٠ قدماً فقط. ويوجد بين المارد والقصر قصر صغير محاط بالعديد من البقايا والحطام من آثار الحصار المذكور سابقاً.

في وقت حديث تم إنشاء هذا القصر الصغير في موقع رائع يسمى خزام. ويحتوي هذا القصر الذي من شأنه أن يخيف البدو ويبث الرعب في قلوبهم على العديد من الأسوار، والأبراج والساحات وأجزاء بارزة من البناء والفتحات الخاصة بإطلاق النار. وفي الناحيه الجنوبية منه يوجد البرج

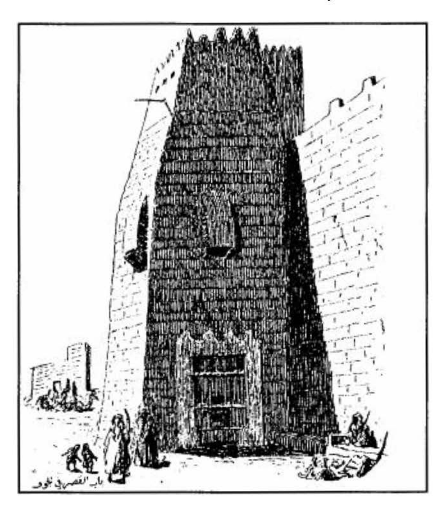


قلعة مارد (رسم أويتنغ)



قصر خزام (رسم أويتنغ)

الرئيسي وبوابة الدخول. وتتكون البوابة من أربعة أركان، يقل اتساعها كلما اتجهنا إلى أعلى. وتوجد على رؤوسها بعض الكاتولات التي تستخدم في الدفاع عن القصر في شكل عمودي، بالإضافة إلى فتحات عمودية. وتتم مراقبه البوابة الخشبية الثقيلة والتي تحتوي على فتحة أو نافذة لمشاهدة الموجودين في خارج القصر مدعمه بشبكة حديدية يقوم بفتحهاأحد العبيد. وبالنسبه للزوار العاديين يتم فتح جزء صغير من البوابه وليست البوابة بأكملها. وهذا الجزء الصغير من شأنه أن يتيح للفرد الدخول ولكن بصعوبة، وهذا الجزء بمثابة باب صغير داخل الباب الرئيسي، يبلغ عرضه حوالي قدمين ويرتفع بمسافة ١,٥٠ قدم فوق الأرض.



بوابة قصر خزام (رسم أويتنغ)

وعند وصولنا يوم الثلاثاء ٩ أكتوبر ١٨٨٣م، كانت البوابة الرئيسية مفتوحة على مصراعيها. وفي وسط الزحام، واندفاع العديد من الناس، تم إنزال جميع أغراضنا وحقائبنا ووضعها في غرفة مغلقة، أما بالنسبة للسجاد والحقائب، فقد تم وضعها على أحد السطوح المكشوفة.

وعند دخولنا ساحة المقر كان علينا أن نتعود على الظلام الموجود، بالرغم من مشقه السفر لمدة ٧ أيام لم تتمتع خلالها أعيننا بظل خلال هذه المدة.

في أحد الأركان المظلمة، وجدنا مدفعاً حديدياً قديماً محمولاً على عربة حصينة لها عجلات خشبية. و بدا هذا المدفع في هذا الركن، وكأنه شيء مليء بالأسرار ومليء بالقوة، مما يعطي إحساساً وشعوراً بالقوة ، وكان في الوقت نفسه يدخل الخوف والرعب في قلوب البدو.

وعند دخولنا، اقتادنا جنود الشيوخ [١٢] عبر ممار متعددة ومتعرجة وغير ممهدة إلى صالة الاستقبال (القهوة) وقد تم استقبالنا من قبل الجنود، والسيوف في أيديهم. وتمت تحيتنا بكلمة سلام عليكم. وجاء رد التحية من الحجرة المظلمة "عليكم السلام" . ثم جاء إلينا من بعد خطوات قليلة أحد رجال الشيوخ وهو عبد أسود اسمه جوهر وتقدم إلينا مبتهجاً ومد يده، ثم قبل - لا أعرف - الخدود أم الرأس، و قال في صوت مؤدب كيف أنت وكررها حوالي أربع أو خمس مرات. ووجدنا صعوبة



جوهر (رسم أويتنغ)

في الرد عندما أجبناه بكلمة طيب الحمد لله. وجلسنا على سجاد إيراني جيد ووضعنا سروج الجمال كي نستند عليها، ووضع كل منا سيفه بجواره، وقمنا بتحية جميع الموجودين في الغرفة عن طريق إيماءة وحركة صغيرة للرأس وذلك بقول "أسعد الله صباحكم".

وبعدها طرحت العديد من الأسئلة عن رحلتنا بكل تفصيل، وفي تلك الأثناء قدمت إلينا القهوة الحلوة [١٣]. ثم جاءت القهوة الحقيقية بعد هذه القهوة الحلوة ومعها التمور التي كان حجمها كبيراً ومذاقها طيباً، وأيضاً قُدم إلينا الزُبد السائل والخبز المفرود. وأحضر جوهر الغليون (القليون) [١٤] الخاص بأحد الجنود وأشعله في حين قمنا نحن بتدخين النرجيلة، وقد أعرب عدة مرات عن فرحته وسعادته بتشريفنا له بزيارته. وقد أعربنا في الوقت نفسه، عن سعادتنا بترحيبه بنا.

وضعنا أمامه (أمام قدميه) سيوفاً أحضرناها من سولينجن، وكذلك ثلاث ٣ جنيهات تركية (حوالي ٥٠ مارك) وكان لها وقع جيد عنده. وقد بدت عليه مظاهر الثراء والثروة، وكان مايهمه، هو تلبية طلباتنا وجعل زيارتنا مريحة. وحسب تصورات الليدي آن بلنت يمكن للإنسان أن يتصور أن جوهراً الأسود، يخفي تحت جلده أيضاً روحاً سوداء وأن سلطاته اللامحدودة، جعلت منه طاغية مستبداً. ولكنني لم أجد هذه الصفات فيه وتبعيته لحائل لايمكن فهمها على أنها دليل على عدم وجود العدل فيها. ومنذ تولي جوهر زمام الأمور في الجوف، أصبح بنفسه يشرف على تقدير محصول التمور [١٥]، مما جعل تدفق الضرائب من الجوف إلى حائل يتضاعف. إن وجود وتحمل أحد العبيد مثل هذه المسؤولية، واحتلاله لمثل هذا المنصب، ليس من الغريب على عبد لأنه في الأول والأخير ملك لسيده، ويمكن بيعه

والاستغناء عنه في أي وقت. وفي حائل، كان يدور الحديث عن عبد أسود يدعي "عنيبراً" و كان يتولى زمام الأمورعند غياب الأمير.

بعد الانتهاء من مراسم الاستقبال أردت أن أستمتع وأنعش نفسي فطلبت من خادمنا محمود أن يحضر لي بعض الماء للاستحمام. أحضر محمود الماء في العديد من الجرادل وقمت بعدها بحلاقة شعر رأسي بالكامل، ثم ارتديت ملابس نظيفة، وقد أحسست بعدها أنني قد ولدت الآن من جديد. بعد ذلك، توجهت إلى خارج القصر في الخلاء، حيث أردت أن أقوم بالرسم، ولكنني تمددت على الأرض وقلت لنفسي "ياربي إنه لجميل أن أرقد على الأرض وأستغرق في نوم عميق".

وللعشاء أحضر إلينا أرزاً متبلاً وبه لحم غنم. وعلى ضوء القمر صعدنا إلى مقر إقامتنا، الذي يوجد على السطح، النصف مفتوح، لمنزلنا المكون من طابقين، وتحدثنا عن خطة عمل اليوم التالي أثناء تدخين النرجيلة.

الأربعاء ١٠ اكتوبر ١٨٨٣م :

في الساعه الثامنة صباحاً، ركب كل من هوبر ومحارب دليله القديم على ظهور الخيل، وقاما بجولة لمدة يومين داخل النفود وفي القرى الشمالية من الواحة، في اتجاه سكاكا، قارا، والطوير. ونظراً لوجود العديد من الإصابات في قدمي لم أذهب معهم في هذه الرحلة، وأعترف هنا بصراحة، بأنني في حاجة إلى راحة، وطلبت من الخادم محمود أن يقص عليّ حكاياته عن احتلال الأتراك للجوف، والتي سبق وذكرها لي في كاف، في تلك الليلة التي قضيتها بدون نوم. وأود هنا أن أقدم القصة كاملة كما رواها محمود:

في نهاية عام ١٨٦٩م أو بداية عام ١٨٧٠م أتى شيخ الرولة سطام بن شعلان

إلى دمشق عند صبحي باشا ومحمد سعيد باشا قائد قافلة حجاج مكة. وجلس يتناقش معهما وكان يعلم بعدم سيادة الدولة على هذه الأرض المثمرة والغنية بالماء، والتي تحتوي على العديد من القرى التي في نفس الوقت سوف تدفع الكثير من الضرائب (الميري). في ذهول استفسر الأتراك عن مكان هذه الأرض المجهولة عندهم، وعلموا بعدها أن هذه هي وادي السرحان، وكان بدو الرولة على استعداد أن يتوطنوا في هذه القرى، ويقوموا بدفع الضرائب. ولكي يتحقق لهم ذلك، كان لابد للأتراك أن يستولوا أولاً على الجوف، التي كانت عملية سهلة ويمكن تحقيقها، والسيطرة عليها توفر لهم الحماية (حماية ظهورهم) من الخلف ضد جيرانهم البدو.

لقيت هذه الفكرة قبول الأتراك وتم تخطيط هذه العملية في سرية تامة وصدرت الأوامر بالتحرك من دمشق. وفي نهاية شهر فبراير ١٨٧٠م انطلق محمد سعيد باشا بقواته من قلعة "معان" عند نهاية الجهة الجنوبية للبحر الميت. وكانت تتشكل هذه القوة من ٢٠٠ جندي خيالة و ٦٠ جندياً مترجلاً، و ٨٠ رجل من العقيلات المسؤولين عن إعداد الطعام تحت قيادة الشيخ محمد الرواف، إضافة إلى مدفع صغير. وكان من المنتظر أن يقوم حسين بيك الشركسي زوج ابنة صبحي باشا في إستنبول بتولي إدارة البلدة التي سوف يتم الاستيلاء عليها، وحيث إن هذا الرجل لا يتكلم العربية فقد رافقه خادمنا محمود أغا للقيام بالترجمة والكتابة.

وفي نهاية فصل الشتاء، وبعد هطول مطر كثير استطاع الأتراك أن يعبروا الصحراء. وبعد حوالي ٨ أيام وصلوا إلى الجوف وبدؤوا بالتعامل الحسن مع السكان. كانت مؤخرة هذه القافلة تبعد عنها مسافة نصف يوم في برج العبد، عندما تم احتلال منطقه مارد، وكذلك قصر خزام، وقاموا بتثبيت المدفع على

هضبة مرتفعة ثم خلدوا إلى الانتظار، يراقبون فقط مايحدث حولهم، ولا يبادرون بشيء.

في اليوم التالي، جاء العديد من النذر (المبشرين بالحرب) من طرف ابن رشيد من حائل، وصعدوا إلى سوق الدُرع الموجود بالبلدة وكان على رأسهم صالح بن رخيص. وعندما سألهم صالح، ماذا يريدون هنا؟ أجاب الأتراك على هذا السؤال الساذج بقولهم لاشيء فقط أردنا أن نشاهد ما يحدث ويدور هنا في البلدة.

وفي اليوم الثالث، أتى محمد ابن رشيد بنفسه ومعه حوالي ٨٠٠٠ رجل على ظهور الإبل، و معه العديد من الخيالة. وعن طريق مملوك يدعى إبراهيم أرسل رسالة إلى الأتراك و كان ملخصها: وجوب مغادرة الأتراك للجوف فوراً. وبعدها بنصف ساعة تقريباً شن ابن رشيد هجوماً على الأتراك ولكنه لم يتمكن منهم، لأنهم كانوا قد احتلوا مناطق إستراتيجية. بعدها وبالتحديد مابين الظهر والعصر اقترح ابن رشيد إجراء المفاوضات. قبل الأتراك هذا الاقتراح فوراً فجاء ابن رشيد و معه ثلاثة مرافقين، ومن الأتراك كان الوفد يتكون من محمد سعيد باشا ومعه خورشيد آغا ودرويش آغا ومحمود آغا (وهو خادمنا الآن). انتهت المفاوضات بعد حوالي ربع ساعة، والتي أثناءها كان ابن رشيد يضحك بصوت عال. بعد ختام المحادثات امتطى ابن رشيد ظهر جواده ومعه المرافقون واتجه عن طريق سكاكا إلى حائل.

رحل محمد سعيد باشا ومعه ١٢٠ جندياً وكذلك العقيلات بعد حوالي ٧ أيام قضوها في الجوف إلى السلط في شرق الأردن، وترك حسين بيك الشركسي ومعه حوالي ٨٠ جندياً والعديد من المغاربة (الجزائريين)، كقوة احتلال وقوات متمركزة. بقيت هذه المجموعة الأخيرة بدون أي مضايقات.

وتنقل القائمقام الجديد (الحاكم الجديد) من سكاكا إلى قارا والطوير لكي يشاهد بنفسه مناطق نفوذه وسلطانه الجديدة.

عندما بدأ الحاكم الجديد بجمع الضرائب على الغلال والملح بصورة غير عادلة، بدأت حالة من الغضب والسخرية تعم البلاد. وتصاعدت أيضاً حدة الاستنكار من هذه الضرائب. وتم التخطيط للتعامل مع الأتراك بطريقتهم حيث قام حسن بن درع بعمل وليمة كبيرة للأتراك، وكان من المخطط قتلهم في هذه الوليمة، ولكنهم تمكنوا من الإفلات من هذه المصيدة، التي من بعدها قرروا عدم الخروج من معاقلهم مرة أخرى.

جاءت رسالة عاجلة من محمد سعيد باشا، بالصمود بأي شكل من الأشكال حتى يصل ومعه جنود وقوة أخرى للمساندة، وكانت هذه الرسالة غير رسمية، ولكن كان عليها خاتم محمد سعيد باشا الشخصي.

وفي الوقت نفسه، حاول ابن رشيد إعطاء حسين بيك الشركسي رشوة قدرها ١٠٠٠ ليرة تركية (١٨٥٠٠ مارك) مقابل انسحابه مع توفير جميع مستلزمات السفر، من جمال وغذاء وحماية حتى يصل بصرى في حوران.

وأعتقد، أن سبب هذا الرفض للانسحاب هو الاعتداد بالنفس أكثر منه إحساساً بالواجب. استعد محمود للانسحاب، وعرض على القائمقام استياءه لتركه في هذه المحنة بدون أي مساعدة من قبل محمد سعيد باشا، وأن لا فائدة ترجى من البقاء هنا، والجنود يتضورون جوعاً والاعداء يحيطون بهم من كل جانب. في الشهر الرابع أعلن محمود بأنه لايستطيع البقاء أكثر من ذلك. وغادر البلدة في هدوء بصحبة شراري، هو عواض الوطة. وفي اليوم الخامس بعد رحيلهم وصلوا إلى معان.

تماسك حسين بيك الشركسي بعدها لمدة أربعة شهور، ولكن لم يعد يمتلك

أي طعام، ثم بدأ يندم بشدة على عدم تقبله العرض السابق لمغادرة البلدة. غادر حسين الجوف بعد ذلك مثل اللص، وهو يسب ويلعن، وفي نفس الوقت يشتكي من أنه قبل ٨ شهور كان يقود جيشه بكل فخر واعتزاز عند دخول البلدة. وقد ضغط عليه ابن رشيد لكي يتقبل ويستسلم للأمر الواقع، فالجوف بدون حكومة بدوية لايمكن السيطرة عليها مع الوقت، وأن الأتراك حتى بدون حرب كان لابد لهم وأن يغادروا من تلقاء أنفسهم.

إنها نفس التجربة، ونفس الخبرة التي خاضها محمد علي (المصري) منذ ٣٠ عاماً في جنوب نجد، والتي دفع ثمنها غالياً.

إن هذه الادعاءات السابقة لحمود تم تأكيدها والتصديق على صحة ماجاء فيها من قبل أحد الجوفيين. وعن تاريخ هذه الواقعة، قال هذا الجوفي إن هذا حدث في عام كانت تسوده مجاعة، في العام الثاني من تولي محمد ابن رشيد. وقال إنه عند وصول الأتراك، كان القمح مايزال في بداية النمو (بداية مارس) وعندما غادر محمود الجوف، كان التمر مايزال أخضر على النخل (يوليو)، وعند انسحاب الأتراك من الجوف، كان التمر قد نضج على النخل (أكتوبر).

كان الحديث في تلك الليلة، في قهوة جوهر كله سياسياً، وتمحور النقاش، الذي كان للبدو فيه النصيب الأكبر، حول ضعف الدولة العثمانية وانهيارها المتوقع قريباً. وكان حديث حمود المجراد عن سماعه لصوت العديد من المدافع التي كان يمتلكها المسيحيون قد أعطاني الفرصة لكي أفكر قليلاً. ورأيت بعدها أن يكون هذا هو الوقت المناسب وهذه هي الفرصة لكي أهدي الشيوخ العديد من الأسلحة.

أعرب لي حمود عن حزنه عندما نظر إليّ وهو يشاهد السيوف التي

أحضرتها من سولينجين وأنه متألم جداً ولابد له أن يستحي من نفسه ويخجل أمام البدو، لأنه لم يتلق أية قطعة من السلاح، وهو قائد قافلتنا، كرمز لرضائنا وسرورنا. وقد حاولت أن أخفف عنه وأرضيه ونحن في حائل، وحققت له أمنية أخرى، وهي أن يلقي نظرة في المساء على الجزء الثاني، أي النصف الآخر من أمتعتي الشخصية، التي لم أفتحها له حتى الآن.

الخميس ١١ اكتوبر ١٨٨٣م :-

في الثامنة صباحاً جاء ١٠ رجال من رجاجيل الشيوخ من حائل، لكي يستبدلوا الحامية التي مكثت ٤ سنوات في الجوف. كما وردني خبر وقوع رديفي محيثل مغشياً عليه أمام منزله عند وصوله، لإصابته بحمى شديدة، فقررت أن أبحث عنه بعد الظهر. كانت داره تقع بعيدة في سوق الهويدي، ولذلك لم يقبل جوهر أن يتركني أذهب إليه سيراً على الأقدام، فأمر لي بحمار، فركبته بدون سرج أو لجام، وكان يمشي أمامي إبراهيم، العبد الأسود، الذي كان يحمل سيفي وبجواره محمود حاملاً معه الأدوية والعقاقير، وكان خلفي اثنان من الجنود. مضينا في طريقنا الذي كان ينحدر إلى أسفل عبر الوادي الواسع سالكين طريقنا بين الأشجار و أسوار البساتين الطويلة، وكنا نقابل في طريقنا مجموعات من الناس وكانوا يحيوننا بأدب وحرارة. وأراني محمود ونحن في طريقنا، مكاناً خالياً في وسطه تل صغير، وذكر أنه هو المكان الذي وضع عليه الأتراك مدفعهم. وأرشدني أيضاً إلى المكان الذي جرت فيه المحادثات بين ابن رشيد، ومحمد سعيد باشا. بعد مسيرة حوالي نصف ساعة وصلت إلى منزل مُحيثل، وكان يرقد على الأرض وكأنه مختف في بستان اعتنى بسقاية أشجاره، وعندما دخلت وجدت مرافقي في الرحلة، في حالة سيئة عاري الصدر، وحاسر الرأس، ملتفاً في عباءة،

ملقياً على أريكة من الطين، فاقداً الوعي. وقام بالرد على تحيتي، ولكنه كان غير قادر على الوقوف أو الكلام. وقد قمت بتشجيعه والشد من أزره، وبدأت أفحصه: لقد كان يسعل كثيراً من شدة الحمى، وكان مصاباً بالطحال، وبطنه متحجرة، وهذه هي أعراض التيفوئيد وقمت بإعطائه مسحوق الكالومل، وتركت كمية من هذا المسحوق للظروف الطارئة. وقمت بتوبيخ ابنه، لأنه أعطاه ٦ جرعات من الشنين في ثلاثة أيام، وأنه كان من المفروض أن يحضر إليّ ويحصل على ما يلزم له. نصحت الابن بأن يبقى بجوار والده، ويقوم بعمل كمادات بارده ٤ مرات يومياً (الجدير بالذكر، أن الأسفنج لم يكن معروفاً هنا) وأن يعطي والده مشروبات باردة ولبناً ولايعطيه أي نوع من الأكل على الإطلاق، وأيضاً لابد وأن يأخذ قسطاً كبيراً من الراحة والنوم. وبينما كان يجري إعداد القهوة، طلبت أن أشاهد هذا البستان المنسق والجميل، التي تحتوي على أشجار التين والعنب والرمان والمشمش والكمثرى، والخيار والبطيخ، وخضراوات أخرى، إلى جانب النخيل.

وقبل مغادرتي منزل محيثل، كررت نصيحتي لابنه وأعطيته جميع الإرشادات مرة أخرى لكيفية العناية والرعاية المطلوبة لعلاج والده. وقد علمت بعدها بشهور وأنا في حائل أنه شفيَ تماماً من مرضه وتحسنت حالته الصحية.

وفي المساء جاءتني الفرصة لأول مرة، لكي أتذوق طعم لحم الإبل. وكان طعم هذا اللحم المسلوق في الماء لايختلف كثيراً عن طعم لحم الغنم أو الماعز، من حيث المذاق، ولكن لونه داكن قليلاً وأليافه أكبر من ألياف لحم الغنم والماعز. وبعد انتهاء الطعام، تناولت القهوة أمام القصر عند تاجر الجمال حسين.

الجمعة ١٢ اكتوبر ١٨٨٣م :-

أثناء الليل، هبت رياح شديدة وقمت برسم بورتريه بالألوان المائيه لجوهر. فلقى هذا الرسم إعجاباً شديداً عنده، حيث كان مسروراً ويجلس في هدوء أثناء قيامي بالرسم، وكان من دواعي سروره وسعادته تخليد وتمجيد غليونه في الرسم الموجود على اللوحة. لقد دهشت بعدها كثيراً، وتعجبت لانتشار خبر هذه اللوحة في الصحراء، لدرجة أنه بعد وصولي إلى حائل بنصف ساعة، طلب مني الأمير أن يرى اللوحة التي رسمتها لمسؤول بلدته. وعند رؤيته لهذه اللوحة قال مداعباً : "ولكنك رسمت هذه اللوحة، ويبدو فيها أبيض اللون". كذلك بعدها في تيماء وأثناء انتقالي من قبيلة لأخرى طلب مني العديد من الناس مشاهدة صور جوهر ومُفرج.

و قد أعطيت أحد البدو المسافرين، الذي تعرفت عليه عن طريق تاجر الجمال حسين إلى دمشق خطابين أرسلتهما إلى القنصلية الألمانية هناك لكي تقوم بإرسالهما إلى ألمانيا، ولكن لم تصل هذه الخطابات على الإطلاق.

لقد تم الاستعداد للاحتفال في اليوم التالي "بالعيد الكبير" في يوم ١٠ ذي الحجة، وهذا هو الشهر الأخير في السنة الهجرية. وفي هذا اليوم يقوم الحجاج بذبح الآلاف من الأغنام كأضاح، وقد تم ذبح أحد الجمال استعداداً لهذه المناسبة، وقد تمت عملية الذبح بسيف قطعت به رقبة الجمل، وأثناء عملية الذبح، وقفت الجمال الأخرى بدون أي حركة أو انفعال وأخذت الضحية وقتاً طويلاً حتى سقطت على الأرض، وظل الجمل يُلقي برأسه هنا وهناك وهو يئن ويتوجع حتى فاضت روحه.

وقد لاحظت أن الناس جميعهم، قد دبت بينهم طفرة نظافة. وعندما ينظر

الإنسـان في أي ركن أو زاوية يرى من يغسل رأسه أو يحلق ذقنه، أو يستبدل لباسه. ولأنها بلدة عامرة ظهرت مرة واحدة على وجه الأرض. وأستطيع أن أذكر هنا أن خادمي محموداً قد فاقني في الوسامة.

بعد تناول طعام العشاء، كان هناك مرة أخرى اجتماع ومقابلة مع العديد من الرجال في الخارج، أمام البوابة عند تاجر الجمال حسين. وكان جوهر نفسه يرتدي معطفاً جديداً أسود وكوفية صفراء، بها خطوط حمراء وقد أعطاه هذا اللباس وقاراً أثناء زيارته. وجلس هنا أكثر من ٥٠ رجلاً خلف سور صغير، في حلقة حول النيران أثناء الإعداد للقهوة، كما أن الجنود الذين كانوا يقفون في البداية خلف جوهر والذين يبلغ تعدادهم حوالي ٢٠ رجلاً تلقوا إشارة من جوهر بالجلوس حيث وضع كل جندي سيفه أمامه وغرزه عمودياً أمامه في الرمل. ولقد تلألأت النيران، التي تم إشعالها من سعف النخيل، وكان ضوؤها ساحراً مع القمر. كذلك كان الضوء وانعكاسه يعطي انطباعاً حياً وجمالياً في وسط تلك المجموعة المظلمة. وقد انتهت هذه المناسبة والاحتفال بعد أداء صلاة طويلة، وبعد أحاديث طويلة. وقد وجدت صعوبة في الاسترخاء والنوم بسبب الإفراط في شرب القهوة.

السبت ١٣ اكتوبر ١٨٨٣م :-

في الصباح الباكر تلقى جوهر التهاني بمناسبة العيد أثناء تناوله للقهوة. بعدها دخل أربعة من العبيد، يحملون صينية من النحاس قطرها بين ٢,٥ -٣ أقدام، وعليها جبل من الأرز ولحم الإبل، أحضروها للداخل، وبعد وقت قصير وبدهشة انتهت تلك المراسم بعد نفاد الطعام. وقد تعالت بعد انتهاء الطعام الأصوات قائلة الحمد لله، وذلك بعد شبع البطون. وقام الرجال مودعين جوهراً قائلين : "أنعم الله عليك" وكان رد جوهر كل مرة هو : "ينعم عليك" .

وكانت النية في ذلك الصباح، أن نتأهب للسفر ولكن ظهرت مشكلة تأجير الجمال حيث إنه لا يوجد في الجوف نفسها أي منها لقلة العلف الخاص بها، وعندما تأتي هذه الحيوانات إلى الجوف وهي جائعة، لا يوجد طعام غير أوراق البطيخ أو ما شابهها، لذلك، فهي تعود مرة أخرى إلى الصحراء، حيث يتوفر المرعى بكمية أكثر. وكانت الإبل التي سنستأجرها على مسافة يوم كامل في مراعي النفود. وكان حسين تاجر الجمال الذي لا يرسل حيواناته هناك يدفع مقابل غذائها لمدة ٥ أيام ما يقارب ٦ مجيديات (٢١ ماركاً).

كان جوهر قد بدت عليه علامات عدم الرضا، عندما نظر إلى الإبل التي قامت بنقل جميع احتياجاتنا، وكانت من إبل الشرارات، التي ليس لها القدرة على تحمل ثقل معداتنا ومستلزماتنا، ولكن لم يكن هناك خيار آخر، وكان على صلبوخ أن يتغلب على هذه المشكلة، كما كان من الصعب علينا الحصول على قرب للماء حيث إننا لن نتوقف عند آبار الشقيق، وكان أمامنا رحلة لمدة ٥ أيام بدون ماء.

عند الظهر تقريباً عادت نياقنا من المراعي، وعند العصر قررنا أن نركب دوابنا عبر الوادي وحتى نصل إلى السور المائل في الغرب. وفي طريق العودة، عندما بدأت الشمس تقارب المغيب، شاهدنا منظراً عجيبًا رسخ في ذاكرتي، ولم أشاهده مرة أخرى أثناء رحلتي كلها. ففي سهل واسع وفسيح، جرت رقصات رائعة، حيث وقف صفان، تفصل بينهما ٢٠ خطوة، في الصف الأول العديد من الفتيات، وفي الجهة المقابلة في الصف الآخر العديد من الفتيان وفي الوسط وقفت فتاتان ترقصان برؤوس مكشوفة وشعر تم تصفيفه للخلف.

بدأ الرقص على شكل خطوات قصيرة للأقدام، مع فرد الأذرع حيث

تتقارب الصفوف وتتباعد، ثم مرة واحدة أدارت الفتاتان ظهريهما لبعضهما وأمالتا رأسيهما للخلف، ثم قامت كل منهما بتحريك شعرها أمام الأخرى. وقامت الصفوف العديدة من الفريقين الحاضرين بالتصفيق لهما في صورة جماعية و أيديهم في صورة عمودية على صدورهم. وفي هذه الأثناء كان الفتيان يتراصون في الجهة المقابلة، وقد التصقت أكتافهم ووضعوا سيوفهم أمامهم وقاموا بالغناء سوياً وبصورة سريعة. لم أتمكن من فهم كلمات هذا الغناء (القصيدة) ولكن كان اللحن كالتالي:

لقد قيل لي إن هذه الرقصة تسمى بـ" لعب الدّحة" وكان "بيركهارت قد أشار في كتابه "ملاحظات حول البدو والوهابيين ١٨٣١م" إلى رقصة شبيهة بذلك عند البدو. وأيضاً فينشتاين (جريدة أرض الصباح الألمانية، ١٨٦٨) أعطى وصفاً دقيقاً لهذه الرقصة. لم يذكر أحد اسم "سحجه" لي. لم يقف الأشخاص هنا في الجوف أثناء الرقصة بشكل دائري، ولكن كان الرقص عبارة عن صفين متقابلين. وقال لي "جراف لاندبيرج" إن مثل هذا النوع من الرقص يوجد في سورية تحت اسم "الدبكة".

وفي صباح اليوم الخامس، مضينا في طريقنا بدون ماء، في وسط صحراء من الرمال. وكنا قد قمنا في الليل بإعطاء الجمال التي ستحملنا كثيراً من الماء للشرب، وفي مثل هذه الحالات لم يكن من المستحب أن تشرب الجمال مثل هذه الكمية من الماء قبل أن تتحرك في تلك الصحراء لمدة طويلة".

الهوامش:

(1) Philip Ward, Ha'il :An Oasis city of saudi Arabia.Cambridge:The Oleander Press,1983. pp439-441.

(٢) النص المترجم الخاص بكاف :

Julius Euting, Tagbuch einer Reise in Innerarabien.Leiden: Brill,1896. pp. 51-112.

(٣) وهكذا فعلى سبيل المثال فإن تحية البدو المعتادة " كيف أنت " تكون " تشيف إنت " ، و "كم؟ " تشم " و اركب تصبح ارتشب ، وتعني حقيقة اجلس ، أسرع " . و قرّب على النار " إتْشرب على النار " وقرّبه تشربه ، وقليب تشليب ولكن صيغة الجمع : قُلبان . الناس من الأقاليم الجنوبية (القصيم ، وادي الدواسر) ينطقون كبير أحياناً تسير واحياناً تشير . (أويتنغ)

(٤) اسمه الكامل حمود بن إبراهيم بن موسى المجراد . (أويتنغ)

(٥) تمت صياغة الخطاب باللغة العربية من قبل صديقي سوشين A. Socin . (أويتنغ)

(٦) هكذا كان يسمى الأمير من قبل أتباعه بصيغة الجمع . (أويتنغ)

(٧) هنا حذفنا من النص ثلاث صفحات يتناول فيها أويتنغ وصف عملية إعداد القهوة التي تناولها الذين سبقوه وهذه الصفحات هي ٨٣-٨٥ من كتاب الرحلة . (المحرر)

(٨) من الملفت للنظر أن قائمة الآبار تنقصه بئر قراقر وهي تقع بين الأرقام ٨ و ١١ . (أويتنغ)

(٩) النص المترجم عن الجوف من كتاب الرحلة يقع في صفحات ١٢٤ - ١٤٠ .

Julius Euting, pp.124-140.

(١٠) يبلغ عددهم اليوم ١٤ أو ١٥ حياً . (أويتنغ)

(١١) روله ، تميم ، سرحان ، شمر ، بني لام ، شرارات ، متوالدين(نصف زنجي) والعديد . (أويتنغ)

(١٢) رجاجيل الشيوخ في مقر حائل هناك حوالي ٢٠٠ رجل ومابين ٣٠٠- ٤٠٠ آخرين مكلفين بتأديه مهام مختلفه وهناك فصيله منهم تتحرك بصوره دائمه طوال العام وهي تملك مئات الجمال ويرسل الأمير هذه الجمال كل ٥ ـ ٦ أسابيع إلى النجف التي تقع على الفرات لكي يجلبوا الأرز إلى داخل البلاد ، وآخرين يقومون بنقل الحجاج الإيرانيين إلى مشهد ويصاحبونهم إلى مكة ويعودون بهم مرة أخرى . في الجوف كان هناك ١٠ رجال وفي القرى الأخرى كان يوجد حوالي ٤ - ٥ رجال موزعين . وكان يتم التفرقة بين الرجال عن طريق القمصان البيضاء النظيفة وغطاء الرأس الذي يتكون من الأقطان الحمراء والطواقي البيضاء المصنوعة من الصوف المغزول . وكان هؤلاء الرجال يتسلحون بالسيوف التي يتم حملها بصورة دائمة في اليد ولاتحمل على الكتف وكان من النادر أن تجد أحداً من هولاء الرجال يحمل معطفاً على كتفيه ، والقليل منهم كان يمتلك

أو يرتدي حذاء في قدميه. وعند خروج الرجال في مهمات شاقة وخطرة يحصلون على البنادق من قصر حائل والتي كان يمتلك الأمير منها حوالي ٧٠٠-٨٠٠ قطعة من هذه الأسلحة. وجميع السيوف التي رأيتها هناك كانت مُطعمة بالفضة وسلاح لها مطلي أيضاً بالفضة، وجميع هذه السيوف تم عملها وسبكها في أشهر مسابك شبه الجزيرة العربية للأسلحة في حائل بواسطة صانع السيوف الشهير غانم. وكان أحد أبناء غانم واسمه حميد ينتمي إلى هذه الفصيلة من الجنود والتي تم الآن تسريحها، ونقلها إلى حائل. (أويتنغ)

(١٣) قهوة حلوة هو ماء ساخن مذاب فيه سكر ويوضع به قليل من الشاي وعصير الليمون وبعض البهارات الأخرى. (أويتنغ)

(١٤) الغليون هو عبارة عن شكل خزفي أسود وله رأس أحمر أو أسود وله أشكال عديدة وفي بعض الأحيان يكون له غطاء من الأسلاك المتشابكة ويتكون عمود الغليون أحياناً من سبيكة القصدير ويتم استعمال هذا الغليون من قبل البدو بدون أي خرطوم أو ماسورة وبعد ذلك وفي تيماء رأيت العديد من رؤوس هذا الغليون التي تتكون من حجر رملي رمادي تم فتحه بالسكين. وبالنسبة لغليون جوهر فهو يتكون من رأس خزفي (فخار) لونه أحمر وله ماسورة صغيرة وقصيرة وعند الفتحة العليا التي تدخل في الفم. يوجد بروز غليظ ملفوف بالقماش ومزود بطبقة رقيقة من الفضة يوجد في منتصفها ثقب. (أويتنغ)

(١٥) من الممكن أن يكون هناك حوالي ٦٠٠٠٠ (ستون ألف نخلة). وأود هنا بهذه المناسبة أن أسجل أن الشيوخ تطلب الضرائب دائماً العام التالي: لكل ٤ من النخل الكبير ١ مجيدي مايعادل ٣,٥ مارك ألماني، كذلك مجيدي واحد لكل ٤ جمال أو ٢٠ من الماعز، وفي واحة تيماء يتم دفع حوالي ٤٠٠٠ مجيدي من الضرائب. (أويتنغ).

رحلة

البارون إدوارد نولده

١٨٩٣م/ ١٣١٠هـ



بارون إدوارد نولده

البارون إدوارد نولده

Baron Eduard Nolde

لم يُعرف هذا الرحالة الألماني الأصل، المجهول في أدب الرحلات الغربية كثيراً، رغم أهمية ما كتبه عن التاريخ السياسي لوسط الجزيرة العربية خلال تسعينيات القرن التاسع عشر الميلادي، التي اكتملت بها سيطرة حائل على كافة مناطق نجد. لا تتوافر معلومات أو وثائق عن هذا الرحالة إلا أن ناشر كتابه قد قدم للكتاب بالتعريف بالكاتب وهي المعلومات التي اعتمدنا عليها عن حياته [١].

ولد نولده عام ١٨٤٩م في كورلاند، لعائلة ألمانية مقيمة في جمهورية لاتفيا، التي كانت تحت الحكم الروسي. تلقى نولده تعليماً خاصاً حتى وصل المرحلة الثانوية. بعد ثلاث سنوات في المرحلة الثانوية ترك الدراسة. وفي عام ١٨٧٠م دخل متطوعاً في كتيبة الحرس أولان التي كانت موجودة في وارسو، ثم تركها بعد سنة ونصف قبل أن يتخرج برتبة ضابط. ثم ذهب إلى إسبانيا عام ١٨٧٢م، حيث عمل متطوعاً في صفوف فرسان كارل، وصل فيها إلى رتبة ملازم وقاد سرية من الفرسان حتى نهاية عام ١٨٧٦م.

في عام ١٨٧٧م، رحل نولده إلى أمريكا الجنوبية، وحارب في القتال الذي كان قائماً بين تشيلي و بيرو لمدة عام كامل ضمن صفوف التشيليين. بعد ذلك عاد إلى بطرسبورغ في روسيا، بعد أن زار ريو دي جانيرو وسان فرانسيسكو

في أواخر خريف ١٨٧٨م. في بطرسبورغ تعين في وظيفة حكومية كمفتش ضريبة خمور، في يناير ١٨٧٩م. وبدأ بعد ذلك يكتب في صحيفة بطرسبورغ " هيراولد " مقالات طويلة عن ضريبة الخمور وعن كيفية تحسينها. ونظراً لكونه على علاقة دائمة بدوائر الجمعية التقنية في بطرسبورغ، فقد اختارته الجمعية عضو شرف فيها. وفي عام ١٨٨٨م سافر نولده إلى القسطنطينية ومنها قام برحلات للصيد في أفريقيا. وقد استمر البارون نولده في قضاء السنوات التالية مرتحلاً.

في اليوم الحادي عشر من شهر مارس ١٨٩٥م، أنهى نولده حياته، وهو في سنه السادسة والأربعين، في لندن. ترك نولده في غرفته رسالة للسفارة الروسية، التي كان على اتصال بها خلال إقامته في لندن، يعلن أنه انتحر برغبته، وأن له بعض المال في حسابه البنكي في لندن يطلب استخدامه لعمل مراسم دفن تليق به. تأكد بعد ذلك أنه كان يعمل سرياً لحساب القيصر الروسي. وأن رحلته إلى الجزيرة العربية كانت بهدف خدمة المصالح الروسية[٢].

قبل وفاته سلم البارون نولده مخطوطته إلى الناشر الألماني ريتشارد أندريه، الذي بدوره قدمها إلى دار النشر " فيفج وولده " في براونشفويج، التي نشرتها بعد أشهر قليلة من انتحار الكاتب بعنوان " رحلة في وسط الجزيرة العربية وكردستان وأرمينيا في عام ١٨٩٢م ".

احتوت هذه اليوميات على فصل تناول من خلاله تجربته في الجوف ووادي السرحان. وهنا نقدم للقارئ نص ما كتبه نولده في هذا الفصل [٣].

" بعدما أعددت العدة الشخصية، وبعد أن حصلت على التموين اللازم في لندن من الهدايا التي لاغنى عنها عند السفر إلى الشرق، رحلت من هناك

بتاريخ ٢٥ نوفمبر ١٨٩٢م آخذاً طريقي عبر مرسيليا وبيروت ثم دمشق، التي وصلت إليها في ١٦ ديسمبر ١٨٩٢م. أثناء رحلات سابقة لي في كردستان والعراق وسورية تعرفت على اثنين من الوسطاء واحتفظت بهما، وقد بقيا في خدمتي وهما يفهمان جيداً أفكاري، وكيف أنني أنوي القيام برحلات طويلة في المشرق. كما أنهما يفهمان كيفية التعامل مع الأنواع المختلفة من الناس. لقد أمكنهما في السابق تحقيق سعادتي إلى الدرجة التي جعلتني أقرر أن أحتفظ بهما وأستخدمهما مرة أخرى في رحلاتي إلى داخل الجزيرة العربية، لأهميتهما الكبرى بالنسبة لأهدافي. أولهما هو نصر الله، وهو رجل عربي من الموصل ويعرف معرفة تامة خمس لغات، هي العربية والتركية والكردية والكلدانية والروسية. والثاني جودو (Guedou)، وهو عربي من بغداد، ويتكلم اللغة الفرنسية بطلاقة. كما أنه لا يعرف فقط لغته معرفة تامة، مع جميع اللهجات سواء في الفهم أو التحدث بها، بل يكتبها بقدرة كبيرة. ولذلك كان لي نعم السكرتير بالنسبة للمراسلات العربية.

بناء على تعليماتي السابقة، وجدت الرجلين بانتظاري في دمشق، ومعهما أيضاً الخدم الخاصين بهما، وخدم الخيل وأخيراً الفرس العربي الذي حملني في الرحلة السابقة. كان هذا الفرس قد ازداد سمنة أثناء فترة الشهور الخمسة، التي غبت فيها عن دمشق بل أصبح متعالياً، وكان لا يبدو في مخيلته أنني أنوي ركوبه للسفر مسافة تزيد على ٥٠٠٠ كيلومتر.

وبالإضافة إلى ذلك قمت بتوظيف شيخ تدمر، محمد بن عبدالله [بن عروق] لقيادة ركب الإبل في جميع المناسبات، وكان من أهم أعضاء الفريق في رحلتي، وقد ظهر في الوقت والموعد الملائم تماماً مع عشرة من الجمالين المختارين.

رغم كل هذه التجهيزات التي تمت، فقد بقي عليّ أن اقوم بكثير من العمل قبل أن أفكر في الرحيل، ذلك أنه في مثل هذه الرحلات المهمة لاشك أن الأمر يتطلب الكثير من الحساب، والترتيبات الصحيحة، وإن النجاح يتوقف على التجهيز والتخطيط المسبق.

كان يجب علي شراء الإبل، وطبيعي أن تكون الجمال من النوع الممتاز، إذا كنا نرتب لرحلة في الصحراء تزيد على ٣٠٠٠ كيلومتر. و كذلك شراء المزيد من الخيل، التي يجب تجهيزها، وأيضاً استجار المزيد من الأفراد للخدمة. كما يجب اتخاذ الترتيبات لحمل مخزون من جميع أنواع الأطعمة، وكذلك وربما الأهم من كل شيء قرب الماء، إذ إنه لايكفي شراء القرب، بل يتعين قياسها بعناية واختبارها ووزنها.

وقد يكون هذا هو المكان المناسب للتأكيد على أهمية هذه الاحتياطات، حتى ولو كان ذلك كتمرين لرحلات صحراوية قادمة قد أقوم بها تحقيقاً لأهداف عملي، ورغبات الارتحال في الجزيرة العربية. إن ذلك لن يتحقق بنجاح إلا اعتماداً في المقام الأول على قوة الجمال التي يتم تغذيتها بعناية، وعلى المخزون الكبير من المياه، الذي سيكون تحت تصرفي في الرحلة.

بأوامر خاصة من جلالة السلطان العثماني فقد أُرسلت معي حراسة شرف من الجنود الأتراك، رافقتني حتى الجوف أي مسافة ما يقارب ٧٠٠ كيلومتر من الرحلة. وكانت الفرقة تتكون من ضابط و٢٥ من الرجال المميزين مع خيولهم، وكلهم من الأكراد الذين لا يُتوقع منهم أي ميل أو ضعف من أي نوع كان، في مواجهة أي مهاجم لي من البدو.

كل هذا تم لحسن الحظ في ١٤ يوماً، فأصبح بإمكاني في أول يناير عام

١٨٩٣ مغادرة دمشق. كانت حقاً قافلة مهيبة: ٣٦ رجلاً في الخدمة و ٤٠ جملاً و ٦ خيول، وعدد مختلف من البغال والحمير يضاف إلى ذلك الحراسة التي تتكون من ٢٦ رجلاً ومعهم أمتعتهم محمولة على ٢٥ جملاً، وكانوا يشكلون قافلة وحدهم.

كانت بداية المسيرة في أرض بها قرى وبها ماء، ولم يكن هناك ما يستدعي العجلة. وبعد بضعة أيام من التمرين الجيد اتضح أن تجهيز مخيم المبيت لم يعد يستغرق أكثر من ٣٥ إلى ٤٠ دقيقة. وبعد هذا الوقت كان يمكن تركيب الـ ٨ خيام الخاصة بي و ٦ خيام الخاصة بالعسكر ولتكون جاهزة تماماً. ونيران الطبخ قد تم إشعالها، وأول وجبة طعام لي كان تم تقديمها، وتتكون من زجاجة نبيذ وسردين أو لسان بارد مع البسكويت. أما الغداء أو بالأصح العشاء فيكون جاهزاً بعد ٤ ساعات، وعند الاستعجال كان يتم بشكل مبكر بعض الوقت. وكان غذائي يتكون في الأساس قبل كل شيء من حساء من الدرجة الأولى لي وحدي، و يتكون من ٣ دجاجات وبعض لحم الضأن المشوي، ثم بيض أو أرز ثم بسكويت مع النبيذ والقهوة. ومع الوقت فإن اتباع نظام غذائي واحد لمدة طويلة، يصبح متعباً ولايجعل الإنسان في حالة طيبة بدرجة كافية بل على العكس يسبب السمنة.

بعد خمس مراحل من المسير وصلنا إلى بصرى وهي لاتزيد عن أكثر من ١٣٠كلم من دمشق، وهي المقر الرئيسي لحوران وتمثل الحدود الحقيقية للإمبراطورية التركية من هذه الجهة.

ونظراً لهطول أمطار غزيرة، فقد أصبحت الأرض زلقة بحيث لاتستطيع الجمال السير عليها. لذلك فقد بقيت في بصرى لمدة ٣ أيام، وقد استغللت هذه الأيام الثلاثة، في أحسن مايمكن عمله في مثل هذه الظروف، فقمت

بمقايضة بعض الأشياء مع الدروز، الذين يسكنون الجبال المجاورة، بالإضافة إلى زيارة الآثار الموجودة في بصرى بقدر المستطاع. وعلى سبيل المثال القلعة التركية، وثكنات الجيش الروماني، وهي كلها ذات أهمية قصوى ومازالت محتفظة بكيانها على أحسن وجه. لحسن الحظ استطعنا أن نعبر الأرض الزلقة، وبعد ظهر يوم ٩ يناير وصلنا إلى قرية الدروز التي لاتبعد سوى ثلاث ساعات ونصف الساعة وهي قرية ديبين.

ومن هنا، وبصفه عامة، ظلت قافلتي تسير على أرض صلبة. وفي الأيام التالية، كان السير في الصحراء حقيقة، تاركين على يسارنا قصر صلخد العالي المطل على المنطقة، وتاركين على اليمين القلعة الرومانية القديمة في الأزرق. أصبح سفرنا في خط مباشر إلى كاف، التي وصلنا إليها بعد ٥ أيام من المسير بمعدل ٤٠ كيلومتراً لليوم الواحد.

في هذه الصحراء القاحلة، التي قطعناها يرى الإنسان الجزيرة العربية في شكلها الصخري، وهي تمثل الوحدة والشدة وبشكل ما تظهر في نوع من الجلال الشاعري من وقت لآخر. كانت الصحراء تبدو مستوية، ومع ذلك فهي شامخة تطل علينا بعلو، كما قلت بشكل صخري. ومع أن الأرض كانت تبدو مغطاة بطبقة بركانية المصدر، فهي تتكون من صخور تبدو صلبة وغامقة السواد كما لو كان مصدرها النيازك. ويرى الإنسان في الجزيرة العربية، بشكل يكاد يكون متكرراً، مجموعات كاملة من الجبال الصخرية، ذات لون الحبر الأسود بحيث تحدث تأثيراً عجيباً، حيث تجد نفسك على أرضية ميدان يمتد لعدة أميال لا يوجد به أي بقعة فاتحة اللون، كما لو كانت مغطاة باللون الأسود تماماً. كنا نجد أحياناً في الطريق بعض مياه الأمطار، ومع ذلك فطيلة المسافة الكاملة من ديبين إلى كاف أي حوالي ٢٠٠ كلم لم نجد

سوى بئر مزدوجة (تشمل آبار الهزيم) وحتى هذه، لاتوجد في وسط المسافة بل على مسافة سبع ساعات ونصف الساعة من كاف.

في ١٤ يناير ١٨٩٣م وصلت إلى كاف وهي تمثل عُشّاً صغيراً غير ذي أهمية يسكنها على أكثر تقدير مابين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ شخص، يعيشون حياتهم على زراعة بضع نخيلات، وكذلك جمع الملح الذي يوجد على سفوح التلال، والذي يظهر كما لو كان قشرة تغطي تلك التلال. وبغض النظر عن ذلك، فإن هذه القرية تعتبر مكان التقاء للبدو، الذين يستثمرون فيها ما لا يحتاجون إليه لفترة معينة، وبذلك تعتبر ذات أهمية للبدو، و في حماية من غزوهم. وحتى يمكن لأهل كاف حماية أنفسهم ضد المصائب الأكثر شدة فإنهم يضعون أنفسهم رعايا لابن رشيد أمير حائل، أو كما يقال عنه باختصار أمير نجد.

أما هذا الأخير، فلم يكن يهتم كثيراً بشرف كونه أميراً لقرية كاف، حيث قال لي هو نفسه: إن ما يأتيه من إتاوة من كاف قليل جداً فهم فقراء ولايمكن أن يكونوا تحت مسؤوليته. إن حماية قرية بعيدة بهذا القدر وتأمين الحياد لها يتطلب دفع إتاوة مناسبة تسمح له بتجهيز الجيوش والدخول في الحروب.

كما قلت، كاف مكان فقير جداً. وقد اشتريت بنفسي من هذه القرية كل ما كان متوفراً لدى أهلها من الدجاج وعددها ٢٦ دجاجة فقط، أما الخراف فلم تكن متوفرة، فقط بعض الماعز وصغارها عُرضت للبيع. وبهذه الكمية لم يكن من المستطاع عمل أي شيء، إذ في كل المشرق لايحب الناس حتى الفقراء منهم أكل لحم الماعز، الذي لا يأكله إلا المرضى. وبذلك بقيت بدون ضأن. وكان ذلك يمثل حساسية شديدة لي فقد كنت في هذا الشأن أضع الآمال العريضة على كاف.

في اليوم التالي مباشرة لوصولي إلى كاف أكملت المسيرة في اتجاه الجوف والتي وصلت إليها يوم ٢٣ يناير.

على بعد مسافة ساعة ونصف الساعة من كاف توجد قرية إثرة وهي قرية بنفس حجم كاف. وأنا أحسب المسافة من دمشق إلى كاف بواقع ست وسبعين ساعة ونصف الساعة من ساعات سير الجمال (أي ٣٣٧,٥ كلم) وتلك من كاف الى الجوف بسبعين ساعة (أي ٣٥٠ كلم) وبذلك تكون المسافة الإجمالية من دمشق إلى الجوف ٦٧٨ كلم، حيث كانت قافلتي تقطع في المتوسط ٥ كلم في الساعة. وهذا حساب كنت أعتمد عليه، حيث كنت أحسب الدقائق والساعات للمسافات المعروفة، خصوصاً وأن الجمال كانت تسير بخطاً منتظمة. وكنت أقارن هذه الساعات والدقائق مع المسافات المعروفة. و كان من الطبيعي مراجعة وتقدير هذه المسافات بعناية. لذا فإنني أعتقد أنه في هذه الحسابات، لايمكن أن يزيد الخطأ أبداً عما بين ٢ و٣ كلم في مسيرة اليوم الواحد.

من كاف عبوراً بقرية إثرة، كانت الأرض مرة أخرى تتشكل من نفس الصحراء الموحشة، حيث يسيطر عليها الطابع الجبلي الصخري، الذي يتغير أحياناً إلى تلال. وهذه المنطقة كلها تمثل أحد سهول قبيلة الرولة التي تشمل تقريباً نصف كل شمال الجزيرة العربية مابين سورية وبغداد. وكصديق شخصي لكبير مشايخ الرولة سطام بن شعلان لم أكن أخشى أي شيء من الجزء الأكبر من هؤلاء البدو. ويقف سطام في قمة قوته على رأس خمسة عشر ألف مقاتل، وهو عدد كبير جداً في الجزيرة العربية. وللأسف علمت فيما بعد أن هذا العربي القوي والسامي قد قُتل في صيف ١٨٩٣م إثر عودته من رحلة إلى القسطنطينية، حيث تم استقباله هناك استقبالاً حافلاً.

قابلت في الواقع، مرتين، عصابات من اللصوص، كانت بالمقارنة برفاقي وقافلتي في موقف الضعف (لا يزيد عددهم عن مائة فارس سيىء التسليح) لدرجة أنهم شعروا بالسعادة والفخر عندما وافقت على أن أشرب معهم فنجاناً من القهوة.

عندما غادرت دمشق في وسط الشتاء بدون انقطاع وفي خط مباشر كنت آمل وأعتقد، أنني سأخرج بسرعة من منطقة البرد الشديد، لكن ذلك لم يحدث بل العكس تماماً حيث إنني كلما اتجهت إلى الجنوب كلما بدأ الجو أكثر برودة. شيئاً فشيئاً نزل الترمومتر إلى تحت درجة التجمد، ومع ذلك كنا نتواجد على خط عرض القاهرة، كما كنا على ارتفاع لايزيد عن ٧٠٠ إلى ٨٠٠ متر فوق سطح البحر.

قبل أن نصل إلى الجوف بقليل بعثت نصر الله للقيام حسب التقاليد الشرقية بإبلاغ خبر زيارتي إلى جوهر حاكم هذا المكان. وهذا الأخير خاف من رؤية هذا العدد الضخم من الفرسان والجنود الأتراك الذين ظهروا له كأكبر قافلة مسلحة جبلية. لذلك قرر ألا يسمح لنا بالدخول بقدر مايستطيع.

عندما وصلنا إلى البوابة الرئيسية للجوف وجدتها مغلقة. وعندما سألت لماذا لا أرى نصر الله أو أحد الجنديين المرسلين معه، شرح لي الكثيرون من المحيطين بي من العرب أن نصر الله موجود بالقصر وينتظر هناك أوامر الحاكم. وعندما سألت مرة أخرى أين يوجد هذا الحاكم؟ قيل لي إن الحاكم موجود بالبلدة وسوف يظهر قريباً بطبيعة الحال. كنت أحتاج إلى شرب بعض القهوة ولكن أين؟ لذلك اقترحت أن نأخذ القهوة في الميدان أمام البوابة، وأردت لهذا الغرض إحضار بعض السجاد، وفوجئت بثورة العرب بشدة لهذا الاقتراح وأوضحوا لي أن مثل هذا التصرف - أجنبي يشرب قهوة الجوف

أمام البوابة المقفلة - سيجلب العيب والعار على القصر إلى الأبد.

في هذه الأثناء، ظهر نصر الله على المنصة الموجودة على البرج المتحكم في البوابة وأوضح لي أنه والجنديين، تم تجريدهم من سلاحهم، ومن الواضح أنهم محتفظ بهم في القصر أسرى ويرجو أن أكون على درجة كبيرة من الحرص، وبصفه خاصة الا أضع نفسي شخصياً في مثل هذا الفخ الخطير والمضحك. أي أنه عليَّ أن لا أسمح لنفسي بأن أقترب من البوابة تحت أي حجة، مثل شرب القهوة أو الدخول إلى الممر المظلم الموجود بجانب القصر، وهو ماكان العرب يمنعونني منه تماماً. ومثل هذه الحالة كان يمكن أن تسير الامور إلى المزيد من سوء الفهم وعدم الاطمئنان. وأخيراً ظهر جوهر فوق البرج، فاقترحت عليه الاتفاق على الأسس التالية: أن لا يخشى مني أي شيء حيث أنني في رحلة سلمية في اتجاه نجد وذلك بصفة أساسية لكي أقابل سيد جوهر نفسه الأمير ابن رشيد وأقوم بزيارته. وأن وجود بعض الجنود الأتراك له ما يبرره حيث أنني حتى هذه اللحظة كنت أسافر في بلاد خطرة وخارجة على القانون ولذلك كنت في حاجة إلى حراسة، والآن وبعد أن وصلت إلى أملاك الأمير لم يعد لهذه الضرورات أي مبرر وأنه يجب أن يتم ما سبق التخطيط له من قبل. أي أن الجنود الأتراك يرجعون في الحال إلى ثكناتهم في دمشق وهو ماسيتم حتى قبل سفري من الجوف كما أنني أتحمل مسئولية حماية جنودي وكذلك الأفراد الآخرين.

كان من الواضح في هذه الحالة أن جوهراً نفسه متأكد من أنني أستطيع بسهولة اقتحام قصر الجوف بالقوة، وهي عملية لن تكلف أكثر من فردين، وبصفه خاصة إذا هاجمنا البوابة ليلاً أو حطمناها حرقاً. ولكن من الطبيعي أنه ليس لديَّ أي تفكير للقيام بمثل هذا العمل. وعندما يثق جوهر بي ويظهر لي

حسن نواياه بأن يترك نصرالله يخرج إلينا عندئذ سأظهر له أيضاً حسن نواياي، بأن أذهب إليه وحدي إلى القصر. وحتى يطمئن جوهر من أنه ليس لدينا نوايا لمهاجمة البوابة واقتحام البلدة فقد اقترحت أن ارجع إلى الوراء بعيداً عن البوابة مع جميع الأفراد المسلحين. وبذلك عندما يطلق سراح نصرالله لا يكون هناك أية مخاطر من اقتحام البوابة أثناء فتحها لفترة قصيرة ثم قفلها.

لم أكن أبداً أشك في أمانة ووفاء العرب وبعدهم عن الخيانة، ولي كثير من التجارب عن هذه الأمور، والآن كان في إمكاني اختبار خبرتي السابقة لأجد المثال الحي لهذا الطابع من التصرفات.

أوضح جوهر باختصار أنني إذا أعطيت كلمة شرف أمام رجالي وأمام رجاله، فإنه سيأخذ اقتراحي مأخذ الجد وسوف ينفذه. وهكذا حدث وعندما انسحبت إلى الوراء بعيداً تم إطلاق سراح نصرالله، وبعد دقائق من ذلك دخلت أنا نفسي إلى القصر. ربما كانت هذه الخطوة مني مخاطرة ولكنني لم أكن أستطيع عمل غير ذلك، إذ كيف كان يمكن التفكير في رحلة ناجحة بدون هذا، فلو كنت بقيت كعدو خارج القصر، فقد أفقد كل أمل في الحصول على المزيد من التموين والمساعدين من الجوف. لقد تم في الواقع كل شيء على خير وجه.

كان جوهر يقف خلف البوابة تماماً في انتظار دخولي، وأقفلت البوابة على الفور، وكان جوهر محاطاً من رجاله، ذوي الأهمية وفي عصبية ظاهرة قبّل جوهر يدي وعلى أثر ذلك أسرعت فقبلت جبهته مع الإسراع باحتضانه.

بعد ذلك، تم إدخالي إلى الصالة الرئيسية للقهوة والاستقبال، وذلك من

خلال ممرات وصالات مظلمة إلى حد ما. وفي الطريق كنا نرى المشانق وغرف التعذيب. لم يكن ذلك بالمنظر المريح لاسيما عندما كنت أفكر في أنني في هذه اللحظه وحيد تماماً ووقعت في فخ عجيب حيث أتواجد في قبضة السيد جوهر. ومع ذلك فقد سارت الأمور سريعاً وبشكل ممتاز. أخرجت السيف وأعطيته إياه للاحتفاظ به، ثم ألقيت بنفسي في الصالة أمام المدفأة المشتعلة، ثم قدمت لي القهوة، وما كادت شفتاي تمسان الفنجان حتى سمعت صوت جوهر يعطي الأمر بسرعة فتح البوابة. وقد حدث ذلك بسرعة مسرحية فلم تكد تمر دقيقة حتى امتلأت الصالة بأكثر من ٥٠ من رجالي المسلحين حيث جلسوا لشرب القهوة أيضاً.

ومنذ هذه اللحظة، قامت العلاقات الوطيدة فيما بيني ورجالي من جهة وبين جوهر والقصر ومدينة الجوف من جهة أخرى.

تعتبر الجوف بالنسبة للجزيرة العربية موقعاً ذا قيمة كبيرة إذ لايقل عدد سكانه عن ١٠٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ ساكن. المياه طيبة وغزيرة والحدائق جميلة وممتدة، والتمر في الجوف له بحق سمعة طيبة كأحسن تمر في العالم وذلك بسبب مذاقه الطيب.

لم أجد أي صعوبات في الجوف : كثير من الغنم والعجول والدجاج يمكن شراؤها كما يحلو لي وكذلك كل ماكان يلزم الرحلة في الصحراء من التموين مثل تجديد سروج الخيل والجمال.

كانت فكرتي في البداية، أن أبقى يومين في الجوف للراحة إلا أن رياحاً رملية شديدة منعتني و منعت الجنود من الرحيل، فبقينا يومين إضافيين. تم قضاء هذا الوقت في ظروف ممتعة على الأقل من وجهة نظر حياة الصحراء.

كنت أنا وجوهر نتبادل دعوات الأكل، كما أنني و رجالي والجنود وكذلك أفراد القصر كنا نعيش في وضع بهيج. وهنا رأيت لأول مرة أحد المسلمين في الجزيرة العربية جوهراً يأكل طعاماً أوروبياً بالكامل، وهذا الحدث بدا عجيباً للآخرين أيضاً إلى درجة اجتماع عدد ربما يبلغ ألفين من الناس للتمتع بهذا المنظر. وهو كيف أن جوهراً يتذوق طعاماً يتكون من الحساء والسمك والخضروات المعلبة، كما يشرب شيكولاته، وكذلك قهوة أمريكية، ثم بعد ذلك يدخن سيجاراً من هافانا. وفي هذه الأثناء اختار جوهر دليلين على درجة عالية من الكفاءة، حققا فرحتي، حيث كان عليهما مساعدتي في عبور صحراء النفود.

كان هناك اتجاهان فقط، يمكن اختيارهما لعبور هذه الصحراء نحو حائل. أحدهما: وهو الطريق المعتاد وهو الذي سلكه بلغريف وبلنت، وتمر عبر قرية وقصر جبة، أما الطريق الآخر، فإذا أردنا ترك جبة على اليمين فيمر عبر قصر الحيانية ومن هناك نحو حائل. في كلتا الحالتين لا تكون الجوف هي آخر نقطة خروج بالنسبة للقادم من الشمال، بل قرية تقع على بعد ٣٦ كلم إلى الجنوب الشرقي تسمى قارا، وعلى بعد ١٠ كلم من الشمال منها تقع سكاكا وهي أيضاً تحت حكم جوهر، ولها نفس الحجم والأهمية التي للجوف وكذلك بها قصر يشبه قصر الجوف.

بعد أن رحل الجنود بالليل سافرت أنا يوم ٢٨ يناير، حيث وصلت عصر نفس اليوم وأقمت معسكري أمام قرية قارا، واخترت الطريق الثانية للوصول إلى حائل لأنه لا يعرف عنها الكثير، وبذلك يكون لها الأهمية الكبرى بالنسبة لي.

سافرت في اليوم التالي مع قافلتي في البداية إلى بئري الماء المسميتين

بخوعا. هاتان البئران تبعدان مسافة ٢٤كلم تقريباً عن قارا، وتعتبران آخر موقع ماء قبل الحيانية، ولذلك توقفت هناك بعض الوقت حتى يمكن لي أن أستفيد حتى آخر لحظة من هذه المياه قبل المسير عبر صحراء النفود. والبئران الموجودتان هناك عميقتان جداً ولايبدو عليهما أنهما غنيتان بالمياه. كما أن المياه ساخنة وسيئة لدرجة أنه لاداعي لذكرهما. ولكن بالقرب منهما يوجد مجمع لمياه الأمطار في شكل بحيرة دائمة تقريباً. ويبدو أن البدو يحاولون الاحتفاظ بوجود هذه البحيرة سراً، ولكن نظراً للعلاقات الطيبة مع جوهر ومع الدليلين فقد وضع هذا الامتياز أيضاً تحت تصرفي. يقع مجمع مياه الأمطار هذا داخل النفود ويعتبر الموقع أكثر أماكن هذه الصحراء احمراراً. لقد ظللت لمدة طويلة منفعلاً من رؤية هذا المنظر " للصحراء الحمراء "، ربما أن الأمر لم يكن سوى التناقص بين هذه الصحراء الحمراء وماسبق أن رأيته وذكرته من لون الفحم الأسود. ومع استمراري في المسير وجدت أن لون النفود لم يكن بالأحمر الشديد غير العادي الذي ذكرته الليدي بلُنت وزوجها على طريق جبة. أما هنا في خوعا، فتحت الشمس الساطعة، كانت تبدو كما لو أن الأرض التي يمشي عليها الإنسان وكذلك الصحراء وجميع الصخور المحيطة بالمنطقة كما لو كانت قد صب عليها الدم.

بعد وقت قصير، بدأنا نسمع أصوات الوحوش في هذا المكان الموحش، وهي الوحوش التي يجتذبها وجود الماء، أصوات الثعالب والضباع العديدة التي تشبه الصريخ، وأخيراً زئير الفهود الذي يكسر سكون الليل.

أما الماء الذي كان مقدراً أن نأخذه من خوعا ليكفي مدة أسبوع، فلم يكن طعمه سيئاً، ومع ذلك فقد كان لونه يميل إلى الاحمرار، كما لو كان حساءً جيداً للكابوريا، إلى الدرجة أن حصاني كان يتردد في الشرب من هذا الماء في

النهار حتى عند العطش الشديد. ومع ذلك فلم يكن ذلك يمنعه عند دخول الظلام أن يشرب منه ملء معدته. وقد اتضح أن هذا اللون الذي يكوّن الماء كان من التركيز بحيث أن قرب الماء ظلت محتفظة باللون مما جعلنا حتى كنا بعد عدة أسابيع نشرب من ماء أحمر.

في ٣٠ يناير، بدأ المسير الحقيقي في صحراء النفود، ذات الشهرة العالية أو بالأصح، المكان الموحش والخطير حقاً. كان معنا أكثر من ١٢ جملاً محملاً بالماء، ورغم ذلك، كانت هذه الجمال محملة أكثر من اللازم، لأنني أردت أن أتأكد بنفسي من نتيجة اختيار الجمال في دمشق من أفضل الأنواع، فهي ذات قيمة لاتقدر بثمن، وكان يتم تغذيتها من أفضل مايكون الغذاء. ولهذا السبب أعطيت الشيخ محمداً الأوامر المشددة بالحفاظ على سرعة سير الجمال المحملة بواقع ٦ كلم في الساعة وعلى ألا تقل السرعة عن ٥,٥ كلم في الساعة، وأن يحافظ على ذلك. إن أداء الجمال يعتبر أداءً ممتازاً، إذا أخذنا في الاعتبار كثرة الرمال وصعوبتها وكذلك الحمولة التي لم تكن تقل عن الحد الأقصى الذي يقدر ب ٧٠٠ رطل.

فيما بين خوعا والحيانية كان مؤشر البارومتر يوضح ارتفاع الأرض في النفوذ متذبذباً فيما بين ٨٠٠ متر و ١٠٠٠متر، وكان هذا الارتفاع على خط عرض (٢٧,٥ - ٣٠ درجة)، ولكن ذلك الارتفاع، لم يكن سبباً في البرودة الشديدة، ولم يكن يبررها، وهي البرودة التي كنا نتحملها والتي تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. كان الموضوع هو القصة القديمة، وهي أن الرمال موصل رديء للحرارة، وتؤثر بدرجة كبيرة على درجات الحرارة. كان النهار دافئاً ومريحاً إلا أن البرودة في الليل كانت شديدة، حيث تهبط درجة الحرارة إلى أقل من عشر درجات مئوية، ولم أكن أبداً قد عرفت هذا الهبوط الشديد والمفاجىء

في الترمومتر، سواء في المكسيك أو جبال الهملايا أو القوقاز أو أرمينيا العليا، مثلما كان عليّ أن أراه هنا في النفود.

وهنا للتوضيح أنقل بعض مذكراتي المسجلة في دفتر الرحلة، وهي أمثلة متعددة:

١ فبراير: يوضح الترمومتر في الساعة ١٢ ظهراً أن درجة الحرارة ٥ , ٥ درجة مئوية وترتفع بعد ذلك مع الرياح الشديدة البرودة ببطء شديد. و في الساعة ٢ بعد الظهر تكون درجة الحرارة ٦ درجات، و في الساعة ٤ تكون درجة الحرارة ٥ , ٧ ثم يجري سائل الترمومتر بسرعة إلى أعلى وذلك حتى يصل إلى ٥ , ٢٥ درجة مئوية في الساعة ٧ مساء (بعد قليل من غروب الشمس)، وعندها تنزل درجة الحرارة فجأة وخلال ربع الساعة الأول الذي يلي اختفاء الشمس بواقع ٣٣ درجة مئوية، وهذا يعني - ٨ درجات مئوية ثم عند الصباح تصبح ١١ درجة مئوية. بهذا الشكل كان الجو خلال النهار، وغالباً حتى عند هبوب الرياح الشديدة البرودة، مثل التي تهب كثيراً في الصحراء، والتي تتوقف أيضاً فجأة كما بدأت. وفي ظروف الطقس الشديدة هذه بدأت أشعر بالقلق على الخيل، وقبل كل شيء على حصاني، الذي لا يقدر بثمن. ولحسن الحظ بالنسبة له كان يتوفر غطاء من الفرو، وكان يغطى به كل ليلة من أذنيه إلى ركبتيه. أما بالنسبة للخيول الأخرى، فلم يكن لها للأسف مثل هذه الاحتياطات، وبالرغم من ذلك، لم نخسر أياً منها، وقد كنا نشعر بالألم عندما نرى هذه الخيول المسكينة ترتجف من البرد، كما أن البرودة الشديدة للرمال لا تجعلها تستريح على الأرض طوال الليل.

كانت المفاجأة الكبرى ماتزال أمامنا، ففي ٢ فبراير سقطت الثلوج بكثافة، بحيث غطت النفود طولاً وعرضاً بطبقة من الثلج إلى الدرجة التي كنا وكأننا

نرى منظراً طبيعياً من روسيا، لا منظراً في وسط الجزيرة العربية. لقد أوضح لي البدو أنهم سمعوا أن مثل هذه الثلوج تسقط أحياناً، إلا أنها نادرة جداً، فلم يسبق أن حدث هذا إلا قبل حوالي ٥٠ سنة.

في ليلة ٣ فبراير اقتربت من معسكرنا عصابة لصوص وحاولت في هدوء تام محاصرتنا، ولكن الكلاب نبحت في الوقت المناسب تماماً، مما جعلنا نقف جميعاً بالسلاح في الميدان، قبل أن تفاجئنا أية أحداث ويحاول اللصوص من البدو خرق قرب المياه بإيقاعها على الأرض ثم ثقبها بواسطة سهم وهم بذلك يجعلون القافلة بدون ماء، فيتمكنون منها في اليوم التالي أو على أكثر تقدير اليوم الذي يليه.

في حالتي لم يكن الأمر ليصل إلى أي شيء من هذا، فاللصوص الذين لم يزد عددهم عن ١٥ ـ ٢٠ رجلاً قوياً، أخذهم الرعب ففروا فجأة إلى درجة أنهم تركوا وهم يفرون ناقتين من نياق السباق (ذلول) استطعنا في اليوم التالي أن نأخذهما غنيمة. إحداهما استطعنا أن نأسرها في الحال، أما الأخرى فقد استمرت ملاحقتها فترة طويلة. لقد ظل المعسكر عدة أيام بدون لحوم طازجة، وكانت رغبة الجميع اللحاق بهاتين الناقتين. في البدايه قاومت هذا الطلب، رافضاً أن أدفع بأحسن الخيول عندي لهذا الصيد، بالإضافة إلى أن الخيول من الممكن أن نحتاج إليها في أي لحظة، إذا ما طرأ طارىء بعد فترة قصيرة. بعد أن لاحظت أننا لن نتمكن من الناقتين بطريقة أخرى أصابتني حمى الصيد. ركب الدليل العربي منيس على ظهر فرسي السوداء السريعة (ليلى) وأنا على ظهر الفرس مانك مقرراً الإمساك بهاتين الناقتين. وبالرغم من استخدامنا لهذين الفرسين السريعين، فلم يكن ذلك يحط من قدر النياق، فالإمساك بهما استغرق فترة طويلة.

إن الجمال في نجد سريعة جداً، ومع ذلك فإنني كنت أجد أن الخيول الجيدة تستطيع بقدر معين من السهولة أن تلحق بها، إلا أن هذه الذلول كانت سباقة بدرجة غير عادية. قد لا يستطيع أحسن الخيول أن يلحق بجمل سباق من نجد. لقد حاول الأتراك مراراً تربية هذه الجمال في شمال الجزيرة العربية واستخدامها في البريد في العراق وصحراء سورية، إلا أن تلك المحاولات كانت تبوء بالفشل، إذ اتضح أن هذه الحيوانات تموت سريعاً.

بعد مسيرة أخيرة لأكثر من ١١ ساعة ظهرت أمامنا قلعة الحيانية يوم ٤ فبراير، حيث تقف هذه القلعة وحيدة ومتربعة في وسط الصحراء. من هنا كان النظر إلى هذه القلعة يجعلنا نعتقد بانتهاء النفود عملياً، إلا أنه مازال هناك مسيرة ٣ أيام نحو الجنوب بدون ماء.

في تقديري فإن المسافة من الماء في خوعا حتى الحيانية هي ٢٩٠ كلم وقد يكون هذا هو الحد الأدنى الذي يضاف إليه مسافة اختراق النفود التي لم يكن من الممكن تفاديها وهي كلها مسافة بدون أي نقطة ماء.

النفود كما سبق ذكرها هي عبارة عن أرض حمراء غير عادية، وهي صحراء رملية تكسوها التلال الرملية او التموجات الرملية. في المتوسط فإن ارتفاع هذه التلال من قمتها إلى قاعدتها تتفاوت ما بين ٣٠ متراً و٥٠ متراً، وأحياناً من ٧٠ - ١٠٠ متر، بحيث يشعر الإنسان أحياناً أنه محاط بحوائط رمليه حقيقية وقائمة. بغض النظر عن التساؤل عن أصل هذه الظاهرة، وكيف حدثت، وما إذا كانت في الأصل قاعاً لبحر أو شيئاً من هذا القبيل؟ إنه ليبدو من غير المفهوم، كيف أن الزوابع الصحراوية طوال آلاف السنين لم تعمل على تسوية هذه الرمال، أو على الأقل التقليل من حدتها و من شدة انحدارها. أو هل يجب علينا أن نقبل الرأي الذي يقول: إن الرياح هنا تتبع

خطوطاً معينة وتقوم برسم أشكال معينة، وهذه تعملها بنوع من النظام المحدد، وأنه في تأثيرها على هذه الرمال يقلبها ثم تسويها ثم تعيدها إلى وضعها الأول؟

لم يكن تأثير موجات الرمال على نفس النمط، فليس لها أي نوع من الانتظام مثل تلك التي وصفتها في رحلات أخرى. بل يرى الإنسان أن ارتفاع الأرض على امتداد النظر، ليست في شكل أمواج تجري في اتجاه واحد مطلقاً. كما أن هذه التموجات كثيراً ما تتحول إلى دوائر من الارتفاعات وتترابط فيما بينها تماماً، كما لو كانت ترتبط بجسور. وهكذا يكتسب هذا الشكل الطبيعي شكله الفني. بالإضافة إلى ذلك، يلاحظ وجود عدد من الأشجار قائمة في شكل انفرادي، ولكنها مع ذلك كثيرة، بحيث تغطي إلى حدٍّ ما هذه الصحراء. كما وتجد سيقان هذه الأشجار جافة تماماً، ويزيد طولها عن طول الإنسان، أما سمكها فهو ما بين نصف قدم وقدم واحد وهي تعطي بذلك مادة جيدة جداً للاشتعال، وهو ماساعدنا كثيراً في التدفئة في ظروف الطقس البارد.

يعطي البدو النفود أهمية كبيرة جداً، كما يخافون السفر فيها إلى درجة معينة. إن أقساماً من العرب يعيشون في أعماق هذه الصحراء، وهم يفقدون بعض أفرادهم أثناء الارتحال عبرها: أي أن الأفراد الذين يبقون منفردين أثناء السير، نتيجة الإهمال أو عدم الاهتمام، يجدون أنفسهم فيما بين دوائر الرمال الكثيرة، فيضلون الطريق ثم ما يلبثون أن يموتوا جوعاً وعطشاً.

من المؤكد أن الإنسان لا ينصح بمواجهة مخاطر النفود وغيرها من صحراء الجزيرة العربية، دون أخذ الاحتياطات أو مرافقة أناس قادرين، وبدون استخدام جمال قوية، وتموين كبير من المياه وتموين بصفة عامة. وفي حالة

الاحتياج يُرسل طلب معونة بواسطة الخيول، وأن يكون الأدلاء جيدين، يمكن الاعتماد عليهم. فإذا أخذنا كل هذه الترتيبات، فإنني أستبعد حدوث أية مخاطر، وإن اختراق النفود أو أيٍّ من الصحاري الجميلة والرومانسية لهو متعة كبيرة.

أما عن الحياة الفطرية في هذه الصحراء، فهي متغيرة جداً، بل إن وجود العدد القليل من الحيوانات، التي قابلتها يبدو صعب الفهم. كل مارأيت كان الضباع والغزلان والإبل وبعض الأرانب. وكذلك هنا، كما في الأماكن الأخرى الخالية من المياه، يوجد نوع جميل جداً من الثعالب. لم يكن من المفهوم كيف تعيش هذه الحيوانات بدون مياه وبالتدريج استطعت أن أعرف بعض الشيء عن ذلك، وأصبحت أذكر دائماً أن هناك بعض الحيوانات مثل الخرفان والماعز لا تشرب حتى عندما تعطيها الفرصة للشرب وهو ما لاحظته بالنسبة للحيوانات التي ترافقنا.

من الواضح، أن هذه الحيوانات، تستكفي من السوائل الموجودة في الأعشاب الجافة، والتي بها مكونات تساعدها على مقاومة العطش بطريقة العلاج الهوموباتي (علاج المرض بشيء قليل من نفس الميكروب، ويعطى على دفعات فيقوم بإحداث آثار عكسية) ويبدو هذا في كل حالة أحد الأدلة على كيفية تطور الأجيال من المخلوقات، عبر تجاربها وعاداتها وتحقيق متطلبات حياتها بذاتها مما قد يغير في طبيعة وشكل الحياة كل ذلك من مبدأ الصراع من أجل البقاء. عندما لا يقتنع الإنسان بالأمر الواقع من أن الخراف والماعز في الجزيرة العربية لاتشرب فإن ذلك يوضح بذاته كيف أن فصائل من الإبل وأصناف الغزلان قد تعلمت أيضاً أن تعيش في هذه البلاد بدون ماء.

وأضيف إلى ذلك، أن البدو كانوا يخبرونني أنه في الأراضي الداخلية التي

لايوجد بها ماء، فإن هذه الحيوانات لاتظهر سوى خلال ٩ شهور فقط. أما عندما تضع صغاراً ويتعين عليها إرضاعها فإنها تنتقل إلى أراض بها ماء وفير، مثل مناطق الفرات أو الإحساء أو اليمن أو حوران.

أما الضباع أو الفهود، فلم أجدها تتنقل هكذا بعيداً عن الماء، كما لم أسمع بوجود حيوانات من هذا النوع بعيداً عن الماء، بغض النظر عن أنه قد يكفي هذه الحيوانات ماتحصل عليه من دماء الفريسة كسوائل لحياتها.

وكذلك الحيوانات التي تعيش فقط على النباتات فلم أر إلا القليل من الأرانب. ويظل يبقى السؤال عن الثعالب التي رأيتها في جميع الأمكنة على بعد مئات الكيلومترات عن أي بقعة ماء. قد يكون أيضاً من العسير عليها الوصول إليها في أماكن لا ترى خلال عدة أيام، حتى طائراً يطير في السماء.

لقد كنت أفكر ساعات بل أياماً في هذا الأمر إلا أنني لم أصل إلا إلى تحليل معقول قد يصل إلى نصف تبرير لحياة هذه الثعالب. وهو أنه ربما أنها تعيش على الزواحف والضب وأنه يكفيها مايوجد في هذه الزواحف من سوائل كبديل للماء. تصطاد هذه الثعالب الجرذان، إلا أن هذه الجرذان لا نجدها في كل مكان، وفيها قد تجد الثعالب رطوبة (ماء) أكثر بكثير من الزواحف؟

تستطيع الجمال في نجد أن تسير في الرحلة، وأن تعمل في الفصل البارد من السنة لمدة ٢٥ يوماً بدون ماء، وفي الفصل الحار تسير ٥ مرات خلال ٢٤ ساعة بدون ماء.

والحصان العربي الأصيل لا يمكن اعتباره كذلك إلا إذا كان في استطاعته تحمل السير إلى أراض بعيده لمدة ٤٨ ساعة بدون أن يشرب.

وفي أماكن إقامة البدو التي تبعد مسافة طويلة عن الماء، نجد أنه ليس فقط الإنسان وحده الذي يعتمد على لبن الإبل بل أيضاً الخيل. إن الرجل البالغ والقوي من البدو يستطيع أن يتحمل السفر أو الحرب حتى في أشد درجات الحرارة ارتفاعاً لمدة ٣٦ ساعة بدون أن يشرب أي سائل، إلا أن هذه الفترة يجب ألا تشتمل على نهارين وليلة، ولكن يجب أن تكون ليلتين ونهاراً. وهذا له معنى كبير، حيث إنه في الحرارة الشديدة ورياح الصحراء يحتاج الرجل العادي كل ساعة ونصف او ساعتين إلى عدة كؤوس من الماء.

إن قلعة الحيانية تمثل مبنى بدائياً. الجزء الأسفل فقط من المبنى مقام من الحجارة، أما الجزء العلوي فهو مبني من الطين وهو بالكامل مكون من أربع زوايا، ويعلوه برجان فقط، وهو أصغر بكثير من القصور والقلاع الموجودة في الجوف وفي سكاكا. ويوجد باب واحد فقط، مصنوع من الحديد للدخول. وعلى بعد حوالي ٢٠٠ متر من ذلك، نجد برجاً واحداً يقف منفرداً، وهو متصل بالمبنى الرئيسي بواسطة سرداب. وهو بذلك يعتبر حماية للبئرين الموجودتين فيما بين المبنى الرئيسي وهذا البرج، وتكون الحماية بواسطة رماية بندقية من الجهتين. ورغم أن ذلك يعتبر تحصينات بسيطة إلا أنه يكفي تماماً ليس فقط لصد أي هجوم من أعداء ليس لديهم مدافع ولكن أيضاً لمنع الحصول على المياه بدون تصريح من ابن رشيد.

أما البئران الموجودتان في الحيانية، فماؤهما طيب الطعم جداً وغزير وبصفة خاصة البئر الرئيسة الموجودة على بضع خطوات من باب القصر، وفي الوقت الحاضر يصل عمقها من ١٤٠ إلى ١٧٠ متراً، وهي مبنية بطريقة ممتازة، بل بطريقة قوية جداً، وذلك بقدر ما استطعت أن أرى بنفسي عن طريق انزال عيدان كبيرة مشتعلة في سلة إلى عمق البئر. فقد لاحظت أن

أجزاء منها مبنية من الصخور الطبيعة، وأجزاء أخرى مبنية من الحجارة المنحوتة والمسواة في شكل مربعات. وهذه البئر مثلها مثل آبار أخرى رأيتها في الجزيرة العربية، لابد أنها حفرت في عهد الملوك الآشوريين، الذين نعرف أنهم وجهوا حملات حتى إلى داخل الجزيرة العربية وإلى الجنوب منها.

وجدت الحيانية مزدحمة بآلاف الإبل التي يمتلكها الرولة، الذين يستخدمون النفود أرض رعي في فصل الشتاء إذا كان بإمكانهم سقي قطعان إبلهم من وقت لآخر من آبار الجوف وسكاكا والحيانية وجبة. إن هذا الوضع يجعل من الواضح أن ابن رشيد لم يكن يشعر بأنه سيد النفود الوحيد" .

بعد ذلك، اتجه نولده إلى حائل، ومنها إلى مقابلة محمد بن رشيد في مخيمه في وسط نجد [٤]، وبعد أن أتم تفاوضه معه، سافر إلى النجف ومنها أكمل رحلته في العراق وكردستان وأرمينيا.

الهوامش:

1- Baron Eduard Nolde . **Reise Nach Innerarabien ,Kurdistan und Aremenie 1892.** Braunschweig: Druck undVerlag Von Friedrich Viewe und Sohn,1895.ppV-VII.

2- H.V.F.Winstone. **The Illicit Adventure.**London:Jonathan Cape,1982.p.11.

3- Baron Eduard Nolde ..pp3-28.

(٤)حول تكملة رحلته إلى وسط الجزيرة العربية انظر:

الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية عند نهاية القرن التاسع عشر : نص رحلة مبعوث روسيا البارون إدوارد نولده إلى نجد ١٨٩٣م/ ١٣١٠هـ. تقديم وتعريب عوض البادي. الطبعة الثانية، الرياض: دار بلاد العرب للنشر، ٢٠٠٢م.

رحلة
آرتشيبالد فوردر
١٩٠١م/ ١٣١٨هـ



ارتشيبالد فوردر بالزي العربي

آرتشيبالد فوردر
Archibald Forder

لا يُعد آرتشبالد فوردر ضمن الرحالة الذين زاروا الجزيرة العربية. فلم يذكره أحد ممن درسوا الرحالة الغربيين وكتاباتهم ولم يكن معروفاً إلا في الأوساط التبشيرية التي كان يعمل لها. قد لا يكون ذلك التجاهل مستغربًا بسبب عدم أهمية ما كتبه، مقارنة بما كتبه الرحالة الحقيقيون المتميزون عنه علماً وهدفاً. رغم ذلك، فإن تجربة فوردر في السفر والمخاطرة لنشر المسيحية في شمال الجزيرة العربية تستحق الاهتمام والمعرفة بها توثيقاً للمحاولات التبشيرية في هذه المنطقة، التي استمرت لفترة طويلة بعده، وبسبب ما بذله من جهود.

لا تتوافر معلومات وافية عن خلفيته الشخصية من أية مصادر يعتمد عليها إلا ما كتبه هو عن نفسه في تقديمه لكتابه، في طبعته البريطانية الصادرة عام ١٩٠٢م[١].

حسب ما يورده فوردر عن نفسه، فهو من مواليد عام ١٨٦٦م في بلدة سالزبوري البريطانية. بدأ تأثره الديني في سنيه الباكرة، وأصبح يرتاد مدارس الكنيسة والمشاركة في نشاطاتها، وخاصة جمع التبرعات لها. ثم عين في وظيفة سكرتير المبشرين الشباب، في كنيسة جونزهل في واندزورث. لم يتلقَ فوردر تعليماً عالياً، كما أنه تزوج مبكراً، مما أعاقه عن الدخول في عمليات

التبشير الخارجية، إلا أنه في آخر المطاف تم قبوله للعمل في إرسالية للتبشير، في بلدة الكرك في شرق الأردن.

غادر فوردر مع عائلته لندن في الثالث من سبتمبر عام ١٨٩١م متوجهاً الى عمله الجديد في الكرك، عن طريق فلسطين بعد أن تلقى هو وزوجته تدريبات طبية لمساعدتهما في عملهما وتقديم الخدمات الطبية للسكان المحليين.

استقر فوردر في الكرك، يمارس أعماله في خدمة الكنيسة وتعلم اللغة العربية والتدريس في مدرسة الكنيسة في الكرك، ويقدم الخدمات الطبية لبادية الجوار والسكان المحليين. بعد أن قضى خمسة أعوام في الكرك، ذهب فوردر إلى القدس حيث تعرف إلى مندوبين لمنظمة أمريكية للتبشير يقع مقرها في نيويورك تدعى " اتحاد التبشير المسيحي (C.M.A)"، وهو اتحاد يسعى لنشر المسيحية في العالم. تمت دعوة فوردر إلى نيويورك لمقابلة قيادة الاتحاد، حيث قدم لهم المعلومات الضرورية عن الصحراء العربية، وأقنعهم بتبني دخول الجزيرة العربية، التي كان الاتحاد يسعى لها ويبحث عمَن يقوم بالمهمة. حصل فوردر على موافقة الاتحاد للعمل معه، فرجع إلى الشرق فرحاً كما يقول ليأخذ الدعوة إلى "منبع الاسلام".

انطلاقاً من القدس، بدأ فوردر محاولات دخول الجزيرة العربية ولم يتمكن من ذلك إلا بعد ثلاث محاولات، و نجح في محاولته الرابعة، التي بدأها في اليوم الثالث عشر من شهر ديسمبر ١٩٠٠م. بعد عدة أيام من مغادرة القدس والمرور عبر عدة قرى، استقر لعدة أيام في بلدة "عرمان" وهي قرية في حوران، لينطلق منها في رحلته إلى كاف ومن ثم إلى الجوف.

نشر فوردر تفاصيل نشاطاته في الأردن وفلسطين وشمال الجزيرة العربية

في كتاب اسماه " مع العرب في الخيمة والبلدة " وصدر الكتاب في لندن عام١٩٠٢م. ثم صدرت طبعة أمريكية عنه عام ١٩٠٥م، وهي تختلف بعض الشيء عن الطبعة الأولى من حيث العنوان والتنظيم والتحرير والصور، واعتمدنا في هذا الكتاب على هذه الطبعة الأخيرة [٢].

ونترك الآن للقارىء مرافقة فوردر في مغامرته الغريبة:

" لقد أتاحت إقامتي الطويلة في عرمان[٣] فرصة جيدة للتحضير لرحلتي إلى جزيرة العرب، باحتكاكي بالناس الذين اكتشفت أنه لم يزرهم أحد من قبل. ومن المؤكد أن أحدًا لم يحمل إليهم الكتاب المقدس من قبل، وإذا كان ذلك قد حدث فليس له أدنى أثر. قضيت أيامي الأولى في زيارة الناس في بيوتهم. وسألت عن الكتاب المقدس ولكن لم يكن له وجود. وقد اتيحت لي فرص يومية للحديث عن الخلاص والمنقذ.

بعد العشاء كنا نقضي في العادة ساعتين مع الضيوف، الذين وفدوا إلينا لقضاء السهرة معنا. وكان الحاضرون يصغون إلى أقوالي جيداً، وفي هذه الأماسي غالبًا ماكنت أبيع عدداً من كتاب الإنجيل أو الكتب المقدسة الاخرى. كانت هذه الكتب تحمل إلى أماكن متعددة بواسطة من امتلكوها، والذين يعودون في اليوم التالي إلى قراهم. لقد تركت في عرمان حوالي أربعين نسخة من العهد الجديد، واشترى العديد منها بعض الشباب البالغين، الذين يعرفون القراءة جيداً.

كان قد أرسل لي بعض الأصدقاء من إنجلترا خمسين نسخة من كتاب عن حياة يوسف، وإنجيل يوحنا في مجلد واحد. وقد وجدت هذه النسخ مفيدة ومقبولة لدى هؤلاء القوم.

وذات يوم، دخلت منزلاً فوجدت قسيساً يونانياً عجوزاً، وتجاذبت معه أطراف الحديث فوجدت أنه مثل مئات من أمثاله يجهل معنى الخلاص بالإيمان بنبي الله عيسى، وأخبرني أنه لم يقتَنِ في يوم إنجيلاً. ولما كان يجيد القراءة، فقد أعطيته انجيلاً من المجموعة التي أهداني إياها الأصدقاء الأمريكيون. وكان الإنجيل باللغة العربية، وقبله على امتعاض، لأنه يعتقد أن أمثاله ليسوا أهلاً لمثل هذا الحظ السعيد. وفي نفس اليوم رأيته راكبًا متجهًا إلى القرية التي يعيش ويعمل فيها، وقد لف هديتي له في منديل وخبأها في صدره.

لقد كانت أيامي في عرمان حزينة انعدمت فيها المواساة، وكانت السماء تمطر معظم الوقت، وكان الثلج يتساقط تاركًا وراءه وحلاً كثيفاً وبعضه ذائباً. وكان الوقود الوحيد للتدفئة، هو روث البهائم الذي كنت أفضل قسوة البرد على رائحته النتنة، التي كانت تنبعث من كتلة محترقة منه، وضعت في منتصف الغرفة. وفي الليل كان عليّ الاستلقاء على فراش خشن، هو عبارة عن حصيرة محشوة بالقش، وقد أمدوني بغطاء مليء بالحشرات، لم أذكر أنني استعملته بعد الليلة الأولى. لقد كان سكان القرية في غاية اللطف والحفاوة، إذ قاموا بدعوتي لتناول الطعام في منازلهم. وكان الطعام في معظمه من البازلا المغلية المغطاة بالزيت أو السمن الذائب. وكانت تقدم هذه الوجبة ساخنة مما جعلها مقبولة عندي، وتساعد على تدفئتي. وكنت أشكر الله على هذا العطاء. ولما لم تكن في القرية حوانيت لم أتمكن من شراء شيء يؤكل، لاسيما وأن العرب لايبيعون طعاماً للضيوف. إنني لن أنسى ليلة الاحتفال بأعياد ميلاد المسيح، التي قضيتها في تلك القرية. لقد كانت ليلة باردة، انعدم فيها الوقود بفعل المطر والجليد، وكان عليّ أن أقضي كل اليوم متحملاً البرد والرطوبة. ولما كانت أسقف المنازل من الطين، فإن المطر كان

يتسرب داخل المنزل، وهكذا كانت الحالة في ليلة عيد الميلاد تلك. لقد كان المطر ينزل من ثماني فتحات صغيرة، من سقف غرفتي، وتعذر عليّ أن أجد مكاناً جافاً فيها. ومنذ حلولي تلك القرية، كنت أسأل عن إمكانية انتقالي إلى المكان الآخر، الذي كنت أنشده، وكان في الخريطة يحمل اسم كاف. لقد أدركت أن الرحلة إلى تلك القرية تستغرق ستة أيام إلى الجنوب الشرقي، والطريق إليها خال من المياه، وفي غاية الخطورة، لأنه مكمن لعصابات قطاع الطرق، الذين هم في حالة تأهب دائم لاقتناص أي عابر. كان سكان عرمان يجهلون اسم كاف، ولايعرفون عن هذا المكان شيئا، وكانوا في حديثهم العادي عنها، يرددون كلمة (قريتين) وفي بعض الأحيان يطلقون عليها اسم " ديرة الملح " لأن أهلها كانوا يشتغلون بجمع الملح، وكانوا يبيعونه للقوافل التي تذهب إلى هناك. وعندما أوضحت لهم أنني عازم على زيارة قرية كاف هزوا رؤوسهم قائلين " لاتذهب إلى هناك؛ لأن العرب الذين بها هم مجموعة من الأشرار؛ ونحن عندما نذهب إليها في جماعات لا تفارق أيدينا زناد البندقية ". ولما أبديته من إلحاح في الذهاب ذكر لي مضيفي أنه سيبحث عن بدوي يأخذني إلى كاف.

بين حين وآخر يزور عرمان بعض الذين يجوبون الصحراء، بحثاً عن مسافرين في الصحراء ليقوموا بإرشادهم في طرقها، لقاء أجر معين، ولما كانوا على معرفة تامة بأماكن الأعراب أصبح في مقدورهم قيادة المسافرين إلى قرية كاف بسلام. وجد مضيفي اثنين أو ثلاثة من هؤلاء الرجال، ولكن عندما أخبرهم بأن الرجل المراد اصطحابه إلى كاف مسيحي، أشاحوا بوجوههم قائلين: ما لنا ومن جعلهم دينهم أعداء لله ولأتباع محمد. لقد بدا واضحاً أن عليّ الانتظار طويلاً حتى أجد البدوي الذي يقبل مرافقتي إلى كاف. ورجوت

مضيفي أن يتعهد لي بالبحث عن هذا الدليل، وقطع مضيفي لي الوعود دون أن يفي بواحد منها. لقد باءت كل محاولاته بالفشل، وبدا لي أن رحيلي إلى كاف أصبح أمراً مستحيلاً. وفي ذات يوم رويت لشيخ تلك المنطقة حكايتي وطلبت منه المساعدة. وكان رجلاً لطيفا يبدو كأب للجميع، وكان كبيراً في السن، فأخذ ينصحني بأن لا أذهب إلى هناك وأعاد إلى ذهني صورة الأخطار المحدقة في الصحراء، والإرهاق الشديد من الرحلة، واحتمالات الموت الماثلة من العطش أو من تشدد أعراب قرية كاف. وأكدت للشيخ أنني مستعد لمقابلة كل ذلك لأنني واثق من أن الله سيحميني ويبقي عليّ، وأنني على يقين من أن الله سيفعل ذلك، ووعدته بأنني سأخلي سبيله من أي مسؤولية إذا ساعدني في التوجه إلى حيث أريد. وأخيراً وافق الشيخ على عمل اللازم، حتى أسافر صباح الغد. وعدت إلى منزلي وأعددت كتبي وأغراضي استعداداً للسفر. وقمت بإخفاء بعض نقودي بخياطتها داخل حزام سراويلي، وأعطيت الباقي منها مضيفي ليحفظها إلى حين عودتي، التي لايعلم أحد عنها شيئا. إن إيداع المال بهذه الصورة التي تنم عن الثقة في الغريب، يضمن الحفاظ عليها. وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى الشيخ فقدم لي الأعذار بأنه لم يتمكن من إعداد رحلتي، وأعاد كل ما سمعت من قبل عن هذه الرحلة ومخاطرها. وحاول مرة أخرى إثنائي عنها نهائياً، وذكرت بأنه قطع لي الوعود وكشيخ كان ينبغي أن يحفظ وعوده وألا يخل بها وقد أثاره كلامي هذا واستدعى رجلاً وأمره بإحضار جمل، وأن يضع فوقه أمتعتنا، ثم أركبني على ظهر الجمل على أن يسلمني صاحبي إلى أول خيمة نصل إليها، ونُفذت جميع أوامر الشيخ، وبدأت الرحلة.

سافرنا حتى مغيب الشمس، ولم نر أثراً للخيام فعسكرنا لقضاء الليل، ثم

تحركنا في الصباح مرة أخرى. وعند الظهيرة لاحت لنا بعض الخيام فاتجهنا صوبها. لم يكن استقبالنا حافلاً، وأحسست بأن مقدمي لم يجد ترحيباً حاراً. دعونا للدخول، وأخذ أحدهم أمتعتي وكومها فوق بعضها البعض. أخبرهم الرجل الذي رافقني بوجهتي التي أقصدها، واستقبلوا ذلك بتجهم، ثم أخبرهم بأنه سيرجع إلى عرمان. وشعرت بتردد أن أطلب منه أن يبيت معي، ولحسن الحظ فعل ذلك. تناولنا طعام العشاء ونحن جلوس على الأرض حول صحن فيه طعام، واستخدمنا أصابعنا في الأكل، ولما كنت متعبًا جدًا فسرعان ما رحت في نوم عميق حتى الصباح، حيث استيقظت لأجد الخيمة على رأسي بقماشها الثقيل، فزحفت خارجاً، فرأيت بعض النسوة يلملمن أطراف الخيمة قبل الرحيل، فسألتهن لماذا يفعلن ذلك في مثل هذا الوقت المبكر من الصباح ؟ فكان جوابهن: "لقد أمر الرجال بالتحرك إلى موقع آخر؛ إنهم يخشون من إيواء مسيحي، نجس، وإنه سيجلب لنا المشاكل". وبعد قليل جمعوا الخيمة وكل أغراضهم وحملوها على ظهر جمل وربطوا الدجاج والديوك إلى أطراف الحمولة فوق الجمل، أما الأغنام فقد سيقت مبكرًا في الصباح.

لقد رحلت هذه العائلة البدوية، وتركتنا أنا وزميلي الذي رافقني بالأمس واقفين وحيدين. واقترح زميلي أن يركب الجمل ويتركني وحدي للحفاظ على الأمتعة ويذهب بحثاً عن خيام أخرى ثم يعود إليّ. لقد رفضت الفكرة، لأنه إذا ركب الجمل فلن أراه مرة أخرى فقلت له: "اترك الجمل واذهب راجلاً بحثًا عن عرب آخرين". فقبل ذلك وتركني وحيدًا في الساعة السابعة صباحًا، وعند الظهر لم يظهر وانتظرت حتى أوشكت الساعة الرابعة عصراً، وكدت أن أجزم بأنه تخلى عني وتركني وحيداً، ولكنني فجأة رأيته عائدًا

إليّ. وعلمت منه أنه وجد خيمة قريبة، فقضى وقته يتسامر مع الرجال فيها ويأكل الطعام ويحتسي فناجين القهوة وأنا تحت وهج الشمس الحارقة جائعاً ظمآن. مرة أخرى، حملنا متاعنا وتحركنا صوب الخيمة التي عثر عليها مرافقي فوصلناها في ساعة من الوقت، وجلسنا أرضًا وأكلنا بعض الخبز وكنت مسروراً عندما علمت من الرجال أن قافلة كبيرة ستمر بنا ليلاً في طريقها إلى كاف لجلب الملح. وبعد تناول العشاء تحدثنا واتفقنا على أنه إذا أمكن ضمي إلى القافلة فسأذهب معهم إلى كاف. كانت ليلة مقمرة، وكنا نجلس حول النار عند مدخل الخيمة عندما أقبل علينا رجل ليقول: إنه سمع صوت أجراس الجمال. ويبدو أنها القافلة، وقد كان الأمر كذلك.

لقد تم بسرعة تحميل أمتعتي على الجمل وامتطيته بعد ذلك، وقاده رفيقي إلى قلب الصحراء. وعلى ضوء القمر كنت أرى كتلة سوداء تُقبل علينا وكانت تلك الكتلة هي القافلة الموعودة. وسرنا مسافة ربع الساعة، ثم توقفنا في انتظار هذه القافلة. جاءنا بعد قليل بعض العرب يمتطون صهوات الخيل وابتدرونا قائلين: من أنتم؟ وماذا تريدون؟وقمنا بالإجابة عليهم. ثم وصل القسم الأول من القافلة وهو يتكون من أربعمائة جمل، ثم مر علينا القسم الثاني والثالث ثم القسم الأخير، وكان كل قسم يتكون من الخيالة المسلحين بالحراب، والبنادق، والسيوف والمسدسات. كان مرافقي يصيح بأسماء رجال يعتقد بأنهم في القافلة كلما مر فوج منها ومرت الأقسام الثلاثة الأوائل من القافلة ويبلغ تعدادها ستمائة جمل ولم يرد أحد على مرافقي. وفي القسم الأخير من القافلة تعرف مرافقي على بعض الرجال وبعد تبادل أسئلة سريعة عمن أكون وإلى أي جهة أقصد. وُضعت مع أمتعتي على جمل آخر، وأصبحت بسرعة جزءا من تلك الكتلة المتحركة صوب قرية كاف.

لم يتم الاتفاق حول كم سأدفع أجرة الجمل الذي يقلني، وكم سأدفع للأكل والماء. لقد انضممت إلى القافلة في التاسعة إلا ربعاً مساء وكان من المفترض أن تستغرق الرحلة أربعة أيام ونصفاً. واصلنا السير، ودخلت في مناقشة مع بعض الرجال الذين كانوا بجانبي، فأكدوا لي أنه يجب علينا أن نأخذ الرحلة على مراحل لأن الجمال وهي محملة بالقمح والشعير الذي ستتم مقايضته بالملح والتمر، لابد لها من أخذ قسط من الراحة، لأنها لا تستطيع السفر لمدة طويلة دون التوقف من وقت لآخر. ولكنني سريعاً ما اكتشفت أن ماقالوه كان كذبا وقد ذكرت لهم ذلك فيما بعد فردوا قائلين: "أردنا أن نخفف عنك الأمر، إذ ينبغي ألا تركب وأنت مثقل بالهموم والقلق". . وواصلنا الرحلة طوال الليل كله، حتى السادسة والنصف صباحاً من اليوم الثاني حيث توقفنا وقال لي رجال القافلة: "يمكنك أن تنام، فالقافلة ستتوقف لمدة ساعتين". تمددت على الرمال، وغطيت جسمي بالعباءة العربية، التي اقتنيتها ونمت نوماً عميقًا، ولكنهم أيقظوني بعد ربع ساعة وقال لي أحدهم "انهض فإن القافلة قد تحركت". وبالفعل أيقنت أنهم قد ذهبوا وقفزت فوق الجمل ولحقنا بهم مواصلين السير بعد عشرين دقيقة فقط من نزولنا للراحة. استمرت مسيرتنا بلا توقف حتى الخامسة والنصف بعد الظهر، حيث أنيخت الإبل، وسرت إشاعة أن القافلة سترتاح لساعات، ولكن وبينما كان الرجال ينزلون ما على ظهور الإبل أرضًا صاح رجل: "إن العرب يقتربون". وتطلعت إلى الأفق لأرى هضبة عالية أمامنا وعليها حوالي عشرة رجال راكبين. وقفز بعض خيالة القافلة على جيادهم، وانطلقوا صوبهم. لقد فر الخيالة وتبعهم خيالة القافلة، وبالرغم من أنهم كانوا ينطلقون بسرعة فقد أطلقوا نيران بنادقهم فأصابوا واحداً من المعتدين في ذراعه فسقط رمحه. واعتليت تلاً مجاوراً لأراقب

المعركة وكان رجالنا يتفوقون على المعتدين، وعادوا بعد قليل بهم أسرى. ولما كان عددهم أقل من رجال قافلتنا فقد ألقوا أسلحتهم وكانوا من قبيلة كبيرة تسكن على بعد حوالي ميل واحد منا. لقد أجبرهم الرجال على العودة معهم. وصدرت التعليمات للقافلة بالتحرك بعد تحميل الإبل وبدأ السير مرة أخرى بعد ربع ساعة فقط من الراحة. ودس رجل في يدي كسرة خبز جافة بينما نحن نتحرك وبدأت أقضمها، وكان الأسرى يسيرون معنا في القافلة ووضعوا في منتصف القافلة لمدة لمنعهم من الهرب واستدعاء آخرين من مخيماتهم لمهاجمة القافلة خلال الليل. ولما كانت الأرض صلبة في هذه الأجزاء لايساعد على سرعة الجمال فقد ترجلت لفترة، وذلك لطرد النوم من عينيّ وتدفئة جسمي. وفي الصباح لم نتوقف، وسُمح للأسرى بالعودة إلى حيث أتوا، إذ لم يعد هناك خطر على القافلة منهم أو من جماعتهم.

أشرقت الشمس ولكننا واصلنا السير، وعند الساعة العاشرة صباحاً صاح بي أحد الرجال قائلاً: "انظر النخيل إنها قرية كاف، وسندخلها بعد قليل". عند الساعة الحادية عشرة صباحاً تقريباً دخلنا كاف وانتهينا إلى ميدان تحيط به المنازل، أُنيخت به الإبل، حيث رفعت عنها أحمالها ووضع أمامها علفها.

لقد سرنا حوالي ثمانية وثلاثين ساعة، توقفنا خلالها لمدة نصف ساعة فقط. لست في حاجة للقول: أنني متعب، وظمآن، وجائع ولكن مجرد التفكير في أنني وصلت إلى كاف ـ التي كانت أمنيتي لسنوات ـ جعلني أنسى التعب.

في غمرة الفرح، بأنني حققت أمنيتي، انتقلت من الميدان المربع الذي كان يرزح تحت هبات الرياح، وذهبت بعيداً حيث بساتين النخيل القريبة منه وبدأت أتجول في مرح وأنشد تسابيح دينية في شكر الإله، وبعدها حمدت الله. وبعد ذلك ذهبت للاستحمام في ينبوع المياه المعدنية الدافئة، ومن ثم

رجعت إلى القافلة في ميدان القرية . وقد أخذوني معهم إلى بيت صغير من الطين . جوار الميدان ، وكان صاحب البيت من معارفهم . وقدم لنا صحناً كبيراً من التمر ، أكلنا منه قدر استطاعتنا ، واستلقيت على سطح الغرفة ، ووضعت رأسي على السرج ورحت في نوم عميق ، ولم استيقظ حتى كانت الساعة تقترب من الخامسة ، والشمس تنحدر للمغيب . خرجت من المنزل فالتقيت برجال أعرفهم وقال لي أحدهم : " تعال معي إلى شيخ القرية ، وسأطلب منه أن يهتم بك " . وذهبت معه إلى القرية المجاورة وكان الشيخ يجلس خارج الدار ، مع عدد من الرجال ، ولكنه عندما رآنا نهض واقفًا وحياني . وعندما دار الحديث عني قال الشيخ : من المستحسن أن تضع أمتعتك هنا في دار الضيافة التابعة لي ، وتأتي لتسكن أنت فيها ، و أمر صبياً بأخذ حمار والذهاب لإحضار أمتعتي . وبعد ذلك سمعت طلقا نارياً فعلمت أن القافلة تستعد للعودة من حيث أتت ، بعد أن حملت ما تريد . وقد جاء رجال القافلة لوداعي وحثوني على مرافقتهم عائداً وقالوا لي : "لماذا تبقى هنا مع هؤلاء القوم الملاعين . إنهم سوف يقتلونك لأنك مسيحي" . وأخيراً مالبثوا أن تركوني وغادروا . وبدأت أرى القافلة تذهب بعيداً وأخذت أتابعها وهي تختفي بالتدريج وسط تلال الرمال ، وانتابني شعور للحاق بها ، ولكن الله منحني الرحمة والعون لمقاومة ذلك الإغراء ، فقفلت راجعاً إلى منزل الشيخ . ولن أنسى ذلك الإحساس بالضياع الذي انتابني وأنا أرجع إلى تلك الغرفة في منزل الشيخ .

كان كل ماحولي غريبًا ليس من الناحية القومية فحسب ، بل من الناحية الدينية . وكنت أعلم جيدًا أن هذا الوضع غير مفضل للمسيحيين . أما هاجس أنني المسيحي الوحيد في كل هذه المنطقة فلا أستطيع أن أصفه جيداً .

إن كاف قرية كبيرة، مقسمة إلى قسمين، تفصل بينهما بساتين النخيل، ومساكنها مشيدة بالطوب الطيني، ومصممة بحيث يمكن استخدامها في صد هجمات المغيرين، وتفتح المساكن أبوابها على ميدان كبير. يستقبل هذا الميدان القوافل ويتم فيه التعامل والتبادل التجاري. وعندما تحل فيه قافلة يموج الميدان بالحركة والضوضاء. ويأتي إليه التجار من سورية يحملون القمح والشعير اللذين يقايضونهما بالملح الخام.

إن الكافيين يستخرجون الملح الخام بتبخير المياه ذات الملوحة التي تتوافر بكثرة من ينابيع كثيرة تنتشر في المنطقة. إن كاف بلدة غنية بالمياه، وبعض ينابيعها تزخر بالكبريت، وتتصف بالدفء وتستخدم لأغراض طبية.

خلال جزء كبير من العام يهاجر سكان كاف إلى الصحراء ولا يعودون إلى بيوتهم في القرية إلا عندما يحين موسم التمر. وهو موسم يتشابه مع مواسم حصاد الحبوب في مناطق أخرى. النساء غير معزولات، وغير محجبات، ولكنهن لا يجالسن الرجال. إنهن يتمتعن بحريتهن، وهن بذلك أفضل حالاً من آلاف النساء في أجزاء أخرى من العالم "المحمدي".

لقد أسعدتني رؤية بساتين النخيل الكثيفة، وقضيت ساعات كثيرة فيها بصحبة رجال تعطفوا بمرافقتي، وفي جانب واحد من القرية، يقع جبل مرتفع، صخوره سوداء بلون الحبر، وفي قمته بقايا حصن أو قلعة حصينة سويت إلى السطح. وبالرغم من اعتراض الأهالي، تسلقت إلى القمة وعاينت الحصن، ولكنني مُنعت من أخذ بعض الصور الفوتغرافية أو تسجيل ملاحظات. وكنت أسمع عندما أتجول في القرية، وحيث يجتمع رجال كاف في مجموعات؛ الكلمة الوحيدة وهي نصراني، ولعنات مفادها أنني عدو الله والمسلمين. ولم أجرب من قبل أن أكون مضطهداً بهذه الصورة من قبل

أتباع محمد المعزولين هؤلاء، وعليه أخذت أفكر في نوع المعاملة التي سألقاها منهم.

عند وصولي إلى غرفة الشيخ وجدته هناك ومعه بعض الناس. أحضر العشاء وتم تقديمه في صحن كبير من المعدن، ولقد أكلت نصيبي دون أن أعرف بالتحديد من أي شيء يتكون، وحتى الآن ليس لدي أي معرفة عما أكلته، وكل الذي أعرف أنه كان ساخناً جداً، وخفيفاً، ودهنياً ولذيذ الطعم، مما جعله شهياً. بعد العشاء تحلقنا حول النار وبدأت عملية إعداد القهوة. . . . [يذكر الكاتب هنا كيفية عمل القهوة]. . . إن كرم الرجل يقاس بمقدار القهوة التي يقدمها لضيوفه وأدق عبارة تقال عن الرجل الكريم "إن إناء القهوة عنده يظل دائماً على النار". إن شرب القهوة عند العرب هو الترف الوحيد، فالكحوليات غير معروفة لديهم، ولم تعرف طريقها إليهم وليس لهم مشروبات محلية تحتل مكانة المشروبات الكحولية - ويبدو أنهم سيظلون لفترة طويلة على هذه الحالة.

بينما دارت فناجين القهوة، كنا نتجاذب أطراف الحديث حول إمكانية تغلغلي في هذه البلاد. اختلف الجالسون؛ فمنهم من يعتقد بإمكانية تغلغلي فيها بلا مخاوف، وبعضهم يقول: إن الخطر قائم وبكثرة، هذا إلى جانب الإعياء من مشقة الرحلة وصعوباتها. نصحني الشيخ أن أعود إلى عرمان ولكنه لم يجد وسيلة لإرجاعي. في الوقت نفسه، دخل علينا رجل ليقول إن فريقاً من العرب وصل وفي طريقه صباحاً إلى الجوف، وهي مدينة كبيرة على بعد أحد عشر يوماً إلى الجنوب الشرقي. لقد كنت ناوياً إذا تيسرت الأمور معي الوصول إلى هذه البلدة بوصفها الأكبر والأهم في الجزء الشمالي من الجزيرة العربية. ولابد من الإشارة هنا إلى أن كاف كانت تحت حكم ابن رشيد

سلطان الجزيرة العربية المقيم في حائل. أما الشيخ وكان اسمه محمد البادي، فقد أرسل يطلب حضور رئيس هذه القافلة، التي وصلت للتو. جاء رئيس القافلة مسرعاً، فأبلغه الشيخ بأنني سأذهب معهم إلى الجوف، وسأله إن كان من الممكن توفير جمل والسماح لي بالسفر معهم. ولكن الرجل رد بسرعة بعد أن أيقن أنني مسيحي قائلاً: "إذا أخذته إلى الجوف فإن جوهراً، الشيخ هناك، سيأمر بقتلي على فعلتي هذه وعليه فإنني لا أستطيع فعل ذلك".

واستدعى الشيخ رجالاً آخرين، فقدموا نفس الجواب، وقال لي أحدهم: "اذا أردت أن ترى الجوف فعليك باعتناق الإسلام، فالمسيحي لا يُسمح له بالبقاء في الجوف إلا لأيام معدودة". لقد كان ذلك مثبطاً بعض الشيء، ولكن الشيخ نصحني بالتماسك وأخبرني بأن عليّ أن "أجعل قلبي قوياً"، وسنحاولهم مرة أخرى في الصباح قبل رحيلهم. عندئذ تم التخلي عن الموضوع واشتغلت بتقديم الإنجيل.

كان بين الحاضرين رجل يجيد القراءة فأخذ الإنجيل وبدأ بالقراءة. وأريته الفصل الثالث من إنجيل يوحنا، وبينما كان يقرأ بدأت التعليق. وكثيراً ما كنت أحضر رجلاً ليقرأ حتى يطمئن السامعون إلى أن ما يسمعون هو فعلاً ما كُتب في الإنجيل. لقد علق بعض العرب على أنني أؤلف بعض الأشياء التي قرأتها لهم. لقد كان المستمعون في غاية الاهتمام والانتباه لما أقول. لقد كان كلامي جديداً عليهم.

لقد سألوني كثيراً من الأسئلة عن الدين والعادات عند المسيحيين، وأشفقوا علينا كمسيحيين لأن ديننا يسمح لنا بزوجة واحدة فقط، ولأننا لا نملك نخيلاً في بلادنا. وقبل أن نفترق للنوم، طلب مني الرجل الذي كان يقرأ الإنجيل أن يأخذ الإنجيل معه. فقلت له: "عليك أن تشتريه". فقال إنه يستطيع أن يدفع

مقابله بعض التمر إذا كنت أقبل الدفع بهذه الطريقة. فقبلت، وفي صباح الغد جاءني بشيء من التمر وأخذ كتابه وانصرف، ولقد أدى ذلك التصرف إلى بيع ثماني أو تسع نسخ من الإنجيل، إما من سِفر المزامير، أو من سِفر لوقا، أو من سِفر يوحنا وسفر التكوين.

استقيظت مبكراً، وخرجت مع الشيخ، الذي حاول جاهداً أن يقنع أفراد القافلة المتجهة إلى الجوف ليأخذوني معهم، ولكن الرجال رفضوا بإصرار. ولقد رأيتهم يحملون ويغادرون، وبدأت أحس بأن فرصتي في التغلغل في هذه البلاد تكتنفها الصعوبات. ولقد أمضيت ذلك اليوم في منازل أهل القرية وحدائقهم. وعاملوني برفق يفسدونه دائماً بأقوال قاسية عن مسيحيتي. في ذات المساء وفدت على كاف قافلة أخرى لقضاء الليلة فيها. وذهبت محاولات الشيخ لإقناعهم بأخذي معهم أدراج الرياح، وذكروا نفس السبب الذي استمعنا إليه من القوافل الأخرى في الليلة الماضية. ورأيتهم يغادرون كاف صباحاً وتساءلت هل من طريقة لخروجي من هذه القرية؟. وبعد رحيلهم جاءني محمد مضيفي ليقول لي: "طالما رفضوا كلهم سآخذك أنا إلى قرية تدعى إثرة ومن هناك ربما تجد طريقك إلى الجوف". وفي الظهر استدعى أحد خدمه ليحضر جملاً ويعد حصانه للرحلة. وتم تحميل أشيائي على الجمل واعتليت سنامه، وركب هو الحصان وبدأنا السير عبر البوابة، التي تقود إلى البلدة، وهناك، التقينا اثني عشر رجلاً على جمالهم، وكانوا شيوخاً لقبيلة تعسكر قريباً منا وجاؤوا لزيارة مضيفي. فرجعنا معهم وكان عليّ الانتظار لبضعة أيام، أو القبول بالذهاب مع اثنين من خدم مضيفي، فاخترت الخيار الأخير. امتطى الشابان الجمل وركبت أنا الحصان، وبدأنا الرحلة. عند مغيب الشمس لاحت في الأفق أشجار نخيل إثرة وكانت المسافة



استراحة القافلة في بلدة كاف (فوردر، ١٩٠١م)



شيخ كاف

بين القريتين تستغرق أربع ساعات. لاحظت أن الشابين أناخا الجمل بعد أن نزلا منه مرتين كأنهما يعدلان وضع الحمولة على ظهر الجمل ولكنني اكتشفت أخيراً أنهما قاما بدفن كل أغراضي الشخصية في الرمال. وعندما رجعت إلى كاف بعد حوالي ثلاثة أشهر سلمني شيخ كاف كل أغراضي التي أخفاها الشابان. حيث أخبر الشابان سكان القرية ما فعلاه بي، وكيف عاملاني فأمرهما بإعادة أشيائي إليّ، وعنفهما على معاملتي بوصفي ضيفه السابق.

إن قرية إثرة أصغر من كاف بكثير، ولها شيخ وسكانها بين ستمائة إلى ثمانمائة نسمة. وهي تشبه غيرها من الاماكن التابعة لجبل شمر، مبنية من الطوب الطيني، ومحاطة ببساتين النخيل، ويتوسطها ينبوع ماء يمد السكان والحيوان بماء الشرب. وكل المنازل تتكون من غرفة واحدة كبيرة، وكثير منها بلا أبواب ولا أثاث. ولاحظت وجود أطلال مبنى قديم في وسط القرية، مشيد بالبلاط والحجارة المنحوتة في غير تناسق، وسوداء اللون، واستنتجت أنها كانت في الماضي مبنى للحراسة، فيها أماكن فسيحة للحراسة والحيوان. وقد حولت بعض الغرف في تلك الأطلال إلى مساكن ومستودعات، وهي أكثر ثباتاً من المباني الجديدة. ولاحظت هنا أن النساء يتمتعن بحرية، ويتجولن سافرات الوجوه.

إن غرفة ضيافة شيخ إثرة كانت قريبة جداً من المدخل الرئيس لهذه القرية. وظللنا ركوباً حتى وصلنا إلى باب غرفة القهوة، حيث ترجلت وتم إنزال أمتعتي القليلة عند المدخل. ودخل الشاب الصغير الذي أتى معي من كاف للغرفة وصرخ قائلاً للجالسين في الغرفة: " لقد جئتكم بالنصراني فأدخلوه معكم وافعلوا به ما شئتم". بهذا الأسلوب أودعني الشاب لا إلى شخص بعينه، بل لأي واحد منهم، بينما العرف المعمول به أن يسلم الأجنبي للشيخ

شخصياً، وبهذا الأسلوب، لم يكن هناك شخص معين مسؤولاً عني. حملت أمتعتي إلى الداخل ووضعتها في ركن من الغرفة. لم يكن هناك ترحيب بمقدمي، ولم يفسح لي أحدهم مكاناً وتُركت واقفاً عند مدخل الغرفة. كانت الغرفة مكاناً كبيراً ثلاثين قدماً في الطول وخمسة عشر قدماً في العرض، وذات مدخل في واحد من الجدران، وكانت غرفة الضيافة هذه كالعادة، خالية من وسائل الراحة. وأرضها مغطاة بالرمل الذي كان يجلس عليه ثلاثون رجلاً القرفصاء. وجلس يسكب القهوة ويوزعها عليهم رجل أسود ذو عيون حادة، ووجهه كأنه وجه شيطان. كانت تستخدم الغرفة لاستخدامين: فالجزء الواقع إلى يمين الباب يستخدم للرجال والزوار، والجزء الذي يقع على اليسار كان يستخدم كإسطبل للخيل، وكان قذراً بشكل مقيت. وكانت به خيول لبني صخر، الذين جاؤوا لقضاء بعض أعمالهم وتعين عليهم قضاء الليل هنا.

وبينما ظللت واقفاً في المدخل بانتظار دعوة لي من الجالسين لأنضم إليهم، سمعتهم يخمنون حول من أكون؟ ومن المؤكد أنهم ظنوا أني لا أعرف اللغة العربية، ولذلك لن أفهم مايقولون. وأخبرهم رجل يجلس بجواري، أنني مسيحي من بيت المقدس ويجب أن يبتعدوا عني، وأنه زار بيت المقدس ووجد أن المسيحيين - غير بروتستانت - يعبدون الصور والخيالات. وكان هذا للأسف صحيحاً لأنك ترى ذلك في الكنائس التي تنتمي للطوائف الشرقية المسيحية. واختلف معه رجل يجلس في جانب آخر وتطوع بتقديم معلومة "أنني لست مسيحياً، ولكنني واحد من اليهود" وثالث ادعى أنه يعرف أكثر وتحدث بصوت مرتفع قائلاً: "أنني لست مسيحياً ولا يهودياً بل وثني كافر لا يعرف الله ولا نبيه محمداً عليه السلام". - لم تقنع هذه المعلومة الأغلبية الجالسة

من الرجال، ووقف رجل آخر ليقول بصراحة ووضوح وقال: "هذا الرجل ليس مسيحياً، ولا يهودياً، ولا ملحداً، ولكنه خنزير".

إن كل من يعرف أي شيء عن المسلمين يدرك أن هذا الكلام هو أكبر إساءة يمكن أن تلحق بأي إنسان. فإنك إذا أطلقت على رجل كلمة كلب يكون ذلك سيئاً للغاية وسبباً كافياً لخلق عداوة تدوم طيلة الحياة، ولكن أن تشبهه بخنزير فلن يغفر لك أحد، وربما أدى ذلك إلى الموت. وبعد أن أدلى هذا الرجل حكمه عليّ غادر المكان، ربما خائفاً من فداحة ما قال. وعندها دخل شيخ القرية الذي سمع الكلمات الأخيرة للمتحدث الأخير، وما تجرأت على ذكره في ردي على الاتهامات من " أنني لست خنزيراً، ولا ملحداً، ولا يهودياً. ولكني مسيحي أعبد الله الذي تعبدون، ولست من أولئك المسيحيين الذين يعبدون ويركعون للصور والرسوم والخيالات، ومثلما تختلف أصابع اليد الواحدة، يختلف المسيحيون". وعندها خاطبني الشيخ العجوز قائلاً: "إذا كنت مسيحياً فعليك أن تجلس بين البهائم". وامتثلت لأمره، وجلست بين جمل وفرس عجوز بيضاء اللون.

لم أجلس بين البهائم طويلاً إذ أقبل رجل تأكدت من ملابسه أنه غريب. واتجه نحوي ماداً يده وصافحني، وأيقنت أنه لم يصافحني أحد في حياتي بمثل هذه الحرارة التي أعربت عن المشاطرة والشفقة، والمواساة. وجلس بجانبي وتابع بمحادثة قصيرة ومفيدة في لهجة منخفضة، فقال لي:

الغريب - من أنت، ومن أين جئت؟

الجواب - من القدس، وأنا مسيحي، راهب.

الغريب - ماذا تريد هنا؟

الجواب - جئت لمشاهدة هذه البلاد، والناس، والمدن والقرى، ومعي كتب للبيع.

الغريب - إذا كنت تقدر حياتك، فعليك مغادرة هذه البلاد وبأسرع فرصة تستطيع، وإلا قتلك هؤلاء الأشرار.

وسألته : أي نوع من الرجال رئيسهم؟

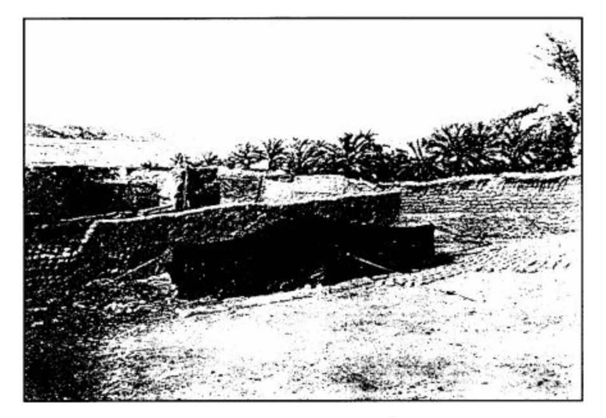
الغريب - إنه رجل عطوف جداً وله نفوذ كبير يحس به الكثير من ضيوفه.

سؤال - من أنت وماذا تفعل هنا؟

الغريب - أنا من الدروز، وأملك الدكان الوحيد هنا، وقد سمحوا لي بالإقامة لأنني تظاهرت بالإسلام.

وأنهى الرجل حديثه معي ونهض واقفاً وخرج ولم أره بعد ذلك خلال إقامتي القصيرة هناك.

وانتبهت لأسمع ما يقول الرجال في الركن القصي من الغرفة. لقد سمعتهم يناقشون مع الشيخ خططاً للتخلص مني. وعرض أحدهم قطع عنقي بينما أغط في نوم عميق. ولكن الشيخ العجوز قال: "لن أسمح بإراقة دم مسيحي في بيتي وفي قريتي". واقترح آخر وضع السم في طعامي، وبهذا يتم تحاشي قتلي لأني سأموت أثناء نومي، ويتم دفني، وإذا سأل أحد أو حكومتي عني يمكنهم أن يروا لي قبراً، وحتى إذا اضطروا لفحص جثماني فلن يكون هناك ما يدل بسهولة على قتلي. اعترض الشيخ على الاقتراح الأخير، واقترح أن أطرد إلى الصحراء حيث الاحتمال أن أموت جوعاً أو عطشاً. وأخيراً استقر الرأي على أن يعلق أمري حتى الغد، وقال الشيخ العجوز: "خوفاً من أن يحدث ضرر لبهائمنا لوجود هذا المسيحي بينها، أرى



بيت الشعر الذي عُزل فيه فوردر في قرية إثرة (فوردر، ١٩٠١م)



زوجة شيخ إثرة (فوردر ١٩٠١م)

أن ينام في البساتين تحت أشجار النخيل" . وجاؤوا بالعشاء، وبعد أن أكل الجميع استدعوني للأكل، وجلست أمام الصحن المستدير الكبير، ولما كنت جائعاً بدأت آكل وأستمتع بخلطة مجهولة الهوية ناقلاً إياها إلى فمي عن طريق أصابعي بدلاً من ملعقة أو شوكة، وهما غير معروفتين هنا. وعندما رأيتهم يأكلون من ذات الوعاء ونفس الطعام زالت مخاوفي من أن يكون الأكل مسموماً. ثم استدعوني لأتبع الشيخ الذي قادني إلى البساتين التي تقع في مكان قريب. وجلست تحت شجرة نخيل كبيرة، ووطنتُ نفسي على أن أنام في العراء. وبعد قليل رجع إليّ الشيخ ليقول: " أخشى إذا قضيت الليل تحت شجر النخيل أن تؤثر على محصولي لهذا العام، ويصيب النخيل نحس منك فيفسد المحصول، تعال معي"، وانطلق إلى الأمام وتبعته، وكان الليل قد أرخى سدوله وأوشك أن يظلم. وأشار الشيخ إلى خيمة معزولة تقبع تحت ظلال جدران متهالكة. وقال الشيخ: "ادخل هناك وابق مكانك"، وقد فعلت. داخل الخيمة رأيت رجلاً عجوزاً يعاني من مرض عضال أشبه ما يكون بالجذام، وكان العجوز في حالة سيئة، وكان عدائياً. وأخبرني أنه لم يعد يحتمل العيش في القرية، ولذلك تم عزله حتى يحين أجله، ويرتاح إلى الأبد مما يعاني. وأحسست فعلاً بأن هذا هو الوقت الذي أحتاج فيه إلى الشجاعة والمساعدة، ومن خلال قراءتي المستمرة حفظت غيباً المزمور الديني رقم ١٢١ من سفر المزامير. واعتمدت على الفقرة السابعة [الرب يحفظك، من كل شر يحفظ نفسك] كما لم أعتمد من قبل. وفي صباح الغد استيقظت مبكراً، وانتظرت ما يأتي به هذا اليوم، ولم يقترب مني أحد، ولم أعد أعرف أين أغراضي وكل ما كان معي هو إنجيل الجيب، وكل ما قرأت كان هو المزمور الذي ذكرت وهو المرقم ١٢١ . وقبيل الظهر رأيت عدداً من الرجال مع الشيخ

العجوز الذي كان اسمه خويخان [المذهن]، وكانوا يمرون أمام الخيمة وتبعتهم دون أن يلحظ ذلك أحد. وجلسوا أرضاً يتكلمون ولم يحسوا بأنني كنت قريباً وأسمع ما يقولون. وخرجت من الاستماع إليهم بثلاثة أشياء:

أولاً: إعداد قافلة تتجه إلى الجوف في يوم الجمعة القادم، وكان اليوم الأربعاء عندما اجتمعوا.

ثانياً: الشيخ العجوز سيرأس القافلة شخصياً.

ثالثاً: المجموعتان اللتان غادرتا كاف قد تأخرتا لسبب أو لآخر، وقد تقرر قيامهما مع هذه القافلة المقترحة يوم الجمعة.

لقد شعرت بالسرور لسماع هذه الأفكار، وقررت الحديث مع الشيخ ومواجهته بما سمعت. وبعد ما تحرك الرجال بعيداً، تبعت خويخان وتحدثت معه قائلاً: "أنت ذاهب إلى الجوف، فهل تأخذني معك؟". نظر إلي باستغراب وقال: "لن تغادر هذا المكان حياً، وإذا قدر لك ذلك ووصلت الجوف ستقتل هناك بكل تأكيد. إن هذه هي بلاد المسلمين. ولا ينبغي لمسيحي أن يأتي إليها. أنت من أعدائنا وأعداء الله". فرددت عليه قائلاً: "سأدفع لك لتأخذني معك، وأنا مستعد لمقابلة الجوف ومخاطرها". وكان جوابه: "وهل تعرف كم تبعد الجوف؟ إنها على بُعد عشرة أيام، إن الرحلة عبر الصحراء، وأخطار قطاع الطرق، والجوع، والعطش، والإرهاق، كلها عوامل ستعصف بحياتك". ومرة أخرى أكدت له أني مستعد لمقابلة كل ذلك وسألته: "كم تطلب من المال لتأخذني معك؟ لتأخذني في رحلة الأيام العشرة، وفي رحلة العودة، وتجهز لي جملاً، وأكلاً، وماء للرحلة، وتساعدني بما وسعك أثناء وجودي في الجوف؟". وكانت إجابته مختصرة

وحاسمة عندما قال: "جنيهان إنجليزيان في اليوم الواحد"، وهي تعادل عشرة دولارات. وإذا ما حسبنا ذلك على أساس عشرة أيام ذهاباً وعشرة أيام إياباً، وإذا أضفنا إليها خمسة عشر يوماً للإقامة، فسيكون مجموعها خمسة وثلاثين يوماً، ويصبح المبلغ سبعين قطعة ذهبية إنجليزية، وعليه سآخذك معي إذا دفعتها". ولكنني أخبرته أن هذا مستحيل والمبلغ أكثر بكثير مما أملك وعليه أن يخفض المبلغ وقال لي: "إذا لم يكن لديك المبلغ فعد من حيث أتيت". وعليه عدت إلى الخيمة المعزولة. لقد كنت في غاية التأثر لما أمرني الله أن آتي إلى إثرة في الوقت الذي جئت به. فأن تجد رجلاً مثل خويخان على وشك الانطلاق ليقود قافلة إلى الجوف، لقدر من الإله، كما هو الأمر بشأن الجماعات التي رأيتها في كاف وتأخرت في إثرة. لقد شعرت بأنه يتعين عليّ الآن أن أعمل شيئاً، وعندما عدت إلى الخيمة بدأت بالصلاة والتأمل واهتديت إلى أن أقدم مالاً للشيخ ولكن ليس في حجم ما يتوقع. وكان لدي قطع ذهبية فرنسية تساوي أربعة دولارات لكل واحدة، وكنت قد خطتها في أحزمة سراويلي، وبعد استخراج أربعة منها ذهبت للشيخ، وعندما وجدته وحيداً في غرفة الضيوف دفعت نحوه بالقطع الذهبية وأنا أقول: "إذا سمحت لي بالذهاب معك إلى الجوف، وهيأت لي جملاً، وماء، وأكلاً، فسأعطيك هذه القطع الذهبية الأربع". نظر الشيخ إلى القطع الذهبية ونظر إليّ قائلاً: "أعطني هذه النقود الآن، وسنبدأ الرحلة بعد غد. فقلت له: "لا، تعال معي إلى الخارج، وسأعطيك هذه القطع أمام كل الرجال حتى يكونوا شهوداً". لقد خشيت أن ينكر أنني أعطيته المبلغ. وبالفعل خرجنا وفي حضور رجال إثرة أعطيته المال، وأجريت معه الاتفاق. وقد سمح لي في تلك الليلة بالنوم في غرفة الضيوف، وكان يقبع بجانبي جمل، وبالجانب الآخر حصان،

وكنت أخشى أن يدوس عليّ الحصان وأنا نائم على الأرضية. على أي حال نمت نوماً هادئاً، وفي الصباح استيقظت لأجد المكان خالياً. ذهبت إلى ينبوع الماء القريب مني واغتسلت وكان ذلك أول اغتسال لي منذ عدة أيام، ثم ذهبت بحثاً عن الرجال والتقيت بامرأة اتضح لي أنها امرأة خويخان، وكانت كريمة فدعتني إلى منزلها ودخلت فقدمت لي تمراً وخبزاً ساخناً ولبنًا حامضاً ونلتُ بذلك إفطاراً سخياً. ولقد تحدثت المرأة معي حديثاً طويلاً، وأبدت تعاطفاً معي، وشفقة عليَّ لأنها تعتقد أنني هربت من أهلي وعشيرتي وجئت لأحتمي بالعرب. وقالت لي: "أخبرني ما هي الجريمة التي ارتكبتها؟ أو من قتلت ؟، ما الذي اضطرك على الهرب؟". وأخبرتها بالسبب الحقيقي لحضوري إلى إقليم الصحراء العربية ولكنها لم تصدق المسكينة، بأن رجلاً يترك زوجته، وأطفاله، ووطنه، وبلاده، ليعيش مثل هذه العيشة، ويعاني مثل هذه المعاناة ليحدث الناس عن المنقذ المسيح. وسألتها عن الرحلة المزمعة، فأخبرتني بأن زوجها يقوم بمثل هذه الرحلة مرة كل عام، وقد آن آوانها. إنه يأخذ الضرائب السنوية من هذا الإقليم، ويقوم بدفعها إلى شيخ الجوف الذي بدوره يرسلها إلى العاصمة حائل، وقالت لي: " إن الرجال المسافرين معه ملعونون"، ولكن لن يصيبني منهم أذى طالما أنني في معية خويخان، وتحدثت معها عن نفسها فردت كالمعتاد: "نحن النساء لسنا أفضل من جمالنا وحميرنا، ليست لنا قيمة، وعندما نموت تكون تلك نهايتنا".

وعلمت أن الرحلة ستبدأ قريباً فلم أهتم كثيراً.

سمعت أذان الظهر فعدت إلى المنزل وعند الانتهاء من الصلاة سمعت هرجاً وحركة دائبة، وأقبل رجل يقود جملاً وقال لي: "ضع أغراضك عليه بسرعة لأن القافلة ستتحرك الآن". وضعت أمتعتي وقفزت فوق الجمل

وتحركت خارجاً من القرية . وهناك التقيت الشيخ الذي أمر أحد رجاله بإحضار عصاً لأهش بها على الجمل، لتوجيهه لعدم وجود مقود أو لجام له . وانزلقت أمتعتي من على ظهر الجمل، وانزلقت أنا أيضاً ونحن في بداية الرحلة لأنهم لم يحكموا رباطها، فأرسل الشيخ إليَّ رجالاً ليحكموا رباطها، ولحقت بالقافلة . كان تعداد القافلة كما عددتها مائة وعشرين جملاً وعليها حوالي ثمانين رجلاً . كان بعضهم يبدو شرساً ولا يخلو من جلافة . وتجمعوا حولي بخناجرهم وبنادقهم وهم يرددون نفس الألفاظ العدائية عن المسيحيين . وقالوا لي مهددين إنني يجب ألا أصل الجوف وأنا على قيد الحياة، وإنهم سوف يتركونني جثة هامدة على الرمال . وبدؤوا يمجدون الإسلام وأخبروني بضرورة تغيير ديني إذا أردت العيش في بلادهم . إن بداية رحلة الجوف لم تكن مشجعة ولا مطمئنة من منظور إنساني، ولكني كنت أحس إحساساً قوياً بأن الله معي، وما أبرمته من اتفاق، وما أعددته للرحلة لقاء أجر زهيد، جعلني أعتقد بأن كل شيء سيمر على مايرام . إنني لم أتجاهل المخاطر التي كانت ماثلة أمامي، ولكنني اعتمدت على وعدهم بألا يعتدوا عليَّ . لقد غادرنا إثرة حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر، وسرنا حتى غروب الشمس . وقبل الخامسة صاح أحدهم : "انظروا إلى الخلف"، وبالفعل كانت هناك جماعة من البدو تركض بعزم نحونا وكانوا مجموعة شرسة من قطاع الطرق . فجمعت الإبل في مكان واحد، و أنيخت لتكون ساتراً للرجال، وجاءني الرئيس ليقول : "لأنك معنا تحدث لنا مثل هذه المشاكل وفي اليوم الأول لرحلتنا" . وأمرني بأن أرقد أرضاً وأتخذ لي ساتراً بين الإبل حيث كان يخشى أن تصيبني رصاصة لأن قطاع الطرق بدؤوا برمينا بالرصاص . لم أهتم لذلك ولم أقبل أن أرقد أرضاً كما اقترح وأخبرته بذلك لأنني رأيته وضعاً غير

محترم. وأكد لي أنه يخشى أن أُقتل ولعن اليوم الذي رآني فيه. لقد نشبت معركة مثيرة بين رجالنا في القافلة والأعداء، وأظهر بعض رجالنا مهارة فائقة، هنأتهم عليها لاحقاً، وكسبت صداقتهم بعد ذلك. وتقهقر قطاع الطرق وولوا الأدبار. وصدرت الأوامر بأن نقضي الليل حيث دارت المعركة. وكان عشائي من التمر والخبز الغليظ الدافىء، أكلته واستلقيت على الرمل ونمت. وظهر اللصوص مرة أخرى ولكنهم صدوا مرة ثانية.

في اليوم التالي، تحركنا في الصباح الباكر وبعد قليل وصلنا إلى ينبوع ماء مالح فملأنا منه القرب وتحركنا بسرعة. إننا دائماً لا نطيل المكوث أمام موقع الماء، لأن وجود عرب آخرين غير ودودين قد يؤدي إلى الاحتكاك والعراك. ومعظم الخلافات الدامية بين البدو، سببها الماء والتنافس حول الآبار والينابيع. وفي تلك الليلة شربنا كل الماء التي أخذناه من الينبوع، على أمل أن نجد ينبوعاً آخر في اليوم التالي، ولكننا لم نجد عين ماء لمدة خمسة أيام، فأصابنا الكثير من الظمأ. وفي مساء اليوم الخامس، شجعت الرجال على البحث عن الماء، وانتشروا في مختلف الاتجاهات وشوهد أحدهم يلوح بعباءته من فوق رأسه دليلاً على أنه نجح في العثور على ماء. وانطلقت الجمال صوبه، وقمت بقيادة من تخلف وعندما أدركت مكان الماء رأيت عشرة من الرجال جاثمين على الأرض ينبشون في الرمل تماماً مثلما تفعل الكلاب. فسألتهم عن الماء، وجاء جوابهم: "انتظر قليلاً أنت رجل مدن لا تعرف شيئاً عن البرية، نحن أبناء الصحراء، ونعرف كيف نتصرف". وبدؤوا يحفرون لعمق ثلاثة أقدام، ثم لخمسة أقدام ولم يظهر الماء. ثم وبدلاً من الرمل بدأت تظهر الحجارة، وبعدها ظهر السائل الذي لا يقدر بثمن والذي طال انتظارنا كلنا له. ظهر الماء، و أُعطي كل رجل شربة ماء، وكان الرجال مشفقين عليّ

فأعطوني أول شربة ماء، لمعرفتهم أنني لا أقوى على مثل هذه الشدائد، وكان الماء يحمل إليّ في طواقيهم المتسخة التي لم تعرف الصابون منذ أن استعملت للمرة الأولى، ولم تتعرض للهواء النقي لأنها مشدودة على الرؤوس، ومغطاة بمنديل كبير يغطي الرأس. ولم يكن هناك وقت لأي شيء، فقد كنا كلنا في حاجة لشربة ماء، ولا سبيل للسؤال كيف حمل إليك الماء، أو في أي إناء؟، المهم أن يصل الماء إلى أفواهنا من منبعه وبأسرع فرصة. أما كوبي وإنائي المنقوش الجميل الذي يتناسب مع هذا الموقف، فقد سرقهما متلهف لجعل هذا المسيحي مجرداً من أدواته النافعة وتركه بلا حول ولاقوة، شبه عاجز. بعد أن شربنا الماء أعطونا التمر بدلا عن الخبز، وتم إعداد العجين وانضاجه على الرماد الساخن فوق الرمل وعندما رفع من الفحم الساخن تم تقسيمه. وفي بعض الأحيان عندما تكون القسمة غير عادلة فإن حصتي تكون صغيرة. وأذكر أنه في إحدى المرات تسلمت حصة صغيرة جداً، وعندئذ تذكرت أني أحتفظ في شنطة السرج ببقايا خبز أخذته من عرمان منذ ستة عشر يوماً، وأخرجته بقصد أكله، ولكنه كان يابساً ولمعرفتي بأن العرب لايحبون رمي الخبز على الأرض فإنني بللته بالماء وأطعمته الجمل، وقد فعلت ذلك وكنت لا أعتقد أن أحداً قد رآني. وفي الصباح التالي صنع الخبز ووزع على الجميع كالعادة ولم أعط شيئًا، ولم أطلب شيئاً، لأن هذا خلاف للعادة. وبدأنا يوماً آخر. أسفت على إعطائي الجمل ذلك الخبز الجاف إذ كان سينفعني، لأنني كنت جائعاً، وكان من الممكن أن أبله وأسكت به نباح الجوع، ولكن لقد فات الأوان. لم يكن يخطر ببالي أن إطعام الجمل ذلك الخبز الجاف سيحرمني من الخبز لليوم التالي. لقد رآني بعض الرجال وانا ابلل الخبز الجاف وأعطيه الجمل، وظنوا أنني رجل مبذر. أخبرت الشيخ بحقيقة

القصة، ولكنه اعتقد أنني أشارك الجمل من حصتي، وأبدد بذلك مالديهم من دقيق في التصدق على الجمل. وعندما سألت الرجال الذين يصعنون الخبز لماذا لم يعطوني كانت الإجابة: "إن المسيحي يطعم جمله خبزاً، وهو رجل مبذر ولن نعطيه من خبزنا". حاولت شرح ذلك ولكنها غلطة يصعب التغاضي عنها. وتعلمت درساً لن أنساه، ولن أنسى تلك الليلة التي أعقبت ذلك اليوم. أنخنا بالقرب من شجر نخيل بري وجيء بالماء من ينبوع قريب على بعد نصف ميل. وكانت الريح شديدة كل اليوم، ولكن عند المغيب هبت رياح من الجهة الشمالية الشرقية وحركت الرمال في كل اتجاه، وأصبح إشعال النار مستحيلاً، لأن الريح تدفع بها في الاتجاهات الأربعة. وأقام الشيخ حاجزاً من أكياس القمح ليحمي النار ولكن خطته لم تفلح، ولم نجد فيها حماية إلا عندما أصبح الصبح، حيث قلت حركة الريح عندما أشرقت الشمس، ولكن شعرت ببرد شديد، وبدأت أمشي لأحس بالدفء، ومشيت لمدة ساعتين. لقد كنا في آخر مرحلة من رحلتنا والكل كان مشتاقاً ليصل إلى الجوف. عدا التعب الذي نلناه في الرحلة، كان كل شيء على ما يرام. إن سلوك الرجال نحوي قد تحسن كثيراً، ولكنهم لن يدعوا فرصة تمر دون أن يخيفوني لأنني مسيحي، وفي وضع خطر. لقد رأينا عظام جمال على الرمال، ومرتين رأينا هياكل بشرية. ذات يوم مررنا على جمجمة بشرية، فأراد الرجال أن يثيروا اهتمامي فقالوا: "إنها لمسيحي - واحد مثلك غامر بدخول أراضي المسلمين، ولكنه هلك في الصحراء، وتركت بقاياه عظة وعبرة لكل مسيحي يحاول دخول أراضي المسلمين. وهكذا سيكون مصيرك"، وكانت هذه هي الضمانات التي قدموها لي.

وفي الليلة الأخيرة ونحن في الخلاء في طريقنا إلى الجوف، استيقظت

مبكراً قبل انبلاج الفجر، وقمت بغلي قليل من الماء لأصنع لي كأساً من الشوربة قبل التحرك لاستئناف الرحلة. وفي ذلك الصباح، لم يفكر رجال القافلة في الطعام لأن الرحلة أوشكت على الانتهاء. وبعد أن أخذت إبريق الشاي لأعلقه على سرج البعير اكتشفت أن به ماءً سعة كأس من الشاي وحانت لي فرصة لأغتسل أو أغسل وجهي ويدي من الغبار العالق بهما. وكنت أظن أن لا أحد يلاحظني ولكن كل العيون كانت تنظر إليّ. وعندما طلبت شربة ماء بعد فترة من هذه الحادثة قالوا: "إنك تستعمل ماء الشرب للاغتسال، فلا حاجة لك بها للشرب". وحاولت شرح ذلك ولكن بلا جدوى، لقد اقترفت إثماً كبيراً ولامجال للغفران. وبعد فترة قليلة رأيت كل الرجال يفرغون قرب الماء ويسكبونها على الرمال، إن ماسكبوه من ماء على الرمال قليل منه يروي ظمئي. وعلى مدى النظر بدأت تلوح نخيل الجوف وخلفها القلعة الدائرية القديمة، التي لايعرف مدى عمرها أحد والتي مُنعت من الاقتراب منها لاحقاً لعدة أسباب.

وفي حوالي الساعة الرابعة، دخلنا هذه المدينة المعزولة في الصحراء، والتي تحيط بها الصحراء من كل جانب، واستضافونا في غرفة الضيوف الواسعة التابعة لأبناء شيخ الجوف الثلاثة، الذي كان يسمى جوهراً أو أبا عنبر. حال أن شاهدنا القلاع القديمة، رأيت عدداً من الرجال والنساء والأطفال حضروا لاستقبال أقربائهم وأصدقائهم، الذين وصلوا بعد رحلة عبر الصحراء تعرضوا فيها للتعب والمخاطر. لبعض الوقت، تركز اهتمام المستقبلين في السلام والترحيب بأقربائهم وأصدقائهم، الذين غابوا عنهم طويلاً، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أن بين العائدين رجلاً غريباً لم يرحب به أحد. لقد سمعت بعض العبارات الموجهة لي أمثال:

"لعنه الله"، "عدو الله والنبي"، "نجانا الله منه". "الكافر النجس"، وكانت من مختلف الطبقات لاسيما من النساء والأطفال.

لقد كنت مهتماً بالأبراج القديمة المبنية من الطين، التي رأيتها في كل الانحاء عندما دخلت الجوف من الشمال. وأخيراً علمت أنها شيدت للدفاع عن المدينة. لقد كان من الصعب التقاط صور لها لأنني كنت مراقباً بانتظام. لقد ركبنا وسرنا على طول الواحة الصحراوية الجميلة، وقد لفت انتباهي وإعجابي منظر آلاف النخيل الجميلة المزدهرة.

إن مدينة الجوف تمتد لميلين طولاً ونصف ميل في العرض. والمساكن معظمها مختبىء خلف النخيل مما يعطيك انطباعاً أن الجوف قليلة السكان، لكنني علمت من الشيخ مؤخراً أن الجوف يسكنها أربعون ألف نسمة. إن المساكن مشيدة من الطين والطوب الرملي المجفف تحت أشعة الشمس عدا القلعة. وبعض المنازل فإنها مكونة من ثلاثة أدوار ومبنية بالطبع بطريقة بدائية، وكل السقوف مسطحة ومحمية بجدران قصيرة. غالباً ماتبقى النساء في حماية هذه الأسطح بعيدات عن أعين الناس، أما داخل المنازل فلا تجد إلا الهاون الذي يسحن فيه البن، وحصيرة أو حصيرتين قديمتين، وكل المنازل بلا أبواب لندرة وجود الأخشاب. ويعيش الناس في الغالب الأعم خارج المنازل، وفي فصل الصيف حيث ترتفع درجة الحرارة يبحثون عن ظل تحت شجرة نخل أو مجموعة من أشجار النخيل، وفي الشتاء والبرد تراهم يسعون للدفء تحت أشعة الشمس في الرمال.

إن الأمطار نادرة في الجوف. وأخبروني أنها تهطل ثلاث مرات في العام. أما الإمداد بالماء فجيد، لأنه يسحب من ينبوع عميق في الأرض. وهناك ينابيع كبريتية دافئة يستعملها الناس لأغراض الاغتسال والوضوء. ولم أر

حانوتاً واحداً في المدينة، وعندما سألت كيف يحصل الناس على حاجاتهم الضـرورية مثل الملابس، أدوات الطبخ، القهـوة.. الخ ؟ أجـابوني بأنهم يعتمدون على القوافل القادمة من مكة وبغداد ودمشق.

يصنع الرجال في الجوف عباءاتهم بمغازلهم العتيقة، ويعرضـون الفائض عن حاجتهم في السوق. لقد اشتريت عباءة لقاء ثلاث دولارات ونصف. إن عباءات الجوف مرغوبة ولها سوق في فلسطين وسورية. كما رأيت الرجال يصنعون العقال، وقد أثارت اهتمامي كثيراً بساطة ودقة الأسلوب الذي يصنعونه به. كما أن عمل خروج السروج والسجاد هو من ضمن الصناعات اليدوية بالجوف. إن الأكل الشعبي هو البلح والتمن، والتمن عبارة عن الشعير أو نوع من الحبوب أقل جودة من الأرز. الخبز يعتبر ترفاً ولايأكله إلا عليةُ القوم، وحتى أولئك لا يأكلونه كل يوم. وهناك نوع من الخبز من دقيق يستخرج من حبوب صغيرة في حجم حبات الرمل، ولونها احمر وداكن، واسم هذه الحبوب "سمح"، وطعم هذا الخبز رديء. والناس هنا محظوظون لتوفر الفاكهة في هذا المكان، فبجانب البلح بأنواعه، لديهم العنب، والمشمش، والخوخ، والبطيخ، والطماطم، والخيار، والاترنج، والفاصوليا، والقرع وأنواع كثيرة أخرى لا أجد لها أسماء في اللغة الإنجليزية. ومثل كل المدن الشرقية لاتوجد وسائل صحية، وكان المشروب الوحيد لأهل الجوف هو القهوة، أما المسكرات فلا تعرف هنا وأتمنى دوام هذه الحال. عدد كبير من الرجال يدخنون. وعدد كبير من الرجال والصبيان يجيدون القراءة بطلاقة، وعدد كبير منهم يمتلك ساعات. أما جهلهم بشؤون العالم الخارجي فقد أدهشني. فعدم وجود البريد، والتلغراف، والجرائد، والسكة الحديد جعلتهم في عزلة كاملة. إن حكومة الجوف وإثرة وكاف تحت سيطرة

عبدالعزيز بن رشيد، الذي يقيم في حائل، وهي مدينة تبعد مسافة ستة أيام عن الجوف. يمثل الحاكم في الجوف رجلاً ذا نفوذ، هو جوهر وقد سمعت به منذ سنوات. إن جوهراً رجل عادل، ومتحرر، ومتفتح القلب والعقل، وحازم، وكان يخشاه كل من تعامل معه أو عرفه. وهو أيضًا مسؤول عن الضرائب واستقامة الأمور في مدينة أخرى تسمى سكاكا على بعد ست ساعات شرق الجوف وبعض أخبارها تقول إنها في حجم الجوف ومزدهرة مثلها تماماً. ولم تساعدني الظروف على زيارة هذه المدينة وكم وددت لو كان ذلك ممكناً.

وبعد أن قدمت مدينة الجوف وسكانها للقارىء باختصار، سأعود إلى قصتي.

أخذ طريقنا منحىً حاداً ولاحت قلعة جوهر، ذات الأبراج الطويلة الأربعة على أركانها الخارجية. توزع أفراد قافلتنا إلى كل الاتجاهات، وكنت أركب خلف الشيخ خويخان عندما أشار إلى القلعة قائلاً: "إنها سكن الشيخ جوهر هنا". واصلنا السير وأنا أتبعه إلى أن انتهى سيرنا إلى ميدان مربع يجلس به عدد من الرجال يستمتعون بأشعة الشمس، وبالقرب من الميدان، يوجد منزل كبير. ترجلنا وسط عاصفة من الترحيب بقائدنا، ولم يهتم بي أحد أو يوجه لي سلاماً أو ترحيباً، ودعونا للدخول والجلوس، وكنت مثار الدهشة والتعليق، وأخذ كل واحد يسأل: "ماذا يريد هذا المسيحي هنا؟"، والتزمت الصمت بينما تصدى لهم الشيخ وأجاب على أسئلتهم حولي بطريقته الخاصة، ولم يكن صادقاً بعض الأحيان في بعض ماقال على أية حال. ولما كان الشهر هو رمضان حيث يصوم المسلمون من بداية اليوم إلى مغيب الشمس فلم يقدم لنا شيء ولم يقم أحد بصنع القهوة أو يقدم طعاماً، ولم

نجلس طويلاً حتى أقبل رجل وقال لقد سمع جوهر بخبر وصول القافلة وهو في طريقه إليكم. وبعد قليل ظهر جوهر يرافقه ستة أو ثمانية من حراسه، وبدا زنجياً قصيراً كبير البنية، يرتدي ثوباً متعدد الألوان، ويحمل في يده سوطاً. قمنا كلنا احتراماً له، ثم أخذ صدارة المجلس في مقدمة الغرفة الواسعة. ثم دعا الشيخ خويخان ليجلس بجانبه على يمينه ودعاني أنا لأجلس إلى يساره. وتبادل الجالسون التحيات، وطرحت بعض الأسئلة ثم التفت جوهر إليّ ليقول: - "أنت مسيحي"؟

- فأجبته: "نعم"

- "ما الذي جاء بك إلى هنا؟"

- "لكي أرى الجوف وأهلها ولأبيع كتاب الله. لمن يرغب".

- "ألستَ خائفاً من الناس أو مني؟"

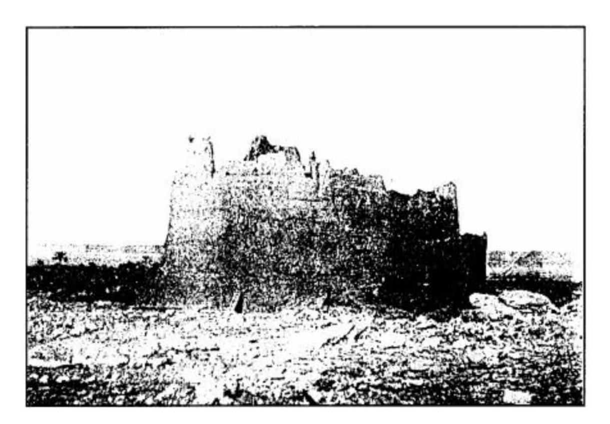
- "لا، لأنني أؤمن بأن الله سيحفظني. ولأنني تحت حمايتك فلن يصيبني ضرر".

- "هل سمعت عني من قبل؟"

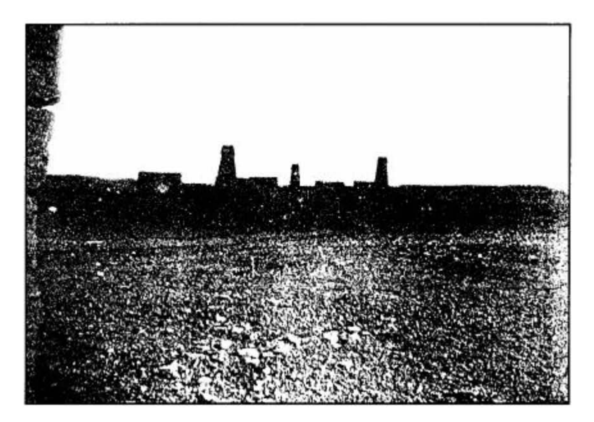
- "نعم، في الكرك. لقد سمعت عنك مراراً من البدو الذين جاؤوا لشراء الحبوب. إن اسمك له وقع طيب في كل مكان، وأنا سعيد أنني هنا في الجوف وتحت حمايتك".

- إنني أخشى أن تقتل إذا تجولت هنا لوحدك. إن الناس هنا يكرهون المسيحيين وربما آذوك".

- "سأكون حذراً، ولن أتجول بعيداً عن المنازل".



قصر مـارد (فوردر ١٩٠١م)



قصر خـزام(فوردر ١٩٠١م)

ثم أمر جوهر أحد أتباعه ليحضر تمراً من أجود الأنواع لي وقال لي: "نحن صائمون ولن نستطيع أن نأكل الآن. لابد أنك جائع لاتخجل من ذلك، كُل، وكل واحد على دينه".. وكان البلح أمامي يكفي عشرين رجلاً.

ترددت، فالكل صائم وقلت: "لن آكل إلا في المساء مثلكم.. مثلكم تماماً. وأستطيع أن أصبر حتى غروب الشمس. ولكنه أصر عليّ فأكلت قليلاً من التمر. وبينما كنت آكل البلح نهض جوهر، وخرج وكان يتبعه ابنه الأكبر وكان اسمه فالح، ومرافقوه. واستدعيت إلى خارج الغرفة وهناك خاطبني فالح وأشهد أنه شاب لطيف، طيب القلب في حوالي الخامسة والعشرين من العمر وقال لي: لقد قال والدي "ينبغي ألا تجلس مع الناس في غرفة الضيوف لأنك ستلوثهم، ولأنك لست طاهراً. لابد من إعداد مكان صغير لك قريب من هنا، حيث تجلس وتنام وسيُرسل إليك ثلاثة رجال ليرافقوك عندما تخرج من غرفتك وسيلازمك واحد منهم ويقيم معك في الغرفة". وأراني مكاناً صغيراً مجاوراً لغرفة الضيافة وكان المكان بطول اثنتي عشرة قدماً طولاً وأربع أقدام عرضاً، وسبع أقدام ارتفاعاً، والمدخل إليها يبلغ ارتفاعه أربع أقدام، وغير متناسق. ولها باب بلا قفل يحميني من فضول الناس ليلاً ونهاراً. أرضية الغرفة التي كان من المفروض أن أنام عليها، مبلطة بأحجار كبيرة يربط بين حوافها الطين. لا هواء و لا ضوء يدخل إليها إلا عن طريق الباب، و يظلل المدخل و يزيده ظلاماً وجود درج فوقه يوصل إلى غرفة فوقية يسكنها الابن الأصغر للشيخ جوهر. لقد تم نقل جميع أغراضي إلى الداخل ووُضعت حيثما اتُفق. كان المكان متسخاً لأنه يستخدم كإصطبل للخيل، وكمستودع للمخلفات. وكنت شاكراً لهذا السكن المنفصل والمستقل، ورغم أنه ليس ما تمنيت، إلا أنه أتاح لي قدراً من الخصوصية، وقدرة على أداء صلواتي

وتأملاتي بدون أن أكون محاطاً بعدد من الفضوليين، وأصبح الليل ملكي أقضيه كيفما شئت. لقد أنقذني هذا الوضع الجديد من بعض الأعمال غير المستحبة، التي كنت أقوم بها ليلاً وصباحاً لكي أنظف ملابسي من تلك الحشرات الصغيرة [القمل] التي تترعرع في الأجسام وتنتقل بسرعة من شخص إلى آخر بحثاً عن شيء تمتصه.

بالرغم من عزلتي هذه، فقد كان لي نصيب في استقبال بعض الزوار، ودُعيت إلى تناول طعام العشاء في بيت الضيافة والتهمت الصحن الذي قدم لي، لأنني كنت جائعاً ولم أذق طعاماً طيلة يوم كامل، وبالرغم من تعليمات جوهر دُعيت للانضمام للرجال الجالسين حول النار وتناولت القهوة معهم.

في صباح اليوم التالي، استيقظت مبكراً، وقضيت وقتاً عند عين ماء دافىء أغسل ملابسي. جذب منظر الصابون بعضاً من الناس فانضموا إليّ وأخذوا يغسلون أيديهم ورؤوسهم، لذلك انتهى الصابون الذي كان معي بسرعة. بعد أن تناولت طعام الإفطار بأكل بعض البلح من صحن كبير مليء بالتمر وضع في غرفتي لأكل منه كلما احتجت إلى ذلك. فكرت في زيارة جوهر في حصنه، فليس هناك حراس حول المبنى، ولا يحتمل أن تكون هناك امرأة في طريقي، ولذلك عزمت وتحركت وبعد ربع ساعة وصلت إلى السور الخارجي للحصن ودرت حوله باحثاً عن مدخله، وفجأة وفي جانبه الجنوبي وجدت جوهراً وهو يعقد مجلسه اليومي. وكان يجلس على منصة على ارتفاع ثلاثة أقدام، وبجانبه كاتبه، وأمامه في حلقة شبه مكتملة، جلس عدد من الرجال يستمعون إلى القضايا المختلفة التي تقدم له ليصدر حكمه فيها. وعندما رآني استدعاني لأجلس إلى جانبه. وفرغ من القضية التي كان ينظر فيها والتفت إليّ قائلاً:

- "هل اتيت وحدك إلى هنا ؟"
- "نعم".
- "ألم تكن خائفاً ؟"
- "لا".
- "الا تخاف من أحد ؟"
- "نعم، أخاف من الله ومن الشيطان" - (وهذه عبارة شائعة بينهم).
- "الا تخاف مني؟"
- "لا".
- "لكن في استطاعتي قطع رأسك".
- "أعرف ذلك، ولكنك لن تفعل ذلك بضيفك".
- "لا، لن أفعل ذلك، ولكنني كنت سأفعل - والتفت إلى خويخان - لو لا أنه أحضرك إلى هنا وجاء معك، وهو صديق عزيز وقديم معنا".

ثم استدعى واحداً من الحراس الذين أهملت أمرهم وطلب منه أن يرافقني حتى المنزل الذي أقيم فيه. وأوصاه بعمل الخبز لي وألا أنام وأنا جائع و "لا تدعه يخرج بمفرده" وهكذا صاح به ونحن نغادر.

لقد أمضيت ساعات مع مرافقي في هدوء. وكنت أقرأ وأكتب في مذكراتي، وبعد ذلك منعت منعاً بتاتاً من الكتابة وأخبروني بأن جوهراً في طريقه إلينا. وما هي إلا لحظات حتى وصل جوهر ومعه عدد كبير ازدحمت بهم غرفة الضيافة الكبيرة، واستدعوني لأمثل أمامه. ووجه جوهر أسئلة لي عن بلادي وعن ديننا وأجبته على تساؤلاته. ثم قال جوهر إنه يريد أن يرى الكتاب المقدس الذي أحمله معي. ودخلت غرفتي واتيته بإنجيل عربي كبير تم

تغليفه في مراكش وكان ذا غلاف مزركش. لقد أحضرت هذا الكتاب له ولكنني لم أرغب في فرضه عليه ورفعنا عنه الغلاف فاستلمه وقبله وتفحصه من الخارج وذكر أنه كتاب جميل، وفتحه ووضع نظارة عتيقة على عينيه، وبدأ يقرأ في كتاب جنيسس، الفصل الرابع والعشرين وقرأ كل هذا الفصل ثم قفله وطلب مني إعطاءه الكتاب.

فقلت له: "عليك أن تشتريه، وثمنه يساوي جنيه إنجليزي أو خمس دولارات، وسأبيعه لك بنصف هذه القيمة". فقال "دع هذا الأمر إلى الغد." ثم قال لي: "اسمع أيها المسيحي أريد أن أتحدث إليك". فقلت له "حسناً تحدث". فقال "لقد دخلت بلاد المسلمين الذين يؤمنون بمحمد رسولاً من الله إليهم وهنا لا يوجد مسيحيون، ولانسمح لهم بالإقامة هنا، ويأمرنا ديننا بقتلهم، وعليه يجب عليّ أن أطلب منك أن تترك دينك وتصبح واحداً منا، ماذا قلت؟". وهنا أحسست بأنني في مأزق حرج، فإذا أغضبت جوهراً فربما تعرضت لخطر كبير، وأنا هنا وحيد ويفصل بيني وبين أي مسيحي آخر مئات الأميال عبر الصحراء. وكان لديّ إحساس قوي بأن مثل هذا الموقف قد خطط مسبقاً.

مضى جوهر ليقول: "أحمد الله فقد أسلم على يدي ستة من المسيحيين الذين وفدوا إلى هذه البلاد في فترات متقطعة، أضف إليهم أحد اليهود، وهناك رجل يسكن هنا في الجوف كان في الماضي مسيحياً ولكنه الآن أخلص لله واتبع دين الحق (هذه القصة الأخيرة كانت صحيحة وقابلت ذلك الرجل مراراً بعد ذلك واستحى أن يتحدث معي)، ردد الشهادة بعدي "أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله" وفي لحظة ستصبح مسلماً مخلصاً وسوف يتقبلك الله والناس من عباده هنا".

وكانوا كلهم في انتظار إجابتي. وبعد فترة صمت قصيرة وبعد أول صلاة سرية ليمنحني الله ما أقول أجبت :

" أيها الشيخ جوهر سأسألك سؤالين وأسمع لإجابتك.

وقال جوهر : "حسناً، تكلم".

" السؤال الأول هو لو كنت أنت في أرض المسيحيين ضيفاً على الملكة وطلبت منك أن تكون مسيحياً وتترك دينك، فهل تقبل؟ ".

فقال جوهر : "لا و حتى لو قُطع رأسي".

و" السؤال الثاني، أيهما أفضل أن ترضي الله أم ترضي الإنسان؟ ".

" أن ترضي الله"، كانت إجابته السريعة.

ثم قلت له : "ياجوهر أنا في هذا الموقف مثلك تمامًا، لا أستطيع تغيير ديني حتى لو قطعت رأسي، ولو كنت أملك أكثر من واحد لابد أن أرضي الله وأبقى مسيحياً. إذا رددت شهادتكم سترضون كلكم عني، ولكن لن تكون إلا من هنا ـ وأشرت إلى شفتي ـ وسيبقى قلبي مسيحياً، ولذلك إذا أرضيتكم سأغضب الله لأنني سأصبح كاذباً ومخادعاً، لن أفعل ماطلبت مني. . . إنه المستحيل".

نهض جوهر وانصرف غاضباً. وتوجهت أنا إلى غرفتي وكنت سعيداً بذلك. لقد كان لقائي هذا مع جوهر أشبه بهجوم على روحي وليس على جسدي واستعدت بسرعة ماجاء في سِفر المزامير "إنه سيحفظ نفسك". وقد زارني الرجال مراراً ذلك المساء وأشاروا إلى أنني لم أكن حكيماً عندما رفضت طلب جوهر، "وغداً يوم عيدنا الكبير، ودخولك في الإسلام كان سيزيد في بهجتنا. " هذا ما قاله الرجال الذين زاروني في غرفتي.

وسررت عندما هبط الليل لأنفرد بنفسي وبالفعل صليت طلباً للهداية وطلبت من الرب أن يساعدني في اليوم المقبل، واضطجعت على الحجارة لأنام وكنت في قلق، روحاً وجسداً، ولم أكن في حالة طيبة.

في اليوم التالي وبعد انبلاج الفجر أيقظني رجلان مسلحان ودفعا باب غرفتي بقوة ففتحاه ودخلا قائلين لي : "انهض، أيها المسيحي، فجوهر يطلبك، فتعال معنا إلى القصر بسرعة". و"ماذا يريد؟" سألتهما. و"ماهو الدليل على صدقكما وهل لديكما تفويض؟ "، فأجابا بأنهما لايعلمان شيئاً عما طلبت ولكن "سيوفنا تدل على أننا في مهمة رسمية".

لبست بسرعة وكنت أتساءل ماذا سيحدث، وقررت أن أكون هادئاً ولا أعرض نفسي للخطر، لأن الناس في هذه المناسبة يكونون أكثر حساسية وهم يحتفلون بأعيادهم وربما أثارهم مجرد وجودي بينهم، ولا بد من الحذر. تبعت الرجلين إلى القصر ورأيت أفواجاً من الناس متجهة صوبه من كل اتجاه، وعندما وصلنا ذات البقعة التي التقيت فيها من قبل بجوهر، رأيته يجلس على منصة عالية، يرتدي ثياباً ذات ألوان عديدة، وكان مبتسماً وهو يحييني بحرارة. وبادلته التحية المألوفة وهنأته بالمناسبة السعيدة. وكان سعيداً بحضوري ومندهشاً لأنني حضرت، وطلب مني أن أجلس إلى جواره.

وكان هناك عشرات بل مئات من الرجال والأطفال يجلسون تحت أشعة الشمس على الرمال أمام جوهر.

وقال جوهر : "إن هذا يوم عيد عظيم لنا وكنا في القلعة القديمة وأقمنا صلاتنا هناك لماذا لم تأتِ لمشاهدة ذلك، وللفرجة أي التطلع إلينا بشيء من الفضول، إلى صلواتنا وكل ما نفعل". فأجبته : "إننا نرى أنه لايجوز التطلع إلى من يصلون بشيء من الفضول، لأن الصلوات عندنا أمر مقدس، ونحب

فيها دائماً أن نكون لوحدنا وفي هدوء تام، وأعتقد أنكم لاترغبون في أن أحضر لمجرد الرؤية والفضول" ، وقد سُر جوهر بجوابي هذا فربت على ظهري وقال: "أنتم أفضل منا ولاينقصكم إلا الإيمان بالرسول كما نؤمن به" .

ثم طلب جوهر من الخدم تقديم الإفطار . وفتح باب الحصن الكبير على مصراعيه ورأيت مدفعاً صدئاً قديماً . وظهر فجأة عدد من الرجال يحملون صحناً كبيراً وسفرة . وكان الصحن دائرياً وقطره حوالي أربعة أقدام وهو مليء باللحم والتمن مطعمة بالبهارات والمرق . ثم وضع هذا الصحن أمامي أنا وجوهر ، وتبعه تسعة صحون أخرى ووضعت في شكل دائرة ، وعندئذ طلب جوهر مني الجلوس أرضاً على الرمل مثله تماماً ، فامتثلت لأمره واستدعى خويخان وآخرين ثم قال بصوت عال "بسم الله" وأمر الجميع بالأكل ، وبدأ الرجال في التهام الوليمة . وكان لحم الجمل في قطع كبيرة ، ولكنه بسرعة تحول إلى قطع صغيرة واختفى . إن الكمية التي يلتهمها فرد واحد تدعو للغرابة . كان جوهر مهتماً بي ووضع أمامي قطعاً من اللحم ولاسيما الدهنية منها ، والشهية التي يأتي بها من قطع في منتصف الإناء ، وكان يقول لي : "كل أيها المسيحي واستمتع ولا تستحي" . وكان المنظر كافياً ليشبع الإنسان ، ولكن كان عليّ أن آكل . وسررت عندما نهض جوهر وجلس على مقعده مرة أخرى فتبعته بسرعة . وشاهدنا الجمع وهو يتدافع ليحظى كل بنصيبه من الوليمة . ولن أنسى ذلك المنظر ، وكم تمنيت لو كان باستطاعتي التقاط صور له ، ولكن ذلك كان مستحيلاً . "انظر إلى هؤلاء المتوحشين مثل الكلاب ، هل عندكم مثل هؤلاء في بلادكم أيها المسيحي . " هكذا قال جوهر متسائلاً فرددت عليه : "لا" ، وضحك .

بعد أن أفرغت الصحون ونظفت تمامًا أعيدت إلى داخل القلعة، وانفض السامر. ودخلت إلى القلعة لتناول القهوة مع الشيخ جوهر. واستدعى جوهر أحد الحراس وطلب منه أن يذهب معي إلى غرفتي ويبقى معي خوفاً من اعتداء أحد عليّ. وعدنا أنا والحارس إلى بيتي. وقد علمت أن جوهراً ذبح ثلاثة جمال لهذه المناسبة، وأربعة أحمال من التمن تم طحنها كلها على نفقته، وهو يفعل ذلك كل سنة. ولقد بقينا داخل الغرفة لفترة ساعة. وقلت لمرافقي أريد التنزه في بساتين النخيل لبعض الوقت ولن يتنبه أحد لي لأن الناس مشغولون بمباركة العيد لبعضهم البعض في منازلهم. وتسللت وحيداً إلى بساتين النخيل، واغتنمت فرصة الهدوء فاستعملت الكاميرا.



رجال من الجوف عام ١٩٠١م (فوردر)

بعد الظهر، جاء جوهر إلى منزل الضيافة، وبينما كنت في بساتين النخيل جاء رجل ليبلغني بحضور جوهر، وأنه يستدعيني. وأسرعت بالرجوع إلى منزل الضيافة، ووجدت الغرفة الكبيرة مكتظة بالناس، وطلب مني الجلوس بالقرب من جوهر، وكان الكل صامتاً. . . وعندها خاطبني جوهر قائلاً:

أيها المسيحي ماطلبته منك بالأمس كان صعباً، وأكيد أن هناك أشياء جعلت قبولك الإسلام أمراً غير يسير، ولكنني أريد مساعدتك: "هل أنت متزوج؟"، فأجبته "نعم". و"هل لديك أطفال"؟ فأجبته "نعم، ثلاثة". وسألني و"هل لديك نقود"؟ فأجبته: "لا". وسألني: و"هل تعمل بالتجارة أو لديك دكان؟"، فأجبته: "لا، ولكن الله يرسل إليّ ما أحتاج". وقال لي جوهر: إسمع: إذا أصبحت مسلماً سأعطيك أربع زوجات بدلاً من زوجتك الواحدة، وسيكون لك أبناء أكثر من ثلاثة وبأسرع فرصة ممكنة. وسأعطيك جمالاً ونخيلاً لتتاجر بها وتصبح بعد فترة وجيزة رجلاً ثرياً. وسنعطيك منزلاً وكل ما تحتاجه، إذا أصبحت مسلماً مثلنا. "شكرته على عرضه السخي، وأكدت له أنني لن أغير ديني مهما أعطاني. ونهض جوهر مهرولاً نحو قلعته وهو يتمتم: "ان يوم حلوله بيننا هو يوم نحس، وإذا بقي في الجوف سيحل بنا مكروه". وفي ذلك المساء أرسل جوهر لي ابنه طالباً الإنجيل الذي رآه عندي، وأرسلته إليه.

وفي صباح اليوم التالي أرسل جوهر رجلين ليقولا لي: " لقد أرسلنا جوهر لنقول لك لا بد لك من مغادرة الجوف فوراً، لاينبغي لك أن تقيم في الجوف، وسوف يحدث لنا ضرر إذا بقيت هنا". وكانت إجابتي: "كل احترامي لجوهر، وأرجو أن تبلغوه بأنني لن أغادر الجوف وحيداً بدون أحد يرافقني، وعندما يعزم خويخان على الرحيل فسأرحل معه، لأنني قد دفعت

له مصاريف العودة، ولهذا السبب لا أستطيع الرجوع مع أي شخص آخر" .
وذهب الرجلان وأخبراه بما قلت وعادا ليقولا لي : " إن جوهراً يطلب أن تغادر فوراً، ولا يمكنك البقاء هنا" . فقلت لهما : " اذهبا إلى جوهر وقولا له : إذا أردت أن أغادر الجوف بمثل هذه السرعة فأعطني جملا ورجالاً يصلون بي إلى قرية إثرة، التي أتيت منها . وإذا لم يستحسن ذلك الطلب فسأنتظر عودة القافلة التي جئت معها" . ذهبا إليه ثم عادا ليقولا : " يقول جوهر إنه يمكنك الانتظار على شرط ألا تغادر مكان سكنك، أو غرفتك، وإذا علم السلطان في عاصمته هناك بأنك هنا وتتصرف في منتهى الحرية، فإن جوهراً سيكون عرضة للعقاب، لأنه سمح لك بالبقاء " . وكان حديثهما بمثابة مواساة لي . ولكنني شعرت بأنه لا بد من اتخاذ جانب الحذر .

بعد أيام قليلة من الأحداث، التي سجلتها سابقاً، وبينما كنت جالساً حول النار في بيت الضيافة ومعي حوالي عشرين رجلاً، جاء رجل دين متشدد وألقى خطبة دينية فيها روح عدائية للمسيحية وذكر الرجل كل ماورد في القرآن من أقوال معادية للمسيحيين . وذكر المستمعين بأن نبيهم طلب من المؤمنين أن يبيدوا الكفار أينما وجدوهم، وكانت كل الخطبة موجهة ضدي ولم أبد أي اهتمام . ذهب ذلك الواعظ إلى حال سبيله، وذهبت أنا إلى ركني المظلم وأديت صلاتي وطلبت من الله المساعدة والهداية .

وفي صباح اليوم التالي جاءني فالح الرجل ذو القلب الطيب وقال لي :

" لاتخف يا أبو جورج (جورج اسم ابني الأكبر) لن يحيق بك ضرر إذا كنت مستطيعاً رده، لا تستثر الناس عليك، بعضهم يحبك، وبعض الجهلة منهم لا يحبك" .

في ذلك اليوم، وفي أيام أخرى خلت، وزعت وبعت عدداً من كتبي للرجال والأولاد الذين أثبتوا أنهم يجيدون القراءة. وبعد الظهر جاءني فالح بثلاثة رجال قال إنهم من حائل العاصمة، وأنهم في طريق عودتهم، إلا أنهم يرغبون في أخذ الإنجيل معهم. فهل أعطي نسخة كل واحد منهم؟ لقد كنت مسروراً لسماعي هذه الأنباء وسعيداً لانتقال كلمة الرب إلى حائل، ولاسيما وأنا لن أستطيع الذهاب إليها. لذلك أخرجت ثلاث نسخ من الإنجيل من النوع الجيد في تغليفه، وأعطيتها للرجال الثلاثة، فغادروا المكان في طريقهم إلى حائل عاصمة وسط الجزيرة العربية.

في ذلك اليوم بعد الظهر، كنت في غرفتي وحيداً، عندما حدثت واقعة كادت أن تعصف بحياتي، واقعة حركت أغلبية سكان الجوف ضدي.

لقد سبق أن ذكرت أن جوهراً يسكن في قلعة تبعد مسافة قصيرة عن البلدة وفي الطرف الجنوبي لها. وهذه القلعة مبنية من اللبن أو طوب من الطين والحجارة وللقلعة ثلاثة جدران، وعلى كل ركن من أركان الجدار الخارجي يوجد برج طويل يرتفع إلى أربعين قدماً. وكانت الشقق التي يقيم فيها جوهر في وسط هذه الجدران. وكانت هذه الأبراج تستخدم للدفاع عن القلعة.

وفي صباح ذلك اليوم هطلت أمطار غزيرة صحبتها رياح تهب من الشرق. ذوبت الأمطار أحد أبراج القلعة وأحالت الطوب إلى طين مالبث أن انهار على الشقة التي كان بداخلها جوهر يقرأ القرآن. دفن حاكم الجوف الذي كان مهاباً داخل الأنقاض. سمعت صراخاً وعويلاً في الخارج فخرجت صوب القلعة، وكنت في حيرة عما حدث، فسبب كل تلك الضجة في الجوف، وأخيراً علمت ما حدث فآثرت البقاء في غرفتي.

لقد تم إنقاذ جوهر وإخراجه من تحت الأنقاض. واكتشفوا أن رجله مكسورة وبه جراح وكدمات شديدة. وبينما هو مسجى على الرمل في فناء قلعته علق واحد منهم قائلاً: "هذا هو المسيحي وهذه هي أفعاله. لابد أنه خرج وألقى نظرة على البرج فأصابه بالعين، حتى سقط، إنها بداية شره". كانت هذه الكلمات عبارة عن الشرارة التي قدحت زناد البارود. بسرعة مذهلة صدق الناس هذه الرواية وأنني أنا الفاعل وارتفعت الصيحة: "اقتلوا المسيحي... تعالوا لنقتل المسيحي.." ووقفت على مدخل الميدان ورأيت جموعاً تتجه نحو ركن البيت وسمعتهم يصيحون: اقتلوه... اقتلوه.... المسيحي.... المسيحي، وكانوا يحملون العصيّ، والخناجر، وبعض المسدسات. وأخذوا يقتربون ولم أهرب، فالهروب معناه الموت، ومعناه أني فعلت شيئاً، وعندما كانوا على بعد ثمانين ياردة مني تدخلت العناية الإلهية فجاء ثلاثة رجال واصطفوا أمامي وصرخوا على الجمهور ملوحين مسدساتهم قائلين: "لاتقتربوا من المسيحي"، وتوقفت الجموع وساندني الرجال وأخذوني إلى غرفتي. ظل الرجال الثلاثة واقفين أمام باب بيتي وبدأ الجمهور بالانصراف، فأقبل عليّ الرجال الثلاثة الذين أنقذوني فشكرتهم على صنيعهم ومروءتهم وسألتهم ما الذي حملهم على الوقوف مني هذا الموقف. فأجابوا: "لقد كنا في الهند ورأينا المسيحيين هناك، ونعرف أنهم لايضرون أحداً؛ ورأينا أيضاً ما خلفته الإدارة البريطانية من آثار هناك، وفي مصر. وسناعد المسيحيين ما استطعنا ذلك؛ ونتمنى أن يأتي الإنجليز هنا؛ المسيحيون أحسن من المسلمين. إن الناس هنا في الجوف يجهلون عادات المسيحيين ولو لم نتدخل نحن لكانوا سيقتلونك بلاشك". بعد ذلك جاء مضيفي وصديقي الطبيب، وكان حزينًا يبكي للحادث الذي ألم بوالده وقال لي: "يا أبو جورج.

أنا أعلم أن هذا ليس عملك، إنه أمر مقدر وكان لابد له أن يحصل، وأتمنى ألا يموت أبي". وبعده جاء الولدان الآخران لجوهر وجلسا معنا وقدمت لهم كل مواساة لما ألم بوالدهما. وفي اليوم التالي أقمت في غرفتي أو بجوارها واستحسن فالح هذه الفكرة. أما شيخي الذي جئت معه فقد اختفى، لم أر خويخان منذ يومين وتساءلت ماذا حل به؟. في المساء جاءني رجل ليقول: "إن خويخان أرسلني لآخذك إليه. إنه في منزل في الطرف الآخر للمدينة". ولقد صدقته ونهضت وسرت وراءه. واستغرق المشوار إلى هذا المنزل مسيرة ساعة ولكن خويخان لم يكن هناك، وسألت عنه فقيل لي إنه سيأتي مع مغيب الشمس.

غابت الشمس ولم يظهر خويخان. وقلت للرجل سأذهب إلى غرفتي لأنني لم أكن مطمئنا له ولمن معه من الرجال، فتصرفاتهم كانت مريبة. أحضروا تمرًا وقالوا لي: "كل لأن العشاء سيكون جاهزاً بعد فترة". أكلت قليلاً من التمر وفكرت في الرجوع ولكن الظلام كان دامساً، ثم إن الرجال لن يسمحوا لي بالذهاب. وأصررت على الذهاب إلى خويخان أينما كان أو إحضاره، ولكنهم طلبوا مني الجلوس أرضاً مرة أخرى. وفي حوالي العاشرة جاؤوا بصحن به طعام ووضعوه أمامي وقالوا لي: "كل"، ولم أعرف نوع الطعام وتذوقته لكنه لم يعجبني، ورفضت الأكل ولما لم يدع إلى هذا الطعام غيري شككت في أن يكون مسموماً، وأخذوا الصحن وأعادوه كما هو، وسألوني إن كنت أريد النوم. فقلت لهم: "لا". أحسست أنهم أضمروا شيئًا، وجاؤوا بي إلى هنا بحجة أن رئيس قافلتي يريدني. أمضيت الليل كله جالسًا. وكثيراً ما رجوني أن أنام ولكنني رفضت، وأخيرًا أشرقت الشمس، وبينما كنت أستعد لمغادرة هؤلاء عائدًا إلى غرفتي رأيت في الباب أحد

حراسي الثلاثة، وكان أقلهم اهتمامًا بالقيام بمهمته حيالي، وسررت عند رؤيته وقال لي: "لقد افتقدتك هذا الصباح وقلت لا بد من البحث عنك، كما أنه لا ينبغي أن تخرج هكذا وحيدًا". عندما عدت وجدت خويخان يجلس حول النار. وأنكر أنه أرسل أي أحد في طلبي، واتضح لي أنني وقعت في فخ مدبر، ولكنهم لم يفلحوا في تنفيذ تدبيرهم. لقد أمضينا عدة أيام في الجوف، ووزعت عدداً من كتبي. وفي ذات صباح وأنا أفتح باب غرفتي وجدت كل ماوزعت مكوماً عند باب غرفتي، ويبدو أنها وضعت هناك بالليل. أدخلت الكتب داخل الغرفة وأيقنت أنني إذا لم أعلق على ذلك ربما عرفت لماذا أرجعت. وبعد قليل جاءني فالح ليقول: "يجب ألا تغضب لأن الكتب أعيدت. لقد أصدر والدي أوامره بأن تعاد إليك، وقال إن هناك أشياء سيئة فيها". وسألته: "ماهي"؟ فقال: "ما ورد في المزمور الثاني من كتاب المزامير، الفقرة السابعة، ونصه: "إني أخبر من جهة قضاء الرب. قال لي أنت ابني. أنا اليومَ ولدتك." وقلت لفالح: "عدد كبير من الناس سيسعد باقتناء هذه الكتب، ولكن والدك لماذا لم يرجع الإنجيل الذي أخذه؟". فأجابني فالح: "بأنه يريد أن يحتفظ به ويقرأه". وكنت سعيداً لسماع ذلك.

في ذلك اليوم جاءني خويخان وقال لي: "لابد أن نغادر بسرعة. "لقد كنت أرغب في الجلوس هنا لمدة شهر ولكن لأجلك أنت لابد أن نغادر بسرعة." وفي اليوم التالي جاء الرجال وسألوا عن كتبهم التي أعادوها، وذكرتهم بما قاله جوهر فقالوا: "لقد فعلنا ما أمرنا به وأعدنا الكتب إليك. ولم يأمرنا أحد ألا نعيدها مرة أخرى إلى منازلنا. أعطنا الكتب وسوف نخبئها حتى تغادر". فأعطيتهم الكتب مرة أخرى، ولم أسمع شيئًا عنها بعد ذلك. وبعد ظهر ذلك اليوم ذهبت إلى القلعة لأودع جوهراً لأننا سنسافر صباح اليوم

التالي. وأحتجزت في باب القلعة لفترة طويلة لإبلاغه بحضوري. ثم سُمح لي بالدخول ورأيت الرجل العجوز مستلقياً على سرير فوق الأرضية الطينية في أحد أركان الغرفة الكبيرة. وجلس حوله عدد كبير من الرجال، ولم يُسمح لي بالاقتراب منه ومن المدخل أشرت إليه قائلاً: "سنسافر غداً وجئت لأودعك وأشكرك لأنك عطوف وأسأل الله أن يمنحك السلام ويعيد إليك الصحة ويعيد إليك قدمك". وفي هذه اللحظة وُضعت يد على ذراعي وقادتني خارج القلعة. هكذا انتهت علاقتي مع جوهر، أبي عنبر، أكثر الشيوخ مهابة وأكثرهم احترامًا في مدينة وإقليم الجوف قاطبة. ولم أسمع عنه شيئا منذ ذلك التاريخ حتى الآن. ربما ذات يوم في المستقبل أعود إلى تلك البلاد، فخبرتي السابقة فيها، قد تشجعني على ذلك، ويقيني بأنني في زيارتي الثانية سأكون أكثر توفيقاً. في تلك الليلة أويت إلى فراشي وعندما بدأت بالنوم أيقظني صوت رجال ينادون عند بابي فاستيقظت وعندما فتحت الباب وجدت رجلين وعلى ضوء فانوس صغير أدركت أنهما يحملان شيئاً في كيس ودخلا إلى الغرفة ووضعا حملهما قائلين: "فالح، يرسل إليك هذا التمر لتأكل منه في رحلتك، فهو لن يتمكن من وداعك صباح الغد وهو يهديك تحياته واحتراماته ويتمنى لك رحلة موفقة. ثم أفرغا التمر في خرج سرجي الكبيرة وجاءا بقربتين من الجلد في حجم مناسب وقد ملآهما تمرا وقالا: "هذه هدية من فالح إلى زوجتك وأطفالك في بيت المقدس. عليك أن تحملهما لهم مع عاطر التحيات".

وفي صباح اليوم التالي استيقظت ولاحظت أن ترتيبات الرحلة قد اكتملت للانطلاق، ولكن قبل التحرك كان قائد القافلة وأنا معه قد ارتبطنا بمواعيد لزيارة ستة منازل وتناول طعام الإفطار معهم. تناولنا قليلاً من الطعام في كل

بيت إرضاءً لهم، ثم عدنا إلى مكان سكنتا فوجدنا الإبل محملة وجاهزة للتحرك، وكان فالح معنا يحمل حقيبة فيها خبز قدمه لي قائلاً : "هذا سينفعك لعدة أيام وأنت في الصحراء"، وتبادلنا كلمات الوداع. إن فالحاً كان عطوفًا وكريمًا معي كل الوقت الذي قضيته في الجوف. ففي كل صباح، حوالي الساعة العاشرة يأتي إليّ أو يرسل في طلبي ليأخذني إلى السطح على ارتفاع ثلاثة أدوار ليقدم لي إفطاراً خاصاً شهياً من الخبز والدبس، والزبدة البلدية والحليب. وكانت هذه من أجمل منتجات الجوف. " كل واستمتع بها فإننا لا نقدم مثل هذا الأكل للضيوف العاديين، أنت صديقي، منذ أكلنا الخبز معا" هكذا كان يقول دائماً. وكان يجلس ويأكل ولا يتردد في وضع يده في ذات الإناء الذي يأكل منه المسيحي. ولقد أخبرني بأنه زار مكة مرتين وكان دائما كما لاحظت يحافظ على مواعيد الصلوات. وعند وصولنا إلى أقصى طرف المدينة الشمالي كانت القافلة تنتظرنا ونزل خويخان وقبل الرجال المحيطين بنا مودعاً، وأعطى القافلة إشارة البدء، وابتهلنا ليبارك الرب هؤلاء الذين ودعونا وأكرمونا وأن تكون حياتهم في أحسن حال. وودعنا الجوف وبساتينها العامرة الخصبة وبساتين نخيلها الظليلة.

سافرنا في الصحراء أربعة أيام دون أن نجد ماء. كنا نتوقع أن نعثر على مياه سطحية، ولكن خاب أملنا. وعند غروب الشمس في اليوم الرابع، وجدنا الماء في حوض كبير بين الصخور التي دخلنا بينها. كان الماء متسخاً ولاذع الطعم، لأن الجمال شربت منه وأقامت فيه واستحمت ليوم كامل. وقبل أن نملأ القرب من الماء وجدت جمالنا طريقها إليه مما زاد الماء عكراً واتساخاً. وكنا شاكرين لله فضله، بأن أعطانا الماء لنصنع خبزنا ونشرب منه.

في اليوم الثاني ونحن نتحرك انهار جملي من تحتي ورفض التحرك،

والنهوض. واستدعيت بعض الرجال، وعندما رأوا الدموع تنساب من عينيه قالوا لي: إن جملك ثمل ولا يستطيع الحركة لأنه سكران، لقد أكل نوعاً من العشب فانتشى وتخدر. أحضروا ماء وبلوا فيه بعض العشب وربطوه على عنق الحيوان، وجهزوا عصارة للتمر وخلطوها بالملح والدقيق وعندما تم تحضير هذه الخلطة فتحوا فم الجمل وقذفوا بالخلطة إلى حلقه. وفي حوالي نصف ساعة توقفت الدموع، واستعاد الحيوان وعيه وانطلق مع الآخرين. وفي تلك الليلة عثرنا على ينبوع من الماء أسوأ من الذي وجدناه قبله، وعسكرنا قريباً منه. وفي اليوم التالي أخذتنا المفاجأة عندما رأينا عن بعد رجلاً يتجه إلينا، فتحرك بعض رجالنا لمقابلته، ولم يعرفوا ما إذا كان كشافاً لعدو أم صديقاً. جاؤوا بذلك الشخص إلينا. ولم يكن قادراً على الكلام، وأشار في طلب الماء، فأعطيناه الماء. وقال إنه واحد من تسعة أشخاص تحركوا عبر الصحراء على ظهور جمالهم، وكانوا مزودين بالماء والطعام ولكن اعترضهم قطاع الطرق ونهبوا منهم كل شيء، ولثمانية أيام ظلوا بلا ماء أو غذاء، وأن زملاءه مطروحون على الرمال بلا حراك على مسافة غير بعيدة من هنا، وعبرت قافلتنا من بعيد فرأوها وكان هو الأقدر على الحركة فجاء إلينا. وأعطيت الرجل قربة ماء وشيئاً من دقيق وتمر وغادرناه مبتهجاً بحظه السعيد.

في ذلك المساء وبينما كنا نعسكر في الوادي، وكان مليئاً بالأحجار والشجيرات، استشعرنا خطراً ولكنه انتهى بسلام. كان الرجال يجلسون حول النار عندما انتقل الهمس بينهم بأن أصواتاً تأتي من الوادي، وأطبق على الجميع صمت، وفي هدأة الليل أمكن استماع أصوات رجال يتحدثون بشكل واضح، ومن معه سلاح هب إليه على الفور واستعد لملاقاة الهجوم، وألقى الرمل على النار فاختفت. كنا على أهبة الاستعداد لملاقاة أي شيء. ولما لم

يظهر شيء، تحرك بعض رجالنا لاستجلاء الخبر. وبعد قليل سمعنا أصوات البنادق وتخيلنا أن الأصوات التي سمعنا أصوات أعداء. ولكن بتتبعنا لأصوات البنادق سمعنا صرخات ترحيب، أصدقاء. . . . أصدقاء وبعد عشر دقائق عاد رجالنا ومعهم ١٢ رجلاً من ذوي الوجوه المتوحشة التي يندر أن يراها الإنسان.

بنظرة واحدة في تلك الوجوه الكالحة، يدرك المرء ان أصحابها عانوا الحرمان والإرهاق. تم إعادة إشعال النيران، وابتدأ السمر وأعدت القهوة للضيوف الجدد حيث أخبرونا بقصتهم وهي باختصار: لقد تحركوا من الجوف قبل أسبوعين بهدف الوصول إلى دمشق للبحث عن عمل، ولم يكن لديهم جمال ولكن معهم طعام يكفي لفترة، إذا استمر الحال على مايرام، ومعهم قرب للماء فارغة ليملؤوها إذا وجدوا ماء في طريقهم، حيث كانوا يفترضون وجوده. جلد القرب هذه كان جافاً فتشققت و لم يشربوا ماء لفترة طويلة. كما أن عدم معرفتهم بالطريق جعلهم يتيهون في الصحراء، فانتهى الطعام والشراب الذي كان معهم. واستمروا يضربون في الصحراء بلا هدى لمدة خمسة أيام جوعى وعطشى ومرهقين. وفي ذلك اليوم وقعوا على أثر أقدام جمالنا فتابعوها حتى وصلوا إلينا حيث نعسكر. أُعد لهم الخبز، وبينما يتم خبزه، أعطيتهم كمية جيدة من التمر الذي أحمل معي، فشكروني، وفي اليوم التالي سافروا معنا.

وفي اليوم التالي وعند ظهر اليوم العاشر لمغادرتنا الجوف، رأينا عن بعد نخيل قرية إثرة مرة أخرى. لقد غبنا عنها لمدة ثلاثة وثلاثين يومًا لا خمسة وثلاثين كما كان تقدير خويخان. وعند وصولنا، كان أول شيء لاحظته اختفاء الخيمة التي كان يقيم فيها الرجل المريض، فأيقنت أنه قد مات وأزيلت

الخيمة من بعده. بعد ساعات من الراحة جاءني خويخان الذي أنجز العقد الذي أبرم بيننا بإخلاص، وخرج بي من دار الضيافة وأراني عشة صغيرة من الطين على مقربة من دار الضيافة، وللعشة باب بارتفاع ثلاثة أقدام وعرض قدمين وقال أن هذه العشة ستكون محل إقامتي للفترة التي سأقيم فيها هنا. وقلت له إنني عازم على الرحيل بسرعة من هنا، لقد ابتعدت عن أسرتي وأصدقائي لفترة طويلة، عدة شهور، ولم تصلني منهم أي أخبار. لم تكن هنا فرصة فدخلت إلى العشة وكانت متسخة ومغبرة وتنتشر هنا وهناك أوان فخارية قديمة، وصناديق خشبية بها بعض التمر، وقد أُخبرت أنه بإمكاني أكلَ ما أشاء منه. وكان الغبار على أرضية العشة بارتفاع عدة بوصات. وحملت حقائب سرجي إلى العشة وجلست هناك. وحل المساء فأعطيت خبزاً وإناء به ماء. ولم يحضر لي فانوس أو مصباح فذهبت إلى خويخان لأطلب منه مصباحًا وشيئاً أنام عليه وأغطي جسمي به. لقد رُفضت كل طلباتي هذه، وأُمرت بالرجوع إلى حيث كنت. عدت إلى العشة، ولما كنت في حالة شديدة من الإرهاق فقد استلقيت أرضاً على التراب ووضعت طوبة كبيرة من الطين تحت رأسي، وحاولت النوم ولكن فجأة اكتشفت أنني لست وحدي فقد كانت هناك أشياء تزحف وكانت في أعداد كبيرة وأحسست بها على وجهي ويدي فنهضت وأخرجت علبة الكبريت العزيزة من جيبي وقدحت عوداً منها لأرى، ورأيت جيشاً من الزواحف والحشرات ويشمل هذا الجيش العقارب والسحالي. ولم يكن الوضع مريحًا وظللت الليل كله في حركة منتظراً الصباح. وأخيرًا أصبح الصبح، فذهبت إلى خويخان وقلت له أريد أن أسافر إلى بلدي ولن أبقى في العشة التي اختارها لي. وقال أنه سيسافر في اتجاه بلدي ووعد بأن يأخذني معه خلال ثلاثة أو أربعة أيام، وأخذني إلى بيته

وطلب من زوجته أن تحضر لي طعام الإفطار. بعد ذلك اختلطت بالرجال في المنطقة وسألت هل من أحد يذهب معي إلى عرمان وهي على بعد مسيرة ستة أيام. واتفقوا كلهم على أن أدفع ثلاث جنيهات إنجليزية، أي خمسة عشرة دولاراً لقاء مصاحبتي إلى عرمان. واكتشفت أن السعر قد تحدد لأقوم بدفعه لمن أتفق معه. وفي كل يوم من هذه الأيام الأحد عشر التي مكثتها هنا، كنت أسعى يوميا للسفر ولكن لم يساعدني إقبال الناس عليه بسرعة. وقد رأيت جماعات تسافر شمالا وغرباً. ولكن ليس لديهم جمل يزودونني به، ولو كان عندهم لسافرت معهم فوراً، ولكنهم يسافرون راجلين. نشأت بيني وبين رجل صداقة، وفيما يبدو سببها أنه كان يشفق عليّ وكان يذهب معي لبساتين النخيل. ويشرح لي كيف يجب أن تعامل النخيل، وما هي أسرارها، ولقد أفادني كثيراً وساعدني في فهم المزمور رقم ١٢ وفي تفسير كل تعاليمه. إن النخيل شجر مفيد، وجميل، ومثمر، وله خاصية النمو من الداخل وهذا مما يبهج الإنسان، وله مزايا أخرى وكلها متاحة للصالحين. أخذني هذا الصديق في جولة ليشرح لي كيف استطاع العرب هنا وفي كاف إنتاج الملح الذي يبيعونه للقوافل. وفي الأرض توجد ينابيع مياه شديدة الملوحة، وهم يأخذون هذه المياه ويصبونها في جداول في الرمل ويتركونها حتى تتبخر وتزول منها الرطوبة، ثم يأتون بسلال ويجمعون الملح، الذي يكون قد تبلور وأصبح أشبه بقطع الثلج البيضاء. وتترك هذه السلال حتى يجف الملح ثم يعودون بها إلى القرية ويحفظ في أوعية من الطين حتى يأتي من يشتري. إن قيمة حمولة جمل كاملة لا تزيد عن ثلاثين سنتا.

وخلال إقامتي الجبرية هنا التي امتدت ثلاثة أيام عانيت من الحمى ولم ينتبه أحد لذلك. وكانت الليالي أسوأ بكثير من بقية الوقت. وكنت أسمع أصوات

الحشرات فوق رأسي وحولي، ومرة في الصباح رأيت آثار ثعبان على الرمل مر من حولي، وشعرت بأنني سجين. إن حكاية أن رئيس القافلة سيسافر في اتجاه البلد الذي أرمي إليه، مجرد قصة غير صحيحة. إنه كان يرجو أن يدفعني التأخير لدفع مال أكثر، ولكن لم يكن لدى شيء لأدفع لأنني دفعت كل ما معي بالإضافة إلى حذائي، وبرادي، وصابوني، ومشطي ومنشفتي، وملابسي الداخلية وأشياء أخرى كثيرة ذات قيمة لي.

وذات صباح رأيت رجلاً يقترب وكنت قد رأيته في كاف، وذهبت إليه فأخبرني بأن شيخ كاف سافر، وهذا ماسمعت به في اليوم الثالث من حضوري هنا. ولو كان الشيخ موجودًا لكنت قد ذهبت إليه وارتميت تحت رحمته. وأخيراً قررت المحاولة مع خويخان مرة أخرى وبطريقة فيها إلحاح. وفي صباح اليوم الحادي عشر التقيته وقلت له "إذا لم ترسلني اليوم سأذهب وحيداً عبر الصحراء وسيكون دمي مسؤوليتك".

بدأ خويخان يلتمس لنفسه الأعذار، ولكني ألححت عليه في الكلام. وأخيراً قال: "حسنا سأرسلك بعيداً عن هنا وأرجو ألا تعود مرة أخرى"، ونادى على رجل و طلب منه إحضار بهيمة، وفي خلال ساعة أتاني بحمار هزيل لا يحمل حتى أغراضي التي خف وزنها بعد أن أفرغت حقائب سرجي. وطلبت جملا فرفض طلبي. وقال لي: "يستحسن أن تمشي على قدميك"، فتحركت بدون إفطار أو وداع مع هذا الرجل المجهول بالنسبة لي تماماً، والذي طلبوا منه أن يتركني مع أية جماعة من العرب يقابلهم.

سرنا فوق رمال كثيفة، وتحت شمس محرقة، وبعد ساعتين لم أتحمل واستسلمت وغصت في الرمال مرهقًا، وكان الرجل متقدماً قليلاً أمامي مع الحمار، فناديته، وتوقف، وأخذ الحقائب من على الحمار وأنزل كل الحمولة،

وكذلك أنزل الصناديق التي أحمل فيها الصحون، فقد ظن أنها مليئة بالنقود. وفتح اثنين من الصناديق بخنجره وأفرغ الصحون على الرمال، وأغلب الظن أنه لايدري ماذا يصنع بمثل هذه الأغراض؟ كما إنه استولى على آخر جوارب عندي، وبعض الأوراق، وإناء للشوربة، وتنكة فارغة احتفظ بها لغلي الماء. وقد قام بدفن هذه الأشياء في رمال الصحراء. ثم جاءني ليقول: "انهض واتبعني وإلا سأتركك هنا"، ونهضت متحاملاً وتبعته وسرت لمدة ساعتين بالرغم من الألم الذي كنت أحسه في أطرافي المتألمة، ومن شدة العطش. وأخيراً رأينا بستان نخيل بجانبه نصبت خيمة. ولم يكن هناك أبداً منظر أدعى للترحيب أو مأوى مقبولاً مثله. خرج صاحب الخيمة لمقابلتنا وحمل عني حقائبي وأدخلها في الخيمة، وساعدني في الدخول إليها وأشار إلى ركن فيها، وأجلسني فيه. كان أطفاله شبه عراة وزوجاته الأربع جلسن قريباً مني يراقبنني. وارتسمت على وجوههن الشفقة عليّ، واللعنة على من تسبب بإيذائي وعلى الذين عاملوني بمثل تلك القسوة، وأعطوني تمراً وزبدة متسخة لأدفع بها التمر إلى حلقي ومكثت معهم خمسة أيام... خمسة أيام مع هؤلاء البسطاء سكان الصحراء الذين أبدوا نحوي كرماً وعطفاً.

وفي اليوم الخامس جاءت جماعة من الرجال برواحلهم إلى الخيمة. وكانوا في طريقهم إلى دمشق، وكنت أتمنى أن أجد طريقاً لأتجه غرباً لأصل إلى بيت المقدس، ولكن لم يكن ذلك ممكنًا. وبعد كثير من المجادلة والمساومة مع قائد الجماعة وكانت تتكون من ١٢ جملاً و ١٨ رجل. وبعد مساومات مع قائد الجماعة قبل أن يأخذني إلى عرمان لقاء دولارين. ولم يكن معي مال وأصر الرجل على الدفع مقدماً. وأخبرته أن لديّ مالاً في عرمان، وأخيراً سمح بالركوب على الأحمال التي فوق الجمال، وبدأت رحلة عودتي إلى وطني.

ومضى كل شيء على مايرام خلال يومين. وكان الرجال في القافلة مجموعة طيبة، وبادية العطف. وفي اليوم الثالث استيقظت استعداداً لمواصلة الرحلة ولكنهم أخبروني أن ستة من الجمال ضلت الطريق واختفت في الظلام وبعض الرجال ذهبوا لإعادتها إلى القافلة. أضعنا ذلك اليوم واقفين حيث كنا، ولم يجد الرجال أثراً للجمال الضائعة، فقاموا بتفريغ ست شحنات من الملح في الصحراء ودفنوا الجوالات في الرمل، واتفقوا على أن نغادر في منتصف الليل. مر يومان وأنا أسأل متى سنصل عرمان، وجاءت الإجابة، " لسنا ذاهبين إلى عرمان، لقد قتلت رجلا هناك ذات مرة وأخشى من دخولها. سوف نتركك في قرية تسمى أم الرمان وهي على مسيرة ساعتين من عرمان" . شعرت بالأسف وأنا أسمع ذلك. لأن ذلك يعني أن أدخل على غرباء وأتفق معهم على نقلي إلى عرمان. وبما أنني لا أملك مالاً، يصبح ذلك صعبا عليّ. وفي ظهر اليوم السادس وصلنا مشارف أم الرمان وسكانها كانوا مسلمين ودروزاً وكاثوليك. سكنت مع رجل يعرف الرجل الذي سار معي وقام هو بتنظيم رحلتي إلى عرمان، يرافقني الرجل الذي جاء معي ليعود بمصاريف الرحلة من عرمان. وفي اليوم التالي ذهبنا إلى عرمان واستقبلت بحفاوة وكنت قد غادرتهم لعدة أسابيع. وكان مشجعا لي أن أسمعهم يقولون: كنا ندعو لك كل يوم أثناء غيابك أن تصل بالسلامة وأن يحفظك الله وتعود لنا سالماً" ، وكان من الطبيعي أن أخبرهم بما حدث لي في هذه الرحلة. وأعطاني الرجل الذي تركت المال معه مالي. وبقيت لأيام قليلة مع هؤلاء الناس الطيبين. وطلبوا مني الكتب ولكني كنت قد بعتها كلها. وامتطيت حماراً في صحبة رجل واتجهت إلى دمشق. وفي الليل قبل مغادرتي جاءني عسكري في دار الضيافة يسأل عن المسيحي الذي عاد من الجوف. وكان هو الموظف في

قلعة صلخد وفي المدينة التي مررنا بها أثناء الضباب، وسمعوا عني وكانوا يريدون رؤيتي، وكان من المفروض أن أعطيه نسخة من الإنجيل إذا بقيت عندي واحدة. في صباح اليوم التالي ذهبت إليه وكان إنساناً مهذباً وأخبرني بأنني قمت برحلة جريئة وخطرة وأنه كان سيمنعني لو علم بذلك في وقت مبكر. لم أبين له كيف عبرت من عنده قبل ثلاثة أشهر. لقد كان مسروراً بالإنجيل وأخبرني بأنه يريد قراءته. وبعد خمسة أيام كنت في دمشق جنة العرب في الأرض، وسكنت مع أحد أصدقائي من أبناء بلدي في منزله. ورحب بي أصدقائي الأوفياء السيد ريتشارد ورمه في القنصلية البريطانية. وكانوا مسرورين لعودتي بعد غياب طويل. ومن هناك أرسلت خبراً عن وصولي من الرحلة سالما لأسرتي وأصدقائي الذين لابد أن يكون قد أصابهم قلق حول مصيري. وبعد أن استرحت لعدة أيام في دمشق، بدأت الرحلة مجدداً، وفي هذه المرة في ظروف حسنة - متجها إلى وطني في بيت المقدس. وبعد ركوب لتسعة أيام نظرت من أعلى إلى المدينة المقدسة مرة أخرى، وكان غيابي عنها لمدة ثلاثة شهور ونصف الشهر".

الهوامش :

(1) A. Forder. **With the Arabs In Tent And Town : An Account of Missionary Work, Life and Experiences In Moab and Edom** .London: Marshall brothers, 1902. pp 1-82.

(2) Archibald Forder. **Ventures Among The Arabs in Desert,Tent And Town: Therteen years of Pioneer Missionary Life With The Ishmaelites of Moab , Edom and Arabia** .Boston: W.N.Hartshorn , 1905. pp 167-246.

(٣) قرية من قرى حوران ، جنوب سورية ، ضمن قرى جبل العرب (الدروز) .

رحلة

اس.اس بتلر

و

ل. ايلمر

١٩٠٨م/ ١٣٢٥هـ

اس.اس. بتلر
S.S.Butler

شهدت بدايات القرن العشرين حتى اكتمال عملية تجزئة المشرق العربي في عشرينيات هذا القرن، هجمة استخبارية، أبطالها رجال ونساء يعملون لصالح الاستخبارات الألمانية والبريطانية والفرنسية في مناطق نفوذ الإمبراطورية العثمانية في محاولة لتهيئة الأوضاع لخلافتها. من هؤلاء الرجال كان اس. اس. بتلر ورفيقه ل. ايلمر اللذان يعملان في الاستخبارات البريطانية، وكانا مكلفين بمهمات خاصة في شرق إفريقيا [١].

لا تتوافر معلومات عن شخصيتيهما، ولم يرد لهما ذكر بعد رحلتهما. إلا أن الكابتن بتلر قدم محاضرة بعنوان: "من بغداد إلى دمشق عبر الجوف، شمالي الجزيرة العربية" في الجمعية الجغرافية الملكية في لندن يوم ٢٢ فبراير ١٩٠٩م، يصف فيها رحلته هو وزميله، وقد تم نشرها في المجلة الجغرافية التي تصدرها الجمعية في عدد شهر مايو ١٩٠٩م[٢]. ونقدم هنا نص المحاضرة:

" كانت مغادرتنا أنا والكابتن ايلمر، من شرق إفريقيا في خريف ١٩٠٧م، فقررنا إذا أمكننا ذلك محاولة الرجوع إلى إنجلترا عبر الخليج، بغداد ودمشق. ولكن بدلاً من اتباع الطريق المعتاد الموازي لنهر الفرات من بغداد إلى دمشق، عقدنا النية على أن نحاول الذهاب من خلال الاتجاه غرباً من بغداد إلى

الجوف ، التي تقع في شمال وسط الجزيرة على الحد الشمالي للنفود الكبير . ومن هناك ، نذهب شمال غرب وبالتالي إلى دمشق عن طريق جبل حوران .

الجوف بالطبع ليست مجهولة عندنا ، فقد زارها والن عام ١٨٤٥م ، بلغريف عام ١٨٦٢م ، غوارماني عام ١٨٦٣م ، هوبر عام ١٨٧٩م ، الليدي آن بلُنت وويلفرد بلُنت عام ١٨٧٩م ، أويتنغ عام ١٨٨٣م ، نولده عام ١٨٩٣م ، ومبشر من الكرك يُدعى فوردر عام ١٩٠١م .

جميع هؤلاء زاروا الجوف . بعضهم جاء من الغرب (والن ، بلغريف عن طريق معان) و (هوبر وأويتنغ والليدي بلُنت وزوجها ويلفرد بلُنت ونولده عن طريق دمشق) ، و (غوارماني عن طريق حائل) . ولكن حسب معرفتي لم يزر الجوف أحد عن طريق بغداد ، أو من الشرق من قبل أي من الأوروبيين أو أن المنطقة الفاصلة بين بغداد والجوف قد تم استكشافها بأية طريقة .

كانت الصعوبة الرئيسية لنا في البداية ، هي مغادرة بغداد لأننا ولفترة طويلة كنا غير قادرين على أن نجد أحداً ليكون رفيقاً ودليلاً وصديقاً ، والذي بدونه سيكون من المستحيل السفر في الجزيرة العربية غير الآمنة .

بعد فترة قصيرة من وصولنا إلى بغداد بعد زيارتنا لكربلاء تبسم الحظ لنا فسمعنا أن بدوياً سيعود إلى قبيلته في الحال ، وهو ينتسب إلى فرع ابن مجلاد من قبيلة بشر العنزية ، التي تقطن في الصحراء جنوب غرب كبيسة . هذا البدوي اسمه محمد بن ماضي كان رجلاً مهماً في قبيلته ، وكان ضامناً معه بعض تجار الملابس وبائعي الإبل وكان مستعداً لأخذنا معه إلى مضارب قومه إذا دفعنا له ثمناً . ومن هناك إذا دفعنا له مبلغاً آخر سوف يساعدنا في الوصول إلى الجوف . اشترط هذا البدوي أن نحضر جمالنا وعدتنا ، وأن نلبس لباس

البدو ، وقد نفذنا هذه الشروط . فيما يتعلق باللباس العربي فإنني أعتقد أن ذلك أمر ضروري لمن يريد دخول الجزيرة العربية . فاللباس الأوروبي يسبب كثيراً من عدم الاطمئنان بل خطراً حقيقياً . لم أحاول لا أنا ، ولا رفيقي الكابتن ايلمر أن نُظهر أنفسنا كبدو ، فإذا ما تحدثنا مع الذين سيقابلوننا فلغتنا ستظهر شخصياتنا ، ولكننا عندما نضع الكوفيات على رؤوسنا ونتلثم بها نظهر وكأننا بدو مثلنا مثل رفقائنا بل أحياناً يتم الخلط فيما بيننا حتى نتحدث معهم .

غادرنا بغداد في التاسع من شهر يناير ١٩٠٨م مع دليلنا وصديقنا محمد الماضي ومعنا جماعة تقارب العشرين تاجراً ومساعدوهم ، وكنا جميعاً نركب الإبل . أنا والكابتن ايلمر ركبنا نياقاً دفعنا لكل واحدة منها ١٣ ليرة تركية أما خادمنا فركب جملاً وكانت تكلفته ١٢ ليرة . أما مؤونتنا التي حملناها معنا فكانت عبارة عن عدة غيارات من الملابس ، وبعض التمر والرز والطحين والقهوة والشاي والسكر والملح والسمن والبصل وبعض الأشياء المعلبة . طيلة رحلتنا أكلنا وعشنا مع رفقائنا والعرب الآخرين الذين قابلناهم كبدو . أما الأطعمه المعلبة رغم أنها تعد تغييراً جيداً إلا أنها لم تكن ضرورية فهي ثقيلة الوزن وتحتل حيزاً كبيراً ، ولو أُتيحت لي الفرصة مرة أخرى للذهاب إلى الجزيرة العربية لما حملت معي غير ما يحمله العرب عندما يسافرون ، أي الطحين والتمر والملح والرز والسمن وبعض البصل الذي يفضله العرب لأنه يساعد في إعطاء طعم للرز .

كانت المحطه الأولى لنا بلدة كبيسة ، وهي بلدة عربية تحت الحكم التركي وتبعد مايقارب التسعين ميلاً شمال - غرب بغداد وبعض الأميال غرب هيت ، التي هي بلدة صغيرة على شط الفرات . في هذه المحطة (كبيسة) كان علينا

أخذ اثنين أو ثلاثة من التجار الذين يريدون الذهاب للمتاجرة مع عنزة، وبرعاية دليلنا محمد الماضي. اكتملت استعدادات قافلتنا في كبيسة، وفي السادس عشر من شهر يناير بدأنا دخول الصحراء إلى مضارب ابن مجلاد شيخ الدهامشة. كان دليلنا غير مُتأكد من مكان وجود قبيلته، ولكنه يعرف أنها في مكان ما في اتجاه جنوب غرب. لقد اتجهنا صوب ذلك المكان بعد أن ملأنا قربنا بالماء من بئر تقع خارج بلدة كبيسة. سرنا لمدة أربعة أيام، وفي اليوم الخامس وصلنا إلى خيام القبيلة في منطقة عواج. كنا نعبر طيلة الأربعة أيام التي سرناها فوق سهل منبسط مغطى في معظمه بالأعشاب أو الشجيرات التي ترتفع إلى مابين قدم واحد وقدم ونصف. كانت هذه الأعشاب صالحة في معظمها لرعي الإبل وخصوصاً أشجار الأرطى. أما التربة وعلى طول الطريق فكانت حصبائية ولم نر مواقع ماء أبداً. سرنا في معظم اليومين الأولين عبر مجرى وادي هجيا الذي يكثر فيه الماء في موسم الأمطار كما علمنا، ولكنه كان قد جف وقت وجودنا عنده. تخلو جميع هذه المنطقة من القرى والمنازل أياً كانت، وبشكل مطلق لايوجد شيء على شكل منزل بين كبيسة وسكاكا. لا يسكن هذه المنطقة إلا البدو الذين يعيشون في بيوت الشعر ويتنقلون كل يوم مع قطعان أغنامهم وإبلهم يبحثون عن الماء والكلأ. أما القبيلة التي جُل الوقت تجول المنطقة ومررنا على بعض خيامها خلال الأربعة أيام الأولى لرحلتنا، فهي قبيلة الدليم. لم نر عدداً كبيراً من هذه القبيلة، ومارأيناه لايتجاوز مجموعة تقارب عشرة بيوت شعر. إن قبيلة الدليم تستوطن المنطقة المحاذية لشط الفرات والممتدة من كربلاء إلى هيت، وتنقسم إلى قسمين: الفلاحين ويعيشون على ضفة النهر في مساكن؛ والبدو الذين يعيشون حياة الصحراء مع مواشيهم، وهؤلاء الذين رأينهم يشكلون جزءاً من هؤلاء البدو. إن قبيلة

الدليم قبيلة كبيرة، ومن المعلومات التي حصلنا عليها من بعضهم نستطيع تقدير مجموعهم بما يقارب ١٣٠٠٠ خيمة.

إن ما يمكن ملاحظته في المنطقة بين كبيسة ومنخفض الجوف، هو وجود عدد من الرجوم (جمع رجم) وهي نتوءات صخرية تعد علامات للحدود بين سلطات مختلف شيوخ البدو.

في اليوم الخامس منذ مغادرتنا كبيسة كما قلت سابقاً، وصلنا إلى خيام دليلنا. وخلال إقامتنا معه لمدة أربعة أيام عوملنا معاملة حسنة، ولم يكن هو الوحيد الذي عاملنا باحترام بل آخرون، منهم الشيخ ابن مجلاد وجميع أفراد القبيلة الذين قابلناهم.

إن قبيلة عنزة، تنقسم إلى قسمين: البشر وهم الذين يسودون تقريباً في شمال وشرق الصحراء السورية الكبيرة؛ وضنا مسلم، وهم الذين يسودون الجزء الغربي منها. بعض العشائر الرئيسية المتفرعة من فرع البشر، هم السبعة، الفدعان، العمارات (الدهامشة فرع منهم). أما ضنا مسلم فهم الرولة، السوالمة، ولد علي، والأشاجعة. فيما يتعلق بعدد أفراد قبيلة عنزة وجدنا أنه من المستحيل الوصول إلى تقدير مقنع لتعدد التقديرات التي أخبرونا بها، ولكن بجانب خيمة ابن مجلاد حيث خيمنا أحصينا ما يقارب ٢٥٠ خيمة.

كانت إقامتنا مع عنزه لمدة اربعة أيام هي الأكثر إثارة حيث أتيحت لنا الفرصه لنأخذ صورة ممتازة عن حياة البدو في الصحراء. خلال هذه المدة انتقلنا معهم مرتين بحثاً عن الماء والمرعى. النساء في هذه المناسبات (مناسبات الرحيل) بشكل عام يركبن في هوادج يظللهن غطاء كبير يسمى «شطاب».

والرجال المسنون وأيضاً الرجال الأصغر سناً يبدون ملتزمين دينياً فهم يصلون صلواتهم اليومية الخمس بانتظام .

إنهم ليسوا ضخام البنية ولكنهم رشيقون ونحيلون وسحنهم أشد سمرة من الحضر المستوطنين في حائل والجوف . خلقتهم حسنة وعيونهم داكنة اللون، وجميعهم يضفرون شعورهم في جديلتين، كل جديلة منها على جانب من جوانب الوجه . بالنسبة لنا وبعد سنين من وجودنا في إفريقيا، فإن الجميع من هؤلاء البدو رجالاً ونساء يمكن وصفهم بالوسامة والجمال، وأعتقد أن أغلب الناس يعتبرونهم كذلك . النساء في هذه القبيلة رغم أنهن بشكل عام يبقين في المحارم، ولايشاركن في النقاشات مع الرجال حول مواقد القهوة (كما جرت العادة عند النساء في قبيلة الصلبة او نساء الجبل في حوران) إلا أنهن أكثر تحرراً من نساء القرى من حيث تغطيتهن لوجوههن . إضافة إلى ذلك فإنهن كما يبدو يقمن بمعظم الأعمال في عمليات الرحيل وبالتحطيب وغير ذلك من الأعمال . الخيول قليلة عندهم وفي الحقيقة لم نر إلا مايقارب ثمانية أو تسعة منها عند عشيرة ابن مجلاد عندما كنا عندهم، والإبل هي الوسيلة المستخدمة للركوب وخصوصاً النياق منها لأنهم يعتبرون ركوب الجمال أمراً غير مناسب .

إن من المثير هنا، ملاحظة أن الصوت المستخدم لمناداة الناقة غير ذلك المستخدم لمناداة الجمل، وقد كانت تجربتي تتلخص في أنه إذا تم استخدام النداء الخاطىء فقد لا يلقى النداء اهتماماً . الصوت المستخدم للناقة هو "هاي" ويبدأ الصوت منخفضاً ويرتفع بحدة، أما بالنسبة للجمل فالصوت هو "زا - ها" وأن تكون نبرة الصوت أعلى في القسم الأخير وأقصر في الجزء الأول .

إن حياة البدو تعتبر أقصى حالة من حالات البطالة . حيث أنهم لايفعلون

شيئاً على الإطلاق، عدا التنقل من يوم لآخر مع قطعان ماشيتهم. كبار السن منهم يمضون أوقاتهم جالسين بالقرب من موقد النار يشربون القهوة، أما الأصغر سناً فهم بالمثل أيضاً يعيشون حياة رتيبة ماعدا شهور الشتاء عندما يذهبون في الغزو للاستيلاء على ماشية وخيام أعدائهم. إن مطالب وحاجيات البدو قليلة جداً، فأقصى رغبتهم هو الحصول على بندقية أو مسدس أو منظار. أما طعامهم وملابسهم فهي بسيطة جداً. يتكون الأكل بشكل أساسي من الرز والطحين والتمر وحليب النياق والقهوة وفي بعض الأحيان اللحم. أما ملابسهم فتتكون من عباءة وثوب (زبون) وسروال وكوفية وعقال. لايبدو أن هؤلاء البدو بصحة جيدة فعدد منهم يعانون من سعال قوي، وكثير منهم يشتكون من صعوبة في الهضم، كما أن بعضهم يشتكون من عيونهم بسبب الإكثار من شرب القهوة حسب قولهم.

إن قبيلة الرولة كما أخبرنا ستكون مخيمة في مكان ما بين مساكن هذه القبيلة والجوف، لذا فإن دليلنا محمد الماضي، الذي قال إن أخاه عبدالله سيرافقنا كدليل، رأى أن من الضروري أن نأخذ معنا رفيقاً آخر ينتسب إلى الرولة حماية لنا إذا ما قابلنا أحداً منهم. لقد وجدنا بصعوبة رجلاً كبير السن من الرولة يرافقنا مقابل مبلغ من المال. و ثبت لنا أن هذا الرجل لا فائدة منه على الإطلاق، لأننا لم نصادف أحداً من قبيلته ولم يساعدنا أبداً لا في حلنا ولا في ترحالنا.

في اليوم الرابع والعشرين من شهر يناير اشترينا جملاً لعبدالله ليركبه وأنطلقنا إلى الجوف بعد أن ودعنا رفيقنا السابق وأصدقاءنا من قبيلة عنزة.

بعد أن غادرنا المخيم، عبرنا منطقه تدعى عميج، التي تأخذ اسمها من اسم وادٍ هو وادي عميج الذي سرنا على امتداده مسافة ليست قصيرة حتى التقى

بوادي حوران. مثل جميع الوديان التي عبرناها في هذه الجهة من جهات الجوف، لم نر ماءاً يجري بها، ولكننا كنا نحصل على الماء بعد حفر عدة أقدام في الأرض و كل هذه المنطقة تحمل اسم الوديان. لم تختلف المنطقة التي سرنا عبرها لمدة يومين عن المنطقة التي عبرناها قبل وصولنا مخيم عنزة، فهي سهول واسعه مغطاة بالأعشاب. في مساء اليوم الثاني وصلنا إلى سلسلة من التلال التي ترتفع من ٨٠ إلى ٩٠ قدماً فوق السهل المحيط، و تسمى حزيميات، وتمتد هذه السلسلة باتجاهات الشرق والغرب.

ابتداء من هذا اليوم حتى وصولنا إلى الجوف، تغيرت جميع سمات المنطقة فأصبحت تلالية ترتفع مابين ١٥٠ - ٢٠٠ قدم، وتمتاز بصخريتها وبشدة انحداراتها ووعورتها. كانت بعض المنحدرات التي كان علينا النزول من خلالها، شديدة الانحدار. وبدلاً من العشب الذي كان في طريقنا في المراحل الأولى من سفرنا أصبحت جميع المنطقة مليئة بالصخور، صغيرة وكبيرة، مدورة الأشكال، و الاستثناء الوحيد في هذه المنطقة نجده في بعض المنخفضات وقيعان الوديان حيث نرى بعض الأعشاب أو الشجيرات التي تحمل أزهاراً برية. لقد عبرنا أودية جافة ذات قياسات متساوية يبلغ اتساعها من ٢٠ ـ ٣٠ ياردة. و كما قلت كانت هذه الوديان جافة عدا وادي تبل و أودية أخرى حيث كنا محظوظين بوجود اثنتين من خباري الماء، التي خلفتها الأمطار ولكنها كانت متسخة. في المواسم الممطرة يكثر الماء في كل هذه الأودية كما أخبرنا مرافقونا. في وادي تبل توجد بعض الآبار التي تبعد إحداها عن الأخرى مسيرة ثلاث ساعات على طول مجرى الوادي، حفرها أفراد قبيلة الصلبة. وفي الصيف ويمكن استخراج الماء من هذه الآبار بشكل دائم إذا حُفرت الأرض لعدة أقدام. إن الصخور الرملية الموجودة في جبل

أمغار ومنطقة الجوف من النوع الذي تتغير ألوانها بشكل آسر، فتأخذ اللون البنفسجي والأزرق الأرجواني والأصفر. لا توجد أية علامات لوجود زراعة في المنطقة، لا حديثاً ولا قديماً ولم نر شيئاً يدل على ذلك، إلا في مكان قريب من وادي حزيم، حيث وجدنا بعض الصخور المبنية التي قال مرافقونا إنها تشير إلى أنه كانت هناك بعض البساتين، ولكنني أعتقد أن من غير الممكن حتى في موسم الأمطار وجود زراعة في المنطقة، عدا بعض البقع التي تقع بجوار مجاري الأوديه. ماوراء نطاق كيـــة لم نر الكثير من حيوانات الصيد، ولكن في ثلاث أو أربع مناسبات رأينا قطعاناً من غزال الريم الصغير الحجم، الذي يقارب في حجمه حجم غزال تموسون الذي ينتشر في شرق إفريقيا، ولكن قرون غزلان الريم أطول ولها انحناءة صغيرة للخلف. أما طيور الحبارى والقطا فهي متوافرة وعلى طول امتداد طريقنا إلى الجوف. كانت جميع الغزلان والطيور مسعورة. فالغزلان فرت عندما كنا على بعد نصف ميل منها ولم نرها مرة أخرى. إنني أرجع سبب ذلك إلى حقيقة أن البدو الذين يتنقلون في هذه المنطقه دائماً مسلحون بالبنادق ويطلقون نيرانهم على جميع الطوارد التي يرونها، كما إن بعضهم يستخدمون الصقور لصيد الطيور وحتى الغزلان. لقد كنا محظوظين لاختيارنا أحسن أوقات العام للسفر. فالمناخ كان ممتازاً، وإن كان بارداً خلال الليل، فالتيرمومتر سجل في إحدى الليالي ٢٥,٥ درجة مئوية، ولكن ذلك يتغير بشكل كبير خلال منتصف النهار حيث تصل درجة الحرارة إلى ٩١ درجة - أي أن مدى التغير يصل إلى ٦٥,٥ درجة بين الصباح ومنتصف النهار.

بالقرب من وادي الباطن أسعفنا الحظ بملاقاة بعض الناس من قبيلة الصلبة. هؤلاء القوم وبعيداً عن كونهم مثيرين للاهتمام، كنا محظوظين

بملاقاتهم، لأننا قد أضعنا طريقنا، والماء أخذ يقل معنا، ولا نعرف أين نبحث عنه، وقد أخذونا إلى مكان نستطيع أن نحصل منه على ماء لتعبئة قربنا.

إن أصل هؤلاء القوم ينتابه الغموض، ولكنني سمعت عدة نظريات، النظريه الأولى تقول إنهم يعودون بجذورهم إلى الصليبيين، وإن اسمهم يعني الصليب. نظرية أخرى تقول إنهم السكان الأصليون للجزيرة العربية واسمهم يأتي من كلمة «أصل».

إنهم صغار في أحجامهم ولكنهم يمتازون بالوسامه. نساؤهم أجمل من نساء البدو الآخرين الذين رأيتهم. إنهم مسلمون وإن كانوا غير دقيقين في تطبيق الشعائر والقوانين الإسلامية. القبائل البدوية الأخرى تحط من قدرهم وتسلبهم. فعندما يغتنون، تهاجمهم قبيلة عنزة والقبائل الأخرى وتأخذ قطعانهم. إنهم لايمتلكون الا القليل من الإبل ولكن كثيراً من الأغنام والماعز والحمير المشهورة بقدرتها على التحمل والصبر.

يشتهر الصلب ببراعتهم في الصيد، وبمعرفتهم بالمنطقة، ومعرفة أماكن وجود الماء. الرجال منهم يلبسون ثياباً فضفاضة جذابة الشكل، مصنوعة من جلود الغزلان التي يصطادونها. فالثوب الواحد يتطلب جلود مايقارب خمسة عشر غزالاً. أما النساء فإنهن يلبسن لباساً عادياً مثل الذي تلبسه البدويات الأخريات. أما بنادقهم فهي تشبه بنادق صيد الحيوانات الكبيرة المستخدمة في شرق إفريقيا، وقد رأينا بندقيه ذات فتيل رائعة، وهي ملفوفة بالقماش ومربوطة بأسلاك، قال صاحبها بافتخار إنه بصفة مستمرة يقتل الغزال عن مسافة ٤٠ إلى ٥٠ ياردة. إنهم أكثر إبهاجاً وبساطة من غيرهم ممن رأينا. في المساء ذهبنا إلى واحد من اجتماعاتهم، في إحدى خيامهم، حيث يجتمع الجميع رجال ونساءً حول النار. إنهم يعزفون بشكل ممتاز على آلة

موسيقية تتكون من قصبتين مجوفتين مربوطتين مع بعضها البعض، تخرج صوتاً يشبه المزمار. كما أنهم شعراء مدهشون فهم يستمرون لساعات يقصون قصصاً على شكل قصائد منظومة، وعند آخر كلمة من كل بيت شعر له إيقاع يردده المستمعون بهتافات مليئة بالدهشة والفرح والحزن وبتأثر شديد.

لقد كنا آسفين لمغادرة هؤلاء الناس المتواضعين والمضاييف بنفس الوقت، وأخذنا واحداً منهم ليرينا الطريق إلى الجوف.

إن مقاطعة الجوف عبارة عن منخفض كبير، يعطي الانطباع أنه كان بحيرة كبيرة، أو بحراً داخلياً. أرض هذا المنخفض الكبير صخرية، ومغطاة بطبقات مسطحة من الصخور الرملية ذات الألوان الأرجوانية والمحمرة. إن بلدة الجوف التي تأخذ اسمها من اسم المنطقة تقع على الحد الغربي لهذا المنخفض وفي جوف يتسع تقريباً لميلين. ولكن القادم من الشرق سيصل أولاً إلى سكاكا، التي تبعد مايقارب الثلاثين ميلاً شرق بلدة الجوف.

إن سكاكا عبارة عن واحة تشتمل على عدة الآف من أشجار النخيل التي تنتج افضل أنواع التمور. كما تشتمل على مايقارب أربعمائة مسكن، جميعها مبنية بالطين، ولكنها تمتاز بالمتانة، وبعضها يتكون من طابقين. إننا نقدر عدد السكان بألف وسبعمائة نسمة. بعد أن زرنا الجوف وجدنا أن سكاكا هي الأنظف، وتبدو الأكثر ازدهاراً وأن التجارة القليلة في المنطقة تتم كما أعتقد في سكاكا حيث وجدنا عدداً من تجار كربلاء (مشهد الحسين) ومن النجف (مشهد علي) يعيشون بها. إن الماء في سكاكا وافر، بأنواعه الحلوة والمالحة، ويجلب من الآبار عن طريق الجمال أو الثيران، وبالقرب التي تفرغ آلياً حيث تسقى حقول النخيل والمزارع عن طريق مجاري ماء ضيقة. إن طريقة الري هذه شائعة في شرق تركيا وفي شمال الجزيرة العربية. يبلغ عمق آبار المياه

الحلوة مابين ٥٠ ـ ٦٠ قدماً تحت سطح الأرض .

في الطرف الشمالي للبلدة توجد قلعة مبنية بالحجارة تدعى قصر زعبل ، والتي كما أعتقد ، ذات جذور عربية قديمة ، وأخبرنا السكان أنها تستخدم الآن في بعض الأحيان سجناً .

لقد وصلنا إلى سكاكا كأجانب ، ولم ندع أننا مسلمون ، ومع ذلك عوملنا معاملة تشمل كل معاني الضيافة من شخص مشهداني يدعى حسيناً وكل الذين قابلناهم في سكاكا عاملونا بكل كرم ، وبطريقة لاتختلف عن معاملة حسين .

إن سكاكا بالإضافة إلى بقية منطقة الجوف ، خاضعة لابن رشيد ، ويديرها أحد أمرائه ، وهو يسكن في الجوف ، وله وكيل أو مندوب بسكاكا . وهذا الوكيل اسمه علي ابن جارد (Ibn Gaarde) . عندما سمع هذا الوكيل بوصولنا ، وبأننا عازمون على زيارة الجوف جاء إلينا ليعلمنا أنه علينا الانتظار في سكاكا حتى يحصل على إذن بالسماح لنا بمواصلة مسيرنا من فيصل ابن رشيد أخي أمير حائل ، الذي جاء إلى الجوف قبل شهر ، أميراً لهذه المنطقة .

هذه الأنباء عن فيصل ابن رشيد في الجوف لم تلق استحساننا ، لأننا لم نحمل معنا خطاب تعريف له ، والبقشيش الذي أحضرناه لنعطيه الأمير الذي سبقه كان بندقية ، من المؤكد أنها لاتليق برجل في مكانة فيصل . بعد يوم من وصولنا إلى سكاكا جاءت موافقة فيصل ابن رشيد بتوجهنا إلى الجوف وأعرب عن ترحيبه بنا . إن الرحلة من سكاكا إلى الجوف تستغرق سبع ساعات على ظهور الإبل . وهذه المنطقه تزخر بالتلال ، يتخللها بعض بقع نفود (رمال) وكل الصخور من أصل رملي . وفي مكان يسمى مويسن على

مسافة ساعتين من الجوف، يوجد حصن قديم غيرمستخدم، وينبوع وبئران. وفي جاوة وهي تبعد قليلاً عن مويسن توجد هناك قريه صغيرة، وزراعة في وادي روض الفراس. حال وصولنا إلى الجوف أخذنا فوراً إلى قصر الأمير أو قلعته وهي عبارة عن مبنى كبير من الطين والحجارة طولها تسعون ياردة، وعرضها خمسون ياردة، وارتفاع الجدران أربعون قدماً وفي كل ركن يوجد برج بارتفاع ستين قدماً. وهي مبنية بغرض دفاعي، فليس بها نوافذ، والباب في زاوية الجدار وهي محصنة جيداً. دخلنا غرفة استقبال وقدمت لنا القهوة، وبعد دقيقة قادونا إلى فناء القصر حيث رأينا المدفعين البريطانيين اللذين تكلمت عنهما الليدي آن بلُنت، وصعدنا الدرج لمقابلة الأمير فيصل ابن رشيد.

كنا غير واثقين من نجاح المقابلة، لأن سمعة فيصل لم تكن طيبة كما ستوضح هذه القصة:

قبل حوالي ستين ونصف من زيارتنا، كان سلطان حائل عبد العزيز ابن متعب قد توفى تاركاً ثلاثة أولاد، هم: متعب ومشعل ومحمد، وأعمارهم على التوالي عشرون، خمس عشرة سنة وعشر سنين. خلف متعب وهو أكبرهم والده على المشيخة. عند وفاة عبد العزيز، كان على قيد الحياة أبناء ابن عمه [حمود عبيد الرشيد] وهم سلطان، وفيصل، وسعود وكانوا رجالاً راشدين. بعد مضي ستة أشهر على متعب في الحكم تآمر أبناء حمود على ابن عمهم لإبعاده عن السلطة، فدعوه هو وأخوته الصغار ومعهم غلام يدعى طلالاً وهو ابن نايف بن طلال إلى رحلة خارج البلدة. وبعد تناول الأكل، تم اقتراح أن يقوم العبيد بالاستعراض على ظهور الخيل وبإطلاق النار. وبينما كان هذا الاستعراض جارياً أخذ سلطان وفيصل وسعود بنادقهم ويدأوا

بإطلاق النار على الأولاد الأربعة فقتلوهم جميعاً ماعدا الصغير محمداً الذي جُرح جرحاً بليغاً، فأُخذ إلى أمه وهي أخت هؤلاء السفاحين الثلاثة. وبعد ما يقارب شهرين بعد هذه الواقعة شعرا بأن محمداً قد يشفى، فذهب سعود إلى بيت أخته ومعه ستة من العبيد فقطع الصبي إرباً إرباً أمام عيني أمه. بعد هذه الحادثة الوحشية، تولى سلطان الرشيد بوصفه أكبر هؤلاء الوحوش مقاليد الحكم في حائل، ولكنه كما هي العادة في هذا الجزء من العالم، قُتل سلطان على يد أخيه سعود عندما كنا هناك، وسعود وفيصل بدورهما تم القبض عليهما وسجنهما من قبل خال الغلام الرضيع الذي خلفه متعب.

وجدنا فيصل ابن رشيد يجلس في غرفة سفلية، سقفها مدعم بأعمدة خشبية، وفرشت أرض الغرفة بالسجاد حيث كان يجلس وزراؤه وأعضاء بلاطه. جلس هو خلف موقد النار في الجانب الآخر من الغرفة، وعند دخولنا وقف وتقدم للترحيب بنا. إنه رجل يبلغ الثالثة والثلاثين من العمر، وله لحية سوداء مدببة، وملامح منتظمة وحسنة، وعينان باردتان قاسيتان وله سلوك مستفز، وكان كل الوقت مشغولاً بإصلاح عباءته، ويمشط ويرتب شاربه وينظر إلى مرآة رخيصة الثمن كانت معلقة خلفه. وفوق رأسه على الجدار علقت عصا محلاة بالفضة وسيفه الذي له غمد محلى بالفضة أيضاً. كان الأمير يرتدي فاخر الثياب مما يدل على مدى ثرائه، وكانت عباءته من القماش الغالي، مطرزة بالذهب وكان كل ثوبه من الحرير، وعقاله مثقلاً بشريط من الذهب.

وعند وصولنا إلى المنزل الذي أُعد لإقامتنا، أعربنا أنا والكابتن ايلمر عن غبطتنا بهذا الاستقبال والحفاوة وحظنا السعيد. واعتقدنا أننا سنقضي وقتاً طيباً في الجوف، ولكن الأمور بسرعة تحولت إلى خيبة أمل. لم نستقر أكثر

من خمس دقائق في المنزل حتى جاء إلينا رئيس عبيد فيصل وكان يلبس فاخر الثياب ويدعى داحماً وأخبرنا أن الأمير لن يأخذ جمالنا أو مالنا لأنه يملك الكثير منها، ولكنه يرغب في أي شيء معنا أوروبي الصنع أو مثير أو جديد أتينا به معنا. وأثناء الأيام الخمسة التي قضيناها هنا، توافد علينا عبيد الأمير والطفيليون من القلعة يطلبون أشياء للأمير ورجاله. وكانت المطالبة بصورة لايمكن بالنسبة لمن هو في موقفنا أن يرفضها، فاستمر الأمر على هذه الحال إلى أن فرغ تماماً ماكان لدينا وأعطيناهم كل ما له قيمة حتى أصبحنا صفر اليدين من الساعات، والمسدسات، والبوصلات، والملابس بأنواعها، والأشياء الأخرى. وبعيداً عن هذا الأسلوب، الذي يعتبر نهباً مؤدباً، فقد عاملنا الأمير معاملة حسنة، وكان يرسل طعامنا بنفسه من القلعة. كما كان يدعونا أربع مرات في اليوم للقلعة وكنا نسارع بتلبية الدعوة لنشرب كميات من القهوه وشاياً جيداً طيب المذاق في صحبة الأمير، ونتحدث عن بلاده وعن أوروبا. كان يسأل أسئلة كثيره عن إنجلترا وشعبها، وكان يكشف عن جهل عظيم بها ولكنه كان يعرف اسم ملك إنجلترا وملكتنا الراحلة فكتوريا جيداً. وكان لطيفاً في الحديث عن هذه الأشياء مما جعلني أعتقد بأنه كان يعتقد أنه عاملنا معاملة جيدة لأنه لم يأخذ كل ما لدينا ويقذف بنا للصحراء لنموت هناك.

وقبل أن نترك موضوع ابن رشيد، ينبغي علينا أن نعرف كيف يتعامل مع جيرانه المتعددين، وأهم وأول هؤلاء هم الأتراك - ولابد من الذكر هنا أنني أتحدث عن فترة مضى عليها ثمانية أشهر، قبل أن يمنحوا الدستور الحالي.

إن الأتراك فيما يبدو ليس لهم نفوذ على سلطان حائل، والأمر ليس له علاقة بعدم وجود علاقات صداقة، بل إن هناك شعوراً بالعداء للأتراك من

السلطان ابن رشيد في حائل. وهذه الكراهية كما أخبرني أحد الرجال المهمين في الجوف ربما كانت تعزى إلى أن الحكومة العثمانية كانت تدفع إعانة لسلطان حائل الذي كان يدين لها بالولاء، ولكن عندما قتل ابن رشيد الراحل أبناء عمومته وأعلن نفسه السلطان على حائل أوقفت الحكومة العثمانية الإعانة. وبدلاً من أن تدفع له أخذوا يدفعونها للطفل الذي أنجبه الحاكم الشرعي القتيل متعب و الذي أُخذ ليعيش في المدينه بعيداً عن خطر الموت.

يلي الأتراك في الأهمية من الجيران، آل سعود المنافسون القدامى لسلطان حائل، والذين بينهم وبينه حالة حرب مستمرة يتقاسمان انتصاراتها. وعندما كنا في الجوف أخبرونا بأن ابن رشيد هزم ابن سعود هزيمة كبيرة في ربيع ١٩٠٧م كانت أشبه بالمذبحة الكبرى، فقد قُتل من رجال ابن سعود ثلاثمائة رجلٍ وساد ابن رشيد بعد تلك المذبحة. ولكننا ونحن في الجوف علمنا بأن الدائرة دارت على ابن رشيد، وأصبح ابن سعود هو المتفوق. وبجانب هاتين القوتين الكبيرتين الأتراك وابن سعود، لم يكن هناك قوة في الجوار تهدد ابن رشيد إلا قوة عنزة.

كان ابن رشيد الراحل في حالة سلام مع الرولة ـ الذين هم فرع من عنزة ـ بقيادة ابن شعلان، وعندما كنا هناك، جاء ابن شعلان شخصياً في زيارة مجاملة لفيصل ابن رشيد في الجوف، وأحضر له الهدايا كرمز للصداقة. ولكن مع بشر عنزة كانت هناك حرب، وليس بعيداً من تاريخ وصولنا إلى الجوف كان فيصل ابن رشيد يقوم بغارات على بشر عنزة بنجاح كبير، على حد رواية اتباعه إذا كانوا قد صدوقنا القول.

قضينا خمسة أيام في الجوف وكان لدينا الوقت للنظر حولنا. البلدة تمتد من الشمال الغربي والجنوب الشرقي، وتقع في حزام من النخيل يبلغ طوله

ميلين ونصف الميل، وعرضه نصف ميل. وفي النهاية الشمالية يوجد الحصن القديم المسمى «مارد» والسوق. وفي النهاية الجنوبية توجد قلعة الأمير وهي مبنى شيد في منتصف القرن الماضي. أما السوق، فلايستحق هذا الاسم فهو عبارة عن مجموعة منازل حول الحصن، ولا توجد دكاكين وكل عمليات البيع والشراء تتم في البيوت التي يمتلكها التجار هنا وفي سكاكا أيضاً. وفي كلا المكانين لم نجد شيئاً يمكن شراؤه، عدا القهوة والدقيق ولايوجد سكر أو أرز أو شاي أو بصل أو أي شيء آخر له قيمة يمكن شراؤه. إنها بلدة تتكون من ٤٥٠ منزلاً طينياً، وأقدر عدد سكانها ب ٢٥٠٠ ـ ٢٧٥٠ نسمة وبالتأكيد ليس أكثر بكثير، وأتفق مع ويلفريد بلنت بأن بلغريف بالغ عندما وضع سكان الجوف وسكاكا في رقم مثل أربعين ألف نسمة بينما السيد فوردر ذكر أنه لما كان هناك وجد عدد السكان أربعين ألف نسمه في الجوف وحدها. إن المنازل مثلها كمثل المنازل في سكاكا مبنية جيداً من الطين، وبعضها يتكون من طابقين. وفي الجوف مثلما هو الأمر في سكاكا، يعتز الناس بالنخيل، لأن تمرها كبير ولذيذ الطعم ومشهور بأنه أطيب تمر في شمال شبه الجزيرة العربية. والصناعة الرئيسة هنا هي نسج العباءات وحقائب السروج وأغطية رؤوس الجمال، وصناعة السيوف، وفي سكاكا أيضاً ينسجون العباءات الفاخرة، وهذه العباءات معروفه في دمشق وبغداد. الماء في الجوف متوفر وجيد، وهناك ستة ينابيع وكثير من الآبار ويقول المواطنون إن ماءهم بارد في الصيف ودافيء في الشتاء. وبالفعل كان الماء دافئاً في الشتاء أما برودته في الصيف فهي ما لا أستطيع تأكيده. و مارد القلعة القديمة التي تتجمع حولها المنازل، والتي يعطيها السكان أهمية كثيرة لاتلفت النظر إلى أنها كان شيئاً رائعاً ذات يوم، وهي الآن متهدمة، وأعتقد أنها شيدت قبل ستمائة سنة.

إن سـحنات أهل حـائل أفتـح لوناً من سـحنات أهل الجـوف. وقـد أثبت السـكان بأنهم أقـوياء المراس في الماضي، وأثاروا مشكلة كبرى للسـلطان في حائل، ولكنهم الآن كمـا يبدو مطيـعون للقوانين و يدفعون الضـرائب لابن رشـيد بدون أدنى تذمـر. والضـرائب هي: ريال عن كل عـشـرة من الماعـز أو الضأن، وريال لكل خمسة جمال، وستة ريالات لأي حمولة بضاعة يجلبها التـجـار، وريال عن كل جـمل يبـاع، والعُـشـر عن جـميع مـحاصـيل التـمـر والحبوب من نفس المنتج.

بعد صعوبة، وجدنا رجلاً بمساعدة الأمير ليأخذنا إلى الشام (دمشـق جنة البدو). وفي صبـاح اليوم الخامس من وصولنا إلى الجوف وبعد وداع الأمير فيصل ابن رشيد، الذي أعطانا خطابات تعريف منه إلى دروز جبل حوران، بدأنا رحلتنا ومعنا مرشدنا حبيب، وخادمنا عباس، وشـاب يسـمى حامداً تعلق بنا بالرغم من أننا أبلغناه بأننا لانريده.

في الأيام الثلاثة الأولى للرحله بعد مغادرتنا الجوف، سافرنا عبر سـهل ممتد ذي تربة صخرية، تكسـوها أعشـاب قصـيرة، ومن وقت لآخر تتخللها أحزمة رمال وتلال رملية منخفضه. لقد سرنا متبعين طريق وادي السـرحان، ولكننا في معظم الوقت بقينا بعيداً بعض الشـيء شرق طريق الآبار، هناك ماء على طول الطريق من الجوف إلى دمشق. وهناك خط منتظم من الآبار من ميقوع، وبعد كل ساعات قليله حتى قصر الأزرق، حيث يمكن الحصول على الماء حتى في الصيف كما أخبرنا مرشدونا. و عندما تكون في قصر الأزرق فإنك عملياً في جبل حوران حيث الماء متوفر.

عند منتصف نهار اليوم الثالث بعد أن غادرنا الجوف أتينا لآبار النبك أبو قصر حيث وجدنا بعض الرولة يستقون، ولديهم جمال كثيرة. لقد كانوا من

رولة الشيخ ابن شعلان، أقوى شيخ في قبيلة الرولة. وكانت مضارب خيامه على بعد يومين منا كما أخبرونا. ولما كان يسود في ذلك الوقت سلام بين ابن رشيد وابن شعلان، ومرشدنا يعمل مع ابن رشيد، عاملونا معاملة طيبة. وفي المساء الذي تلا ذلك وقريباً من وادي العيلي مررنا بجماعة أخرى من الرولة وعسكرنا معهم و بسبب هطول الأمطار الغزيرة التي منعت الجمال من السير، قضينا اليوم التالي معهم. لقد عاملونا معاملة طيبة وأكرمونا جيداً ونصبوا لنا خيامنا وأمدونا بلحم إبل وحليب وحطب. لم يكن عددهم كبيراً، فقد رأينا حوالي ثلاثين خيمة فقط. ولم يكن معهم أغنام أو ضأن بل إبل فقط.

عندما وصلنا إلى مخيمنا في وادي العيلي، تغيرت طبيعة الأرض، واختفت الرمال والأرض المستوية، ذات التربه الصخرية، لتحل محلها تلال رملية مغطاة بالحجارة والصخور. ولم نشاهد جنوب وادي العيلي تكوينات بركانية. ومن هنا إلى جبل حوران ظلت طبيعة الأرض تلالاً رملية باستثناء الجزء الواقع بين كاف وقصر الأزرق حيث كان مسطحاً وسهلاً تغطيه أعشاب قصيره. وكان أكبر تلين شاهدناهما بين وادي العيلي وجبل حوران هما جبل الشداد وسمي كذلك لأنه يشبه سرج الجمل، وجبل المسمى وهو في الشمال قليلاً وجبل آخر طوله عشرون ميلاً ومئتان إلى مئتين وخمسين قدماً في الارتفاع في بعض أجزائه. وقريباً من جبل الشداد على بعد ميل واحد أو ما يقاربه مررنا على بحر من الرمال اللينة تسمى نقرة حضوضى وتبدو بيضاء وتلمع في ضوء الشمس وهي حوالي عشرة أميال مربعة، ولا يستطيع إنسان أو حيوان اجتيازها. هكذا أخبرنا مرشدونا. ولو ألقيت فيها حجراً لابتلعته.

بعد ثمانية أيام من مغادرتنا الجوف، وصلنا إلى البليدات. وهي مجموعة من القرى الصغيرة، تمثل حدود سلطة ابن رشيد الشمالية. وأسماء القرى

على التوالي هي : قرقر، غطي، قليب طلال، الوشواش، إثرة، منوة، كاف، أم الغيران. وباستثناء كاف التي يسكنها أربعمائة نسمة، وإثرة التي يسكنها مائة نسمة، فبقية القرى عبارة عن حصون طينية بها بعض النخيل وينبوع ماء وحوالي عشرة من السكان. الماء في كاف كبريتي، ولكنه لا يطاق طعماً، ويسبب وجع رأس وإسهالاً لمن لم يتعود عليه، ويسبب في الصيف حمى للسكان. وهناك بقايا حصن يسمى قصر الصعيدي، وهو مشيد فوق جبل ارتفاعه ٤٠٠ قدم، ويطل على البلدة. بالقرب من كاف، توجد ملاحة كبيرة يجمع منها الأهالي الملح، ويبيعونه للبدو المجاورين. وفي قصر الأزرق توجد آثار قديمة، ولكنها في حالة أحسن من التي في كاف. وعندما قضينا الليل هناك كان هناك مجموعة من الأعراب ذوي نظرات إجرامية، وكانوا يحفظون هذا المكان للدروز. لقد عاملونا معاملة حسنة، وعملوا ما في وسعهم لتكون إقامتنا مريحة. وقال لنا رئيسهم إنه موجود في هذا المكان منذ شهرين فقط، وإن أول واجباته هي أن يمحو بقايا من سبقه في هذا المكان، الذي عُلقت جثته على باب بيته لعدة أسابيع لأنه قتل رفيقه في هذا المكان، وكعقاب له فُعل به نفس الشيء. فابن القتيل استنجد بالدروز لأخذ الثأر لأبيه، وقد فعلوا حيث شنقوه وعلقوه أمام باب بيته لمدة أسابيع.

من قصر الأزرق، إلى جبل الدروز استغرقت رحلتنا يومين. وكنا نصعد كل الوقت جبل حوران، وقضينا الليل مع أهل الجبل. هؤلاء الناس كما أخبرنا مرشدونا كانوا من أخطر اللصوص وقطاع الطرق، ولكنهم عاملونا معاملة طيبة. إنهم بدو لهم علاقة قرابة بالدروز ويترددون على المنحدرات الجنوبية من الجبل ولديهم الكثير من الأغنام والضأن، ولكن لديهم القليل من الجمال. النساء هنا سافرات وقد جلسن أمام النار مع الرجال، وشربن

القهوة، ودخن غلايين خشبية طويلة تسمى (كندرا) .

ليس من الضروري بالنسبه لي أن أدخل في تفاصيل حول الدروز فهم ووطنهم معروفون جيداً. لقد استقبلونا استقبالاً حسناً، وأشعرونا بالامتنان، لأن الإنجليز ساعدوهم في الماضي، ومازالوا يحفظون لهم ذلك الجميل.

في بدايه الأمر ظنوا أننا أتراك فعاملونا بفتور ولكن عندما اكتشفوا أننا إنجليز لم يدخروا وسعاً في الترحيب بنا وإرضائنا. إن أكبر شيخ للدروز هو مصطفى الأطرش، ويسميه قومه ومعارفه أبوعلي. ووقفنا ليلة عند قريته فاستضافنا بكرم بالغ. والليلة التي تلتها قضيناها في قرية سالم الأطرش، الذي رحب بنا بنفس الطريقة. والأخير هذا كان سيداً متمرداً، وكان دائماً مصدر إزعاج للحكومه التركية. إن مساكن الدروز مبنية جيداً من صخور البازلت السوداء.

وبعد يومين من قرية سالم الأطرش، وصلنا خط السكة الحديد في نقطة تبعد عن دمشق ستين ميلاً. وهنا تركنا جمالنا ليعود بها خدمنا ومرشدونا وأخذنا القطار المحلي في عربة بضاعة تعج بالعرب والأتراك والسوريين ووصلنا دمشق في يوم ٢٥ فبراير. وفيما يتعلق بالحيوانات والطيور في المنطقة من الجوف إلى الجبل لم نشاهد الكثير من الغزلان مثلما شاهدنا في المنطقة من كبيسة إلى الجوف، ولكن رأينا آثار الأغنام البرية قريباً من جبل المسمى والنعام في منطقة العيلي. وشاهدنا طيور القطا، والحبارى، والحجل الذي يصطاد للحمه، ولكن عموماً لم نر الكثير من الطيور مثلما رأينا في النصف الأول من رحلتنا.

بينما كنا في الجوف، أهدانا فيصل ابن رشيد زوجين من قرون الغزال

العربي البري، وأحضرناهما معنا، وهما أقصر من قرون الغزال الإفريقي.

أود هنا أن أسجل بأنني كتبت هذه المحاضرة من ملاحظات الكابتن ايلمر بنفس القدر الذي أخذته من ملاحظاتي، وأسجل له امتناني إذ سمح لي باستخدامها في كتابة هذه المحاضرة ونشر الخارطة، التي أعدها هو من ملاحظاتنا في الرحلة. كما أشكر كل الأصدقاء الذين استضافونا وساعدونا على إنجاز رحلتنا هذه.

الهوامش :

1- H.V.F.Winstone. **The Illicit Adventure**.London:Jonathan Cape,1982.pp.17-36.

2- Captain S.S. Butler, " Baghdad to Damascus VIA El Jouf, Northern Arabia." **The Geographical Journal**,vol. XXXIII,No.5.May,1909.pp 517-533.

رحلة
الويس موسيل(*)
١٩٠٩م/ ١٣٢٧هـ

(*) يختلف كتاب العربية في كتابة اسم موسل، فبعضهم يكتبه موزل أو موريل، وبعض أخر موصل، وهناك من يكتبه الواس موسيل والوا موسل. وقد استخدمنا في الطبعة الأولى من هذا الكتاب موسل لاعتقادنا بصحته ولكن بعد زيارة قام بها محرر هذا الكتاب في صيف ٢٠٠١م إلى الجمهورية التشيكية وزيارة قرية المؤلف والالتقاء بأقاربه والاطلاع على أوراقه الخاصة وجدنا أنه يستخدم اسم الويس موسيل في مراسلاته العربية



الويس موسيل بالزي العربي

الويس موسيل
Alois Musil

يُعد الويس موسيل من أهم الرحالة العلماء، الذين رحلوا وجالوا في كافة مناطق شمال الجزيرة العربية، وكانت مهماته العلمية تأخذ بعض الأحيان جوانب سياسية، ولكنه يعتبر بحق، من الرواد الغربيين الأوائل الذين بغض النظر عن أهدافهم أدوا خدمات علمية جديرة بالاحترام والتقدير وخصوصاً فيما يتعلق بكتاباته التاريخية وتحقيقاته الرائدة فيما يتعلق بشمال جزيرة العرب وتأريخها القديم.

ولد موسيل عام ١٨٦٨م في قرية ديختروف بالقرب من فيشكوف، الواقعة اليوم في جمهورية التشيك، وهي إحدى أجزاء جمهورية تشيكوسلوفاكيا السابقة، والتي كانت جزءاً من الإمبراطورية النمساوية - المجرية في عهد رحلات موسيل.

بدأت علاقات موسيل بالبلاد العربية مبكراً حيث تم إرساله من قبل رئيس الأساقفة كون فون أولمتز في بعثة دراسية إلى القدس، وذلك إلى المدرسة التوراتية. ثم انتقل إلى جامعة القديس يوسف في بيروت، التي منها انطلق في التعرف على البلاد المجاورة، مثل دمشق وتدمر وغزة. تبناه علميًا بعد ذلك عالم الوراثة النمساوي د. هـ. موللر وأمده بالدعم والاهتمام، وبفضله حصل على منحة من الأكاديمية التشيكية للعلوم والآداب لاكتشاف بلاد

العرب وكان ذلك في عام ١٨٩٦م.

تركزت أهداف رحلته الأولى على البحث عن القصور الأموية في صحراء الأردن ورسم الخرائط، حيث شاركه رحلته الرسام فيليش ورسام الخرائط توماس بيرجر، كدليل ومرشد وهو من المعهد الجغرافي العسكري في فيينا. أتم موسيل رحلته ونشرت نتائج هذه الرحلة في مجلدين ضخمين، نشرتهما أكاديمية العلوم الإمبراطورية. بعد هذه الرحلة اشتهر اسم موسيل بين المستشرقين، وخصوصاً في مجال رسم الخرائط للمناطق التي زارها، والتي احتوت على آلاف المواقع التي تم تحديدها لأول مرة، مما دفع وزير الخارجية البريطانية إدوارد جراي للطلب منه تقديم مذكرة حول مسألة تثبيت الحدود المصرية الفلسطينية عام ١٩٠٦م، التي تم اعتمادها من قبل الحكومتين البريطانية والعثمانية لاحقًا(١).

يذكر موسيل أن اكتشافاته مابين ١٨٩٦ - ١٩٠٢م قادته إلى الحدود الشمالية لبلاد العرب السعيدة، وإلى الحدود الغربية لبلاد العرب الصحراوية، وأثارت لديه الرغبة في الاستمرار في دراساته. وإن بلاد العرب الصحراوية استهوته أكثر من المناطق الأخرى. لذلك فإنه عقد النية على التغلغل فيها والبقاء لوقت طويل لرسم خريطة جغرافية تكون قاعدة لتحقيقاته التاريخية ولدراسة حياة سكان هذه المناطق. وبما أن قبيلة الرولة هي أقوى القبائل في المنطقة في هذه البلاد الصحراوية، فإنه حاول الحصول على حماية شيخ هذه القبيلة وتحقق مراده. بعد أن حصل موسيل على حماية الشيخ النوري الشعلان واعتباره شيخاً من شيوخ الرولة تسمى باسم موسى الرويلي، ورافق القبيلة في حلها وترحالها ودرس عاداتها وتقاليدها، وتنقل في كافة المناطق الشمالية الصحراوية، فقام عام ١٩٠٨/ ١٩٠٩م بالتجوال في

بالتجوال في المناطق الصحراوية لإكمال رسم خريطته للمنطقة، فزار منطقة وادي السرحان، والجوف وسجل أحداثاً مهمة حصلت في المنطقة في هذه الفترة[٢].

وفي عام ١٩١٠م دعته الحكومة التركية إلى إستنبول وعقدت معه مفاوضات للقيام برحلة إلى شمال الحجاز بهدف مسح أجزاء أساسية من خط سكة حديد الحجاز، ولمعرفة التوجهات السياسية لشيوخ القبائل في المنطقة، ولمعرفة أي من المواطن السكنية المحلية في المنطقة يمكن تطويرها. كما كلفه المجلس الصحي في تركية العمل على اكتشاف الطرق التي يسلكها الحجاج وهم يتجنبون محطة الحجر الصحي في تبوك، وتحديد أفضل السبل التي تساعد على مراقبة هذه الطرق، وإذا كان بالإمكان تحويل المركز من هذا الموقع، إلى موقع آخر[٣].

بعد هذه الرحلة في شمال الحجاز، قام موسيل سنة ١٩١٢م برحلة استكشافية اخرى إلى منطقة وسط الفرات وجنوب الهلال الخصيب، وكان يرافقه الأمير سكستوس من العائلة الحاكمة في الإمبراطورية النمساوية المجرية ورودولف توماس برغر من المعهد الجغرافي العسكري في فيينا، والذي كان يحمل اسم تومان خلال الرحلة.

في عام ١٩١٤م وبعد بدء الحرب العالمية الأولى قررت ألمانيا إرسال بعثة إلى الجزيرة العربية للعمل على توحيد القبائل الموجودة بها، والعمل على تكتلها ضد الإنجليز. وقد اختير موسيل رئيساً للبعثة.

بعد هذه المهمة كلف موسيل بمهمة أخرى سنة ١٩١٧م وهي ماسميت "بالمهمة الشرقية لوزارة الحربية في الإمبراطورية النمساوية - المجرية". كانت

الصفة الرسمية للمهمة هي زيارة الأمير هوبرت سالفاتور للوحدات الامبراطورية والتشكيلات ومؤسسات الرعاية النمساوية الموجودة في تركية. وكانت المهمة أيضا تقضي تقديم تقرير عن وضع النمسا في ختام السنة الثالثة للحرب العالمية، و إلى منع انفراد الإمبراطورية الألمانية في شؤون تركية، وإيجاد أساس لتقاسم النفوذ معها. كان دور موسيل هذه المرة دوراً عسكرياً حيث مُنح لقب جنرال، عضو هيئة الأركان، والمستشار الامبراطوري، وكان رئيسا للبعثة ومسؤولاً عن تنسيق الجهود وإيجاد الوسائل الكفيلة بتحقيق أهداف البعثة.

بعد أن حققت البعثة مهمتها ونظراً لخدمات موسيل المتميزة عين عضواً في مجلس الشورى الإمبراطوري. وأوكلت إليه مهمة تعليم الطلبة العثمانيين في المؤسسات التعليمية النمساوية، بصفته سكرتيراً عاماً للجمعية النمساوية للشرق وعبر البحار. استمر في هذه المهمة حتى انتهت الحرب العالمية الأولى وهزيمة الحلف التركي ـ الألماني ـ النمساوي ـ المجري. بعد انهيار الامبراطورية النمساوية المجرية التي وهب حياته لخدمتها، انتقل سنة ١٩٢٠م إلى مدينة براغ، كأستاذ للدراسات الشرقية في جامعة براغ، وتفرغ للعمل العلمي. بعد أن تفرغ للعلم بدأ نشر أعماله وأخبار رحلاته. وتم له ذلك تحت رعاية الجمعية الجغرافية الأمريكية، التي أصدرت هذه الأعمال في ستة مجلدات على مدى عامين من ١٩٢٦م وحتى ١٩٢٨م. شملت هذه السلسلة: -

١ - شمال الحجاز، ٢ - الصحراء العربية، ٣ - وسط الفرات، ٤ - تدمر، ٥ - شمال نجد، ٦ - قبيلة الرولة.

بعد ذلك، كتب موسيل في الصحافة اليومية، محللاً وناقداً لأحداث الشرق الأوسط ومبيناً لمواقفه التي كانت ضد الصهيونية في فلسطين، والتي

كان يحذر من خطرها خلال الحرب العالمية الأولى. كما قام بتأليف ١٣ كتابًا ضمن سلسلة "الشرق الجديد" في الفترة من عام ١٩٣٤ - ١٩٤١م. نال الكثير من التكريم لجهوده، وانتخب عضواً في المجلس الإسلامي الأعلى في القدس. وتوفي عام ١٩٤٤م (٤).

كما ذكرنا سابقاً، كانت رحلته الصحراوية برفقة قبيلة الرولة، بهدف مسح الصحراء ورسم خريطة لمناطقها تمهيدًا لإعداد خريطة تاريخية لها، ودراسة القبيلة وعاداتها. بدأت هذه الرحلة في خريف ١٩٠٨م ورافق الشيخ النوري الشعلان رئيس القبيلة في تنقلاته مع قبيلته، وكان يذهب أحياناً مع مرافقيه لإكمال أعماله ويعود إلى مخيمات القبيلة كلما أنهى مهمة من مهماته.

أصدر موسيل كتابين عن رحلاته في الصحراء العربية أولهما بعنوان " في الصحراء العربية " وهو ملخص لرحلته وثانيهما بعنوان " الصحراء العربية " ويشمل هذا الأخير التفاصيل الكاملة عن كل ما يتعلق بمناطق هذه الصحراء تاريخياً وجغرافياً وسكانياً. ونظراً لأن كل ما ورد فيه يقع ضمن موضوع هذا الكتاب عن منطقة الجوف ووادي السرحان، إلا أنه وبسبب حجمه وأهمية كل ما جاء فيه فإننا فضلنا أن نورد فقط بعض الأجزاء لكي لا تكون عائقاً أمام ترجمة كامل الكتاب من قبل الباحثين الآخرين او المؤسسات العلمية المهتمه.

في رحلته الأولى، وصل موسيل إلى منطقة الجوف يوم الخميس الموافق ٤ فبراير ١٩٠٩م.

ونترك القارئ الآن معه وهو يتحدث عن منطقة الجوف كما رآها(٥):

"عند الساعة الخامسة مساءً رأينا أمامنا منخفضاً عميقًا في السهل الصخري، وفي نطاق هذا المنخفض رؤوس أشجار النخيل الخضراء. لقد

كانت دومة الجندل، أو الجوف الواقعة بعيداً في مكان يبدو أنه أكثر انخفاضاً من مكاننا. لقد انحدرنا من خلال انفتاح في جرف صخري، وتقدمنا بجانب أسوار عالية من الطين، تحيط ببساتين النخيل. كانت جمالنا ترتعب عند كل جدار ونخلة، وبدأت بالهرولة عندما مررنا بجثة جمل في طريقنا. في الوقت نفسه ظهر لناجندي وبندقيته بيده، وكان خفيراً فسألنا: إلى أين نحن ذاهبون؟. وعندماعلم اننا نريد نواف ابن شعلان، رافقنا إلى برج مستطيل وعال، وأخبرنا أن نوافاً يعيش به. وبينما نحن ننيخ جمالنا أمام البوابة، وجدنا أنفسنا في الحال محاطين بوجوه مألوفة، من عبيد ومحاربي الرولة، حيث رحبوا بنا بحرارة. إن القصر الذي يسكنه نواف كان في شكل مربع، محاط بجدار عال، معزز في زاويته الجنوبية الشرقية ببرج منخفض ومستطيل الشكل.

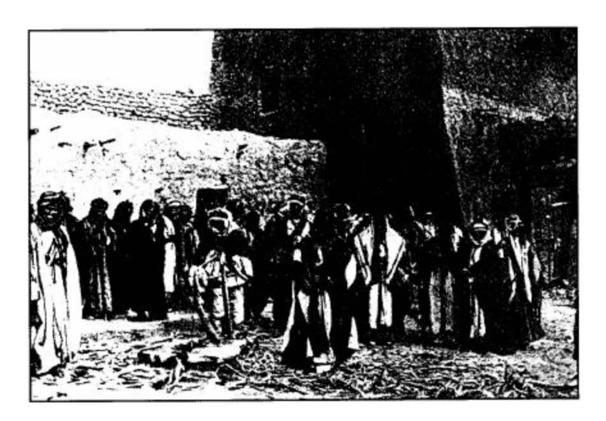
جاء نواف لمقابلتي، وقادني إلى غرفة في الدور الأرضي، حيث كان ينتصب عمود وسط الغرفة، وخلفه تشتعل نار كبيرة، وجلسنا بجانبها في وضع لا نستطيع من خلاله رؤية الباب. قال لي نواف إنه جاء إلى الجوف ومعه خمسة وثلاثون جندياً، أغلبهم من العبيد الشباب، الذين لم يضعوا أسلحتهم الجاهزة للاستعمال جانبًا منذ وصولهم. في المساء (مساء يوم الخميس الموافق ٤/ ٢/ ١٩٠٩) جاء إلى مجلس نواف حوالي خمسين رجلاً مسلحاً من أهل الجوف، مع شيوخهم. جلس الشيوخ في الموقع المقابل لنا، أما حرسهم فبقوا في الفناء الخارجي. إلى اليسار بيننا و بين المدخل وقف خمسة عشر عبداً بأسلحتهم. لم يكن نواف يثق بهؤلاء الشيوخ، ولكي لايؤخذ على حين غرة جلسنا أنا وهو في موقع، يجعل العمود الذي في وسط الغرفة يفصل بيننا وبين الباب حمايةً من أية طلقات يمكن أن تأتي إلينا من

الفناء أو من البرج الصغير جنوب غرب القصر. كان أولئك الشيوخ برئاسة زبن ابن قعيد، الذي كان في حوالي الأربعين من عمره، وقد ذكرتني ملامحه بقوة بملامح البابليين القدامى. ابن قعيد هو الآن الشيخ الكبير بالجوف، لذا جاء يدعو الأمير النوري ليتسلم الحكم داخل هذه الواحة وجوارها.

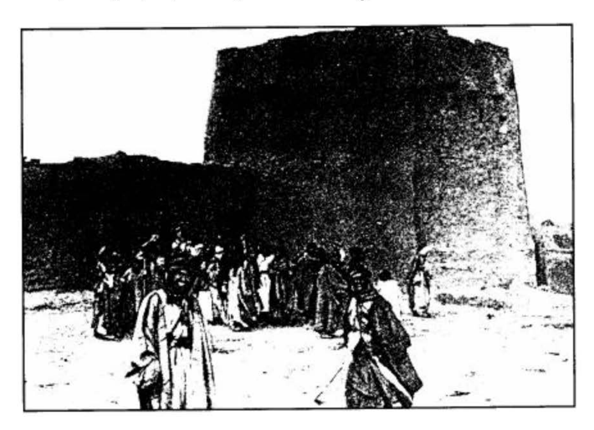
إن واحة الجوف، التي تقع على الحدود الجنوبية لشمال الجزيرة العربية، وبسبب ما تفرضه الضرورة، عليها دائماً الحفاظ على علاقات حسنة مع القبائل ذات النفوذ بالمنطقة، إذا أراد سكانها ألا يكونوا تحت رحمة غاز او قاطع طريق. فطوال أيام حكم ابن رشيد كانت حامية ابن رشيد قادرة على حكم الجوف، و لاسيما عندما يكون الرولة أصدقاء له.

حال حدوث الحرب الأهلية بين اعضاء عائلة آل رشيد طلب كل من فيصل ابن حمود الرشيد آخر نائب للحاكم بالجوف و ابن سعود من نوري الشعلان السيطرة على الواحة.

بعد أن فقد اهل الواحة سيدهم، ابتدأ سكان دومة الجندل والواحات الأخرى بالحرب فيما بينهم. فحال مغادرة فيصل الرشيد، بدأ ابن قعيد شيخ أكبر أحياء الواحة، بإعلان ولائه لابن شعلان، وأخذ على عاتقه التخلص من أعدائه وسلبهم. لجأ هؤلاء الناس إلى اثنين من الأحياء القوية داخل الواحة وهما حيّا مارد وخذما، حيث كانت في خذما حامية مؤلفة من أربعين رجلاً وبقية من جنود ابن رشيد، وكان يقودهم ابن نعام الذي كان يتوق للسيطرة على الجوف لنفسه. بدأ ابن نعام وشيوخ خذما والمارد ومعهم اللاجئون من الأحياء الأخرى بالاتحاد لمقاومة نواف، الذي انضم إلى ابن قعيد، الذي كان يعلم جيداً صعوبة السيطرة على المناطق التي يسيطر عليها الأعداء. نصح ابن قعيد نوافاً بتدمير أملاك معارضيه الموجودة خارج أحياء مارد وخذما، وذلك



الأمير نواف الشعلان مع رجال الجوف داخل فناء قصره (موسيل ١٩٠٩م)



الأمير نواف الشعلان خارج قصره (موسيل ١٩٠٩م)

بهدم منازلهم وتقطيع نخيلهم وردم آبارهم، وإنه فقط من خلال تجويعهم يمكن اخضاعهم له.

لقد رجوت نوافاً لتجاهل هذه النصيحة، لأنه بتنفيذها سيضحي بخير الجوف لعدد من السنين. كما نصحته بأن لا يتفاوض مع ابن نعام بل مع شيوخ مارد وخذما الذين سيدركون أن عليهم الخضوع له، عندما يتأكدون من أنهم لايستطيعون الاعتماد على أي دعم من ابن رشيد، وغير قادرين على مقاومة الرولة. وعدني نواف بأنه سيعمل حسب نصيحتي. وقبل منتصف الليل ذهبت إلى واحد من المجالس في الجانب الغربي للفناء، حيث سأنام فيه، ولكن الغرفة كانت مليئة بالناس وأنواع كثيرة من الحشرات الصغيرة، التي بسببها لم أتمكن من الراحة، ولكم كنت سعيداً عندما بزغت نجمة الصباح فوق الجدار الشرقي.

في يوم الجمعة ٥/ ٢/ ١٩٠٩ وبعد شروق الشمس، ذهبت خارج البوابة حيث مسحت المنطقة المجاورة من على كومة في الخرائب. خلال وقت قصير كان نواف محاصراً بعدد من أهل الجوف، ومن جميع المستويات وكانوا يتوسلونه لكي أزور مرضاهم وجرحاهم. لقد تم أخذي إلى عدة احياء يقطنها أصدقاء ورعايا نواف. من هذه المناطق كانت هناك منطقتان مدمرتان بشكل كامل. فالمساكن مهجورة، والنخيل محروقة، وجدران البساتين مهدمة. لقد واجهت رجالاً يدفعون أمامهم صغار النخيل المصادرة من بساتين أعدائهم المنهزمين. أما الجرحى فكانوا في حالة مزرية، فجروحهم مليئة بالصديد ومتسخة، أطرافهم متورمة، والجميع يعاني من الحمى. لقد علمت بأنه حتى الآن قد قُتل أكثر من ثلاثمائة مقاتل، وإن إطلاق النار مازال مستمراً.

أخبرني بعض السكان عن وجود حجر عليه كتابات غريبة في سوق مارد،

وبالطبع كنت تواقاً لرؤيته، ولكن عندما خرجت خارج نطاق البساتين وفي منطقة الفضاء بين مارد والجبل الذي يحيط بالمنخفض تمت تحيتي بطلقتين.

بعد أن رجعت أعلمني نواف بأنه أرسل رسولاً إلى شيخ مارد، وقد رجع السفير بخبر مفاده أن السكان يرغبون بقدومه هو أي نواف أو عبدالله بن طلال الشعلان مع المملوك عامر [مملوك النوري الشعلان]، وإنهم على استعداد لإكرامهم، وإنهم سيصلون معهم إلى اتفاق.

الأمير نواف بن النوري الشعلان أمير الجوف ١٩٠٩-١٩٢٠م

لكن نوافاً وعبدالله لم يكونا على استعداد للقيام بذلك، فقد كانا يخافان الخديعة، ولذلك ذهب عامر وحيداً إلى مارد.

في المساء، قدم عامر تقريراً إلى نواف يفيد أن السكان على استعداد للاعتراف بنواف سيداً في حال أعاد لهم و للاجئين عندهم أملاكهم، التي تمت مصادرتها فرفض ابن قعيد هذا الأمر.

كانت مطالب المناطق الأخرى تشابه مطالب حي مارد ولكن ابن قعيد ألح على نواف في تلك الليلة للقيام بهجوم على بساتين الأعداء وتدمير جدرانها

وقطع نخيلها، وقد بدأ بعض الشباب المتهورين بفعل ذلك عملياً. وكنا نسمع إطلاق رصاص مستمر، وصيحات الحرب والنواح.

بعد ذلك أمرت مرافقي محمداً بحمل غطائي إلى السطح الغربي، ولكن نوافاً رفض ذلك محذراً ثانية من أنه يمكن إصابتي بطلقة. كنت متعبًا وأريد الراحة مهما كانت المخاطر. حال أن تمددت بفراشي بدا الحراس حولي بالتصويب وإطلاق الانذارات. أخذ جنود نواف مواقعهم في الأبراج والسطوح، فابن نعام بدأ هجوماً باتجاه منزلنا، وقد تم صد الهجوم، ولكنه حاول مرتين معاودة الكرة في تلك الليلة. لقد كان الرصاص يزن في أذني بشكل متواصل والمقاتلون يجرون من حولي، و قد أصابت بعض الطلقات الجدار الحجري للبرج الكبير. بالطبع في هذه الحالة لم أتمكن من النوم و لا حتى محاولة عمل أي شيء آخر، لذلك وصلت إلى قرار بالمغادرة في اليوم التالي إلى الأمير النوري. اقترح نواف، الذي كان يريدني بجانبه، عليّ زيارة قارا والطوير وسكاكا ولكن وبما إنني كنت أعلم بأن هذه الأماكن كانت في حال عدم استقرار تشابه الوضع في دومة الجندل، أجلت الزيارة إلى وقت آخر.

بدأت الاستعدادات للمغادرة، وكنت قد اتخذت هذا القرار لعدم وجود مراعٍ لنياقي في الجوف، أو قريبًا منها، كما أن الوضع لم يكن آمنًا لأدعها ترعى وحدها على مسافة ١٥ او ٢٠ كيلاً بعيداً عني.

في صباح يوم السبت الموافق ٦/ ٢/ ١٩٠٩ أتى بعض سكان الجوف اليّ يدعونني لزيارة الجرحى، الذين عالجتهم في الليلة السابقة، ولكن كانت أغراضي محملة وأنا أريد الذهاب إلى ميقوع حيث يخيم الأمير النوري على مسافة يومين من هنا، فأوصيتهم بالذهاب إلى نواف الذي تركت معه الأدوية المناسبة والضمادات. وانطلقت إلى مقصدي في ميقوع *.

غادر موسيل الجوف متوجهاً إلى مخيم النوري ابن شعلان، وبقي يرتحل معه لعدة أيام ثم غادر مع مرافقيه لرسم خرائطهم، فتنقلوا في مناطق الصحراء المحيطة بمنطقة الجوف حتى يوم الخميس الموافق ١٥ ابريل ١٩٠٩م حيث وصل إلى سكاكا، وهنا نتركه يصف تجربته [٦].

" في تمام الساعة السابعة صباحاً لاحت أشجار نخيل واحه سكاكا مما أعطانا إحساساً بالفرح لا يمكن التعبيرعنه، لأننا لم نضل الطريق. و هاهو الماء والأكل والأمان أمامنا. لم يدم إحساسنا بالنصر طويلاً، فلقد سمعنا طلقاً نارياً ثم طلقاً آخر، ولاحظت عدداً من الرجال يتجهون إلينا من البلدة. وعندما اقتربوا منا تبين أنهم يحملون بنادق. ماذا يحدث ؟ أليس سكان سكاكا أصدقاء الرولة ؟ لقد طلب مني الأمير أن أزور سكاكا عند عودتنا، وطلب مني أن أسأل هناك عن مخيمه. كان أمام الرجال خمسة شبان يهرولون باتجاهنا وعندما اقتربوا منا بما يقارب ثلاثين متراً، وضعوا بنادقهم على أكتافهم، وحددوا هدفاً ثم جاؤوا نحونا في هدوء. حياهم مرافقي مزعل ولكن لم يردوا. كان قائدهم رجلاً في الخامسة والعشرين، وله وجه عطوف، ولكن فيه شيء من القسوة وابتدرنا سائلاً:

" من أنتم ؟"

أجابه مزعل وطارش باقتضاب. فنظر إلى مزعل باحتقار وقال: "أنت صلبي. والصلب أعداؤنا، ونحن لا نعرف هذا البدوي (يعني طارش) ولانصدق كلامكم. وإذا أردتم سلامة رقابكم استسلموا واتبعوني وإلا سنطلق الرصاص عليكم".

وفي هذه الأثناء، أحاط بنا الرجال وقادونا إلى داخل البلدة. وأمام منزل

الشيخ رجاء ابن مويشير [٧]، وكان هذا هو اسم القائد الشاب، أجبرونا على الوقوف وإناخة جمالنا. حاولت التوجه مباشرة إلى مكان الماء، ولكن الرجال انتزعوني من فوق الجمل وأمر رئيسهم رجاله بجمع كل أمتعتنا وإدخالها في منزله فوراً. عندما احتججتُ وطلبت منه الاستماع إلى توضيحي، ضربني على صدري وأمسك ببندقيتي بينما تمكن اثنان من رجاله من الإمساك بي من الخلف وتقدمت امرأة عجوز -عرفت فيما بعد أنها أمه- فبصقت على وجهي وهي تصرخ. وكنت أنظر بينما هم يأخذون أمتعتي بعيداً، وينزلون السروج من ظهور رواحلنا ويطردونها إلى البوابة الضيقة إلى ممر طويل، وقادوني إلى فناء المنزل، حيث أدخلوني إلى غرفة كبيرة ما لبثت أن امتلأت بالرجال الذين أمطروني بالأسئلة، ولكنني لم أقدم أية إجابة. وفي هذه الأثناء قفز مزعل داخل الغرفة.

" من أنتم ؟ " سأله أحد الحاضرين.

" من نحن ؟ " ردد مزعل السؤال اسمعوا إجابتي يا رجال سكاكا. وبدأ بإنشاد قصيدة تعني أنه طلب الإذن من الأمير النوري ليرافقني وليبين لي الطرق إلى سكاكا.

وأجابه الرجال: " أنك كاذب. إنت شاعر، وكل الشعراء يكذبون ".

وبعد ذلك دخل علينا الشيخ ودعاني و رفيقي تومان لنتبعه حيث قادنا إلى غرفة في الدور الأول من البيت الذي بني من اللبن المجفف. وبدأ باستجوابنا واجتاحني شعور بالمهانة لهذه المعاملة، فحذرته من غضب الأمير النوري لو علم بذلك، وغضب ابنه الأمير نواف حاكم سكاكا. وأجابني بأن رجاله كانوا سيطلقون عليَّ النار، وعليَّ أن أحمد الله أنني لم أقع في يد جماعة القرشة في المنطقه الشمالية لسكاكا الذين كانوا في حالة حرب مع الرولة، وبالتأكيد أنهم

كانوا سيقتلونني. ضحكت ساخراً مما قال وأظهرت له أنني لا أخاف من القرشة أو من رجاله إذ يقف خلفي رجال قادرون على الانتقام لي. لقد أزعجه تماسكي هذا وأدهشه، فسأل بصوت خفيف عما إذا كنت الشيخ موسى الذي رافق النوري.

فقلت له: "لماذا تسأل يا رجاء، أنت تعرف تماماً من أنا".

كان يقف أمام داره ثمانية أو عشرة رجال، بعضهم رآني في الجولان، وبعضهم في الغوطة وفي وادي السرحان، وفي الجوف، وفي قارا، وكنت على يقين إنهم تعرفوا على شخصي وأخبروك عني. إنني عشتُ مع الأمير النوري لمدة ثمانية أشهر وأنا متأكد من أنك قلت الزموا الصمت.

فرد رجاء بكلمة "أنا"؟

فقلتُ له: "نعم أنت يا رجاء".

فقال رجاء: "حسناً إنني لا أصدقهم".

فقلت له: "ولاتصدقني حتى أنا، لأنك لاتريد أن تصدق أحداً".

فقال: "نعم لابد أقنع نفسي وأتحقق، سأرسل خطاباً إلى النوري ليؤكد لي بختمه أنك الشيخ موسى".

فقلت له: "يمكنني الآن أن أريك خطاباً بتوقيعه وختمه".

فقال: "لا لا، لا بد أن يكتب لي بنفسه".

وأمر كاتبه بكتابة رسالة للأمير النوري الذي كان على مزعل إيصاله له وقال رجاء إن النوري يستقي الآن في قارا ويمكن أن يلحق به مزعل اليوم. كان مزعل غير متحمس للقيام بتلك المهمة، لكن رجاء أخذ منه كل الأجور التي دفعتها له، وقال له أنه لن يعيدها إليه حتى يسلم الرسالة للنوري ويعود

بالإجابة . في هذه الأثناء كان الرجال الذين القوا علينا القبض يتشاورون فيما بينهم حول اقتسام مامعنا . و كان كل واحد منهم يطمع بالعودة محملاً بنصيبه . كان رجاء يسمع وكانت عيناه تلتمعان كعيون نمر .

وقال : " اسمع أنت ، هل أسلمك لهم ، انتبه وإلا سأفعل ، ماذا ستعطيني؟ أعطني مسدسك " .

فرددت عليه : " سأعطيك مسدساً إذا سمحت لي بتحميل جمالي والانطلاق من هنا " .

فقال : " لن ترى مني إلا الخير طالما المسدس أصبح لي ، وماذا غير ذلك ستعطيني ، الملابس ، النقود ، أريد النقود والذهب " .

فقلت له : " خذها كلها ، هذه ملابسي وبدأت في خلعها . أما الذهب فعليك أن تبحث بنفسك لتجده " .

فتش ملابسي وكان عليّ مرافقته إلى ركن مظلم ، حيث وضعت أمتعتنا وفتش كل شيء ولكنه لم يجد ما يبحث عنه .

وقال لي : " كم من الذهب سترسل لي عندما تذهب إلى النوري ؟ " .

فقلت له : " سأستشير في ذلك ، و إذا عاملتني بكرم ستكون مكافأتي مجزية وسأدفع لك مايرضيك " .

فسألته : " هل لي الآن أن أسرح جمالي وأواصل سيري " . فأجاب بالايجاب ، فطلبت من رجالي تحميل الجمال وعند سماع ذلك خرج الرجال الأربعه الذين اعتقلونا من غرفتهم إلى الفناء وأخذوا يصيحون ومعهم أقاربهم الذين امتلأت بهم الساحة ومدخل منزل رجاء .

قلت لرجاء : " أنت هنا الشيخ وتعهدت لنا بإعطائك كلمتك ، وأنت

صاحب الكلمة الأولى في سكاكا فبرهن على أن عندك القوة لتنفيذ ماقلت" .

وعندها أمسك رجاء بندقيته المارتيني وجرى خارجاً، وهو يتوعد بصرخات وحشية واستمع إلى العديد من الصرخات العدائية والمعارضة ولمعت السيوف والخناجر ورفعت البنادق على الأكتاف.

فعاد رجاء ليقول لي: "انتظر قليلاً ياموسى، وإلا لسالت دماء" .

فقلت له: "والدماء ستلطخك يارجاء" .

بعد ذلك جاءني قريب لرجاء وقال لي: أنهم سيقتلونك أهرب. ودفعني إلى الأمام فجرينا يتبعنا تومان، وقفزنا من بستان إلى آخر حتى وصلنا إلى منزل مران، الذي فتح لنا باب داره وأقفله خلفنا، وجاء بابنه الشاب مسلحاً بمارتيني وقال له: "لاتسمح لأحد بالدخول" . مكثنا مع مران عدة ساعات وأخيراً جاءنا رجاء يرافقه أخوه واثنان من الزنوج، وذكر لنا أنه يمكن أن نرجع إلى بيته الآن. وذكر أن مزعلاً باعنا للقرشة الذين يسيطرون الآن على الطريق المؤدي إلى الطوير، وإن الأمير النوري غادر ذلك الصباح إلى آبار صفان، لذلك فقد أرسل الخطاب إلى نواف في الجوف.

وفي بيت رجاء، التف حولنا مرة أخرى عدد من صعاليك الرجال، واقتادني شاب طويل إلى ركن في الغرفة، وطلب مني الذهب. لقد أخبره مزعل بأني أملك منه حقيبة كاملة، فسألني: "هل أعطيته كله لرجاء؟" قلت: "أجل، أخذ نصيبه لكن نحن لم نزل جوعى" ، وبصعوبة خلصتُ نفسي منه، لأجد نفسي تحت أسر ثلاثه آخرين، إلى أن جاء اثنان من عبيد رجاء وقاداني إلى الخارج داخل حديقة ثم هربنا إلى منزل العقيلي وهو وكيل للأمير النوري حيث بقينا هناك حتى مغيب الشمس. صرخ بي أحدهم ونحن



الأمير النوري الشعلان (اوبنهايم)

خارجون قائلاً: "اللعنة على الغرباء، أيها الناس تعالوا لنذبحهم ونمزق أحشاءهم". فالتفت إليه قائلاً: "لماذا تتحدث هكذا يابني، هل آذينا أحداً؟".

ورد عليّ بقوله: "لعنة الله عليك".

وفي اليوم التالي عرفت من مزعل أنه أرسل تقريراً لنواف باسمي، ووعد الرسول بأن يمنحه ريالين مجيديين، أي مايعادل دولارين وسبعين سنتاً. فقلت له: "لماذا لم تخطرني مسبقاً، لست مسؤولاً عن أي شيء يحدث بلا علمي". كانت جمالي في هذه الأثناء جائعة، ففي اليوم الأول اشتريت لها علفاً زنة ١٢ كغم من عشب السبط، بمبلغ ريال ونصف ريال مجيدي. وفي يومي الجمعة والسبت اشتريت بريالين عشباً جافاً وهو عشب الشيح وشيئاً من الأرطى.

وفي يوم الجمعة جاءنا رجاء بمطالب جديدة، واستناداً إليه، فإن مزعلاً أبلغ كل السكان أنني أعطيتُ رجاء عشرة أرطال من الذهب.

وفي الظهر بدأ نجم السعد يتلألأ، إذ علمت أن حمّاراً أبو عواد كبير عبيد الأمير النوري، وصل إلى سكاكا ووجدته في بيت العقيلي. وعندما سمع بما حدث لي استشاط غضباً وأدخلني فوراً في حمايته وقدم لي خدماته. لقد كان سكان سكاكا يعرفون مكانته عند الأمير النوري فهيؤوا له المكان الأول، ووقفوا على خدمته كأنه شيخ قبيلة كبيرة، ولذلك لم يدهشوا كثيراً عندما رأوه ينهض عن البساط ويترك مكانه ويهرول نحوي لتحيتي، ويحضر لي مقعدي، ويصب لي القهوه ويخدمني. ومنذ تلك اللحظة، أصبحت أنا السيد، ورغم ذلك سأكون مسروراً لو غادرت سكاكا ذلك اليوم. ولكن كان

عليَّ انتظار حمَّار فهو قد رغب في زواج البنت البيضاء ابنة الحداد، التي قرر أن يأخذها معه إلى مخيمه.

في يومي الجمعة والسبت جاءني الكثير من الناس بعيون ملتهبة والتمسوا عندي الدواء، ومن ضمنهم ذلك الشاب الذي كان يريد أن يمزق أحشائي، فقلت له: "اسمع يابني بالأمس كنت ستمزق أحشائي واليوم جئتني لأنقذ أمك المريضة ماذا أفعل بك الآن ؟". ولكني أعطيته الدواء وزرت أمه وأخبرته كيف يعتني بها.

كما هو معروف، فإن الجزء الشمالي من سكاكا تسكنه جماعة القرشة، والجنوبي تسكنه المعاقلة. وجماعة القرشة تتألف من عائلات العلي والضويحي والمطر ويحتلون مئتي منزل وشيخهم هو عساف ابن لحيد. أما المعاقلة فينقسمون إلى عائلات الجحيش والنصير والشهلوب، ويبلغ تعداد منازلهم ثلاثمائة منزل. ويبلغ جميع سكان هذه المستوطنة ثلاثة آلاف نسمة، و هم يزرعون النخيل، والخضراوات وقليلاً من الشعير. ولما كانت النخيل تحتاج إلى الكثير من الماء فقد كان عليهم واجب وعمل شاق لأن الآبار يبلغ عمقها مابين ٢٥- ٣٠ متراً.

يهاجر سنوياً أكثر من ثلث السكان إلى سورية مع الرولة ويعملون هناك بالزراعة، وبما يكسبونه من المال يشترون الملابس والقمح والشعير. وفي نهاية الصيف يعودون مع قبيلة الرولة إلى سكنهم في سكاكا، لذلك فإن الحفاظ على علاقات جيدة مع الرولة يعتبر من أولوياتهم.

عندما انهار نظام ابن رشيد انفجرت حرب أهلية في سكاكا أيضاً. لقد حاول القرشة الاستيلاء على بعض من بساتين المعاقلة فهاجموهم ولكن ردوا

على أعقابهم، وفي يوم واحد فقدوا سبعة وتسعين رجلاً. ومنذ أكتوبر ١٩٠٨م ظلت هذه الحروب تستعر في سكاكا، وارتفعت أعداد الضحايا إلى أكثر من مئتي رجل، وكنا نسمع أعيرة النار صباحاً ومساءاً.

وفي يوم الجمعة، استطاع شاب من المعاقلة التسلل إلى داخل مساكن القرشة ليهاجم رجلاً كان قد قتل والده. وأخيراً ظهر هذا الرجل، فهاجمه الشاب فقتله. وفي يوم السبت جاءني هذا الشاب، ليطلب مني اختبار بندقيته لأن زنادها لايعمل جيداً منذ تلك الواقعة قبل يوم واحد.

عندما دخل نواف الجوف ادعى المعاقلة أنهم أنصاره، وأعلن القرشة أنهم ضده. قام الرولة بعدة هجمات على القرشة واستولوا على ماشيتهم وقتلوا أكثر من أربعين رجلاً منهم، ولعل هذا ماجعل رجاء يقول لي: بأن علي أن أحمد الله لأنه أوقعني بأيديهم بدلاً من أن أقع في أيدي القرشة لأنهم كانوا سيعاملونني بقسوة. ولم يكن هناك أدنى شك في ذلك لأن القرشة لايخافون أحداً. أنهم آمنون في منازلهم المتينة المحصنة، وهم مسلحون جيداً، وبساتينهم ذات جدران عالية، لذلك فهم يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد غارات البدو والصمود لسنوات.

إن نوافاً الذي احتل الجوف قبل شهرين، ويحظى بدعم الكثيرين من الرولة، مازال حتى الآن غير قادر على إخضاع سكان أحياء مارد وخذما. وإذا كان المعاقلة أصدقاء الرولة يعاملوننا هكذا، فكيف تكون معاملة أعدائهم لنا؟ نفس الشيء، أو ربما أسوأ إذا ذهبنا إلى تيماء.

إن رجاء وكبار المعاقلة لايعتمدون على حماية النوري كثيراً. "فالنوري سرعان مايرتحل مع الرولة إلى مضاربهم، ويتركنا هنا لمصيرنا؛ لذلك علينا

الاعتماد على أنفسنا" هكذا قال رجاء.

في يوم السبت عاد الرسول من نواف برسالة إلى رجاء وأخرى لي. لقد كتب لي بأنه أنب رجاء لأنه اعتقلنا ونهبنا، وطلب منه إعادة كل ما أخذ الينا، وطلب منه حمايتي إلى حيث قصدت. وأكد لي صداقته وطلب مني أن أسامح رجاء لما فعل بي، لأنه لم يكن متعمداً، ولكن لجهله بي".

في مساء يوم السبت حددنا مسار الرحلة، وتعرفنا على خط العرض، وتحركنا في صبيحة يوم الأحد في الساعة السابعة صباحاً مغادرين لسكاكا. وكان جملي عاجزاً عن النهوض، بعد أن امتطيته، فكان علي أن أنزل حتى ينهض ثم أركبه عن طريق العنق، كان يصاحبنا في الرحلة أربعة وثلاثون رجلاً لحمايتنا من هجمات القرشة. وقبل أن نجتاز البساتين، أبدى جملي رغبة في أن يبرك، ولم يكن أمامي خيار غير أن أترجل وأمشي بجانبه. وكان كل واحد منا مسلحاً ببندقية بذخيرتها. ونبهنا رجاء ومران إلى وجوب مراقبة طعوس الرمل ربما يكون أحد أفراد القرشة مختبئاً بها، ولكنني لم ألحظ أحداً.

وفي حوالي الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والعشرين وصلنا إلى بلدة الطوير، كما يسميها الرولة، وهي تتكون من خمسين مسكناً، ويسكنها حوالي مائة نسمة، كلهم يحترفون الحدادة، وكان على حراسنا المسلحين الانتظار هناك حتى نصل نحن إلى قارا، وكان معنا ثمانية عشر رجلاً، وست نساء، وهم من أقرباء الزوجة الشابة للزنجي حمَّار، الذي كان يرافقنا. وجلست العروس فوق ظهر جمل. وكان مزعل الذي طردته، يمشي معنا. وفي التاسعة كان على يميننا على صخرة صغيرة قصر ابن قدر إلى الشمال من آبار القويرة. ويقال أن الإنسان لو حفر في أي مكان من منخفض الجوبة لاسيما بين سكاكا وقارا لوجد الأسوار والآثار القديمة و بقايا الآبار المهجورة،

ولتأكد له أن هذا الإقليم الخالي كان مسكوناً، وكانت به زراعة. ومكثنا في قارا حوالي ثلث الساعة وملأنا قرب المياه، واتجهنا إلى الجنوب الغربي. وفي العاشرة وصلنا إلى تلال الرمل، حيث قابلنا بعض الجماعة الذين أرسلهم ابن مشهور طلباً للماء، وأخبرونا أن النوري كان يعسكر في أم أرطى وكان الصعود إلى أعلى المنطقة تحدياً لجملي المتعب، الذي كان يتوقف ويواصل مسيره بصعوبة. ولما لم نكن قد تناولنا وجبة حتى تلك الساعة، توقفنا لفترة بعد الظهر وتناولنا الطعام، وأخذت الجمال ترعى الأعشاب المزدهرة كالعرفج والسبط والعلقا والقليقلان والقصبا. . . الخ، والموجودة في تلك المنطقة.

وفي الساعة الثالثة، اقتربنا من معسكر الأمير، وأشار حمَّار إلى زوجته الشابة بأن تنزل، وأنه سوف يرسل لها امرأة تؤانسها.

كان مجلس الأمير يناقش ما حدث لنا، لأن رجلاً من الطوير جاءهم عند الظهر وروى لهم قصتنا في سكاكا. وكان الأمير يخطط للحاق بنا مع جماعته لو لم نصل في ذلك المساء. وعندما دخلت الخيمة وقف الأمير فوقف على أثره جميع الشيوخ تحية لنا، وأمسك الأمير بيدي اليمنى، وضغط عليها بحرارة، بينما يدي اليسرى كانت في أيدي الشيوخ الآخرين الواحد تلو الآخر، وفي أيدي بقية أفراد الرولة. والتفت الأمير إلى الرجال الذين وفدوا معي من سكاكا، وقال لهم: " اعلموا يا أهل سكاكا أن موسى من أبرز شيوخنا، وإذا مسستم شعرة من رأسه فسأقيدكم بالحديد، تكلم يا شيخ موسى، هل فقدت شيئاً، أنتم أيها العبيد خذوا بنادق رجال سكاكا ولا تعيدوها لهم، حتى يعيدوا ما أخذوا من الشيخ موسى" . ورويت للأمير بالتفصيل ما حدث في سكاكا، وعن مهمتي، وكان الأمير يقاطعني مهاجماً سلوك الصلبي مزعل، وكان مزعل يستمع إلى روايتي، ولم يجرؤ على

تكذيبها. وأكد طارش والرجال من سكاكا ما قلت.

وفي غيابي كان الأمير النوري قد صد هجوماً لشمر، عندما كان معسكراً في «جاو مغيرة»، وقد سمعوا ذات ليلة من يصيح قائلاً: "يا رجال أيها الخيالة"، واتضح أن سبعين رجلاً من شمر هاجموا قبيلة الكواكبة، وقادوا بعض قطعانهم، وتتبعهم الأمير ومعه عبيده، واستوقفهم وأعاد القطعان إلى ذويها واستولى على ٢٨ بندقية، و٣٤ جملاً. وسقط أربعة من شمر، وجرح اثنان من الرولة، جرح واحد منهم وهو سعد شقيق الزنجي عبدالله الذي رافقني ذات يوم إلى الرصافة، وكان مجروحاً بطلق ناري في صدره، وقُتل مهران للأمير، وكانت مشكلة كبيرة أرقته كثيراً.

وبعد مغادرتي لخيمة الأمير جاء رسول من الأمير سعود ابن رشيد مع رسائل تنشد السلام. وكان عبيد الأمير النوري وجميع الرولة ينادون بالحرب. وكانوا على استعداد للانضمام إلى ابن سعود ضد ابن رشيد، ويرغبون في مساعدة نواف وكانوا على علم بالخلاف بين الأمير النوري وابنه نواف، وكانوا يتوقعون أن يجدد النوري اتفاقيته مع ابن رشيد، و لكنهم انقلبوا على الرسول المسكين، الذي جاء بالهدايا والاقتراح بإحلال السلام، فأهانوه، وهددوه بأنه لن ينجو أو يفلت من أيديهم حياً، وأنبهم النوري على سلوكهم مع الرسول، وعاقب اثنين من عبيده. وبعد يومين أُطلق الرسول، محملاً بالرسائل العديدة. وجاء الآن أحد عبيد زامل بن سبهان وزير ابن رشيد بصحبته ثلاثة رجال وكلهم يرتدون ملابس حريرية، واستقبلهم الأمير بحفاوة، وأقاموا عنده ثمانية أيام، فذبح لهم، وجدد ميثاق السلام مع ابن رشيد فيمايخصه هو فقط وتحت شروط متعددة. وذهب عبد ابن سبهان إلى الجوف للتفاوض مع نواف الذي لم يوافق على الاتفاقية التي أبرمها والده.

وبعد ليلتين من ذلك هاجم نواف الموالين لابن رشيد في الجوف، وتم إحراق وإزالة اثنين من منازلهم، وقطع النخيل في بساتينهم. لقد قال الأمير النوري لي:

"إن نواف والمشايخ أحراراً دعهم يفعلوا ما يحلو لهم".

وفي ذلك المساء زارني مران (الذي احتميت به في سكاكا)، وجاء يطلب الهدايا له ولرجاء، رئيس جماعة المعاقلة. ووجهت ناصراً ليعطيه قفطاني الحرير (زبون) وثوبي. وبعد قليل جاءني مران ليشكرني على الهدية، ولكنه لم يكن راضياً. وعندما حاولت رفع معنوياته بأن قلت له أن القفطان سيناسبه جداً، ابتسم في مرارة وأبدى بعض التذمر.

دهشت من الأمر، وطلبت منه أن يريني القفطان الذي أعطيته له، واكتشفت أن ناصراً خدعه، وبدلاً من قفطاني الحريري أعطاه قفطاناً آخر مما عنده، ومما لا يستعمله هو، ونفذ تعليماتي له بعد لوم عنيف من جانبي. استلم طارش أجره الموعود، وهو خمسة عشر ريالاً مجيدياً، وخمسة ريالات كهدية كما وعد الأمير. كان طارش سعيداً في أنه طلب أن يبقى في خدمتي، إلا أن الأمير أجاب نيابة عني: "لقد استلمت مالك، فاترك معسكري فوراً والتجئ إلى من يحمونك". فرد طارش: إنهم يعسكرون بعيداً بجانب (الشقيق)، فقال الأمير: "لا أريد أن أراك في المعسكر غداً".

من الاثنين وحتى الأربعاء ١٩ و٢١ إبريل ١٩٠٩م:

في يوم الاثنين لاحظت عدداً من الجمالة ينزلون عند باب الأمير، وكانوا من العقيلات تجار الجمال حيث جاؤوا لينضموا للرولة في طريقهم إلى دمشق. كان هؤلاء التجار قد اشتروا عدداً من الجمال و دفعوا بها في اتجاه

الشمال الغربي، وجاؤوا إلى الأمير ليقدموا له الولاء والطاعة، ويضمنوا حمايته لهم. وأرسلت رسالة إلى الأمير، أطلب منه تأخير التجار قليلاً لأني أريد أن أرسل معهم رسائل، وكانت تلك أول فرصة تتاح لي منذ خمسة شهور، لأرسل أخباراً عن نفسي إلى دمشق، وأرسل الأمير رسالة يستعجلني فيها، وبعد عشر دقائق كان خادمه على باب الخيمة يسأل عما إذا كنت جاهزاً.

قضيت اليوم كله منهمكاً في عمل رسم طوبوغرافي للأقاليم التي سافرت عبرها. وفي المساء جاء الأمير، وكان في لهفة ليخبرني بما حدث أثناء غيابي عنه، فقال لي: "إن ممدوح بن سطام تزوج"، وسألته "متى يتزوج ابنه سعود"؟ فقال لي: "إن ذلك يعتمد على الله، فهو يحب أخت زوجتي الحالية وهي أيضاً تحبه، ولكنه لن يستطيع الزواج منها إلا بموافقة عبد الله بن طلال.

- "وما يهم البنت من عبد الله"؟.

- "الكثير، صحيح أنه ليس قريباً منها مثل سعود، ولكنه كان قد حجزها لنفسه بعد أيام من ولادتها، وأشهد الناس أمام أمها "تركية" على ذلك. ومنذ ذلك التاريخ والبنت له، ولا يتزوجها أحد إلا بموافقته هو. ويمكن إجباره على تركها ولكننا لا نرغب في مضايقته وإبعاده".

- " وماذا يقول اخوة البنت؟"

- "يقولون إنهم لن يسمحوا لعبد الله بزواجها وسيزوجونها لسعود".

واصلت يوم الثلاثاء والأربعاء رسم الخرائط، واحدة بعد الأخرى، وكنت أقرأ الخطوط بصوت مرتفع إلى عوض الكويكبي وإلى من أثق فيهم، وأذكر

كل الأسماء، ثم أكتبها باللاتينية، بينما يكتبها جواد باللغة العربية. وكانت مصادر معلوماتي تناقش من وقت لآخر مواضع الأماكن والقرى ولكنهم عموماً أشادوا بدقة ملاحظاتي.

وبينما كان الأمير يجلس معي، جاء بدوي وهو يصيح قائلاً: "افرح يا النوري بالأخبار السارة، أربعمائة جمل وجمال، بجانب خمسة وستين جملاً، محملة بالمؤن في طريقها من ابن سعود لمساعدة نواف، واليوم هم يعسكرون في جاو مغيرة".

- "هل رأيتهم أنت؟".
- "لا، بل سمعت ذلك من أهل قارا".
- "اخرج بسرعة".

استلم الأمير يوم الأربعاء خطاباً من نواف يخبره بأن قوة قوامها ثمانمائة جمال وجمل أرسلها ابن سعود في طريقها لمساعدته، وأخبرني طراد ابن سطام الذي سلم رسالة نواف لوالده، أن نوافاً كان على حافة اليأس لأن والده لم يرسل له السلاح والمال والمؤن. ورفض أيضاً السماح لأمه بزيارته، ومعها ابنه الصغير سلطان. وتوسل إليّ طراد أن أحاول إقناع الأمير النوري بالتخلي عن عناده ومساعدة ابنه نواف.

من الخميس إلى الثلاثاء (٢٢-٢٧ إبريل ١٩٠٩م):

تحركنا في يوم الخميس عند الساعة السابعة والربع صباحاً باتجاه الجنوب الغربي، وتوقفنا مبكراً في الساعة التاسعة والثامنة والثلاثين دقيقة، وبحث لنا الأمير عن موضع جديد للنزول فيه، وعندما وصل الجمل الذي يحمل أمتعتي نصبت خيمتي، وبدأت في كتابة ملاحظاتي الطبوغرافية، وشغلني ذلك كل

اليوم والجمعة، من شروق الشمس إلى مغيبها.

وعند المساء سمعت عدة طلقات وصياحاً، وعندما خرجت من الخيمة رأيت رجال سكاكا وقد اصطفوا صفاً طويلاً وهم في اتجاه خيمة الأمير، وكان يتقدمهم رجل عجوز، كان يحرك السيف فوق رأسه، ويأتي بحركات مثلما يفعل الراقصون خلفه. وهي التحرك خطوتين إلى الأمام، والتمايل إلى اليمين وإلى الشمال، ويهزون جذوعهم بنفس الطريقة. وخلفهم حوالي أربعين جملاً تحمل أمتعة تجار الأسلحة من عنيزة بالقصيم، وهم يجلبون البنادق والذخيرة التي اشتروها من ميناء الكويت.

ووقف الرجال أمام الخيمة في شكل منتظم، وقام الرجل العجوز، الذي كان يقودهم في الرقص بإشعال نار في منتصف الحلقة، التي اصطف حولها الرجال، والتي تفصل بينه وبين زملائه، وبدأ العجوز بالرقص مرة ثانية. والتصق رفاقه ببعضهم البعض حتى تلاصقت أكتافهم، وأمسكوا بأيدي بعضهم، وبدؤوا يرقصون حتى أخذ منهم التعب كل مأخذ.

وفي المساء، جاء جواد الكاتب يحمل رسائل من الإمام ابن سعود، ومن فيصل ابن رشيد، شقيق الأمير سعود الرشيد الذي اغتيل، والذي (فيصل) كان قد هرب إلى الرياض. وقد أحضر الرسالتين الرسول الذي أرسله النوري إلى ابن سعود في أول فبراير ١٩٠٩م عندما كان مخيماً في ميقوع.

واصلنا سيرنا مرة أخرى يوم السبت، حيث غادرنا في السابعة والربع صباحاً باتجاه غربي شمالي، وكنا في محاذاة الجانب الشمالي من وادي اللجاة الذي تكسوه كثبان الرمل، التي ترتفع إلى ستين أو مائة وعشرين سنتيمتراً، وتتماسك الكثبان بجذور نبات (الأرطى)، وتنمو حولها أعشاب العلقا

والعاذر. وفي الثامنة وأربعين دقيقة أشرفنا على تلال رملية عالية وفيها يزدهر العاذر، والغضا، والمصي، والقصبا، والسبط، وأذن الحمار، والعصنصل، والبرّيد، والحمصيص، والسعيدان، والمرار، والمتنان، و المرير، والكراث، وسبط الجرو، والصولين. وفي الأماكن الصخرية ينمو نبات العرفج وهو على شكل شجيرات ذات زهور صفراء، تبدو وكأنها جافة. وفي الشمال من هنا كنا نرى النهاية الحادة لسهل أجربه، الذي ارتحنا فيه بعض الوقت، ثم عند الساعة الثانية عشرة وسبعاً وثلاثين دقيقة أنخنا جمالنا وعسكرنا في مكان جديد.

عند ظهر ذلك اليوم، تحادثت طويلاً مع الأمير، لقد طلب مني عدد من الشيوخ وبينهم فهد بن مشهور-أقوى رجل بعد الأمير النوري-أن أقنع النوري بالوقوف مع ابن سعود، وأن يعلن أنه سيذهب إلى الجوف لمساعدة ابنه نواف بكل قوته. وقد ترددت في السابق بالتدخل بين أب وابنه، ولكن عندما سمعت بأن نوافاً على استعداد للابتعاد عن أبيه نهائياً، خشيت قيام حرب مفتوحة بينهم، ولهذا السبب خاطبت النوري بوضوح، الأمر الذي لم يحدث من قبل، واستغرقت المحادثة ساعتين أو أكثر، وفي النهاية نهض الأمير وغادر في صمت، ماذا سيصنع يا ترى؟.

وفي صباح الأحد، رأيت العديد من الخيالة والجمالة أمام خيمة الأمير، وبعد قليل خرج الأمير ممتطياً جمله، وتوقف بجانبي وهو يقول: "إلى الجوف" ورددت عليه: "الحمد لله". وسار معه أكثر من مائتي راكب، ومعه المال، وجملان يحملان البنادق والذخيرة لنواف، وهكذا لم تكن مهمتي بلا فائدة. وعاد الأمير مساء ذلك اليوم. وفي يوم الاثنين واصلنا رحلتنا. لقد امتطى الأمير جمله في الساعة السابعة، ذلك الجمل الذي يحمل رمز قوته،

ويعرف باسم (أبو ظهر) وتحرك الركب. "نواف يقريك السلام ياشيخ موسى" قالها لي بينما كان يمر "بإرادة الله سيتم ما تحدثت عنه" و "أنا على يقين من أنك الصديق المخلص".

وفي يوم السبت، أرسل الأمير سنداً الصلبي لاستكشاف الماء ومكان مناسب نعسكر فيه في منطقة الطويل، ولم يعد إلا في الصباح الباكر من يوم الاثنين، وقال أنه وجد مرعى طيباً من الأعشاب التي تزدهر طوال أيام السنة، خصوصاً في منطقة "خبرا مليح" في "الحرصوفيات"، وفي "غويطة جراد"، ولا توجد أعشاب موسمية في أي مكان، ولكن عشب الشتيل ربما ظهر فجأة إذا هطلت أمطار كافية.

- "هل رأيت آثاراً لقطاع طرق" سأله الأمير.
- "لا، ولكن رأيت آثار أربعين راكباً".

كانت السماء من جهة الغرب ملبدة بالسحب السوداء يلمع فيها من وقت لآخر البرق، وتحمل الرياح الغربية السحب فوق رؤوسنا وترشقنا زخات المطر لمرات عديدة. وتدثرنا من المطر بعباءاتنا وغطينا رؤوسنا وواصلنا سيرنا.. وفي تمام العاشرة بحث الأمير عن موضع مناسب، وعاد بعد نصف ساعة، واتجه إلى الجنوب والجنوب الشرقي. وفي الحادية عشرة عسكرنا في منخفض رملي "القعرة".

وفي يوم الثلاثاء، بدأنا في جمع الخيام في الساعة السادسة والنصف صباحاً، وبدأت القافلة السير في اتجاه الجنوب الشرقي. وفي التاسعة وصلنا إلى تلال من الرمل بها أعشاب جعداء تسمى الغضا، وقرر الأمير أن نعسكر هناك. وقفز من على ظهر جمله وأشار إلى مكان لأنصب فيه خيمتي. وبعد

ساعة انتشرت خيامنا بمختلف أحجامها وألوانها في المكان. وبدت السماء زرقاء لامعة كأنها اغتسلت بذلك اللون، والطرف الأسود الشرقي من سلسلة جبال الطويل وكأنه يستحم باللون الذهبي. وفي هذه الأثناء جاء رسول من نواف يفيد أن ليلتي الأحد والاثنين شهدتا هجوماً عليه، قام به محارب ابن رشيد الذي أمكنه صدهم في المحاولة الأولى والقضاء عليهم في الثانية. وقد حاول قائدهم الاحتماء وسط الجمع الهارب، ولكنه أصيب ومعه امرأتان، وجرح أربع نساء أخريات، وأسر خمسة من مقاتلي ابن رشيد وقتلوا على الفور. وبعد هذه الأنباء في يومي الاثنين والثلاثاء بدأت جماعات صغيرة تغادرنا ممتطية ظهور الجمال لتناوش جماعات شمر، وبهذا أعلن النوري حرباً مفتوحة على أنصار ابن رشيد.

من الأربعاء إلى الجمعة (٢٨-٢٩ إبريل ١٩٠٩م):

شغلت في كتابة مذكراتي حول أصول القبائل. وعند المغرب سمعت صيحات النصر تتردد في المعسكر وكانت جماعة "الدغمان" عائدة من غزوة ضد القرشة بسكاكا، وعادت تحمل معها مائة وخمسين رأساً من الأغنام.

وكان نواف قد أرسل رشراش بن عذوب ليحضر له بنادق وذخيرة وعاد في نفس اليوم يقود أربعين جملاً تحمل أحد عشر ألف طلقة رصاص، وأربعين بندقية، كان الأمير النوري قد اشتراها من تجار القصيم. وكتب النوري لمولى ابن سبهان الذي كان يسيطر على حصن خذما و حصن مارد، وطلب منه الحضور إليه لمناقشة كيفية تسليم هذه المنطقة له، لأنه يرغب في الاستيلاء على الجوف وما حولهامن البلدات و القلاع، إما بالتفاوض أو بالقوة، وإذا لم يحضر فسيعتبر ذلك منه عداء وإعلاناً للحرب.

لقد تغير النوري تغييراً كبيراً، وكان يدعم نوافاً يومياً ويناوش جماعات شمر، ويشن غارات عنيفة ضد أعداء نواف في منطقة الجوف. وكان الرولة سعداء بذلك، وأصبحوا يأملون في سحق قوات ابن رشيد الذي ذاقوا على يده الويلات لفترة طويلة.

كان يوم الخميس هو يوم الرحيل مرة أخرى، وتقدمنا في اتجاه الشمال الشرقي من الساعة السادسة وأربعين دقيقة إلى الساعة الثامنة وأربعين دقيقة صباحاً. وفي يوم الجمعة واصلنا في نفس الاتجاه، وقد تحركنا في السادسة صباحا، وفي الساعة الثامنة مرّ علينا اثنان من الصلب و أخبرا الأمير بأنهما شاهدا عشرين من الجمالة أتوا من الشمال الغربي متجهين إلى الجنوب الشرقي. اعتقد الأمير بأنها بعثة لابن رشيد، يقودها أحد رجال حاشيته، ولابد من القبض عليها والاستيلاء على الرسائل التي تحملها. ومن الساعة الثامنة إلى التاسعة كمنا لهم في صمت شديد. وانطلق حوالي اثنين وثمانين جملاً بعد أن تزودوا بالماء والمؤن في اتجاه بعثة ابن رشيد، وأخذنا نسير بلا ضجة حتى االساعة الثانية عشرة، وعندها حدد الأمير مكانًا للنزول فيه.

من السبت إلى الأحد (١ - ٩ مايو ١٩٠٩م):

في يوم الأحد بالذات، كنت مشغولاً بإعداد مذكراتي، بحيث تشمل عادات وتقاليد الرولة. أما مصدر معلوماتي، حمّار أبو عواد الذي تزوج أخيراً أخذ منه النعاس ورغب بالنوم في خيمتي. ومثل كل البدو كان متعوداً أن يأوي إلى فراشه في الصيف مابين الساعة السابعة والعاشرة. وتلك الإغفائة تسمى ضحى. وكان المعسكر في هذا الوقت بلا حركة، فأبواب الخيام قد أقفلت وأخلد الرجال إلى النساء داخل الخيام والتي تغطى مداخلها، لمنع أي إنسان من النظر داخلها، وراح كل في نومه إلا الصبيان

والبنات الصغيرات اللائي كن يتجولن حول المعسكر. تستيقظ النساء عند الظهر، ويواصل الرجال نومهم حتى الثانية أو الثالثة بعد الظهر. وكان حمّار يلح علي لأعطيه دواءاً يعيد إليه حيويته المهدرة، وكان متيقناً من أن بين أدويتي دواء من هذا النوع، وكان عمره ثمانين عاماً، وكانت زوجته ممتلئة حيوية وشبابا، ولم يكن يصدق أنني لا أستطيع مساعدته، ولكنه كان يتهمني بأنني لا أرغب في ذلك. وذهب إلى الأمير وطلب منه التدخل في الأمر. وجاءني معه الأمير قائلاً: "إذا لم تعطني ذلك الدواء فسأعود إلى زوجتي مسود الوجه. لقد وعدتها بالعودة إليها بالدواء منك - أطال الله عمرك - فهل تسوّد وجهي؟ لقد ظل وجهي أبيض حتى الآن، إذا كنت تحبني فلا تسود وجهي في أواخر أيامي".

في يوم الأحد غيرنا موضع نزولنا (رحيل)، وبدأنا في السادسة صباحاً متجهين إلى الشمال الشرقي، وبعد قليل انضم إلينا عذوب وممدوح وطراد وآخرون، من الذين كانوا يلاحقون البعثة وحراسها من جماعة شمر، وقال عذوب: "تجاوزنا البعثة ليلة الجمعة في اتجاه الجنوب الشرقي، عند آبار "الشقيق". وقد وجه لنا الشمامرة السؤال: "من أنتم يا ها الجيش". وعندما تبينوا انهم الرولة أطلقوا النار وولوا هاربين، وأسرع الرولة يحيطون بهم و لأنهم يعلمون باستحالة الهروب فقد قفزوا من جمالهم واختبؤوا خلف شجيرات الغضى، وبعضهم سلم أسلحته، وقد قتل منهم أربعة وجرح آخر جرحاً خطيراً. وآخر يدعى رجان، استطاع الهرب لأنه كان ممتطياً جملاً سريعاً، ولكن عذوب كان يريد ذلك الجمل فنادى على الشمري ليستسلم ويأمن على حياته، ووعده بجمل آخر. وكان عذوب راكباً جملاً سريعاً، وكان يمكن أن يطلق عليه النار ويقتله، أو يسبقه، ولكن رجان استجاب لنداء

التحدي واستسلم فمنح بديلاً عن جمله المتفوق في السرعة جملاً مستهلكاً عجوزاً، وفقد جماعة شمر جمالهم وأخذ الرولة الجمال والسلاح والمال والمؤن. وخوفاً من الموت عطشاً طلب الشمامرة المهزومون من أعدائهم قتلهم بالرصاص، ولكن الرولة رفضوا ذلك باعتبار أن قتل الأعزل عار يسوّد وجوهم. وأخيراً علمت أنه لم ينج أحد منهم من مهالك النفود، ولم يعد أحد منهم إلى جماعته. وعلق الأمير على ذلك بلا مبالاة، عندما ناقشته فيه قائلاً: "إن رمال النفود تريد قرابين، وها نحن نقدم لها القرابين". ومضت الجمال ترعى من الساعةالثامنة إلى التاسعة تقريباً، واصطدت طائراً. ثم واصلنا على سهل يغطيه الحصى الخشن، واختفت منه النباتات بفعل الرعي. ونزلنا في منخفض الجوبة. وفي الساعة الثانية عشرة وصلنا بلدة قارا، وأقمنا في نفس المكان، الذي أقمنا فيه من قبل، في الجزء الجنوبي للقرية. وعند وصولنا أسرع السكان لحصاد ما بقي من القمح، لأنهم لا يطمئنون كثيراً لجمال أصدقائهم الرولة. وكان الجو مفعماً بالغبار والحرارة التي لا تطاق. أما الجمال المحملة بالأمتعة فلم تصل إلا بعد ثلاث ساعات من وصولنا.

وفي يوم الاثنين دعوت الصلبي سنداً لأناقش معه عادات وتقاليد جماعته. وعملتُ معه لمدة ساعتين دون جدوى. لقد ظل يراوغ ويناقض نفسه، وطلب مني طعاماً وتبغاً، وكان يبحث عن شيء في جيوبه كناية عن حاجته للنقود. وناديت صلبياً آخر اسمه فراج، وبدأ يجيب بشيء من الذكاء، ولكن سنداً كان يحوم حول الخيمة، وأخيراً نادى عليه، وقال له "إن كل كلمة تقولها يأخذ هو ثمنها ذهباً، وأنت لا تأخذ شيئاً". ولاذ فراج بالصمت، وتوقف عملي. وعندما اشتكيت من ذلك للأمير، قال لي: ألا تعلم يا شيخ أن الصلب أسوأ صعاليك الصحراء".

وعند الظهر شرعت في دراسة قصائد وأغنيات الرولة، واستمررت لعدة أيام من مطلع الشمس إلى مغيبها. وكان الكاتب جواد يزودني باستمرار بمادة جديدة للدراسة، وقد كان الأمير يعتبره نابهاً ومدركاً. وكان هذه العمل مثبطاً للعزيمة، خصوصاً والحرارة في الخيمة بلغت ٤٠ درجة مئوية، والرياح الغربية المنعشة لم تصل إلينا، لأن قارا تقع في منخفض، ووراء هضبة تمتد من الشمال إلى الجنوب، وهي بذلك تقفل مجرى الرياح الغربية إلينا. وبالإضافة إلى ذلك كانت في العادة تهب علينا عواصف رملية في الأماسي، تملأنا بالغبار.

كانت خيمة الأمير مليئة بالمحاربين، الذين كانوا يحضرون طلباً للبنادق والذخيرة. في المتوسط كان الأمير يستقبل في اليوم خمسين محارباً، ويقدم لهم الطعام، ويظل هو جائعاً كل الوقت، فالمضيف لا يأكل مع ضيوفه. وفي جناح الحريم لا يوجد من يخدمه، وحتى زوجته الشابة كانت تفضل البقاء مع ذويها. و تقوم الجواري بالاهتمام بأطفالهن وأزواجهن، والأمير نفسه ليس من أقاربهن فهو غريب عنهن. وكانت تقيم مع الأمير اثنتان من بناته اللتان هربتا من زوجيهما، ولكنهما كانتا " كلبتين " كما يسميهما الأمير، ولا يصلحن لشيء. وكن يجلسن في الخيمة يشربن القهوة، ويدخن غلايينهن الطويلة، ويستمعن لثرثرة زائراتهن الكثيرات. وحتى عندما تجمع الخيام يسترحن في ظل أمتعتهن وينتظرن حتى يُحمِّلَ العبيد الجمال ومن ثم يتدثرن باللحف المطوية، التي يجلسن عليها ويراقبن الرجال والنساء وهم في غدو أو رواح، ولا يكترثن كثيراً بعدم النظافة، لقد رأيت مرة واحدة منهن وكانت تدعى " صالحة " ، وأمها شمرية، رأيتها تغسل منديلها الأبيض، وكانت زوجة الأمير النوري وأختها الصغرى يجلسان معها ويتحدثن إليها وهن يحككن رؤوسهن باستمرار ولم يخطر ببالهن غسل مناديلهن كما فعلت

صالحة. ولقد ذكرت ذلك للكاتب جواد، فقال لي:

" صالحة لم تترب في خيام الأمير، لقد تربت مع أقرباء أمها التي طلقها الأمير، وعند أقرباء أمها لا يوجد عدد كبير من العبيد، كما هو الحال في خيمة الأمير أو في خيمة "تركية" أو خيمة زوجته الصغيرة عندما تحضر إليه. والنساء معتادات على ألا يبدلن ثيابهن إلا عندما تحضر لهن الجواري الملابس الجديدة.

ويخيل إليّ أن الأمير نفسه لا يبدل ثيابه إلا إذا أجبره أحد على ذلك. وكثيراً ما سمعت الكاتب يستثيره حول منظره ويطلب منه ارتداء ثوب جديد. وهو لا يستطيع فعل ذلك في خيمته، لأنها باستمرار تكتظ بالناس، وبالليل عليه أن يخبئ ملابسه تحت رأسه إذا خلعها، لأن الخدم سيستولون عليها فوراً.

" إن جيب الأمير واسع وعميق، والأمير لا يمشي عاريا" هكذا كان يقول عبيده وخدمه. ولما وجدني أحرص على النظافة في كل شيء، أخذ يغتسل ويغير ملابسه في خيمتي من وقت لآخر. كانت خيمته مليئة بالنساء، ولكن لا يقمن بأعمال النظافة له، وطلب مني أكثر من مرة أن آمر خادمي ناصراً بتنظيف ثيابه، وأصررت على عدم الموافقة على ذلك، لأن هذا العمل وظيفة النساء. فقال الأمير: " والله يا شيخ موسى، والله ما تصدق فإنني لو أعطيت ثوبي الجارية لأعادته إليّ أسوأ مما كان عليه ". وقد كلف الأمير كاتبه أن يجد له امرأة تعرف كيف تنظف الثياب من البلدات المجاورة، لتنظف ثياب النوري ابن شعلان ملك شمال الجزيرة العربية، كما كان يسمى، ويا له من ملك مسكين.

كانت فرق الرولة المسلحة، تشدد من ضغطها وغاراتها على شمر ابن

رمال وابن رخيص، وكانوا يعودون بالغنائم من غاراتهم. ولكن بناءً على أنباء وردت إلى نواف بواسطة أحد الصلب، وأسرع بتبليغ والده بها تقول أن: زامل بن سبهان وزير سعود بن رشيد الشاب، أرسل تعزيزات من الذخيرة والمؤن إلى حصني مارد وخنما. وأرسل الأمير فوراً فرقة لتحتل الأراضي المجاورة لآبار "الشقيق"، و"مر المستندة" في سلسلة جبال الطويل. وفي مساء الخميس عاد الجمالة بالهدايا. لقد اختبؤوا لهم خلف التلال الرملية، وفي منخفضات القعرة في النفود عند متعرجات سلسلة جبال الطويل، وكمن بعضهم في أعالي التلال، وانتظروا حتى تصل القافلة ولم يطل انتظارهم، وجاءت القافلة، وانتظروا حتى نزلت، ونام الجمالة، وعند الفجر أطبقوا عليهم ولا يعرف أحد ما الذي أحل بهم - لم يشر الرولة إلى هذا الأمر، ولكن لم يصل منهم أحد إلى الجوف أو إلى قارا، وكان واضحاً أنهم هلكوا جميعاً ولكن كيف؟ هل بسلاح الرولة أم بالعطش والجوع، لا يعلم أحد شيئاً سوى الله، ثم الرولة.

وفي يوم الأربعاء، جاء صلبي برسالة للأمير عن ثمانية جمال محملة سلاحاً وبضائع وملابس قادمة من المشهد، أي من كربلاء، وهي الآن عند معسكر الصلبة في البويتات. وكانت الجمال وما تحمل ملكاً لتجار من المشهد ويسكنون في سكاكا مع القرشة، وهم أعداء الرولة. كان هؤلاء المشاهدة في وضع حرج، لأنهم كتجار كانوا يرغبون في البيع ليس للقرشة وشمر فقط، ولكن للمعاقلة والرولة في نفس الوقت، وهم يرغبون في السلام، ولكن طالما هم يسكنون مع القرشة ويبيعونهم السلاح والذخيرة فقد أغضبوا المعاقلة والرولة. لقد أرسلوا الكثير من الخطابات والهدايا للأمير النوري، يطلبون السلام وأن يغفر لهم تجارتهم مع أعدائه وكانوا يقولون: "إذا لم نبع السلاح

لجماعة القرشة، كيف سيعاملوننا؟ انهم حتماً سيدمرون منازلنا وينهبون ممتلكاتنا وكيف سننجو برقابنا منهم ؟هذا لا يعلمه إلا الله" . "أنتم تزودون أعداءنا بالسلاح والذخيرة إذن أنتم سبب تحديهم لنا، أنا لا أريد التدخل بينكم" هكذا أجاب النوري باقتضاب. وعندما علم بنبأ قافلة المشاهدة، تحرك خمسة عشر شاباً على ظهور المهار لمقابلتها. ولكنهم عادوا صفر اليدين، إلا الصلبي الذي كان مع الرولة وفي الوقت نفسه، مع جماعة شمر. فعندما رأى القافلة تسير أخبر التجار لإخفاء الجمال في منخفض صغير، وبما أن الأرض كانت صخرية، فلم يتمكن الرولة من متابعة الأثر. ولما لم يكن معهم ماء كاف للخيل اضطروا للعودة، ولكنهم ابقوا وحدات مراقبة عند آبار صوير وجاو مغيرة، والمنطقة المجاورة لسكاكا.

وخلال هذه الأيام كان القتال مستمراً في الجوف، وكل جانب يحاول أن يلحق الضرر بالآخر بتدمير أسوار البساتين وتقطيع النخيل.

من الاثنين إلى الأحد (١٠-١٦ مايو ١٩٠٩م):

في صباح يوم الاثنين، صحوت على صوت الجمال، وهي تحمل بالمؤن بواسطة عبيد الأمير أمام خيمته، ومعنى ذلك، أننا ستتحرك مرة أخرى، بالرغم من أن الأمير أخبرني بأننا سنبقى في قارا لمدة أسبوع. وكنت سعيداً بالاستمرار في عملي العلمي بدون توقف أو مضايقة. وقبل شروق الشمس، جاءني الأمير ليسأل هل سأذهب معه أم لا؟ وقال: "سأترك النساء والخيام والمخازن في قارا وسأتجه شرقاً مع الماشية فقط والمهرات. وسأعود بعد خمسة أو ستة أيام، لأن الصلب أخبروني بالليل أنهم اكتشفوا مرعى طيباً في الودع والمخروق، وأرغب في الإقامة هناك حتى نهاية الشهر" . ولما أيقنت أن الأمير ذاهب إلى ما يشبه المكان الذي زرته من قبل فضلت البقاء في قارا والاستمرار

في عملي. ونصحني الأمير بنقل خيامي إلى بساتين الشيخ ظاهر ابن سليم لتوفر الحماية هناك. فانتقلنا إلى هناك ونصبنا خيامنا، ورغب كاتبه في البقاء معي. أرسل الأمير رسالة للشيخ ظاهر، ليمنع كل من يحاول دخول خيمتي، وليتولانا بحمايته اليومية ليل نهار. وقد أرسل تلك الرسالة مع مولاه عامر. وبعد أن تأكدت من أن أمتعتي وضعت في مكانها، ذهبت لوداع الأمير لأترك جمالي في حمايته. "هذا ليس ضرورياً يا أخي موسى" أجابني الأمير "إنني أحافظ على ممتلكاتك أكثر من ممتلكاتي، والله إنني أقول صدقاً". وطلبت من راعي إبلي مفضي، أن يبقى معها دائماً ولا يذهب إلى أي مكان، عدا الأماكن التي خصصها الأمير، والتي تقيم فيها جماعته. لقد غادر الأمير بكل الرجال وترك وراءه النساء والأطفال في مضاربهم. ورجعنا أنا وجواد الكاتب إلى مراجعة مذكراتي عن الأدب الشعبي، ولم أغادر الخيمة إلا بعد مغيب الشمس.

ولم تمر الليالي هانئة، فعلى بُعد خطوات من خيمتي توجد خيمة لأحد الشمامرة، وكانت ابنته مريضة تئن وتبكي ليل نهار، إلى أن أراحها الموت، فلفت في ثيابها يوم الأحد، ودفنت قبل شروق الشمس.

وفي كل ليلة في منتصف الليل، كان أربعة خدم مع ثلاثة جمال يمتحون الماء من بئر على بُعد أربعين خطوة من خيمتي لري النخيل. وكان عملهم مصحوباً بالأغاني والصرخات للناقة لحثها على السير المستقيم والإسراع، ولذلك كان العمال يقومون بالصرخات والضربات بصوت عال. وكان العمال يعطون اهتماماً خاصاً للنخيل الذي على وشك الاثمار، ويقومون بالتشذيب، والتلقيح. وكانوا يهزون البذور من ذكور النخيل على إناثها، ويدخلون فرعاً يحمل بذور التلقيح وسط فروع تحمل بذور إناثها، ويربطون

الاثنين معاً. إن بذور الذكور لا تظهر بسرعة، وتاج كل نخلة لابد من فحصه في اليوم الثاني أو الثالث، وكل شجرة لابد وأن تسقى كل خمسة أيام. وتخزن المياه في بركة كبيرة بعداستخراجها من البئر، ثم توزع بواسطة جداول صغيرة ممتدة إلى الأشجار حيث يحيط بالشجرة حوض بقطر مترين.

وفي يوم الثلاثاء، علمنا أنه عند آبار صوير اعتقل الشيخ زبن الكويكبي جماعة من شمر، كانوا يبحثون عن الرولة في وادي السرحان، وإلى ما وراء قرية كاف، وكانوا قد استولوا على جمال محملة بالملح تخص السرحان وعادوا بالغنيمة عن طريق العامود، وطرف وادي الشويحطية، ونجحوا في الوصول إلى صوير وكانوا يشعرون بأنهم في مأمن، لأنهم ظنوا أن جماعتهم تعسكر في منطقة "البويتات". ولم يقدر لهم اللحاق بأهلهم، فلقد رآهم رجل كويكبي كان يبحث عن أشجار النصي لفرسه خلال القيلولة وهم يستريحون وأبلغ قبيلته. لقد فقد الشمامرة كل شيء من الغنيمة وكذلك جمالهم.

وعند الرولة، وقع جملان يحملان بضائع للمشاهدة في سكاكا غنيمة، ولقد وعدوا الصلبي بجمل، ولكي يتأكد من ذلك، باع قبيلته للرولة حيث إنه بين لهم الطريق.

وفي يوم الخميس، جاءت إلى قارا عائلات من جماعة النصير، الذين كانوا يعسكرون مع شمر في منطقة "الحذل"، وتحركوا عند إعلان الحرب بين الرولة وشمر، وسألني رئيسهم: "أين معسكر الأمير النوري؟" وأخبرني بأن رجال ابن سعود اقتربوا من حائل مقر ابن رشيد، وبناءاً على روايته فإن زامل ابن سبهان عسكر مع مقاتليه في حصن تربة، وأرسل له ابن سعود فصيلاً مع تعليمات بمهاجمة العدو والهروب. وقد تم ذلك وتبعهم ابن سبهان، وفي

غيابه هجم ابن سعود ورجاله على معسكره وهاجموه من الخلف وسيطروا على كل الخيام البيضاء لابن رشيد وخيولهم وجمالهم، ونجا ثلاثون راكباً منهم فروا على ظهور الخيل ووصلوا إلى حائل. وسيطرة ابن سعود كما قال الرجل، وصلت إلى بقعا أو «طية اسم» وهي ملتقى كل الطرق المؤدية إلى حائل.

وفي يوم الأحد، جاءنا صلبي من الجوف، يحمل أنباء بأن الدغمان قضوا على هجوم لجماعة التومان الذين يتحالفون مع شمر واعتقل منهم خمسة وثمانون رجلاً، وقال إن نوافاً يبني حصناً في الجانب الشمالي الغربي من حصن مارد، ومن هناك سيصب النار على أعدائه.

من يوم الاثنين إلى الجمعة (١٧-٢١ مايو ١٩٠٩):

في يوم الاثنين، سمعت صوت جمل يناخ أمام خيمتي، ومددت رأسي فرأيت الأمير الذي خف لمعانقتي بحماس، وكانت جماعته قد توجهت إلى قارا وتقدم هو بجمله السريع ليراني بأسرع فرصة، وهذا ما قاله هو. وأدركت أنه خف إليّ ليس من أجلي، و لكن من أجل تناول وجبة كاملة وراحة، يعرف أنها متوفرة عندي. لقد كان متجولاً خلال الثمانية أيام الماضية، ولم يمكث ليلة واحدة داخل خيمة، واشتكى لي بأنه لم يجد المرعى الطيب، ولا كميات مناسبة من المياه، مما اضطرهم مرتين لمواصلة السير، لأنهم شعروا باحتمال حدوث غارات ضدهم من الأعداء. وعندما سألته عن جمالي قال لي إن أحسن جمالي قد سرقت (اثنان منها)، وأن راعي إبلي مفضي لم يمكث قريبا منها كما طُلب منه، وأنه ذهب إلى أقاربه خارج المعسكر. وفي غيابه قام اثنان من شمر يعملان مع الرولة بسرقة الجملين. كما سرقا المؤن وقرب الماء والبنادق من شيوخهم وسرقا من الأمير جملاً. وطلب الأمير تعويضاً من سادتهم عن جملي، وقال إنه سيساعدني في طلبي وإلا اسود وجهه.

قلت له : " أنت الأمير المسؤول وهذا واجبك ووفقاً لتقاليدكم ، فإن المضيف يحمي الضيف وخدمه وممتلكاته ، وهذا شيء معروف لكل واحد . وإذا لم ترغم هؤلاء السادة ليدفعوا التعويض فهذا يعني أنك لا تهتم بأملاك الغير من أصدقائك وجيرانك . إن الأمير النوري بن شعلان لن يدع هذه الحادثة تمر هكذا " . "والله لن أدعها تمر . أنا أعرف أنك اشتريت الجملين بمائة وثمانية وخمسين ريالاً مجيدياً ، ولكن هذه السنة انخفضت أسعار الجمال عن السنة الماضية وأقوم جملك الواحد بمبلغ مائة ريال مجيدي ، فإذا وافقت سيدفع لك سادة هؤلاء الخدم اللصوص هذا المبلغ " . ووافقت وطلبت من الأمير أن يعجل بهذا الأمر ، وفي الليل جاء الكاتب جواد بكلمة من الأمير يقول فيها أن علينا أن نبقى في قارا حتى يوم السبت ، ولقد سررت لذلك لأكمل في ذلك التاريخ أعمالاً في الأدب الشعبي .

وكان الأمير يأتي لزيارتي كل يوم ، وكان عندما يراني يتحاشى إزعاجي ، وإذا علم بشخص يريد زيارتي يرده عني .

كثير من الشيوخ - خصوصاً صغار السن - كانوا يرغبون في الحصول على بعض الأشياء مني ، ولكنهم لم يجرؤوا على ذكر ذلك ، لأنهم كانوا يعرفون أن الأمير صديقي الحميم . ولم أسمح لكثير من هؤلاء المشايخ أن يدفعوا الكلفة معي ، ويقتربوا مني كثيراً . وكنت معهم ودوداً ومجاملاً ولكن في حدود ، وأتحفظ عندما أرى أحدهم حاد عن تلك الحدود . وأتظاهر بأنني لم أفهم شيئاً مما رمى إليه ، أو أتظاهر بأنني لم أسمع أو أرد باقتضاب سلبي ، وأشغل المتحدث بعد ذلك مباشرة ، في محادثة لطيفة ، و كأن شيئاً لم يكن . لم أسمح لنفسي بقبول أي دعوة للعشاء من الشيوخ الشباب ، ولم أقم بزيارة أحد منهم البتة . وكان نادراً أن أدخل خيمة الأمير ، وعندما أدخل أجلس معه

قليلاً، وكانت خيمتي المستديرة دائماً مفتوحة له. ولكنها موصده في وجه الآخرين من الشيوخ. وكنت أسمح لهم بالجلوس في خيمتي الكبيرة عندما أدعوهم أنا. كما إنني لا أحيي الشيوخ من الشباب أولاً، ولكن أرد تحيتهم وأستفهم منهم في مودة عن هذا وذاك. وإذا لم يحييني أحدهم، أمر به كأني لم أره ولم أسمعه.

إن رحلاتي العلمية، التي يطلقون عليها غزوات كانت معروفة للجميع. ولم يشك أحد في شجاعتي، ومرة أراد الأمير ممدوح بن سطام، وهو معروف بالشجاعة، أن يختبرني بالسؤال إن كنت اخاف وأنا أتجول في مجاهل الصحراء لوحدي، فأجبته أمام الجميع: "ما هو الخوف يا ممدوح، وما هي مجاهل الصحراء؟ لقد كنت أتجول فيها على ظهر بعير، بينما أنت كنت تُحمل في حقيبة، فتغير وجه ممدوح وتراجع عن سؤاله.

وفعلاً، كان العبيد يحملون أبناء سادتهم عندما كانوا صغاراً في حقائب مربوطة إلى السروج، لأنهم لا يستطيعون ركوب الإبل. بهذا الأسلوب اكتسبت ثقة أسرة الأمير، ولا يستطيع أحد من صغار الشيوخ أن يُؤلب عليّ، ومن أجل المحافظة على تلك المكانة، إلى الحد الذي أطلب تعويضاً عن جمالي المسروقة. وكانت تلك فرصة لأعرف مدى صداقة الأمير معي.

في يوم الخميس، أنجزت كل أعمالي العلمية. وفي المساء، ذهبت مع الشيخ ظاهر لزيارة خيمته، حيث يتم ختان بعض الصبيان، وأمامها عدد من الفتيات و كن يرقصن. وفي طريق العودة وقفنا لنفحص صخرة المشرفة، حيث كانت توجد قلعة هناك. وفي الصخرة التي نحتت باليد، اكتشفت كتابة نبطية، وقررت العودة في اليوم التالي في الصباح لأتمكن من رؤيتها جيداً.

وفي يوم الجمعة، شعرت بتعب شديد، لأنني شربت كميات كبيرة من

القهوة، لأبقى نشطاً، وأصبحت الآن متوعكاً مثل من أصيب بنكسة. حيث إنني لم أتمكن من النهوض من سريري وارتفع نبض الدم في رأسي، حتى شعرت بأن كل شيء أمامي يدور. وخف ناصر لمساعدتي، ونقلني من خيمتي الصغيرة إلى الخيمة الكبيرة حيث جلست لبعض الوقت.

عند الظهيرة، هبت عاصفة رملية اقتلعت خيامنا مما دفعنا إلى أن نحتمي بجدران البستان. لم تتوقف العاصفة إلا عند الغروب. وكان الوقت قد تأخر للعودة إلى صخرة المشرفة.

في مساء ذلك اليوم، أحضر لي الكاتب جواد ١٧ جنيهاً تركياً تعويضاً عن جمالي المسروقة وخبراً عن القرار برحيلنا يوم الغد إلى المناطق المأهولة. لقد حفظ الأمير كلمته، وهذه الحقيقة مع الفرحة بقرار الرحيل من دواخل الصحراء ساهمت في رفع معنوياتي".

غادر موسيل بلدة قارا برفقة الأمير ورجال قبيلته عبر وادي السرحان حيث توقفوا وهم في طريقهم إلى دمشق في قرى شمال وادي السرحان وذكر الآتي(٨):

"عند الساعة العاشرة وأربع وأربعين دقيقة من صباح يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر مايو ١٩٠٩م وصلنا إلى مستوطنة غطي الصغيرة. تتكون هذه القرية من مجموعتين (قصرين) من المنازل محاطة ببساتين كبيرة للنخيل. وإلى شمال غربها ظهرت لنا بساتين النخيل الكثيرة لقرية كاف التي تقع عند قاعدة جبل الصعيدي الذي مايزال يحمل في قمته آثار مبان قديمة.

وتقريباً عند الساعة الحادية عشرة أحاط بنا وفد سكان كاف، الذين لم ينظر الأمير إليهم رغم أنه هو الذي طلب الاجتماع بهم. لقد أجاب على سلاماتهم باقتضاب وبصوت خفيض وسار بصمت، وكانوا يخاطبونه بقولهم «يا طويل العمر» متحدثين باسمهم وباسم جيرانهم الذين بقوا في كاف. كانت إجابة

الأمير «سترك يارب» ثم لاذ بالصمت.

عند الساعة ١٥ : ١٢ وصلنا إلى حقل مسور، اسمه العقيلة، الذي خيمنا عنده بين نباتات المصع، بالقرب من عدد من الآبار، عمقها مترين وليس بها إلا الماء المالح والمر. لقد استمر الأمير في تجاهله لوفد كاف. نزع الأمير ملابسه واتجه إلى أحد الآبار ليغطس نفسه به وليغتسل، طالباً مني أن أفعل مثله. عند المساء وصلت عدة جمال حاملة إتاوة سكان إثرة وكاف لشيوخ الشعلان، ولا يتعدى نصيب الأمير منها حمولة واحدة من الطحين وأخرى من الشعير. إتاوة اثرة خاصة بعبدالله الشعلان، الذي كان والده طلال الشعلان قد ألحقها به. وأغلب البساتين في كاف هي ملك لأبناء سطام الشعلان.

وفي يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شهر مايو ١٩٠٩م بقينا في مخيمنا لأن الأمير كان لديه قضايا عديدة ليحكم فيها، كما أن العرب كانوا يريدون شراء الملح. ومن كان يملك مالاً كان يستطيع شراء القمح والشعير. لقد عين الأمير النوري، عواداً، ابن مملوكه حمّار، نائباً له في كاف.

يوجد في مستوطنة كاف أكثر من ستين منزلاً، مقسمة إلى ثلاثة أحياء (قصور)؛ الحي الأول: القصر الشرقي، يخضع للشيخ مطاوي بن خضير؛ الحي الثاني: القصر الغربي، يخضع للشيخ مفضي بن خميس، أما الحي الثالث: القصر الوسطاني، وهو الأصغر بين الأحياء الثلاثة، فيخص نائب الأمير في كاف والتابعين له. يدفع نائب الأمير في كاف للأمير خمسمائة مجيدي (٤٥٠ دولاراً) في السنة كضرائب ولا يحصل على أي راتب. يعمل سكان مستوطنات منطقة كاف في تجارة الملح، الذي يستخرجونه من عدة أماكن عن طريق التبخير، لاسيما في مستوطنة إثرة. ويبيعون سنوياً إلى سورية حمولة خمسمائة أو ستمائة جمل. حمولة الجمل الواحد من الملح التي تعادل ستة عشر مداً (٢٨٨ لتر) تساوي مجيدي واحد (٩٠ سنت)، نصفها

يذهب إلى نائب الأمير، الذي بالإضافة إلى هذه يحصل على رسوم إضافية مقابل حماية الجمال وأحمالها. فالتاجر الذي يحمل نقوداً يدفع ثمان مجيديات، وتدفع ست مجيديات مقابل نقل حمولة واحدة من البضاعة. وإذا ما كانت الحمولة تبغاً أو سمناً، فيُدفع ثلاث مجيديات. وإذا ما فقد التاجر عن طريق السلب أي شيء في منطقة كاف التي يتبعها كل منخفض وادي السرحان، فإنه يطالب بالتعويض من نائب الأمير. في حالة كان المهاجم للتاجر أو السالب له من ضنا مسلم (من قبيلة عنزة) أو من الشرارات فإن نائب الأمير يبعث برسول إلى عشيرة الشخص الفاعل ويطالبها باسم الأمير النوري الشعلان إما إعادة المسروقات أو التعويض عنها بضعف قيمتها. أما إذا كان الفاعل من بني صخر أو من الحويطات أو أي قبيلة أخرى فإن نائب الأمير يعمل على القبض على الفاعل وقيده بالحديد ثم إبلاغ عشيرته أنه لن يُطلق من قيده حتى تعاد المسلوبات.

إن أغلب سكان كاف والقرى الأخرى هم من الجوف، وعندهم أقرباء بها؛ ولهذا فإن الأمير أصدر أمراً لسكان هذه القرى بألا يحموا أحداً من معارضيه في الجوف، والعقاب على ذلك سيكون بمصادرة الممتلكات، إذا لم تكن حياة الفاعل.

لا يوجد إلا القليل من القمح والشعير في كاف لذلك كان العرب مضطرين لدفع مجيديين للمُدًّ الواحد (١٨ لتراً) من القمح، وثلاثين بيسة (٤٥ر١ دولار) لمد من الشعير.

غادر موسيل وادي السرحان برفقة الأمير وقبيلته عائداً إلى دمشق التي وصلها يوم الاثنين ٢١/ ٧/ ١٩٠٩م.

الرحلة الثانية

الويس موسيل

١٩١٥م / ١٣٣٣هـ

الويس موسيل الرحلة الثانية

١٩١٥م / ١٣٣٣هـ

كما ذكرنا في التعريف عن موسيل في رحلته الأولى، ففي عام ١٩١٤م وبعد بدء الحرب العالمية الأولى قررت ألمانيا إرسال بعثة إلى الجزيرة العربية للعمل على توحيد القبائل الموجودة بها والعمل على تكتلها ضد الإنجليز. وقد اختير موسيل رئيساً للبعثة. وضع موسيل شروطا يجب تلبيتها قبل أن يقوم بمهمته، ومن هذه الشروط أن تتم الموافقة على تعيينه من طرف القيصر فرانز جوزيف شخصياً، وأن يفيد عمله السياسة النمساوية - المجرية، وأن يعطى لقب مستشار الإمبرطور. وقد تم لموسيل ما أراد، فانطلق برحلته الجديدة والأخيرة في الصحراء العربية.

اجتمع موسيل في رحلته مع شيوخ القبائل، ومنحهم الأعطيات المالية للوقوف بجانب الحلف التركي - الألماني - النمساوي المجري ضد الإنجليز وحلفائهم. وأن يتخلوا عن الحروب فيما بينهم. كما أنه أراد أن يصلح ذات البين بين القبائل الموالية لتركية وتلك التي تعارضها. جرت مفاوضات سياسية عديدة مع شيوخ القبائل عبروا خلالها عن عدم ثقتهم بالأتراك، ولكنهم تجاوبوا مع رغباته. كما أنه اقترح التوسط بينهم وبين ابن رشيد، وقرر الذهاب إليه للتوسط فيما بينهم وبينه. وهنا نتركه ليتحدث عن هذه اللقاءات والمفاوضات مع شيوخ القبائل عند وصوله إلى مخيم الشيخ النوري ابن شعلان شيخ قبيلة الرولة قرب خبرة الهجم في هضبة الحماد شمال منطقة الجوف(٨):

"بين الساعة ١٠:٥٠ والساعة ١١:٣٠ من يوم السبت ٢٦ ديسمبر ١٩١٤م عندما استأنفنا مسيرتنا قابلنا جماعات كبيرة وأخرى صغيرة من البدو المرتَحلين والذين أفادونا بأن الأمير النوري ابن شعلان سوف يضرب مُخيّمه

شرق خبرة الهجم. عند الظهيرة حلقت فوقنا أكثر من مائة من الطيور ذوات صدور وردية الريش، وجنحانها سوداء اللون وأعناقها بيض، ومناقير صفراء غامقة، أوضح "عواد" أن اسمها "رهاء". عند الساعة ٢:٣٠ مساءً وصلنا إلى خبرة الهجم، حيث عبأنا قِرْبةً بالماء في عشر دقائق.

هذه البركة تم توسيعها صناعياً ولكن الجزء الذي تم حفرُه مليء بالطين للدرجة التي لا تمتلئ بالمياه إلا في الأعوام التي تهطلُ فيها الأمطار بغزارة غيرُ عادية.

من اتجاه الشرق كانت تُسمع أصوات طلقات نارية تُطلق على فترات متقاربة، والتي كانت تدلُّ على أن أبناء العائلة الحاكمة كانوا يصوبون نحو هدف ما. كانت خيمة الأمير النوري ابن شعلان منصوبة في حفرة صغيرة للدرجة التي لم نستطع أن نراها حتى الساعة ٣:١٠م. لم تكد تظهر حتى توقف إطلاق الرصاص، وتدافع جميع الحضور أمام الخيمة، ينظرون إلينا متفحصين في استغراب. فجأة صاح المملوك عليَّ: «الشيخ موسى؟!» واندفع لملاقاتنا وقاد راحلتي إلى الجانب الأيسر من الخيمة. لم أكن قد ترجلتُ بعد عندما وقف الأميرُ أمامي وجَذَبني إلى ذراعيه واحتضنني وقبّلني على الخدين وكأنني شقيقه. خلفه كان يقف الأمير نوّاف الذي مَدّ كلتا يديه نحوي، ثم تبع ذلك صف طويل من أصدقائي القدامى المُخلصين، والذين احتضنتهم جميعاً وقبلتهم على خدودهم قبل دخولي الخيمة. أجلسني نواف بينه وبين والده، وانهمرت من كل جانب التحايا والاستفسارات عن صحتي. لقد شعرت براحة وحرية كبيرة بين هؤلاء الناس الطيبين للدرجة التي اعتبرتُ فيها نفسي في موطني وبين أشقائي.

تفحصت المجتمعين باحثاً وسَطَهم عن أصدقائي الحميمين الثلاثة عذوب

ابن مجول، وممدوح بن سَطام، وسعود ابن الأمير النوري. ولما لم أرهم بين الحضُور استفسرت عن مكانهم.

"لقد ذهبوا (راحوا)" قال الأمير. "عذوب، كانت قد نُهبت منه عدة قطعان من الجمال بواسطة شَمّرْ عند مَورّد مياه القصايم، فقام باعتراض المغيرين، واسترد الحيوانات، ولكنه أصيب بطلق ناري فَخَرّ صريعاً في الحال. رجع فرسه بسرجٍ خالٍ مُلطخ بالدماء. "وأين قضى ممدوح نحبه؟" «كان قد تولى غارة ضد شمر. وقد استدار حول النفود من الجانب الغربي والجانب الجنوبي، ووجد شمر وولد سليمان عند آبار بيضاء نثيل، فاستولى على اثني عشر قطيعاً من الجمال، وبينما كان هارباً بها إلى ناحية الغرب هاجمه العدو، الذي كان يحتل أغوار المسمى، فسقط ممدوح قتيلاً في ممر العاه. أما الناجون من الغارة فقد وصلوا إلينا عندما كنا نخيم عند جبل العمود.

«وأين فَقَدْتَ سعوداً؟» «لقد سقط نتيجة غدر، قتله الكلاب، الذين ينبح على رأسهم ابن جازي عند مدخل وادي ناعمْ في وادي السرحان شمال قرية قراقر الصغيرة. كان هناك مع ستة من الفرسان يرعى قطعاناً من الجمال، عندما أقبل عشرة أشخاص يركبون على جمال، وحيا هؤلاء سعود ومن معه موضحين بأنهم تحت إمرة الشيخ عودة أبوتايه وهو صديق لنا. وبما أن ملابس حويطات أبو تايه تشبه ملابس حويطات ابن جازي فقد صدقهم سعود في الحال ودعاهم إلى الانضمام إليه حول النار. قام الراكبون بإنزال سُروج جمالهم وحملوا السروج إلى صخرة مجاورة: حيث تظاهروا بإشعال نار. فجأة ودون سابق إنذار تناولوا بنادقهم وأطلقوا النار على سعود ورفاقه، وفي الحال كان سعود وأربعة آخرين يخرون قتلى. الاثنان الآخران أنقذا نفسيهما بالاحتماء وراء أجَمَة (رتم) وأسرعا في طلب نجدة. حاول الحويطات الهرب

ولكن فرسان الشعلان على صهوات الخيل سرعان ما لحقوا بهم. عندما رأوا أن لا أمل لهم في النجاة، قفزوا من على ظهور جمالهم واختبأوا في الدَغْل المكشوف الواقع في وسط وادي السرحَان. أحاط المطاردون بالدَغْل وأشعلوا العديد من النيران، وظلوا يرقبون الرجال طوال الليل. في صباح اليوم التالي تَوسل الحويطات طالبين الرحمة، لكن الفرسان قاموا بشد وثاقهم، وأخذوهم إلى الموضع الذي لطخه دم سعود وذبحوهم الواحد تلو الآخر مع وضع رؤوسهم إلى القبلة، وهي الطريقة التي يُذبح بها الضأن. إنهم يستحقون ذلك جزاءً على خيانتهم".

لم يختلج صوت الأمير على الإطلاق أثناء وصفه لمقتل صديقه عذوب، ونسيبه ممدوح، وابنه وفلذة كبده سعود قائلاً: "ماذا يُمكنك أخي أن تفعل تجاه إرادة الله؟ إن ثلثينا نحن الرجال يفارق هذه الحياة غصب. ولا يوجد أي امرئ من الثلث المتبقي من لا يحمل جراحه وأحزانه. هكذا كان يا موسى مَن قبلنا، وهكذا سيكون الأمرُ من بعدنا. يا الله! يا رحيم!".

قُرب المساء ذهبت إلى خيمتي، حيث أرسل إليّ الأمير طعام العشاء المكون من البُرغُلْ مع قطع من لحم الضأن.

الأحد ٢٧ ديسمبر ١٩١٤م:

كنا ننوي الرحيل، لكن البدو كانوا غير راغبين مغادرة خيامهم. غطى السماء ضباب كثيف متخللاً الخيام، وأسهم في خفض درجة الحرارة إلى ١,٧ درجة مئوية عند الساعة ٧:٤٥ صباحاً. داخل الخيام كانت النيران مشتعلة وكان البدو يربضونَ حولها. كان الصقيع يخترق عظامَنا حتى النخاع. يقال إنه لا يوجد جزء في أي مكان داخل الجزيرة العربية بهذه البرودة

مثلما هو عليه في الهضبة بين جبل عنازة واللاهة .

بعد العاشرة جاء الأمير وطلب مني أن أركب جملي، حيث أن موعد الارتحال قد شارف على البدء. ركبت معه، ولحق بنا على التو نواف والعديد من حراسه، ومختلف الشيوخ، والعبيد. حملتنا الجمال في خطوات سريعة خارج الحَشْد المتحرك من الناس، حتى أصبحنا نسير في مقدمتهم. كان البدو يجلسون على جمالهم ورؤوسهم مغطاة بالكامل، بحيث لا تظهر إلا عيونهم فقط. كانت أجسامهم مكسوة بنقيض من الثياب - أكبر قدر منها مما يمكن أن يرتدونه تحت معاطفهم الصوفية القصيرة الواسعة، ذات الأكمام التي تطول بنصف متر عن أذرعهم. فوق معاطفهم الصوفية وأغطية الرأس كانت تلفهم عباءات. وكانوا ينتعلون صنادل، أو أحذية بدائية منخفضة، لكن البعض منهم كانوا ينتعلون أحذية الركوب الحمراء (جَزمة). كانت سيقانهم وركبهم عارية كلية، إذ كانت الرياح ترفع ثيابهم ومعاطفهم سامحةً للبرد ليتغلغل حتى خصورهم. كان أكثرهم ينظر إليّ في شفقة لأنني لا ألبس معطفاً صوفياً (فروة)، وكان طراد بن سطام يهم بتجريد نفسه من معطفه ليعطيني إياه خشية أن أتجمدَ عندها قهقه الأمير قائلا :-

" أيا طراد، ليس موسى بل أنت الذي تعاني من البرد. ألا ترى ما يرتديه على الأرجل؟ إن ركبتيك عاريتان؛ أما ركبتاه فمغطيتان بأحذية جلدية. ومن المرجح أن صَدْرَه مَحْمي ومغطى بالمثل. ولماذا يشتري موسى معطفاً صوفياً في حين أنه سوف يصل قريباً إلى بلاد سوف يتصبب فيها عرقاً نهاراً وليلاً؟ "

لقد وهبني نواف جوارب رفيعة نصف حريرية ، وحذاءً منخفضاً من الجلد الأصلي بنعل مطاطي. كانت نصف يديه داخل قفازات بيضاء شفافة، والتي عرضها عليّ في الحال عندما لاحظ يداي العاريتين. كانت هذه الجوارب

الرفيعة من الهدايا التي يقدمها له مختلف التجار، الذين يجوبون مستوطنات واحة الجوف. لقد حكم هناك لمدة خمس سنوات فقط إلا أنه تَشَرَّبَ بأخلاق وطباع الحضر. كان يتدلى من سرجه سيف ذو مقبض رائع ويزيّن حَدَّهُ نقوش هولندية ترجع إلى العام ١٦٧٢م. كان خادمه الشاب قد قام بزخرفة المقبض بالأحجار الكريمة والذهب والفضة.

لقد كانت فترة شباب نواف، بالرغم من تأرجحها، التي عاشها في العام ١٩٠٨م و١٩٠٩م قد خلقت منه رجلاً صلباً حازماً. كان وجهه يعكس آثار المصاعب التي عَرَكَها، وكانت قسماته تحمل سماتَ عزيمة لا تُقهر ولا تحجمْ أو تجفلِ حتى من القسوة ذاتها. كانت في عينيه المرحتين ابتسامة جذلة ولكن الابتسامة بالنسبة لي كانت أشبه بابتسامة الرضا لحيوان مفترس. كان اثنان من الفرسان يشكلان حرسه الشخصي يركبان بشكل دائم على بعد عشر خطوات خلفه. لقد جاء لزيارة والده، يصحبه عدة مئات من المحاربين على الجمال وهم يحملون في مقدمة صفوفهم علماً غريباً مميزاً (بَيْرَق). إلى حربةٍ طويلة مزينة بريش النعام كانت قطعة من قماش أسود مخاط عليها شكل سيفٍ من قماشٍ أبيض ومُوشًى في شكل متقاطع بالكلمات: "لا إله إلا الله محمد رسول الله". كان محاربو نواف يخيّمون دائماً مع بعضهم في خيام بيضاء كبيرة مُجمّعة حول واحدة تحجز له. لقد كانوا "مرتزقة" يخدمون من أجل رواتبهم وإعاشتهم، وحتى أسلحتهم كانت ملكاً لنواف. كان أقل عصيان يعاقب عليه الجاني بشدة، حيث يتم ربطه إلى عمود خيمة ثقيل، يجره طوال المسير. الأخطاء الجسيمة كان يعاقب عليها بالإعدام.

المال والطعام الذي كان يحتاجه نواف لجنوده كان ينجح في توفيره من بيع الغنائم التي يستولي عليها من القبائل المعادية.

لقد أتى إلى والده النوريّ بغرض التنسيق مع البدو التابعين له والقيام بغارات مشتركة ضد قبائل شمّر، والفدعان والدروز. كان الشيوخ الشبان والعبيد مسرورين لهذه الغارات المتوقعة، وكانوا يبدون متحمسين للمعارك بنفس القدر للغنائم المنظورة. إن البدوي يتوق ليلاً ونهاراً للغنائم؛ ليس لكي يُغْني نفسه بها، أكثر مما يجلبه الاستيلاء عليها من إثارة؛ وكلما كان الخطر كبيراً، كلما كانت المغامرة مُغرية.

وحالما تكون الغنيمةُ بين يديه، فإنها تفقدُ متعتها بالنسبة له: إنه يَهبُ ما استولى عليه، ويخطط حينئذ لنهبٍ جديد. لقد كان يبدو لي دائماً بأن البدو يعتبرون القتال نوعاً من الرياضة.

راي قبيلة الرولة عن الحرب العالمية الأولى

من الساعة ١٠:٤٠ وحتى الساعة ١١:٢٠ أدفأنا أنفسنا عند نار كبيرة أوقدها العبيد بناء على أمر من الأمير. سألني "مَرْفُود" وهو شيخ عجوز عما إذا كنت أرغب في المشاركة في غارة ضد الفدعَان.

ورغبة مني في معرفة رأي ابن الصحراء البسيط هذا عن الجهاد، والذي كثر الحديث عَنها في أوروبا أجبت قائلا:

"ألا تدري يامرفود بأن الخليفة قد أعلن الجهاد ضد الكفار؛ ومنع المؤمنين من الاقتتال فيما بينهم؟" "ماذا يعرف الخليفة؟ وماذا يهمنا من أمر الخليفة؟ إن الفدعان غير مؤمنين بالنسبة لنا، ولذلك نحاربهم".

"لماذا ذلك، إن الفدعان ينتمون إلى عَنَزَة مثل الرولة تماماً، وبذلك فإنهم من نفس قبيلتكم، وأنهم على نفس عقيدتكم".

"أعرف أنهم ينتمون إلينا عن طريق الدم والعقيدة لكنهم خَدعُونا لذلك

فإنهم أسوأ من جميع الأغراب والمسيحيين، وإننا في جهاد ضدهم. وإن شمّر ابن رشيد ودروز الحكومة التركية لفي نفس السوء. ماذا يهمنا من أمر جهاد الخليفة؟" كان الأمير النوري ونواف قد أعلنا ولاءهما للخليفة في القسطنطينية ومع ذلك صرح" مرفود" قائلا:.

"لك أن تطيع من شئت. إننا نَهْتَدى وفق قانون الصحراء أليس كذلك يا أخوان؟"

جاء الصدى مسموعاً من كل جانب في شكل كورال جَهير: "لقد قُلتَ الحق. لقد قُلتَ الحق".

كان مرفود يُترجم الرأي العام، بينما الأمير ونواف يشتركون في رأي سياسي، لا يَرُوقُ لقلوبهم. الدينُ، والوطنية والوحدة، هذه مفاهيم مُبهمه بالنسبة للبدوي العادي، إن دينَهُ مُعارضٌ تماماً وبكل ما في الكلمة من معنى لكل جيرانه، حتى ولو كانوا يتكلمون العربيةَ مثلَه تماماً، وإن الوحدة عندَه تنتهي عند أقاربه. لكن حتى ولو شكلت القبائل تحالفاً فيما بينها من أجل دفاع أكثر فعالية، فإنه لا يحدث مطلقاً أن يربط البدوي نفسه في تحالف مع مُستوطن [حضري]. لا توجد أيُّ وحدة بين القبائل المستقلة في داخل الصحراء وبين المستوطنين في الأقاليم الزراعية؛ لذلك فإنه من غير الملائم أن تشمَل أواسط الجزيرة العربية ضمن البلدان مثل مصر وسوريا أو العراق. إن أواسط الجزيرة العربية عالمٌ غريبٌ وفريدٌ في نوعه، عالمٌ خاص، يَصْعُب فَهمه.

لقد دهشتُ عندما اكتشفت أن الكثيرين من قبيلة الرولة قد أصبحوا ملتزمين بالدين منذ العام ١٩٠٩م. في عام ١٩٠٨م و١٩٠٩م لم أشاهد أحداً منهم يُصلي على الإطلاق، ولكن في العام ١٩١٤م كان الأمر مُختلفاً. أعتقد

أن الأمر كان نتيجة لنشاطات نواف، إذ باستيلائه على الجوف ومستوطنات أخرى كان مُضطراً لأداء الصلوات مع السكان.

إن جُنوده الذين يأتون من قرى جوار وأواسط الفرات ومن القصيم كانوا ملتزمين بالصلوات ومعتادين على أدائها، وكان يُمكن للكثير منهم أن يتلو جزءاً كاملاً من القرآن، كانوا يُعَلمون الآخرين ويحُضونَهم على مُراعاة المبادئ والقواعد الدينية. إن الجنودَ من القصيم، مثل سكان الجوف كانوا مُشبعين بأفكار الوَهابية؛ لذلك لم يكن لدى نواف خيار سوى الانضمام إليهم والتمسُكْ ظاهرياً على الأقل بالتَعاليم الوَهابية. إذاً فالخطيب يأمر جنوده بصوت عالٍ لأداء الصلاة المفروضة ويُصلي مَعهم. كانت الصلاة تقام قُرب خيمة النوريّ في المساء. لا أحد كان يصلي صباحاً صلاة الصبح إذ أن البدو ينامون إلى ما بعد طلوع الشمس بوقت طويل، ولكنهم يصلون بين الفينة والأخرى عند الظهر. كان العديد من البدو يَحذون حَذْو الشيوخ ويصلون أيضاً. كان البدوي يُقلد جميع حركاتهم ولكنه لا يقرأ، لأنه لا يعرف ذلك. لقد عَلمتُ بهذا عندما طلبت من العديد من الرجال أن يرددوا الصلوات.

كان أكثر ما أثار دهشتي لدى الرولة هو بغْضُهُم المتزايد للمسيحين (النصارى) عموماً، والإنكليز على وجه الخصوص، بسبب حروب الحكومة التركية مع إيطاليا ودول البلقان. وهذا ليس لأن البدو يهتمون لفقدان الحكومة لأقاليم كبيرة في البلقان وفي طرابلس [الغرب] بل على العكس فإنهم كانوا يتمَنون أن يروا الدولة تُهْزَم وتَضعُف. لقد كانوا مُستائين كثيراً من تصرفات الحكومة في طلب الجمال التي اشتراها العقيلات من البدو، وذلك للأغراض العسكرية. فالعقيلات بالطبع كانوا نافرين من شراء الجمال الآن، إذ أنهم لن

يأملوا في الحصول على قيمة لها من الحكومة قدر ما كانوا سيحصلون عليه لو باعوها في مصْرَ؛ لذلك فإن البدو، وهم غير قادرين على بيع جمالهم أصبحوا يعانون العوزُ. إضافة إلى ذلك فإنهم عندما دخلوا المنطقة التي تسيطر عليها الحكومة في شهر يونيو، تم مصادرة خَيلهم وجِمالهم بالقوة وسيقَتْ إلى السُلطان في القسطنطينية.

منذ العام ١٩١٠م كانت الأمور سيئة للبدو. ومن الغريب على أية حال القول بأنهم لم يلوموا الحكومة بقدر ما لاموا المسيحيين والإنجليز. إذ أنهم قالوا أن المسيحيين هم الذين قاموا باستفزاز الحكومة ولولا ذلك لكانت الحكومة قد تركت البدو وشأنهم؛ وعندما هاجم المسيحيون الحكومة بالفعل كان ينبغي على الإنجليز صَدّهم. وقالوا إن الإنجليز قد وعدوا بحماية السلطان في القسطنطينية من المسكوف (الروس)، وعليه فإنهم كانوا ملزمين بحمايته من المسيحيين الآخرين. وبما أنهم نكصوا بعهدهم، فإنهم كانوا يعتبرون الإنجليز خائنين، وفي ذات الوقت هم السبب في مأساتهم. لأن البدو كانوا يعرفون بأنه كلما قلت المراعي في مناطق السلطان كلما ازدادوا إصراراً على تلك المراعي التي تخصهم؛ وبأنه، إذا ما هُزِمَ السلطان في الحرب العظمى ١٩١٤م فإنه سوف يَضْطهِدَهم ويَظْلِمهم بصورة أكبر. إضافة إلى ذلك، فإن المراعي الخاصة بالإنجليز ليست حتى كافية لهم، لذلك كان يشاع بأنهم يميلون إلى الاستيلاء على الأقاليم الخاصة بالمنتفق وعرب ابن صَبّاح؛ وأن هذا كان دافعهم وراء إرسال الجنود إلى الكويت والبصْرَة. لهذه الأسباب كان البدو في خطر منهم أيضاً. هكذا علق الرولة الذين كانوا يركبون معي؛ لكن الأمير ونوافاً لاذا بالصمت المُطبَق.

سياسة شمال الجزيرة العربية

الاثنين ٢٨ ديسمبر ١٩١٤م:

سجل مقياس درجة الحرارة درجة مئوية واحدة عند السابعة صباحاً. بقينا في المخيم، حيث انهمكت في إعادة كتابة مذكراتي. قُبيل الظهيرة حضر النّوري ونواف إليّ لمناقشة الأوضاع السياسية وآراء البدو. لقد نصحني النوريّ بأن لا أصدقَ، لا دعاياته ولا ما كتبه إلى الحكومة. «إنك تعرف دَخيلتي، أخي» تحدَث قائلاً: إنك تعرف أنني لا أثقُ في الحكومة وهي لا تثقُ بي. ولولاك أنت، لكنت ما أزال جالساً في «الغوطة» كسجين محترم للحكومة. كانت عشيرتي بعيدة في الصحراء، ولم أكن لأحصل على الإفراج عني لا من المشير ولا من الحاكم. لقد تظاهروا بأنهم يحتاجونني لحربهم ضد الإنجليز. قلت لهم: "كيف أكون ذا نفع لكم لوحدي؟ أرسلوني إلى الصحراء وسوف آتيكم بآلاف المحاربين وسوف نذبح الإنجليز؛ إلا أنهم ظلوا يؤجلون رحيلي يوماً بعد الآخر. كنت أخشى أن يسجنونني مرة أخرى. أخيراً أرسلك الله لي. لقد كفلتني وضمنتني بأنني سوف لن أهاجم الحكومة، فقامت الحكومة بالأفراج عني. لقد صدقتك الحكومة، لكنها لم تكن تصدقني. كانوا يخشون أن أحاربهم. وللحقيقة كم أتوق إلى فعل ذلك، لكنني لا أستطيع. لقد حرَضوا ضدي الشيوخ حاكم بن مهيّد وابن رشيد. حاكم يهاجم من الشمال، وابن رشيد من الجنوب. ساعدْني لعقد سلام معهما. لماذا يجب علينا نحن أبناء الجزيرة العربية أن نُقَتِلَ ونذبح بعضنا بعضاً، لصالح حكومة أجنبية؟ إنهم يحرضوننا ضد بعضنا، ونستجيب نحن لذلك. إنه ينقصنا التعقل. إذا ما عشنا في تحالف سلمي، فإن الحكومة سوف ترتعد فرائصها. إنهم الآن يهزأون ويسخرون منا. يريدون مني أن أساعدهم،

أنا، النوري الذي كانت نفس الحكومة الملعونة تسعى لشنقه قبل أربع سنوات مضت! أنا النوري الذي أهنت لمدة عامين في قبضتهم! أنا النوريّ الذي أنقذته أنت من المقصَلَة، وأنت لوحدك يا موسى الذي خلصته من السجن! والآن عليّ أن أساعد الحكومة وأتحرك ضد الإنجليز! في ذلك القفص تعلمت كيف أخفي حتى الأمور التي تأكل من قلبي. إن الحكومة تستطيع أن تُلحق الضررَ بي وبمن معي. إننا في حاجة إلى الملبس، وللحبوب لأنفسنا ولِخيلنا، وللسلاح والذخيرة. إن السلاح والذخيرة تُجلبُ إلينا بواسطة العقيلات من الكويت والعقير؛ لكنهم لا يستطيعون إمدادنا بالملابس والحبوب من هناك. إنها بعيدة للغاية. إننا نعتمدُ على الحضر في سوريا والعراق، وهم ما يزالون تحت سيطرة الحكومة. إنهم سوف لا يبيعوننا أي شيء دون إذن الحكومة، وإننا لا نستطيع أخذ أي شيء منهم بالقوة. إن محاربينا لعاجزون في البساتين ووسط المنازل الحجرية، وهم هدفٌ سهلٌ لبنادق جنود الحكومة. إن السكان الحضر يبغضون الحكومة بنفس القدر، ولكنهم مُتحدون معها ضدنا. ماذا ينبغي علينا أن نفعل سوى أن ننتظر في صبر ونُعدَّ العُدة للقتال؟ لقد وعدت الحكومة بكل الذي طلبتهُ مني، وسوف أستمرَ أعدهم شفاهة وكتابة. إنني أدفع الضرائب حينما يحلُ وقت دفعها، وأُسْهِمُ في نفقات الحرب، وأقدم للحكومة الجمال وكذلك الخيول، وأدعمها بالذهب وألعنها. اللعنة على أولئك الذين يلتهمون ذهبي! إن سامي باشا (الحاكم العام لسورية في عام ١٩١٠م) قد التهم عدة أرطال من الذهب (الرطل يساوي ٢,٥٦ كيلو جرام)، وعندما أنّبتُه ولمتُه أمر بأن يُحكم عليّ بالإعدام. منذ ذلك الحين فإنني لا أعارض، لم يطلب الحاكم ذهباً مني. إنه يطلب أن أظل مخلصاً موالياً أثناء الحرب؛ ويَعدُ بمساعدتي بعد الحرب ضد ابن رشيد. إذا ما كان يتكلم الصدق أم يكذب لا علمَ لي بذلك* .

"إنه يكذبُ يا أبتي" قاطعه نواف "كيف يمكن أن يكون صادقاً في حين أنه يعلم بأن أنور باشا يعتبر أن ابن رشيد أكثر حليف مخلص له، ويرسل له السلاح والذخيرة والمال؟ في بداية هذه السنة أرسل له عن طريق السكة الحديد إلى الحجر (مدائن صالح) خمسة عشر ألف بندقية ماركة "مَاوزَرْ" وأربعمائة ألف طلقة، ومدافع ميدان، وكثيراً من الذهب حتى إن عشرة من الجمال استطاعت بالكاد أن تحمله. قام زامل بن سبهان بنقل السلاح إلى حائل ووزعه على شمّر وحتى على الصلب. قبل ذلك كان لدى شمّر بالكاد خمسمائة من البنادق الجيدة؛ والآن لديهم الكثير للدرجة التي تباع فيها بنادق "الماوزَرْ" في حائل بجنيهين تركيين (٩دولارات) للقطعة. ولأي غرض أرسل أنور باشا هذه البنادق لابن رشيد؟ لكي يُمكنه من أن يهزم بكل سهولة ابن سعود، الذي كان قد طرد جنود الأتراك خارج منطقة الأحساء قبل ثمانية عشر شهراً. نفس أنور باشا هو الذي عيّن ابن سعود والياً على كل نجد وأكد له بأنه يلقى الحظوة عند السلطان والتأييد منه شخصياً؛ وبعد كل هذا أعطى ابن رشيد السلاح الذي يشنُ به الحربَ ضده. من ذا الذي سيثق في أنور باشا إذاً؟ وألا يعلم حاكم دمشق بهذا؟ لقد نقض ابن رشيد، بأمر من الحكومة، السَلام الذي عَقده مع ابن سعود قبل أربعة سنوات مضت؛ وأيضاً الهدنه بينه وبين أبي وبينه وبيني والتي كان قد تم الاتفاق عليها منذ سنة مضت، وكان من المفترض أن تدوم لمدة عامين، اليوم تقصفُ المدافع التي أرسلت إليه بواسطة أنور بلدان ابن سعود في القصيم، وقواته المسلحة ببنادق أنور "الماوزر" تبيد جماعات والدي وجماعاتي.

"إن والدي يدفع للحكومة أكثر من أربعة آلاف جنيه تركي (١٨,٠٠٠دولار) سنوياً كضرائب، ويشتري من موارده الخاصة السلاح

والذخيرة الضرورية لحماية الأرواح والممتلكات الخاصة بقومه، ويُفترض بعد ذلك أن يحمي أيضاً مصالح الحضر والحكومة؛ بينما ابن رشيد تَدْفعُ له الحكومة مائتين وثلاثين جنيهاً تركياً شهريا (١٠٣٥دولار) وتزوده بالسلاح والذخيرة، وتحرضه على سرقة قطعاننا وقتل رجالنا. أخبرني، أخي مُوسى، هل تفهم حكومتنا هذه؟ وهذه الحكومة تريد منا أن نُساعدها ضد الإنجليز! لقد أمروا والدي بذلك وكتبوا إليّ كذلك في نفس المعنى. لَماذا لا يكتبون بمثل هذا الأمر لصديقهم ابن رشيد؟ ووكيله، ذلك الخائن رشيد [ابن ليلي] باشا، الذي يقيم الولائم في دمشق والقسطنطينية. إنه يُحدث السلطان عن قوة ابن رشيد، وإن كل ما يقوله لَكذبٌ. أين هو ابن رشيد؟ لقد كانت قوته عظيمة أيام محمد ابن رشيد وعبد العزيز بن متعب ابن رشيد! واليوم لا يوجد شيء من تلك السطوة إلا الاسم فقط، وإن ذلك لهو مجرد ظلٌ دون شمس. زامل بن سبهان، وزير الأمير سعود بن عبد العزيز بن متعب الضعيف الواهن، أغتيل هذا الربيع على يد قريبه سعود بن صالح بن سبهان، الذي كان في وقت مضى قد أعدم تسعة عشر من الوُجهاء في حائل. العديد من أفراد العائلة الحاكمة لجأوا إلى ابن سعود، وتحت قيادة فيصل ابن رشيد جَهّزوا لمعركة ضد الوزير سعود. في حائل، وفي وسط شمّر يوجد العديد من الرجال المُكْرَهُون على طاعة أفراد عائلة ابن سبهان (. . . . .). لقد ناشدوني لأساعدهم؛ ولولا السلاح والذهب الذي يموّله به أنور باشا لكان لا وجود اليوم لأي أثر باق من اسم ابن رشيد. هل أنور أعمى بحيث لا يَرى خِداع سعود بن سبهان وزير ابن رشيد، وخداع ممثله في القسطنطينية رشيد؟ لَقد تفاوض الأخير مع قنصل "الإفرنج-فرنسا" في دمشق، ووعد بمساعدته، وبالمثل مساعدة سفير "الأفرنج" في القسطنطينية، شريطة أن ينقلوا جنودهم إلى سوريا بالبواخر.

لقد اقتسم الذهب مع الوزير سعود. لقد قبض رجالي على رسول يحمل رسائل رشيد إلى حائل؛ وهكذا حصلت على المعلومات. منذ زمن مضى كان في حائل قنصل للإنكليز من الكويت، وسيدةٌ مُعيّنة. لماذا كانا هناك؟ لقد جاء القنصل الإنجليزي إلى الجوف من حائل. لم أكن موجوداً بالبلد في ذلك الوقت. كان يرمي إلى كَسْب نائبي المملوك عامر إلى جانب الإنجليز، ومن ثم ركب من الجوف إلى مصر. ما من شك أنه عقد معاهدة ضد الحكومة مع سعود بن سبهان، والحكومة وأنور ليس لديهم مَحسُوب سوى ابن رشيد. ياللعار على مثل تلك الحكومة! إن الذي يُصدق بأنهم سوف يدعموننا بعد الحرب لهو طفل جاهل".

قلت للنوري: «وماذا يقترح ابنك نواف أن يعمل؟ هل أنتم اليوم أقوياء بما يكفي للقضاء على ابن رشيد؟"

قال نواف: «إنني لكذلك يا أبتي؛ إذا ما تحالفت مع مُقاتليكَ، سوف يكون لدينا خمسة آلاف بندقية على الأقل»

فقال النوري: «ماذا يساوي ذلك ضد خمسة عشر ألف أو قل ضد عشرة آلاف أو خمسة آلاف بندقية لابن رشيد، الذي يمتلك كمية من الذخيرة الجيدة، بينما لابد لنا نحن أن نستبقي على ذخيرة رديئة؟ ربما يمكنك التغلب على سعود بن سبهان، ربما تتمكن من الاستيلاء على غنيمة كبيرة منه، لكنك لن تستطيع أبداً أن تطرده من المستوطنات كلا يابنيّ، يجب علينا أن لا نهاجم ابن رشيد. يجب علينا أن نطيع الحكومة، وأن ننتظر».

"إلى متى؟" سأل نواف.

«إلى أن تنتهي الحرب العظمى بين الحكومة والإنجليز. هذه المرة ترغب

الحكومة أن يعُم السلام بيننا. نحن الرولة، نحتاج إلى السلام أيضاً. طوال عامين كنت في السجن؛ وطوال عامين كان الرولة يقتتلون ضد بَعضهم البعْض، وضد الحكومة. إنه فقط منذ خمس سنوات تمكنت أنت من انتزاع الجوف من ابن رشيد، والتي كان آباؤنا الأولون قد فقدوها. يثير ضدي المشاكل قريبي فارس بن فهد الشعلان، وضدك ابن درع، الذي كنت قد نَفيتَه من الجوف. إذا لم تقمْ الحكومة بمساندة ودعم خُصُومنا هؤلاء، فإننا سوف نتمكن من تخليص أنفسنا منهم بسهولة. و إذا ما تمكنا من تقوية أنفسنا في الداخل، فإننا سوف نكون أكثر قوة في الخارج. لماذا نعصي ونرفضُ السلام؟ إن هدف الحكومة مختلفٌ، ولكن كلانا يمكن أن يستخدم نفس الوسائل. دَعْنا نَشْكو في دمشق والقسطنطينية بأن الفَدعان وابن رشيد لا يرغبون في السلام. إنك تعلمُ جيداً بأن أنور قد أرسل مُسبقاً ثلاثة رسائل إلى سعود بن سبهان يطلبُ منه أن يعقد صُلحاً معنا. لقد كتبوا وأبرقوا إلى حاكم [ابن مهيد] من كل من دمشق وحلب طالبين منه أن يضمن صيانة السلام. لم يُطع كل من ابن سبهان وحاكم بن مهيّد الأمر. ألا ترى أن الحكومة سوف تستاء من ذلك؟ إن عصيانهم هذا قد يكون مفيداً لي ولك"

فقال نواف: «أيُ نفع لنا يكون من حكومة ذات موقف يتغيرُ على الدوام؟ إننا لم نتلق أي شيء منها وسوف لن نتلقى أي شيء. هلْ سيدافعون عنا من الفدعان وابن رشيد؟ هل سيرسلون جيشاً ضدهم؟"

المؤلف يقترح وساطته مع ابن رشيد

"أعتقد أن أباك على حق يا نواف" أوضحت قائلاً" إنك لا تدري ما ينتظرك، ومن ثم يجب عليك أن لا تضعف نفسك. حاولوا أن تقوّوا من أنفسكم في الداخل، وسوف يخشاكم ابن رشيد وبالمثل الحكومة، حسب

علمي فإن قبائل الفدعان والعَبدة سوف يوافقون على عقد السلم معكم إذا ما طلبتم منهم ذلك" .

"ماذا! أتقصد بأننا يجب أن نطلب من ابن هديب وابن مهيد السلم؟" صاح كلٌّ من النوري ونواف في آن واحد .

"إن من رأيي أن يَطلب كل منكما السلمَ من ابن رشيد" . "أيا موسى ، أتعتقد أن ابن شعلان سيكتب أبداً إلى ابن [سبهان] (. . .)؟ "يا أخي النوري ، إنك سوف لن تكتب إلى ابن سبهان ، ولكن لسعود ابن رشيد"

فقال نواف : "ولكن الفدعان وبالمثل ابن رشيد سوف يتَبجحُون بأننا نَخَاف منهم ، وكما ترى فإننا نستعدُ لشن غارة" .

"أيا نواف ، مَنْ الذي نَصَحَك بالاستيلاء على الجوف؟ مَنْ الذي حَثَ والدك لإعطاء مُوافَقته على ذلك؟ مَنْ الذي ساعَدك بالنصائح وكذلك بالأعمال؟ إنك تعلم مَنْ يكون [يشير موسيل إلى نفسه] . وبما أنني الآن أنصحك بتقديم السلام إلى ابن رشيد ، وأحُث والدك ليقدمه أيضاً ، فإنني مُستعدٌ أيضاً للمساعدة بالأفعال . إنك قد خُضتَ حرباً لمدة خمسة أعوام . لمدة خمسة أعوام عانى سكان إمارتك والبدو التابعون لك . إنني أعْرِفهُم جيداً . أنني متأكدٌ بأنهم سوف يسرون بالسلام الذي يتوقون إليه كثيراً بغض النظر عن السُخرية المزرية . إنك تعلم قوتك على أفضل وجه؛ والآخرون لا يمكنهم أن يزيدوا أو يُنْقِصُوا منها . وهكذا فإنك سوف تُبرهن لأهالي الجوف عن نواياك ، وسوف يتَمسكون بكَ . وأنت يا أخي النوري قَدّم السلام ، ليس لابن رشيد فحسب ، بل لرؤوس شيوخ قبائل الفدعان "وعَبَدْه" كذلك . إن الشيخ الأكبر للأخيرة برجس بن هَدَيّب صديقٌ لي . أعرفُ أنه يُقدّرُك حق قَدْرك ، وأنه

سوف يُحثُ حاكم بن مهيد الشيخ الأكبر للفدعان ليُسهم في السلام. بَرْهن للرولة التابعين لك وللفدعان بأنك أكثرُ حكمةً وحلما وبعد نظر، وبأنك ذو رؤى واضحة للمستقبل أكثر من الآخرين. إنهم سوف يقدرونك بذلك أكثر. لماذا تَتَردد؟ إنك لوحدك في المعركة تدافع عن رفقائك المُنهكين المثخنين بالجراح؛ احْمِهم الآن أيضاً. تغَلَبْ على كبريائك لفترة وسوف تنتصرُ على كل من حاكم بن مهيد وابن رشيد. لماذا لا يكون النورى المُتَنَصِر في السياسة أيضاً؟»

«والله، يا موسى، يبدو لي أنك على حق. إنني سوف أكتبُ لكل من حاكم بن مهيد وابن رشيد، وإنك سوف تحملُ الرسائل معك».

«إنك سوف تكتب الرَسَائل، وإنك سوفَ تعمل على إرسالها بنفسْك. أحد عبيدك سوف يَذهبُ إلى حاكم وآخر إلى ابن رشيد».

«لكن هكذا سيعلم الجميع بأنني أسَاوم للسلام؟».

«لماذا تخفي ذلك؟ إن رسالتك قد تضيع وتُفقَدْ، أو قد ينْكِرُها حاكم وبالمثل ابن رشيد»؛ لكنَ عَبْدكَ لن يَضِيعْ أو يُفْقَدْ».

«وماذا لو رفض حاكم أو ابن رشيد عَرْضي؟ إنها سوف تكون إهانة لي».

حاكم سوف لن يرفض» أجبته قائلاً: «صديقي برجس بن هديب سوف يتولى هذا الأمر؛ أنا شخصياً سوف أعمل على ألا يرفض ابن رشيد عرضك. إن عَبْدكَ سوف يذهب معي. إنه سوف يُسلم رسالتك ورسالة نواف في حُضوري، وإنني سوف أتَصَرّف. إنه سوف لن يعود حتى يُوضع السلام مَوْضِع التنفيذ، والذي سوف يُؤكدْ لك عن طريق رسالة خاصة من ابن رشيد مُوقعةٌ مني أيضاً». إنك سوف تعمل على كتابة الرسالة وسوف ترسلها مع

«عبد» خاص".

"إنني سوف أفعل ذلك".

"وأنت يا نواف؟".

"إنني سوف أفعَلُ ما يفعله أبي".

"أتعدُ بذلك؟".

"أعدُ بذلك، إلا أن قَلبي يُدْمي. أيُ غنيمة كنا سَنستولى عليها! من سيُعوضَنا عن ذلك؟".

"الله، وأعتقد أن ذلك سوف يكون قريباً".

بعد ذلك استفسرت عن فارس ابن الأمير فهد الشعلان الذي اغتيل، عندما كان يعسكر مع بشير، شقيق غطوان بن مرشِد. معهم يسكن أيضاً ابن جندل مع عشيرته السوالمة. بعد القبض على النوري في خريف عام ١٩١٠م أعلنت الحكومة التركية فارساً أميراً على جميع الرولة، لكن لم ينضم إليه أحدٌ سوى ابن جندل لقد حَثَثْتُ كلاً من النوري ونوافاً ليَبْذُلا كل ما في وُسْعهما نحو إبرام مصالحة مع فارس؛ عم لنواف، ابن لشقيق النوريّ، وبذلك نحو كسب ابن جندل أيضاً. لقد كان من رأيهما أنهما قد يكسبا الأخير بسهولة قبل مصالحة الآخر، إذ أن فارساً كان مغروراً.

الثلاثاء ٢٩ ديسمبر ١٩١٤م:

بقينا في نفس المعسكر، ودَوّنتُ مذكرات بمحادثتي مع النوري ونوّاف. في حوالي الظهيرة زارني عودة أبو تايه الشيخ الأكبر لقبيلة الحويطات، التي تعسكر مع الرولة. شيوخ الحويطات، الذين يسيطرون على جوار بلدة معان على خط سكة حديد الحجاز، كانوا يُدافعون عن حُريّتهم ضد الحكومة، التي

كانت تكسبُ بانتظام أرضية في معان منذ بداية القَرْن. ففي عام ١٩٠٠م، بعد وفاة الشيخ الأكبر للحويطات عرار بن جازي أعلنت الحكومة التركية المصممة على إضعاف الحويطات، بأنها سوف تعترفُ بحرب أبي تايه فقط أو بالأحرى ابنه عودة أبو تايه شيخاً للحويطات، وأنها سوف تتعامل معه فقط. عودة الأكثر جرأة، ولكن أيضاً أكثر الرجال قسوة في الجزيرة العربية ممن عرفتهم، قد جذب في وقت قصير جميع الحويطات تقريباً إلى جانبه. واستمر في القيام بغَزَوات للأقاليم المجاورة والبعيدة، وكان يعود دائماً بالغنائم، الشيء الذي جعله يكّسب قلوب الحويطات. لجأ عبطان بن جازي بن عرار مع أقربائه إلى مصر، ولاحقاً مع "أبوشاما" زعيم عشيرة "المواهب" التي تخيّم في حرة العويرض شمال غربي الحجر (مدائن صالح). كان عودة يجمع الضرائب ويحولها في الحال للحكومة؛ وكان يتعقب المخرّبين الذين يتلفوُن السكة الحديد، ويعمل على حماية المستوطنين من عصابات النهب، وهكذا اكتسب شهرة كأفضل زعيم على طول خط سكة حديد الحجاز. في صيف عام ١٩٠٨م، على أية حال، بدأت الحكومة تخشى شعبيته فعقدت صلحاً مع عبطان بن جازي وأفسدت الزعماء الآخرين بالرشاوي واتهمت عودة بمختلف الجرائم، وأصدرت أمراً بالقبض عليه.

تقهقر عودة وعشيرته إلى داخل الصحراء، وانهمك في حملات انتقام لا هوادة فيها، لا تلينُ ولا تَضْعُفُ ضد الحكومة والمنضَوين تحت لوائها. في البداية كان "عبطان" يجدُ الدعم من الجنود الذين يَحْرُسُون خط سكة حديد الحجاز، ولكن في عام ١٩١٢م بناءً على أمر من أنور باشا تحالف مع ابن رشيد وقام بغارات ضد عشائر الرولة وحويطات أبو تايه التي تخيّم معهم. في يونيو عام ١٩١٤ قام بمهاجمة سكان الجوف، الذين كانوا يجمعون السمح في

إقليم البسيطاء، ونهب منهم أكثر من ستين جملاً وقتل أحد رجالهم. بعد اندلاع الحرب العالمية وَجهَت الحكومة عبطان ليُبْرِمَ صُلحاً مع كل من نواف وعودة. وتلقى عودة أيضاً تعليمات بمصالحة عَبطان وأن يأتي إلى منطقة سكة حديد الحجاز، حيث أن كل أعماله العدائية قد تم العفو عنها؛ لكنه سَخِرَ من هذه الكياسة والسماحة.

" هل تعتقد الحكومة بأنني لا أفهم؟ إنها تَحُضّنا جميعاً على السلام. إنها تعتقد بأننا سنجلب آلاف المحاربين لمساعدتها. إنها لا تثقُ في المسيحيين في سوريا، ولا تثقُ في الدروز في حَوران، وتحتاج إلى الجمال من أجل الزحف على مصر. إنها تعلم بأنه طالما لا يوجد سَلامٌ بيننا فإننا سوف نتهرّب بالإشارة إلى الآخرين - أنا إلى "عبطان"، والنوري إلى "الفدعان"؛ نواف إلى ابن رشيد، وهم علينا، وهكذا سوف نظل جميعاً في منازلنا.

من هنا يأتي المجهود الذي لا يلين أو يضعف من حكومتنا لمساعدتنا جميعاً للدخول في سلام. إننا نُريدُ السلام ونحتاجه، ولكن من أجل أنفسنا، وليس من أجل الحكومة. هذا ما يمكنك عمله ياموسى :- اكتب إلى الحكومة بأنك وجدت بيننا جميعاً الرغبة لمساعدة حكومتنا العادلة، ولكن فقط بعد أن تَقومَ هي بمُساعدتنا، وإجبّار جميع خُصومنا، والتي كانت تُحرِضهم ضدنا لسنين عدَّة، ليتصالحوا معنا. إنك تعرفنا، وإنك تعرف الحكومة. إننا نظل دائماً كما نحن، ولكن كم حكومة، وكم من المسؤولين قد تغيروا منذ العام ١٩٠٩م عندما التقيتك لأول مرة! "

" حسنا، ياعودة هل حقاً سوف تتحرك لمساعدة الحكومة ضد مصر؟ "

" طالما لا يوجد سلام، فإنني لن أتحرك من الصحراء. إذا ما تصالحتُ مع

عَبطان وابن رشيد، واستغاث بي أقربائي من الحويطات الموجودين في مصر، عندها سوف أتحرك إلى هناك. إن الحكومة تَعدُني بالسلاح وكذلك بالذهب عند إحدى محطات سكة حديد الحجاز، إنني أحتاج لكليهما. إنني سوف آخذ السلاح والذهب ولكنني سوف أقاتل ذلك الذي يُقاتل أقربائي من الحويطات. إذا ما ثاروا ضد الإنكليز، سوف أحارب الإنكليز، إذا ما ثاروا ضد الحكومة فإنني سوف أذبح قوات الحكومة. إنني لن أفصل نفسي عن أفراد قبيلتي".

سألني نواف عما إذا كان صحيحاً أن الإنكليز يحاربون فقط في وسط البحر حيث لا يمكن لراكب جمل أو حصان أن يتغلب عليهم. إن كل من النوري ونواف يعتقدان أن الإنجليز احتلوا مصر مؤخراً في أغسطس أو سبتمبر عام ١٩١٤م. حتى ذلك الوقت، كانا يعتقدان بأنها كانت ملكاً للحكومة التركية وللسلطان. عندما أخبرتهما بأن الإنجليز قد حكموا مصر منذ العام ١٨٨٢م، صدقاني، ولكنهما هزا رأسيهما بجدّية؛ إذ أنه بما أن الإنجليز كانوا سادة مصر لذلك الأمد الطويل، فلماذا فقط قبل ثلاثة أشهر قاموا بمنع العقيلات من ترحيل الجمال إلى مصر من إقليم يتبع للسلطان وللحكومة؟ سألني الرولة مراراً عما إذا كان صحيحاً أن الإنجليز قد قاموا بنفي جميع العرب والمسلمين من مصر، ووَطّنوا البلاد بأجانب ومسيحيين.

لقد استغربت في أمر من ذا الذي استَخْدَمَ هذا الأسلوب في تحريض العرب ضد الأجانب والمسيحيين. أعلن النوري ونواف بأنهما لن يتحركا لمهاجمة مصر لأي سبب أو قضية مهما كانت. إنها بعيدةٌ جداً، وإن على المرء أن يقطع بحاراً بها أسماك تلتهم البدو وبالمثل الجمال. إنهما لم يكونا ليصدقا أن من الممكن الوصول إلى مصر من وادي السرحان بعشر ليال، وأنه ليس من

الضروري أن تخوض بحراً، وأن البحر (قناة السويس) يُمكن عبورها بواسطة جسر مثلما يتم عبور نهر الفُرات عند الفالوجة أو المسيب. إن عودة الذي زار أقرباءه في مصر عدة مرات قد عَلّمَ بعصاته على الرمال المسار من منهل مياه ميقوع إلى القنطرة مُحدداً الآبار، ومُسمّياً للقبائل التي يتحتم قطع مناطقها؛ لكن النوري تضرع لله بمنع أي طلب يُحتم المسير إلى ما وراء حدود الجزيرة العربية.

"دَع الحكومة تعدني ما تشاء، إنني لن أتحرك إلى ما وراء البحر الميت، فالموت يَتَهدّدُ كل من يُغامر بالذهاب إلى هناك، وإن كل شيء هُناك ميت. لماذا أذهب إلى هناك؟ ليس لديّ أقارب هناك. من حَلب، وحتى عمان تخيّم عنزة، فهذه موطني. في هذا الإقليم يمكنني أن أسير حتى لمدة مائة يوم من الشمال إلى الجنوب، لكني على مسيرة أيام غرب منهل ميقوع لا يوجد أي قريب لي، وأنني لن أذهب إلى هناك. لماذا يتحتم عليّ أن أذهب لكي أجلب الموتَ لنفسي؟"

ضحك عودة من النوري، ولكن نوافاً اتفق مع رأيه.

قال النوري: أنت يا عودة في ديارك في السهول، عند البحر الميت والبحر الأحمر. إن أقاربك يقيمون هناك. إنهم سوف يساعدونك، ولكن مَن سوف يساعدنا؟".

"الله" رد عودة.

فقال النوري: "الله؟ إن الله لا يريدنا أن نقوم بغارات في الغرب، ولو كان قد أراد ذلك، لكان قد هيأ لنا أقارب يقيمون هناك لكنه قد ترك جميع عنزة في الجزيرة العربية".

"ضد من ترغب أكثر في المسير لقتاله؟" سألت النوري مستفسراً.

" ضد الدُروز يا موسى "

" لماذا؟ لأنهم أصدقاء الإنجليز، وسوف يساعدونهم إذا ما غزوا سورية أو فلسطين؟ "

" ماذا يهمنا إن كان الدروز أصدقاء للإنجليز؟ إن الإنجليز هم غرباء مثل الحكومة. إن الحكومة تحمي الدروز وهم ينهبوننا. إنهم ألدُ أعدائنا. إنني قد أتصالح مع كل البدو، كلا، حتى مع الحضر والمسيحيين، ولكن ليس مع الدروز على الإطلاق، أو مع سكان الإقليم البركاني لحَوران من أهالي الجَبل. وإنهم مثل الضباع الماكرة يزحفون من جحورهم، ويتلصصون ليلاً نحو مخيمنا ليسرقوا خيلنا وجمالنا ويطردوا قطعان الأغنام والضأن التي تحت حمايتنا، ويأخذونها إلى مغاور الحمَم الخاصة بهم، حيث لا يمكننا مطاردتهم سوى على الخيل أو على الجمال. كل ما يسرقونه يقومون ببيعه بثمن بخس للدروز في سلسلة جبال الشيخ (الحرمون) وإلى الشراكسة والموظفين الأتراك. عندما نخيّم في يوليو أو أغسطس غرب حَوران نُقابل مراراً خيلنا وجمالنا التي سرقها منا جماعات الصقور سكان حوران. نُبرهن بواسطة الثقاة من الشهود بأن الحيوانات ملكٌ لنا، ولكن الحكومة لا تعترف إطلاقا بحقنا فيها، مُصرةٌ بأن علينا أن نقبض على من نهبوها ونحضرهم أمامها. اذهب وابحث عنه في الوهاد البركانية حيث لا يجرؤ حتى المشاة على المغامرة بدخولها! إننا نتميّزُ غيظاً، ويسخرُ الشراكسة والدروز والأتراك. فإذا ما تخلت عنا الحكمة وقمنا بمعاقبة الدروز أو الشراكسة بقوة السلاح فإن جيشاً من الحكومة سَيُدفع به ليحيط بمخيّمنا ويُهَدد بفتح النار من مدافع الميدان على نسائنا وأطفالنا ما لم نقوم بتعويض الدروز والشراكسة عن كل خسائرهم. إنك تعرف ذلك يا موسى لأنك تفاوضت مع الحكومة منذ أربع سنوات مضت

في قضية مماثلة. إن تلك الحكومة تسمح بأن نقف مكتوفي الأيدي نراقبُ الشراكسة والدروز! إننا سوف نرد عليهم وسوف نستردُ كل ما كبدونا له في الأعوام السالفة. لن أكون أنا النوري فقط الذي سيهاجمهم بل كل القبائل من حلب إلى تيماء أيضاً. ألم أقل الحق ياعودة؟ نعم يا النوري لقد قلته. إننا جميعاً سوف نشنُ الهجوم ضد الدروز وأهالي الجبل، وحتى "الفدعان" والعبَدة" و"الفواغرة" "وبني صخر". الويل لهم، الويل للمسيحيين، وللموظفين الرسميين الأتراك الذي قاموا بحمايتهم حتى الآن! إننا سوف نستقر هناك مع قطعاننا. إننا سوف ندمر ونرعى ونقْضي على حقولهم وبساتينهم، وسوف نحاصرهم ونغلقهم في مستوطناتهم حتى يهلكوا جوعاً. إذا لم يجد النّهّابون من الإقليم البركاني أحداً ليبيعوا الخيول والجمال له فإنهم سوف يكفوُن عن النهب، بالله نسألك أن تهيء لنا هذه المسرة والبهجة! لنكتب إلى الحكومة بأننا نريدُ مراقبة الدروز عن كثب حتى لا يتحالفوا مع أجانب"

"لنكتُبْ" وافق النوري ونواف في سخرية. أقر عودة بالمثل أهمية السلام وسط القبائل، ووعَدَ بعرض السلم على عبطان وبأن يعترف به كشيخ أكبر بشرط موافقة أغلبية الحويطات. أعلن نواف بأنه شخصياً لا يمكنه أن يكتب لمثل ذلك الراعي للأغنام والضأن، ولكنه طلب من عودة أن يضيف بأن كلاً من النوري ونواف سوف يقرون السّلام الذي يُعقد بواسطته، وأنهما لن يقوما بأي عمل لمُعارَضَته وتقويضه. استدعينا خادمي منصور الذي قام بكتابة الرسائل الخطيّة إلى الشيوخ برجس بن هديب وحاكم بن مهيد، وسعود ابن رشيد وعَبطان بن جَازي وفارس بن شعلان، وإلى الحكومة في القسطنطينية ودمشق. قام النوري ونواف وعودة، الذين لا يستطيعون الكتابة بوضع

أختامهم على الرسائل. كانت الرسائل إلى الحكومة ستُسلم بواسطة زيدان ابن ظامد إلى حديثة الذي كان عليه أن يُقدمها إلى حبيب الحسيناوي في كاف. ومن ثم تؤخذ بواسطة أحد تجار الملح إلى بصرى حيث يُسلمها إلى مسئول تركي. لا أدري عما إذا كانت الرسائل قد وصلت إلى مقاصدها؛ ولكن لا يهم كثيراً إن لم تصل بالفعل، إذ أنها كانت تحوي كلمات تحجبُ مصداقية كاتبيها. لقد كانت سياسة كما قال النوري.

الأربعاء ٣٠ ديسمبر ١٩١٤م:

سجل مقياس الحرارة ٩ درجات مئوية عند السابعه صباحاً. كانت الرياح الشمالية الغربية تهبُ وقد أمطرت طوال اليوم تقريباً. قمت بكتابة محادثاتي لليوم السابق. بعد العاشرة بقليل خرج الأمير، وبواسطة العصا، قام برسم خريطة للإقليم البركاني (الحرة) جنوب بركان "الهبر" ولإحدى مستوطنات إثرة وقرقر المجاورة له، حيث سقط ابنه سعود قتيلاً.

آراء الرولة حول السياسة الدولية

ذهبت بعد الظهيرة إلى خيمة النوري لأحيي شيوخ العَمّارات الثلاثة الذين حلوا ضيوفاً على الأمير، والذين كانوا قد حضروا لتسوية بعض النزاعات المختلفة. كان أفراد قبيلة العمارات قد خيموا في أغسطس وسبتمبر ما بين الفالوجة وبغداد، وفيما بعد عند كربلاء، وقد علموا مسبقاً باحتلال الإنجليز للبصرة. لقد كانوا أكثر اهتماماً بالحرب العالمية من الرولة وكانوا متحمسينَ لمعرفة تحالفات الحكومات المختلفة. لقد كان لديهم صعوبة نوعاً ما بالتعابير "فرانسا" و"الفرنج". كل من الرولة والعَمّارات كانوا يعتقدون أن كل أوروبا هي فرنسا وأن جميع سكان القارة كان يطلق عليهم "الفرنج"؛ والآن بدأوا

يعرفون أن فرنسا هي مجردُ جزء من أوروبا. لماذا إذن كان يُطلق على جميع الأوروبيين اسم "الفرنج" حتى ولو لم يكونوا مُنتَمين جميعاً لقبيلة "الفرنج"؟ هذا ما شرحه الأمير بما يأتي:-

«إن الفرنج هي عائلةٌ لا تزال تحكم وتسيطر على كل أوروبا. مثلما يحكم ابن سعود إقليماً كبيراً وقبائل مُختلفة، فإن الفرنج يُسيطرُونَ على العديد من القبائل تحت نفوذهم مثل الألمان والنمساويين والطليان والإنكليز، والروس والموسكوب والصرب والروم وآخرين. منذ سنين عديدة خلت تخلصَ الروم (الإغريق) من عبوديتهم ولهذا السبب كان يُطلق عليهم الروم وليس "الفرنج". لقد كسب الإنجليز أيضاً قدراً كبيراً من الاستقلال وأنهم يَسترشدون ويتوَجهون حسب رأيهم وإرادتهم الخاصة، ولكن رغم ذلك يَعتَبِرُهم البَعض من بين الفرنجة، بينما يتمسكُ البَعض بأنهم بلادٌ حرة. الآن ثارت قبائل الألمان والنمسا ضد "الفرنجة" بالرغم من أن "الصرْب" "والروس" و"الموسكوب" "والإنجليز" لا يزالون يُؤيدُونَهم. إن العداوة مُضطَرِمةٌ على أشدهَا بين "الإنجليز" "والألمان" وتُماثِل في ذلك العداوة بين "الدروز" "والرولة" أو بين "الأكراد" "والعمّارات" أو "الفدعان". إن للإنجليز جُزراً عديدة في البحر، يَقْطُنُها أُنَاسٌ كثيرون، والذين يرسلونهم ضد الألمان. إن الأخيرين (الألمان) بارعون في صناعة الأسلحة، أجود البنادق، والمسدسات تأتي منهم أو من النمسا. لكن بماذا تُجدي الأسلحة عندما يكون هناك افتقار في عدد الرجال الذين يستخدَمُونَها؟ إن الألمان والنمساويين أذكياء للغاية، ولكن لديهم جيشاً صغيراً. لذلك قررت الحكومة والسلطان في القسطنطينية إرسال الجنود ضد "الفرنجة" وعلى وجه خاص ضد الإنجليز، هذه الحكومات الثلاثة - حكومة الألمان والنمسا والأتراك - قاموا بتشكيل حلف

ليس ضد "الفرنجة" بقدر ما هو ضد الإنجليز (تحالفوا على الإنجليز)، لأن "الفرنجة" لم يستولوا على أي شيء يَمْتلكه السُلطان، ولكن منذ شهور خلت جَرَدَهُ الإنكليز من مِصرَ، وإن في نيَّتِهِم الاستيلاء على البصرة وكل العراق منه أيضاً".

أحد المرافقين علق بأن "الموسكوب" ذوو عدد كبير أيضاً وأنهم يرغبون في طرد السلطان من القسطنطينية. فقال النوري :ـ "إن الموسقوب" عديدون جداً ولكن قبيلة "روسيا" تفوقهم عدداً بكثير. العديد من الممالك تتبع لروسيا، وأنه حتى الفرس يخشونهم، ومع ذلك لم يحرروا أقرباءهم في الدم بعد. حتى قبيلة أخي موسى تشكل جزءاً من "روسيا" مثلما نحن بالنسبة لعَنَزَة ومع ذلك فإن قَبيلته يجب أن تَخْضَع وتَطيعَ النمسا. إن "الروس" لعديدون للغاية إلا أنهم ليسوا شجعاناً. لقد سمعتُ أنهم كانوا قد دُحروا في إقليمهم الخاص بواسطة قبيلة صغيرة من اليَابَان (اليابانيون). إن أكثر القَبائل سوءاً وقوة شكيمة هم الإنكليز. إنهم أغنياء للغاية، ومع ذلك فهم يَشْتَهُون تَمَلُّكَ بلدان جديدةً. إنك سترى أنهم سيخرجون مُتَصرين حتى عند البصرة ليس عنَ طريق السلاح، ولكن عن طريق السياسة. عَقَيل الذي جاء من الهند قد ذكر لي بأن لا أحد يُحافظ على الأمن والاستقرار مثل الإنكليز. لكن أيُ ميزة تلك لهم عندما يسلبُون الحُرية؟ مَن منكم يرغب في أن يُصْبحَ مَملُوكاً؟ إننا نستَطيع مقاومة الحكومة، ولكن هل نستطيع مقاومة الإنكليز وقد جاءوا يَعْرضُون الذَهَبَ مُقابل حُريَتَنا؟"

قال الشيخ العجوز راضي:

«لا تخشَ شيئاً يا النوري"، إن أجدادَنا كانوا أحراراً، وإن الإنكليز سوف لن يخطفُوا منّا حُريتَنا المورُوثَة، سواءً بالسلاح أو الذهب!» ووافقه كل

الحضور على ذلك.

سألت زعماء العَمّارات عما إذا كانوا سيَدخُلون في الجهاد ضد الإنكليز.

«إن جهادنا هو لحماية خيامنا وقُطعَاننا. فإذا تجرأ الإنكليز بمحاولة المسَاس بها، فالويل لهم! وطالما أنهم يحاربون الحكومة في المدن والقرى، فلترسل الحكومة جنودها وسكانها ضدهم. إن الإنكليز حتى الآن ليسوا أصدقاء لنا وليسوا بأعدائنا. ماذا سيصبحون بالنسبة لنا الله وحده يعلم».

«لقد قلت الحق أخي» قال النوري «ولكن يجب علينا أن نطيع الحكومة، نسأل الله أن ينعم عليها بالنصر!»

عندما رافقني في العودة إلى خَيمتي قال لي " أيا موسى، ألا ترى كيف يجبُ عليّ أن أكون متفهماً للسياسة حتى لا يُشوّه أحدٌ علاقتي مع الحكومة! إن الحكومة تأمُرنا بالتَعْبئة للجهاد ضد الكفار، ضد الإنكليز. أي شيء نهبه منا الكفار أو الإنكليز؟ لكن الحكومة، من أي شيء حرمتنا حتى الآن! إنهم أرادوا شَنْقي. هل تَدري مَنْ أرغبُ كثيراً في محاربته؟ هل تدري ضد من أحملُ ضغينة وكراهية أكبرُ مما أحمله ضد الإنكليز والكفار مجتمعين؟»

الخميس ٣١ ديسمبر ١٩١٤م:

انخفضت درجة الحرارة عند الساعة السابعة صباحاً إلى ٣ درجات مئوية، وغَطت المنطقة بأكملها طبقةٌ من الصَقيع القاسي المُتجمد. أكملتُ كتابة مذكراتي.

الأمير النوري. والذي كنت قد أحضرتُ له وبالمثل لنواف بندقية حربية رائعة (مُجهزةٌ بمنظار " تلسكوب " ومائة طلقة)، كان يَرغبُ كثيراً رؤية أنواع الأسلحة الأخرى التي معي، وذهب غير راضٍ نوعاً ما عندما أخبرته أنني لن

أخرجها بعد حَزْم متاعي.

عند الظهيرة حضر عودة أبو تايه برفقة النوري ونواف بغرض وَدَاعي. قمنا بمناقشة نتائج اجتماعاتنا المُتبادلة. وعدوا جميعاً بأنهم لن يقوموا بتنفيذ أي غارة كبرى ضد العدو أو ضد الحضر دون علمي؛ وتَعهدوا بتقديم الحماية في الصحراء لكل اللاجئين من الأقاليم الخاضعة لسيطرة الحكومة. طالما أنه أصبح من المستحيل عليهم شراء الحبوب والملابس والتي لا غنى عنها في الحفاظ على حياتهم، من أي مكان سوى سوريا والعراق، فإنهم أصبحوا مُضطَرين للالتزام بالسلام مع الحكومة، حيث أنهم لن يتمكنوا من البقاء على قيد الحياة دون الحبوب والملابس. إنهم ربما تمكنوا من إمداد أنفسهم بالضروريات لعدة أشهر عن طريق القوة، ولكن في النهاية لا مَفَر لهم إلا الخضوع للحكومة. إذا ما هاجموا الإقليم المزروع فإن المستوطنين سوف يزدادون قُرباً من جنود الأتراك. النوري ونواف لن يَسْمعوا عن غزوة فرعية إلى مصر حتى عودة أبو تايه كان موافقاً بشن هجوم على مصر فقط بناءً على طلب أقربائه من الحويطات المصريين، وكان مستعداً للقتال ضد الحكومة أو الإنجليز بناءً على قرار رجال عشيرته.

لقد كان الجيش الإنجليزي في البصرة بعيداً عن الرولة التابعين للأمير النوري. سألني نواف عما إذا كان الإنجليز الذين يعسكرون في الكويت والبصرة من عشيرة تختلف عن أولئك الذين احتلوا مصر منذ زمن مضى.

يا موسى أليس هناك الكثير من عشائر الإنجليز مثلما هناك من عشائر لقبيلة عنزة. مع بعض منهم نعيشُ في سلام، البعض الآخر نُحاربهم. أقاربي ابن صباح وابن سعود يَعيشون في سلام مع الإنكليز في الكويت، بينما أقاربي "آل أشقر" في حالة حربٍ مَعَهم. إنك تعلم أن ابن صَبّاح سَيّد الكويت

وابن سعود أمير الرياض ينتمون إلى عَنَزة مثلما ينتمي والدي وأنا. آل أشْقر "زعيم قبيلة المنتفق ينحدرُ أيضاً من عَنَزة، لكنه يُحاربني ويُحارب الإنكليز. إنني أنتمي بالقربى لابن صبَّاح وابن سعود ولن أعمل أي شيء ضد أصدقائهم الإنكليز، لكن إذا سَعى الإنجليز إلى حِرماني من الجوف أو حاول ذلك ابن سعود الرياض، فإننا سوف نشنُ الحرب ضدهما معاً. إذا كانوا يسيطرون الآن على أقاليم تابعة للحكومة التركية فلتدافع الحكومة عن نفسها. إنها لم تساعدني ضد أي من ابن رشيد أو الأشقر، بل على العكس لقد دَعَمتْ كليهما ضدي؛ ألا ترى أنني أتصرف بحكمة في اقتدائي بمثالها؟"

التخطيط لرحلة إلى ابن رشيد

كان كل من النوري ونواف، وبالمثل عودة يَخْشونَ على حياتي في إقليم ابن رشيد؛ وتوسلوا إليّ بألا أغامر بالذهاب إلى هناك.

إسمع يا موسى قال نواف إن الوزير سعوداً خائن، والخائن لا يعرف الله ولا الشرف، إنه يعرف أنك صديقي، وإنك كنت قد ساعدتني في غزو الجوف. إنه سيكون المُحرض للأعمال العدوانية ضدك وبواسطة نفس الرجال الذين قمتُ أنا بطردهم من الجوف. مَنْ الذي سَيَحْميك؟ أسأل الله أن يُحافظ على حياتك، ولكنني أخشى بألا أشاهدك مرة أخرى. إنه لن يغتالك علانية"؛ ولكن عبيده سوف يُهاجمونك لَيلاً، أو سوف يقومون بوضع السُم لك".

«لا تخش شيئاً يا أخي! إن الله سوف يُساعدني، وسوف أساعدُ نفسي. إن شمر ليسوا كلهم خَونة مثل سُعود. إنني لن أذهب له إلا بعد أن أجدَ بين شمّر شخصاً قوياً يكون حَامياً لي. إنني أعرفُ العَديدَ من شيوخ قبائل سنجارة

وعَبدة. إن سنجارة يمقتون سعوداً (. . .)، وأنهم أكثر قوة منه". قال عودة «إن شقيقي محمداً وجد عند جبل العمود شَمَّرياً كاد يموت من الجوع. أخذه إلى خيمته وبدأ يُنقط الزبد في حلقه وأنعشه وأعاده للحياة. وبينما كنتُ أغادر سمعت أن اسمه نازلْ، وأنه من جماعة ابن ثنيان. إنني سوف أعود اليوم إلى هناك وأرسله لك. إنه مريضٌ، وإن لديك الأدوية يا موسى، إنك قد تستطيع معالجته. نوّاف والنورى أكدا لي بأن عائلة ابن ثنيان هي من بين الصدارة في قبيلة شمر. وهكذا فإنني سأحصل في شخص نازل على أفضل حماية، بالطبع شريطة أن يكون عودة قد صَدَقَ القول. رَجَوتهُ أن يُرسل إليّ الشمّري في الحال فوَعَدَ بذلك ثم غادر.

الجمعة ١ يناير ١٩١٥م:

"النورى" أحضر إليّ رجلاً كهلاً يدعى يونس بن بنيّه، والذي كان لسنين عدة جاراً لابن رَمّال، وهو شيخ قوي من شيوخ شمر، والذي كان يونس يرغب في العودة إليه مع عدد من الجمال. وأراد أن ينضمّ إلى رفقتي. حاول يونس - معتقدا بأن ابن رمال يُخيّمُ في مكان ما بجوار جبة - أن يُقنعني بالذهاب إلى ابن رشيد عن طريق "الحَالْ" الذي يؤدي من الجوف عبر أماكن مياه الشقيق وجبة إلى مدينة حائل. لقد كان نوّاف يُحبذ بالمثل هذا المسار (الطريق)، ولكنه لم يَرُقْ لي، حيث أنه كان طريقاً معروفاً. إنني كنت أفضل أن أذهب عبر الجزء الشرقي أو الغربي للنفُود. كنت قد نويت استفسار يونس عن المنطقة المجاورة لجبة لكنني اكتشفت أنه كان غير كفء كليةً لإعطاء وَصْفاً طوبغرافياً.

واشتكى نواف بأن رجاله كانوا غير راضين لأن الغارة لم تَتَحققْ. عندما سأل النوري عبيدَه عن مَن منهم يرغب في الذهاب معي إلى ابن رشيد، تطوع

عبدالله، الذي كان قد رافقني في رحلتي من ضمير إلى الرصافة في عام ١٩٠٨م، وبما أنني كنت أعرف أنه رجلٌ يُعتمد عليه رغم افتقاره لبعد النَظر والشجاعة، فقد قَبِلتُ به.

السبت ٢ يناير ١٩١٥م:

ارتحلنا متحركين في تمام الساعة ١٠ : ١٠ صباحاً في اتجاه شرق - الشمال الشرقي. لحق بي نواف بعد وقت وجيز محيياً من على بُعد بهذه العبارة:

" القوة يا موسى

ورددت عليه قائلاً: القوة للذي يتمنى لي القوة! "

تحدثت معه حول الوساطة المقترحة لإصلاح ذات البين مع ابن رشيد اتفقنا بأن يتحرك نوّاف مع عشيرته إلى حدود النفود حيث ينتظر الكلمة مني. فإذا ما رفض الوزير سعود السبهان المصالحة، فإن عليّ أن أعود إلى سنجارة وأحاول إقناعَهم للانضمام إلى نوّاف، حينئذ يأتي هو ومحاربوه ومحاربو النوري، لينضموا إلى سنجارة ويهجموا على سعود من الشمال، بينما يَضْغَطُ عليه ابن سعود من الجنوب. كنت على علم تام بما تنضوي عليه الخطة من مَخَاطر. كُنتُ عالماً بأن أنور باشا والحكومة التركية تثقُ في سعود وزير ابن رشيد كأكثر صديق لهم ولاءً وإخلاصاً، وأنهم سوف يتهمُونني بإثارة الاضطراب والقلاقل لصالح الإنجليز. كنت أيضاً على حُسن اطلاع بحقيقة أن سعوداً يمتلك سلاحاً أكثر كفاءة وفعالية من الذي نملكه، وأننا لن نقدر على طَرْده من حائل والتغلب عليه إذا ما قام بتَحْصينها. لقد ندمت على إسْهَامي نحو حرب أهلية وسط شمّر، الذين تفرقوا كثيراً وانقسموا عن رابطة الدم خلال الأربعة عشر سنة الأخير، ولكنني فكرتُ بأننا لو فشلنا في تقليص نفوذ

سعود وجماعته، فإنهم سوف يُسببون ضرراً أكثر من الذي يمكن أن نتسبب فيه مطلقاً.

من الساعة ٥٠ : ١٠ صباحاً وحتى الساعة ٢٠ : ١١ صباحاً قمنا بتدفئة أنفسنا أمام نارٍ متقدة. فيما بعد عاد نواف إلى مقاتليه، بينما ركبتُ مع "النوري" في مقدمة حوالي مئتين من راكبي الجمال. ناشدني النوري متوسلاً بأن لا أذهب إلى ابن رشيد، قائلاً: «اذهب يا موسى إلى ابن سعود، إنه أخي وصديقي، رجلٌ شرف محترم ومُخلص، لكن ابن رشيد ضعيفٌ، ووزيرُه خائنٌ».

«إنني سوف أذهب إلى ابن سعود ولكن ذلك سوف يكون من إقليم ابن رشيد. إعرف بأن سعود بن عبد العزيز ابن رشيد أمير شمّر رجلٌ ضعيف، وبالمثل أعرف أن وزيره سعوداً رجلٌ خائنٌ إنني على حذرٍ مُسَبّق؛ سوف لن يأخذني على حين غرّة. إن الله يريد لي أن أذهب، لذلك سوف أذهب. كم من مرة قمتُ يا أخي بتحذيري بأن لا أذهب هنا وهناك حيث كان الله قد أراد لي الذهاب! لكنني ذهبتُ وعُدتُ سالماً - وإنني متأكدٌ بأنني سوف أعُود من عند ابن رشيد أيضاً. فإذا ما حدث ولم أعُدْ، على أي حال. فكر فقط في الأعداد الكثيرة من قبلي من الذين خيموا في هذا الأقليم وذهبوا ولم يعودوا».

عند الساعة ٢٥ : ١٢ مساء أشار الأمير إلى الموضع الذي اختاره لخيمتي؛ ثم قفز مترجلاً من فوق ظهر راحلته، وبدأ أفراد القبيلة في إنشاء معسكر جديد. في المساء تأكدنا من الوقت وخط العرض.

الأحد ٣ يناير ١٩١٥م:

(درجة الحرارة عند الساعة ٠٠ : ٧ صباحاً كان درجتين تحت الصفر). عند الساعة الثامنة بينما كنت جالساً أكتب على الأرض في خيمتي دخل عليّ

نوّاف مُحضراً معه رجلاً قصيراً نحيفاً شاحباً في حوالي الثلاثين من العمر، يرتدي قميصاً بالياً وعباءة قديمة. خرّ على الأرض أمامي مرتعشاً من البرد وتوسل إليّ طالباً الحماية. لقد كان هو الشمّري نازل بن دوحي بن ثنيان الذي حدثني عودة أبو تايه عنه. قال نوّاف وهو يقدمه:

«انظر يا موسى، هذا هو نازل بن ثنيان أكثر فرسان شمّر شُهرة».

تبسمت. أيعقل أن يكون هذا الرجلُ الضَئيل فارساً مشهوراً؟ على أية حال، كان هناك بريق غريبٌ في عيني نازل والذي جعلني أغيرُ تقديري له في الحال. في هذا الجسد النحيل تبينتُ روحاً قوية. أضاف نواف قائلاً: «أي أخي، إنني أعرف نازلاً وأشهد له. تحدث معه وثق في كل ما قد يَعدُ به. يجب عليّ أن أودعك. إنني أرتحل الآن وسوف تُغادر أنت بعد أربعة أيام، عُدْ إليّ مرة أخرى. إنك تعلم أن لك أخاً في الجوف».

تعانقنا، وارتحل نواف. كان ينتظره ثلاثون من الفرسان أمام خيمتي لمرافقته في جولته لجمع الضرائب وسط كل القبائل والعشائر الخاضعين له ولوالده. كان يحتاج المال والمؤن من أجل جيشه الحالي، وعندما تكون الغارات نادرة يلجأ لمساعدة قبائله. كان ينوي أن يعود إلى الجوف بعد حوالي عشرين يوماً وينتظر نصائحي. في هذه الأثناء أعطاني رسالة إلى نائبه في الجوف، المملوك عامر موجهاً له بأن يستقبلني في احتفال وأن يُطيعني كما يُطيع نواف نفسه. حقاً لقد ذهب إلى أبعد من ذلك بإبلاغه بأنه أثناء إقامتي في الجوف قد حول كل السلطات منه (عامر) إليّ؛ وأن أعلن للسكان في الجوف بأنني ذاهب للتفاوض على سلام مع ابن رشيد.

بعد مغادرة نواف عملت على أن يستلقي نازل في الخيمة الكبيرة ليستدفئ

وأرسلت خادمي ناصراً إلى البائع المتجوّل (الكُبَيْسي) لشراء كل شيء يحتاجه الرجُل.

في تلك الأثناء زارني محمد أبو تايه شقيق عودة الذي أخبرني عن معاناة نازل. يبدو بأن نازل بن ثنيان كان قد عُهد إليه بتسليم رسائل هامة من عمه فَهَد وآخرين من شيوخ سنجارة، الذين رغبوا في التحالف مع نواف. رافقه رجُلان أحدهم فريجي والآخر شرَاري من خيمته. ركب نازل والفريجي على الجمال بينما سار الشراري على قدميه. عند البطن الشمالي لوادي الطويل علموا من الرعاة بأن نوافاً قد ذهب إلى المسمى عند منخفض وادي السرحان لذلك توجهوا إلى ذلك الاتجاه. أثناء الليل اختفى رفيقا نازل مع جمله وبندقيته وكل المؤن؛ بالرغم من أن نازلاً قد ضمن حمايتهما في إقليم شمّر، وأنهما كانا قد وعداه بالحماية في إقليم الرولة الذي تنتمي إليهم عشيرة الفرجة، ويخيم معهم الشرارات. هكذا قد خاناه - أسأل الله أن يخذلهم بالمثل. لمدة ثلاثة أيام وليلتين هَامَ نازل، الذي خذل وهُجر، مُجهداً نحو الشمال الشرقي. كان يشرب من برك صغيرة مختلفة، لكنه لم يجد أي شيء ليقتات به إذ أن الحشائش الطازجه لم تكن قد نبتت بعد. أخيراً سقط منهاراً من الإعياء. وجده محمد الذي كان يصطاد بكلب صيد وصقر، فأخذه إلى خيمته وأسْعَفَه. لمدة خمسة أيام لم يكن نازل يستطيع الوقوف. النوري والذي تحرى في الحادثة اعتقد بأن الفريجي في القضية قد يكون المدعو خليفة ابن غطيان فقام بتوجيه أقرباء الرجل لتعويض نازل عن الضرر الذي أصابه، لكنهم اعترضوا بأنه لم يثبت بأن أحداً ينتمي إليهم قد ارتكب مثل هذا الفعل المشين. لقد وافقوا، على أي حال، بأن يستجوبوا خليفة بأنفسهم، وأن يجبروه بإعادة الممتلكات إلى مالكها الشرعي إذا ما ثبتت إدانته. وعد نواف

بالبحث عن الشراري، الذي حمله الفريجي المسؤولية، من بين زعماء العمّارات الثلاثة الذين يقيمون ضيوفاً في خيمة النوري تعرف اثنان منهما على نازل وتعاطفا معه. قدّم له النوري جملاً جيداً وسرجاً.

نحو المساء حضر إليّ نازل وتوسل بأن أسمح له بالبقاء في خيمتي حيث أنه يخشى انتقام عشيرة الدُغْمَان، الذين كان قد قتل ستةً منهم في معركة على طريق الحج من الكوفة. أعلن النوري من خيمته بأن نازلاً هو ضيف عليّ، وأن أي شخص يؤذيه سوف يلقى الويل والثبور. الدُغمان الذين علموا بوجوده تلصصوا حول خيمتي كذئاب جائعة، لكن لا أحد منهم اعتدى على نازل بقول أو فعل.

الإثنين ٤ يناير ١٩١٥م:

تحدثت مع نازل حول الطريق الذي قررنا أن نَسْلُكَه. العديد من الأشخاص الذين كانوا قد حضروا مع نواف أرادوا أن يرافقونا إلى الجوف، ونصح النوري بأن أسْلك طريق "الحَال" من "الجوف". أشار "نازل" بأننا على أي حال، لن نجد مَرعىً هناك. وأوضح أنه لم يهطل المطر في المنطقة الواقعة بين الشقيق وجبة لمدة ثلاث سنوات، لذا فإن الإقليم أصبح جَدباً (مَحَل)، أما جنوب جبة فقد استهلكت مراعيه بقطعان قبيلة عبدة. علاوة على ذلك، فإنه لا الأمير ولا وزيره موجودين في حائل بل يُعسكر كلاهما إلى الجنوب من وادي الرَمّة، في مكان ما قرب "ضبيب" بينما كان ابن سعود يخيم في الصَبّاح. وتبعاً لذلك فإنني إذا أردتُ أن ألحق بالأمير شخصياً، فإنه من المستحسن أن أسير على طول حافة النفود الشرقية إلى قلعة الحيانية حيث من المحتمل أن نعلم عن مخيم ابن رشيد، هكذا قال. اعترض النوري قائلاً بأننا من المؤكد سوف نواجه عصابات النهب على حدود النفود. عند هذا المقطع

ابتسم نازل ابتسامة خفيفة وقال:ـ

«أسال الله أن يطيل عمرك! إنه يُقال بأنني أفْضَلُ زُعماء العصابات المُغيرة، وبالتالي فإنني أعرف بالتأكيد كيف أحْمي نفسي منهم وأضللهم».

قررت في الحال أن أسافر على طول الحدود الشرقية، حيث كان يجذبني عمل علمي كبير مشيراً إليّ. كان علينا أن نُلبي رغبة النوري بأن نتوقف في الجوف لنتأكد من عامر عما إذا كانت قد هطلت الأمطار في الجزء الشرقي للنفود، ومن بعدها نأخذُ الطريق الذي قدّرَه الله لنا.

رغبة مني في اختبار مدى مقدرة نازل في تحديد اتجاهات النواحي المختلفة، قمت بسؤاله عن أقاليم كنت أعرفها. سألته أن يُعيّن بواسطة حصاتين داخل خيمتي، موقع النجمة القطبية وموقع الجنوب، واختبرت شرحه مستخدماً البوصلة. كان الأفق مُلبداً بضباب كثيف؛ وقد احتجبت الشمس كليةً. نظر نازل إلى الجزء الأعلى للخيمة، وأخذ الحصى في يده اليمنى ومَدّ يده أمامه، ورسم خطاً مستقيماً على الرمال. ثم وضع الحصاة الكبيرة عند أحد طرفي الخط، والحصاة الأصغر عند الطرف الآخر، وقال مشيراً إلى الحصاة الأكبر حجماً: "هذا، يا شيخ هو الجانب القطبي الشمالي (الجدي) وهذا هو الجنوب.

ألقيت بلمحة إلى النقطة التي تشير إليها إبرة البوصلة، ورأيت أنه قد انحرف بخمس درجات فقط. لقد سُرِرْت جداً لدقته، التي سوف تسهل من عملي.

ثم قام بأخذ حفنة من الحصى، ونشرها أمامه، ومستخدماً لها كوسائط، قام بتحديد مواقع أماكن المياه المختلفة، والنقاط الأساسية الأخرى في المنطقة

التي أعرفها مثل للجبال من الرمال وقطع الأودية بينها . أصبحتُ مقتنعاً وأنا أرْقبه بأنه على دراية بالبلاد وأنني سوف أنسجمُ معه بعد أن تعارفنا .

الثلاثاء ٥ يناير ١٩١٥م .

أخطرني الراعي عواد بأن قدمه تؤلمه وأنه أصبح غير قادر على العناية بجمالي . شككْتُ على أية حال أن تلك كانت ذريعة حركها ارتعابه من الرحلة إلى ابن رشيد . ساقَ جمالنا إلى المرعى "شواردي بن فروان" . قام النوري برحلة إلى معسكر قبيلة الكواكبة المجاور حيث نشب نزاع هناك .

عملت طوال اليوم مع نازل ، والذي قام برسم طريق الحج من حائل إلى الكوفة موضحاً الآبار والوديان بين الكوفة وأبو غار والبصرة والمنطقة المحيطة بوادي الخصيب . اجتهدت لأختبر إفادته بعدد من الأسئلة لأكتشف عما إذا كانت متناقضة ، لكنني كنت غير قادر على الإمساك بخطأ أو زلة منه . أصبحت مقتنعاً ، إذن ، بأنه لم يكن قائداً عسكرياً فحسب ، بل قائداً مرعباً لعصابات النهب أيضاً . إن شخصاً يكون على دراية كبيرة بالصحراء الشاسعة يمكنه بكل سهولة أن يستولي على الغنيمة ويحتفظ بها .

لكن محادثاتي المطولة مع نازل كانت مُغضبة لأصدقائي الشُبان وسط الرولة أبناء نواف . تعلم أكبرهم سلطان ، والذي كان في حوالي الحادية عشرة من العمر ، وابن له من زوجته مشخص ، الكتابة في الجوف ، وافتخر بأنه أرسل أول رسالة له لوالدته ، المتزوجة الآن من فندي بن ملحم . سألني بشغف عنها ، راغباً في معرفة كيف تبدو ومتى سوف تحضر له . الابن الثاني فواز ، وهو من زوجته مشاعل ، لم يكن يعرف الكتابة لكنه قال بأنه يمكنه البقاء على ظهر مُهرٍ ، مُسرِع غير مُسْرَج ، بينما سيسقط سلطان منه . أصغرهم

جميعاً نواش، وهو ابن له من زوجته شيلا، وكان يبلغ تسع سنوات من العمر ويلوذ بالصمت عادة، ولكنه كان يتفحص بتركيز كبير كل شيء يراه في خيمتي. كان العبيد قد أحضروا لي عدة مرات أيضاً أبناء نواف الصغار. فزوجته مشاعل كانت قد أنجبت له ولدين فايز وأنور، وزوجته فهدة أنجبت عافية. كانت مشاعل تعاني من رَمد في كلتى عينيها في عام ١٩٠٩م والآن قد فقدت قوة الإبصار كليةً. من بين الشيوخ الذين زاروني كان كل من خالد وطراد أبناء المرحوم الأمير سطام الشعلان. كما زارني مساعدي السابق مزاحم ابن القتيل محمد شقيق النوري، وكذلك الخفاجي ابن النوري، كل هؤلاء قاموا بزيارتي عدة مرات. إلى جانب هؤلاء حضر "عوض الكويكبي" أحد معارفي القدامى من مخيم بعيد ليسلم عليّ. لم تكن أي من هذه الزيارات تدوم طويلاً إذ أنني كنت أكره ضياع وقتي.

الأربعاء ٦ يناير ١٩١٥م:

دخل الأمير في ذات الوقت الذي كنا نتناول فيه طعام الفطور. أظهر دهشته لكمية الحليب الكبيرة التي عندنا، مشيراً إلى أنه لم يتناول أي حليب لأكثر من أسبوع، وإن من بين جميع نياقه كانت هناك اثنتان فقط اللتان تدران حليباً، وإن هاتين الآن قد كفّتا عن إعطاء أي حليب.

"كلا، يا أخي، إن نياقك لم تكف عن إدرار الحليب"

"كيف عرفت ذلك؟"

"هذا الحليب هو حليبها"

"الحليب من نياقي؟ ولكن عجباً من الذي حلبه لك؟"

"إنه الراعي الخاص بك فهيد. لقد وعدته بربع مجيدي يومياً إذا أحضر لي

الحليب للفطور، وهو ما فعله"

"آه من ذلك النذل! " صاح الأمير "يحمله لك من أجل ربع مجيدي "، ويذكر لي بعد ذلك بأنه لم يحلب أياً منها" .

"لا تغضب أخي. غداً أرتحل، ونياقك سوف تعطي الحليب لك فقط"

"أتمنى أن يمنحك حليب نياقي الصحة يا موسى! "

إن فترة توالد الجمال هي من ١١ ديسمبر إلى ٢١ يناير، وخلال هذه الفترة يجف حليبها. إن النياق التي ولدت صغاراً تحتاج إلى حليبها من أجلهم، وتنتج القليل منه إلى أن يصبح لديها الكمية الوافر من الحليب الطازج بشكل دائم طوال العام.

قمنا بعمل التحضيرات للمغادرة ووزعنا الأحمال. إن الجمل القوي يستطيع أن يحمل قنطاراً (٣٠٠ كيلو جرام تقريباً)، لكن جملاً محملاً بهذا الشكل لا يستطيع أن يقطع أكثر من ثلاثة كيلو مترات في الساعة. كان مقرراً لجمالنا أن تقطع في المتوسط أربعة كيلو مترات ونصف في الساعة، لذلك كان من غير الممكن أن نحمّلها أكثر من خمسة وستين إلى خمسة وسبعين رطلاً (حوالي ١٥٠ كيلو جرام). الكثير منها كان هزيلاً جداً وضامراً، لكن نازلاً بشرني بتوقعه بأنها سوف تسمن عاجلاً في إقليم شمّر حيث ستجد المرعى الوفير. قمنا بشراء جمل إضافي بقيمة أربعة عشر جنيهاً تركياً (٦٣ دولاراً) لأننا لم نكن نرغب في تحميل الجمال الأخرى بالكثير من المتاع. لم نكن ننوي أخذ راعٍ معنا، حيث وعد نازل بتدبير شمّري لهذا الغرض" .

غادر موسيل مخيم النوري ابن شعلان يوم ٧ يناير ١٩١٥م لإكمال مهمته، وعبر هضبة الحماد حتى وصل إلى الجوف يوم ١٢ يناير ١٩١٥م وقدم وصفاً

موجزاً لإقامته القصيرة بها. ونترك الآن القارئ مع موسيل لوصف ما رآه[٩]:

" في الساعة التاسعة والنصف من يوم الثلاثاء ١٢/ ١/ ١٩١٥م، وصلنا إلى أطراف منخفض الجوبة، ورأينا إلى يميننا، ومن خلفنا سهلاً ممتداً بلا حدود، تنتشر فيه الحجارة الكبيرة والصغيرة، المنقرضة بفعل التآكل، بينما أمامنا آلاف المسطحات الرملية، مرتفعة ومنخفضة، وهي تلمع بألوان وردية بسبب الضوء، والبقع السوداء فيها تأتي بلون البنفسج. وانبعثت أشعة الشمس من كل زاوية حتى اشتعلت كل المنطقة بالحرارة. كأن بإمكاني أن أحملق فيها كثيراً، ولكن الجمال أسرعت، وكان الطريق منحدراً وينتهي بممار ضيقة، وفقد الكثير من الجمال ما عليها من أحمال، وبعضها وصل والأحمال منزلقة عن ظهورها، حيث أسرعنا لمساعدتها وتهدئتها.

وفي الساعة العاشرة وخمس وعشرين دقيقة وصلنا إلى الأرض المنخفضة التي تسمى «أجربة» التي تميل إلى الجنوب، وبدأنا فوراً بإنزال الأحمال عن الجمال وربطها حتى تكون بمأمن، ولم يكن هناك من عشب في هذه المنطقة، عدا أعشاب قورصي الجافة (Korzi)، التي تنمو هنا بوفرة، وكان هذا النبات في مرحلة إخراج أوراق صغيرة، ولم ينم بعد نبات " القيصوم " و " الشيح ".

وكانت جميع التلال المسطحة المستوحشة المحيطة بهذا المنخفض تتكون من طبقات أفقية على درجات من الصلابة غير متساوية، وذات الصلابة منها تقاوم الريح والمطر والجليد، ولهذا السبب، زالت منها الطبقات الناعمة. ودائماً الطبقات العليا منها أكثر صلابة من التي تحتها، ولكنها تتلاشى بينما تبقى الطبقات العليا متماسكة، ولذلك يصعب مسح مثل هذه التلال. وعلى السهل توجد آلاف الحجارة من كل الأحجام، والأجزاء المنكسرة من الطبقات الصلبة التي بدأت تنهار بعد أن انهارت الدعائم التي تستند عليها.

وعند الساعة الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة، بدأنا بالمسير في السهل بين المسطحات من التلال (قور) والحجارة الساقطة من الجبال. وفي الظهر كنا نمر عبر "خبرا المزارع" وهي مجمع لمياه الأمطار. ومنها ترتفع تلال صخرية عديدة في شكل الطاولات. وفيها العديد من الشقوق التي تختزن مياه الأمطار وتسمى (زلطه) وجمعها زلط. وفي الواحدة دخلنا بوابة باب الفاو وهي بعرض خمسة عشر متراً، وبعمق ٢٠٠ متر.

وفي الساعة الواحدة والدقيقة الثامنة والعشرين رأينا الجوف، أو دومة الجندل وهو الاسم الذي كان يطلق على هذه المستوطنه. وعلى البعد خلف تلك الأرض الجرداء الداكنة الرمادية اللون، في الجانب الجنوبي من ذلك الحوض، على البعد ظهرت بساتين النخيل بلونها الأخضر المسود، ترحب بنا على عكس ما تفعل تلك الأرض اليباب التي كنا نعبرها في معاناة. وبين النخيل ظهرت الجدران الصفراء العالية، والأبراج التي بدأت تلمع في وهج الشمس. وأطل فوق النخل والجدران حصن مارد وحوله أربعة أبراج، وفي اليمين منه حصن الفرحة الرباعي الزوايا، وإلى شماله حصن الفريحا الأصغر منه.

في الساعة الواحدة والدقيقة الثانية والأربعين نزلنا من الممر الضيق إلى السهل المنبسط المسمى الصفاة. ويقع "غدير مرزوق" في الجزء الغربي منه، وهو منخفض، تبقى فيه مياه الأمطار لفترة طويلة. وسطح هذا السهل خفيف ورمادي اللون، وصخري به تآكل بفعل الرياح والرمال، وإلى الغرب ظهرت قبة جبال العبد، وفي جنوبها الغربي ظهر التل المسطح المسمى الصبة، إلى جنوبها، وفي الجنوب الشرقي منا، على حافة الهضبة، حيث آثار حسيا، وشرق هذا ينتصب البرج القديم، وبعيداً إلى الجنوب الغربي يقع حوض الجوف، الذي تحده مرتفعات الجديلية، وإلى الشرق وإلى أعلى نخيل

البحيرات، ولاحظنا الارتفاع في جبل رجم نوره الأسود، وتحت مجموعة من الهضاب الصخرية (ظلة البحيرات) وفي محاذاتها مرتفع أبو القوس.

وفي الساعة الثانية عشرة، كنا نركب عبر ممر "غدير مرزوق" القديم وعلى بعد مائتين من الأمتار إلى الاتجاه الشرقي لاحظنا قمتين أشبه ما تكونان بالكلس إحداهما "صبة الوادي"، حيث يستخرج الشيد الذي تدهن به المنازل باللون الأبيض. وفي الساعة الثانية والدقيقة الأربعين، التقينا بالسكان المُتعبين في أحياء الحصيني والحسن. لقد كانت هذه الأحياء في بداية ١٩٠٩م من الأحياء المحصنة بمبان قوية، وبهما بساتين واسعة تحيط بها أشجار نخيل طويلة وتنتشر فيها حقول العنب، ولكنها الآن عام ١٩١٥م لا يوجد بها إلا الحطام، فقد هدمت الأسوار وقطعت النخيل بسبب الحروب التي جرت في الفترة من يناير ١٩٠٩م إلى يوليو ١٩١٠م.

أسرعت في البحث عن عامر، نائب الأمير نواف، وأخيراً وجدته في ركن قصي لغرفة واسعة بلا نوافذ، يستند على جدارها الغربي، ويحتسي قهوته بعيداً عن مرمى رصاصة قد تأتيه من الباب. وبعد تحيته وقف وحياني وعاد لجلسته في انتظار أسئلتي له. سلمته الرسالة التي كانت معي من نواف وطلبت منه أن يريني كل النقوش التي كانت في الجوف، والتي كتبت بلغة لا يعرفها أحد هناك. وقال لي: "أثناء تعميق البئر في حصن مارد وجدنا عدداً من الرخام على شكل بلاطات وكانت تحمل خطوطاً غريبة، ولكن لا يعلم أحد ما حدث لها". وأيضاً أخبرني بأنه في شارع قريب من حصن مارد كان هناك جدار عليه كتابات غريبة، وأخبرته بأنني ذاهب لرؤية ذلك الجدار، وعليه في الوقت نفسه أن يبحث عن البلاطات المفقودة. وعلى ورق ضغط و باستعمال الفرشاة والماء أخذت صورة للخط النبطي الموجود على الجدار، وجعلت

الورقة التي عليها الرسم تنشف على الحجر لأن الشارع العتيق كان ساكن الهواء، ورجعت إلى القصر حيث كان عامر على مصطبة بدرجات عالية، يقرأ لحوالي مائتي مواطن تعليمات صدرت من نواف. وعندما رآني سكان الجوف الذين كانوا مع عامر، تقدموا لتحيتي وتمنوا لي النجاح في مهمتي من أجل السلام، فكلهم كانوا يريدون السلام قائلين "يا شيخ خلصنا من هذا السجن. أننا ولخمس سنوات لم نخرج خارج هذا الحصن، لأن أعداءنا يغيرون علينا ليل نهار. لقد ماتت ماشيتنا، وتوقفت تجارتنا، ونحن نعيش على التمر فقط وبعض الحبوب، التي نزرعها في بساتيننا".



قلعة مارد عام ١٩١٥م (موسل)

لقد أحضروا لي شريحتين من النقوش النبطية وكنت قد وعدت من يحضر لي شريحة كاملة من هذه النقوش أن أعطيه جنيهاً عثمانياً (٥ , ٤ دولار أمريكي)، وبالرغم من ذلك تسلمت اثنتين فقط، وهناك احتمال أن تكون تلك اللوحات قد سربت إلى سوريا، أو احتفظوا بها داخل حصن مارد الذي كان يخضع لإصلاحات. وفي الوقت نفسه كان عامر والأعيان في الجوف قد استعدوا لاستقبالي رسمياً باسم الحاكم نواف، فارتدى أفخر ثيابه. وفي المساء ذهبت معه إلى برج الفرحة، وبدأت أسأله عن أفضل الطرق التي ينبغي أن أسلكها، وقال لي: يجب أن تسلك أطراف النفود الشرقية لأنها تعرضت لأمطار كافية قبل أحد عشر يوماً، وهذا يعني توفر الماء في هذه المنطقة. وقد علمت من نازل مرافقي، أن اثنين من شمر معتقلان في الجوف. طلبت من عامر إطلاق سراحهما. وقد فعل ذلك بسرعة لدى عودتنا. وقد أطلق سراحهما وطلب منهما شكري على إعطائهما حريتهما. ولما كانا يرتديان ثوبين ممزقين اشتريت لهما ثوبين جديدين، ومناديل، وعباءتين وطلبت منهما أن ينقلا تحياتي لشيوخهما. كان أحدهما من جماعة النبهان، والآخر من جماعة الزميل. كان يونس بن بنية يريد أن يعرف خط سيري، ولكن لم أعطه إجابة محددة، لأن هجمات اللصوص تفسدها قلة معرفتهم بخطط التحرك. وفي المساء حددنا الاتجاه ونمت في خيمتي داخل فناء القصر.

وفي يوم الأربعاء ١٣ يناير ١٩١٥م استيقظت مبكراً وكان فناء القصر يعج بالجرحى والمرضى طلباً للعلاج. وبعد أن فرغت منهم، ذهبت مع عامر إلى حصن مارد الرئيسي. وهو مستدير الشكل، يضيق كلما ارتفع حيث يقودك سلم حلزوني إلى مقر سكن نواف، وهو يقع في النصف من الحصن، والدخول إلى الحصن يتم عبر سرداب ضيق ينتهي بباب عليه قضبان حديدية.

وهناك أيضاً سرداب آخر يقود إلى صالة، وبعد ذلك تدخل مقر الحاكم نواف، وفيه مخزن أسلحة كافية، وذخيرة، ومؤن تكفيه للصمود في الحصن مهما طال الحصار. ومفاتيح الحصن لا يعرف مكانها إلا عامر ووالدة نواف فقط، وكانت هي الوصية على هذا المقر، لأنه لا يثق في زوجته الجوفية. حيتني أم نواف بحرارة وقادتني إلى داخل البيت. واستعرضت أمامي معزتين معها داخل الحصن، ووضحت لي كيف تمد الحصن بمياه الشرب من ينبوع تم تصميمه ببراعة تحت الحصن. ومن غرفة نواف، التي كانت باردة ومليئة بالأشياء، صعدنا عبر السلم الحلزوني إلى أعلى الحصن الذي كان مسوراً بجدار عليه فتحات تمكن المقاتلين من إطلاق النار على المهاجمين. إن هذه القلعة عانت من الهجمات الأخيرة، فالأبراج الأربعة الصغيرة، التي بناها نواف، كانت مبنية من الطوب الطيني المجفف، أما جدران الحصن الرئيسية فكانت أقوى، لأنها من الحجارة الصلبة. وفي فناء القصر أراني حراس عامر غزالاً صغيراً، أحضرته جماعة من الشرارات من النفود. وفيما بعد صعدنا إلى برجي الفريحة والفرحة لعمل رسم كروكي للجوف من فوقهما.

إن الجوف تقع في قاع منخفض يمتد من الغرب إلى الشمال الشرقي. وهذا المنخفض طوله حوالي مائة كيلو متر، وعرضه حوالي عشرة كيلو مترات. وعمقه بين أربعين إلى خمسين متراً. وكل المياه تتسرب تحت المرتفعات الجبلية المحيطة به، وتبقى هناك طوال العام على سطح من الصخر والحصى الخشنة والرمال، وتتسرب من أماكن متعددة في شكل ينابيع، وتملأ الآبار التي يتراوح عمقها بين أربعة إلى عشرين متراً. أما الآبار العميقة فماؤها مالح بعض الشيء وفاتر ليس بارداً و لا حاراً. إن كمية المياه هي السبب في أن الجوف مأهولة بالسكان. وأكبر منطقة من ناحية تجمع السكان تسمى «دومة

الجندل»، بينما اسم الجوف أو الجوبة يشير إلى جميع المنخفض وبقية البلدات.

دومة الجندل، تضم حوالي أربعمائة مسكن، وهي مقسمة إلى عشرة أحياء مسورة وهي في الغرب: سوق الغرب، وسوق سحارة، وسوق الوادي، وسوق شيبة، وسوق مارد. شمال هذه الأسواق يوجد سوق السراح، وسوق الرحيبيين، وسوق علاج. وإلى جنوب مارد، سوق خذما، وأخيراً سوق النقيب، وفي الجوار من هذه المدينة هناك بساتين صغيرة مثل: النويقيط، الوسيعه، جوى، والقنية، عيون الكبرا، وعين الشيخ، و عين الرشيد، وغيرها.

بناءً على كلام سكان الجوف فإن النقش على الصخر في سوق الغرب يُقرأ كالتالي:

الف بالجوف راشي

والف عين جارية

ومن حس سبقات العبية وهي ثنية

أي أن هذا النقش، يتحدث عن وجود ألف بئر يسحب منها الماء، وألف عين ماء جارية، ومن الذي سمع عن سباق تفوز فيه مهرة عمرها خمس سنوات فقط.

عدا سوق مارد، فإن كل حي به نخيل و في وسط النخيل تقوم المنازل. بساتين النخيل مسورة بجدران عالية. ومن خلال بوابة يدخل الإنسان ممراً ضيقاً بين جدران البساتين، ويؤدي هذا الممر الضيق إلى ميدان في شكل تقاطع حيث تفتح فيه أربع بوابات على أربعة منازل. وفي كل نقطة التقاء لأربعة بساتين توجد بئر، ومن هذه البئر يُسحب الماء بواسطة الأبقار والجمال لري البساتين.

تتعدد أنواع تمر الجوف، فالمسيحية تنضج مبكراً وهي في حجمها أصغر من تمر الجوز، ولونها أصفر، وتميل إلى الحموضة بعض الشيء. أما أحسن أنواع التمر فهو تمر الحلوة ولونه أسود، وأطول من الإصبع في الغالب، لكنه أكثر سمكاً. كذلك تمر حلوة الحسين ذو اللون الأصفر، وذو الحجم الكبير واللذيذ. وتمر حمراء رشود، الذي يمكن حفظه لفترة طويلة، ونكهته تكون الافضل عندما يكون المحصول الجديد من تمر المسيحية على وشك النضج. التمر يكال بالصاع (تسعة ليترات) ويحضر التمر بطرق مختلفة، ويمكن إنضاجه بأن يطبخ حتى تتبخر عصارته ثم يخفق ويترك ليجف، ثم يستعمل كزاد للمسافر. ويمكن سحن بعض الغلال (كالسمح) وخلطها مع التمر الأسود حيث يمتص السمح العصارة، وتبقى الخلطة لأكثر من سنة صالحة للاستعمال، وهذه الخلطة تسمى بكيل.

في البساتين يوجد التين، والبرتقال، والليمون، والمشمش، والعنب، وأنواع متعددة من الخضراوات، ويزرع بجانب جدران البساتين شجر الأثل، وهو يشبه شجر الطرفا، ويصنع من هذا الشجر خشب السقوف، وخارج البساتين، وبعض الأحيان داخلها يزرع القمح والشعير، ولكن الحرب الأهلية (١٩٠٩- ١٩١٠م) تسببت في تدمير الكثير من المساكن والبساتين.

يبدو من المؤكد أن الأنباط قد أسسوا مستوطنة كبيرة في دومة الجندل. وبناء على ذلك، فإن هناك مقبرة لم أتمكن من الاستدلال عليها. لكن هناك زعم بأنه تم الكشف عن كهوف في منطقة الصوينعية بالقرب من مارد، ولكن لم يوجد شيء داخلها فُطمرت بالحال* .

غادر موسيل الجوف متوجهاً إلى حائل[١٠] وبعدها قفل عائداً إلى إستنبول. استمرت هذه الرحلة منذ بدايتها حتى نهايتها ما يقارب ستة شهور.

الهوامش:

(١) حول الأدوار العلمية السياسية والعسكرية التي قام بها موسيل انظر:
آرثر برايشا-فوتيه. **النمسا والشرق العربي**، ترجمة يونس إبراهيم التميمي. عمان: المطبعة الاقتصادية، ١٩٨١م، ص ص ٤٣-٤٤.

(2) Alois Musil, **Arabia Deserta: A topographical Itinerary**.New York: AMS Press, 1927, P.xiii.

(3) Alois Musil, **The Northern Hegaz: A topographical Itinerary**.New York: American Geographical society, 1926,p.1.

(٤) آرثر برايشا-فوتيه، ص ص ٤٩-٥٠.

(5) **Arabia Deserta**, pp. 159-164.

(6) **Arabia Deserta**, pp. 274-302 .

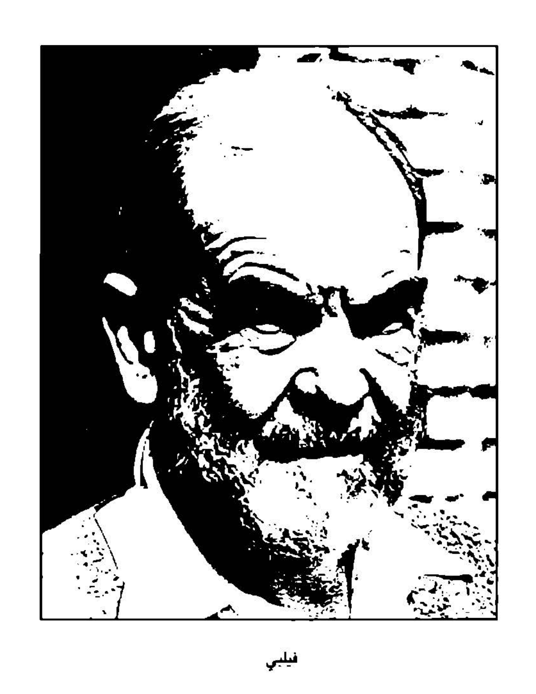
(٧) كتبه موسيل رجاء ابن مويسل "Mwejsil".

(8) **Arabia Deserta**, pp.426-452.

(9) **Arabia Deserta**, pp. 470-474.

(١٠) ضمن موسيل تفاصيل رحلته إلى ابن رشيد في كتابه "شمال نجد":
Alois Musil ,**The Northern Nagd : A topographical Itinerary**.New York: AMS Press, 1928 .

رحلة
سانت جون فيلبي
١٩٢٢م/ ١٣٤٠هـ



فيلبي

سانت جون فيلبي

H. St. J.B. Philby

يُعد فيلبي أشهر وأهم رحالة في القرن العشرين، ممن جعلوا جزيرة العرب مجال علمهم وعملهم. وممن اجتمعت في شخصياتهم أبعاد الرجل العالم، والباحث، والسياسي، والدبلوماسي، والصحافي، والمؤرخ، والجغرافي، والآثاري، والتاجر، والتي كل بعد منها يحتاج بحثاً مستفيضاً لاستيعابه وتحديد أهميته وتبين خلفياته. كما إنه كان وما يزال أكثر الرحالة الذين أثاروا الكثير من الجدل والنقاش حول شخصياتهم وأهدافهم وطموحاتهم الشخصية والعامة، في موطنه الأصلي بريطانيا، وفي الدول التي عمل بها أو في الدولة التي أحبها وخدمها طيلة جزء كبير من حياته وهي المملكة العربية السعودية.

ولد فيلبي عام ١٨٨٥م في بادولا في جزيرة سيلان (سيرلانكا)، حيث كان يقيم و يعمل والده في تجارة القهوة. في سنه السادسة انتقل مع والدته التي تخلت عن والده إلى لندن، حيث بدأت عملية تعليمه في مدارس النخبة الإنجليزية. أظهر فيلبي نبوغاً مبكراً، وتميز في تعليمه فحصل على منح دراسية مختلفة حتى أكمل دراسته الجامعية في جامعة كامبرج الشهيرة ١٩٠٧م. كما اهتم بدراسة اللغات، فتعلم الفرنسية والألمانية والعربية والأوردية والفارسية.

التحق في العمل الحكومي بعد تخرجه من الجامعة فتم تعيينه بالهند التي

عمل بها لمدة سبعة أعوام. بعد ذلك، تم نقله للعمل بالإدارة البريطانية في العراق، مساعداً للمندوب السامي البريطاني، وكان ذلك عام ١٩١٥م.

بدأت علاقة فيلبي بالجزيرة العربية تتوطد منذ عام ١٩١٨م، عندما أتى على رأس بعثة بريطانية للقاء عبدالعزيز آل سعود حاكم نجد والأحساء في حينه. اختلف فيلبي مع سياسة حكومته في العراق، بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وبدأ باتخاذ مواقف سياسية تتعارض مع سياسة حكومته في المنطقة، والتعبير عن مواقفه تلك علانية، وخاصة فيما يتعلق بإقامة حكم ملكي في العراق. كما إنه أبدى احتراماً وتقديراً كبيراً لعبدالعزيز آل سعود، ورأى انه هو الزعيم الذي يجب أن تتعامل معه بريطانيا لأنه الاصلح لقيادة العرب ولأنه النموذج المثالي الذي كان يحلم به. كتعبير عن عدم الرضا على أفكاره وأطروحاته السياسية، تم نقله عام ١٩٢١م إلى عمان كمندوب سياسي لبريطانيا في شرق الأردن، الذي بقي فيه حتى عام ١٩٢٤م. بعد ذلك ترك فيلبي العمل الحكومي عام ١٩٢٥م والتحق بالملك عبدالعزيز، ليرتبط مصيره منذئذ وحتى وفاته بالمملكة العربية السعودية.

أعلن فيلبي إسلامه عام ١٩٣٠م ولقبه الملك عبدالعزيز باسم " عبدالله " والذي عُرف به لاحقاً. عمل فيلبي خلال حياة الملك عبدالعزيز مستشاراً غير رسمي له لرفضه أن يكون مستشاراً رسمياً ليحتفظ باستقلاله، كما مارس التجارة، والاستشارات التجارية، ولعب دوراً في تقديم شركات التنقيب عن النفط في المملكة.

غادر فيلبي المملكة عام ١٩٥٥م مجبراً بعد خلاف مع الملك سعود على ما كان يكتبه فيلبي عن المملكة في الغرب. تراجع الملك سعود عن قراره فعاد فيلبي إلى الرياض عام ١٩٥٦م متفرغاً للكتابة. وتوفي في بيروت وهو في

سنته الخامسة والسبعين عام ١٩٦٠م.

خلال وجوده في المملكة، قام فيلبي بعدة رحلات إلى مختلف مناطقها، باحثاً ودارساً ومكتشفاً لها. ولعل أشهر رحلاته تلك التي قطع فيها منطقة الربع الخالي وكتب عنها كتاب باسم " الربع الخالي "، ساهم في شهرته العالمية كمكتشف جغرافي ورحالة عالمي. كما إنه كتب عدداً كبيراً من الكتب الأخرى التي تناولت تاريخ الجزيرة العربية في التاريخ القديم والمعاصر، وعن رحلاته وتجاربه. بالإضافة إلى ذلك، كان يكتب باستمرار عن شؤون الجزيرة العربية في الصحف والدوريات الغربية (١).

قام فيلبي برحلة الى الجوف عام ١٩٢٢م، عندما كان في شرق الاردن وكان هدف الرحلة دراسة وضع المنطقة السياسي خلال تلك الفترة بسبب اهتمام الأمير عبدالله بن الحسين أمير شرق الأردن بها. قدم فيلبي تفاصيل رحلته في محاضرة القيت بالنيابة عنه أمام الجمعية الجغرافية الملكية و تم نشرها في دورية الجمعية في أكتوبر ١٩٢٣م وكانت بعنوان "الجوف وشمال الصحراء العربية "(٢). وفيما يلي نص تلك المحاضرة:

" إنه لمن دواعي الغبطة لي، أن ألبي للمرة الثالثة طلب الجمعية الجغرافية الملكية بتقديم ورقة عن تجاربي في الجزيرة العربية. وأسفي الوحيد هو أنني بسبب ضرورة وجودي بالقرب من عملي في الجزء الشمالي الغربي من الجزيرة العربية الكبرى، لم أتمكن من الحضور أمامكم شخصياً لتقديم هذه الورقة.

إن الميجور هولت(٣) الذي قمت برفقته برحلتي التي سأصفها لكم، تعهد بكل محبة أن ينوب عني بقراءة ورقتي، بالإضافة إلى ورقته، التي كما فهمت

ستكون عن الجوانب التقنية لرحلتنا، من وجهة نظر مهندس سكة حديد. ولا أعتقد أن أحداً يبز الميجور هولت في الكلام عن الإمكانات الهندسية للصحراء.

لقد أتى إليّ الميجور هولت، في مقر إقامتي في عمان في الأيام الأولى من عام ١٩٢٢م، بعد أن أمضى عدة سنوات في دراسة إمكانية إقامة سكة حديد الصحراء، أي الخط الممتد من الشرق الى الغرب من شط الفرات عند هيت والرمادي إلى الخط الحديدي الحجازي بالقرب من عمان.

لقد كنت في هذا الوقت أستعد لزيارة واحة الجوف الشهيرة، كجزء من واجباتي السياسية. لقد طرحت فكرة مرافقته (الميجور هولت) لي فقفز فرحاً، لأن ذلك سيمكنه من دراسة إمكانات إقامة خط سكة حديد عبر وادي السرحان. هذا وسيكون من غير المبرر لنا وجود الفرصة لكتابة هذه الورقة لو لم توصلنا " دراساتنا " بعد سلسلة من الإحباطات والمحاولات إلى ما وراء الجوف، عبَر البراري إلى حدود الهلال الخصيب عند كربلاء.

كانت محاولتنا الأولى للوصول إلى الجوف فاشلة. لقد أتى الميجور هولت ومرافقوه إلى عمان بواسطة السيارات من العراق عبر الصحراء من الرمادي مروراً بالأزرق ثم عمان، متبعاً في رحلته علامات المسار الجوي الذي تستخدمه طائرات بريد القاهرة - بغداد. و كان مع الميجور هولت عدد من سيارات فورد المناسبة. قررنا استخدام هذه السيارات للوصول إلى كاف بالقرب من رأس وادي السرحان، على أمل أن نجمع عدداً من الجمال والمرافقين لبقية الرحلة إلى الجوف.

غادرنا عمان في اليوم العاشر من شهر مارس ١٩٢٢م ومعنا ثلاث

سيارات، متوجهين أولاً إلى مخيم مثقال باشا [الفايز] شيخ قبيلة بني صخر، في منطقة محطة زيزيا لخط حديد الحجاز على حدود الصحراء. ووصلنا في اليوم التالي إلى المخيم، الذي يبعد عن عمان ٢٥ ميلاً وعن هدفنا الأول "كاف" ٨٠ ميلاً، وقد كان هناك سيارة أخرى لدى مثقال باشا.

انطلقنا مرة أخرى في صباح الثاني عشر من شهر مارس وكنا مجموعتين. تتكون المجموعة الأولى من السيارات الأربع و قد وصلت إلى كاف في الساعة الرابعة مساء من اليوم الثاني. بينما المجموعة الثانية التي تتكون من خدم مثقال، وكانت تمتطي الإبل، وصلوا إلى كاف بوقت لايقل عن ١٢ ساعة قبل وصولنا، لأنهم كانوا مسافرين خلال الليل والنهار، بينما كان على مجموعتنا أن تخيم خلال الليل وكذلك كنا بدون الميكانيكي البريطاني. لقد أردت أن تكون المجموعة البريطانية أقل ما يمكن. وفي الحقيقة كنا نحن الاثنين فقط. ولتوالى الأحداث، كان لنا نفس التجربة عند العودة فقد وصلت الإبل بعد نصف ساعة من وصولنا إلى المخيم الذي انطلقنا منه بالسيارة بعد مسير ٦ ساعات. إنني أذكر هذا الأمر، لأبرر تفضيلي الشخصي لاستخدام الإبل على السيارة في الصحراء الحقيقية، حيث لا توجد طرق منظمة. بالطبع مع التنظيم المناسب والأخذ بالاعتبار علو التكلفة، تستطيع المواصلات الميكانيكية هزيمة كل شيء آخر، إلا أن عظمة الجمل تكمن في حقيقة أنه لايحتاج إلى تنظيم من أي نوع، كما إن الخطط يمكن تركها لتعتمد على الظروف. فالمرء لا يعوقه شيء على الإطلاق.

إن المنطقة الصحراوية بين خط الحجاز الحديدي ومنخفض وادي السرحان تحتاج لبعض التعليق.

في الأزمان السالفة - خصوصا عندما كانت هذه المنطقة تحت الحكم

الروماني، ومرة أخرى في أيام حكم السلالة الأموية في دمشق - كانت هذه المنطقة مزدهرة أكثر مما هي عليه الآن. فهطول الأمطار كان أكثر في زمن الرومان، كذلك كان خط الأرض المخضرة يمتد إلى الشرق أكثر مما هو موجود الآن. كذلك فإن قصور الصيد التي بناها خلفاء دمشق في المنطقة، لدليل كبير على وفرة حيوانات الصيد. بينما الآن، بالصدفة يمكن مقابلة غزال أو بعض طيور الحبارى، ويعد المسير مسافة يوم في هذه المنطقة.

إن دخول الأسلحة الحديثة، كان لعنة وكارثة حقيقية للجزيرة العربية واستقلال وتفرد حيواناتها. لايوجد قانون هنا لحماية حيوانات وطيور الصحراء. ولايوجد أحد سيحترمه لو وجد هذا القانون. ولكن ماهو أكثر سوءًا أن القانون الاجتماعي العربي للغزو والسلب، لم يُظهر أي علامات حتى الآن للتكيف مع التغير المفاجىء الذي جاء إلى الصحراء بدخول السلاح الحديث. وإذا كانت الضرورة لهذا التكيف لم تُستوعب، فإن المجتمع العربي سيقضي على نفسه في وقت قصير. ربما هنا يجب عليّ توضيح هذه المقولة التعميمية. إن كل داء سينتج دواء. فإذا كان شمال الجزيرة الآن غير آمن- بأوسع معاني الكلمة - غير آمن للمسافر البريء - التاجر - الراعي - إلا أن هناك بعض المؤشرات السارة للتغير في الجنوب. إن ابن سعود قد أوجد دولة على أساس القواعد الدينية مما جعله يملك قوة كافية ليحرم الغزوات القبلية داخل حدوده. هذه الحدود وبالتدريج تمتد الآن باتجاه الشمال وقد تم بالفعل وصول المناطق المتاخمة للعراق وشرق الأردن. إن حياة الآمنين في خطر فقط، في المناطق التي تقع وراء هذه الحدود ولكن ضمن نطاقها فإن من يعيش بها ويعترف بحكم ابن سعود ومن يسافر بإذنه وتحت حمايته فإنه آمن.

إن هدفي الرئيس من القيام بهذه الرحلة، كان معرفة الحالة السياسية في

الجوف على الطبيعة . إن حالة الجوف كانت غامضة إلى أبعد الحدود لذلك فإن من المناسب إعطاء مسح عام للوضع، قبل الاستمرار بوصف تجربتنا .

إن أقدار الجوف تذبذبت وتقلبت بشكل عنيف منذ ستينيات القرن الماضي ، عندما احتل فيصل بن شعلان - وهو الأول من سلالته - الجوف بعد أن استولى عليها من عائلة ابن رشيد . استمر الاحتلال الشعلاني حوالي عشرين سنة ، حتى جاء محمد بن رشيد الذي استرجع الجوف وأعادها إلى امبراطوريته ، التي كانت قبل وفاته عام ١٨٩٧م تشمل فعليا كل وسط الجزيرة العربية . ولكن خليفته عبدالعزيز بن متعب كان غير قادر على الحفاظ على وحدة حدوده ، مقابل القوة النامية لسميه عبدالعزيز آل سعود السلطان الحالي لوسط الجزيرة العربية (سلطان نجد وملحقاتها) . لقد كانت خسارة ابن رشيد في الجنوب متبوعة بخسارته للجوف عام ١٩٠٩م لنواف بن النوري ، سليل فرع من فروع عائلة الشعلان . أما نوري الذي أصبح حاكماً أعلى لقبيلة الرولة بعد قتله أخيه فهد ، فيبدو أنه ترك الجوف وسكاكا ليحكمها ابنه نواف .

لقد حكم نواف كما يبدو مواطنيه ، الذين يمتازون بصعوبة المراس ، بحكمة واعتدال حتى ١٩٢٠م عندما استطاعت حائل إعادة تأكيد سيادتها على الواحات الشمالية . لقد تمكن سعود [بن عبدالعزيز بن متعب الرشيد] حاكم حائل من مهاجمة سكاكا من خلال مؤامرة غادرة قام بها عضو العائلة الرئيسية في البلدة ، حمد بن مويشير . فالحاكم الذي تركه نواف ليدير البلدة قُتل غدراً ، وأرسل خاتمه إلى سعود الرشيد الذي تقدم لاحتلال المنطقة بعد قتال متقطع .

خلال تلك الفترة ، كان ابن سعود يقوم بحملات متقطعة على حائل منذ ١٩١٨م ، كما أن سعوداً نفسه قد قُتل في بداية ١٩٢١م من خلال غدر أحد أقربائه وخلفه عبدالله بن متعب .

شهد صيف ١٩٢١م تكثيف للهجمات على حائل، وأصبحت وظيفة أمير حائل غير مريحة بشكل كبير، مما قاد عبدالله بن متعب إلى التخلي عن وظيفته إلى ابن عمه محمد بن طلال، وقد منحه ابن سعود حق اللجوء إلى الرياض. أُجبر محمد بن طلال بعد ذلك على تسليم حائل و تم أخذه أسيراً إلى الرياض في شهر أغسطس ١٩٢١م. هكذا أضاف ابن سعود إمارة شمر إلى سلطانه، وبالطبع، ليس كل إمارة شمر.

خلال الشهر نفسه، اتجه سلطان بن نواف يساعده ابن عمه مجحم بن شعلان (توفي نواف في سورية خلال الصيف - نفس العام) إلى احتلال الجوف دون أية مقاومة جدية. لقد عوقب حمد بن مويشير على غدره السابق من خلال حرمانه من أراضيه وأملاكه الأخرى. وهكذا مع بداية ١٩٢٢م وبعد عدة تقلبات، ظهر أن الجوف استقرت إلى ولائها السابق لعائلة الشعلان بينما منافسوهم السابقون، عائلة الرشيد انتهى وجودهم.

من منظور عائلة الشعلان، كان هذا هو الوضع، ولكن ابن سعود له موقفه الخاص بشأن هذا الأمر، فهو يعتقد بأنه الوريث الطبيعي لجميع المناطق التي كانت تخضع لابن رشيد. إن من عوامل القوة لرأي ابن سعود هو أنه أولاً يستطيع تحقيق ذلك إذا ما تم تحديه، وثانياً هو حقيقة أن أغلبية الناس بالجوف معه - ربما ليس معه بقدر ماهو موقف ضد الشعلان - غير المؤهلين لحكم الجوف أو أي مكان آخر. وأستطيع أنا والميجور هولت تقديم شهادتنا دعماً للمواطنين سيئي الحظ، سكان هذه المناطق.

بالنسبة لنا، كانت الشائعات تأخذ ألوانًا مختلفة، وبالطبع حسب طبيعة المصادر المختلفة، التي تنطلق منها. ادعت هذه الشائعات أن ابن سعود بشكل أو بآخر قد حكم الجوف ومناطقه المجاورة، وأن مواقف النوري بن شعلان

مازالت مترددة، فهو قد أعطى ولاءه لابن سعود، ولكنه في الوقت نفسه، تحدى من حاول دخول الجوف عنوة. وسط هذه الشائعات، كان الأمر يتطلب أن نعرف حقيقة الوضع، ولكن ذلك لن يكون بدون التحقق شخصياً منه. وكان من الأهمية كذلك، معرفة الحقيقة، لأن شرق الأردن وحاكمه الأمير عبدالله كان مهتما اهتماماً كبيراً في شؤون جاره، وانعكاساتها الممكنة عليهم.

لقد وصلنا إلى قرية كاف، وهي الأكثر أهمية بين مجموعة من القرى تقع في هذا الموقع من وادي السرحان، تُعرف بصيغة جمعية هي قريات الملح. هذا الاسم مشتق من الصناعة الوحيدة في هذه المنطقة، التي هي عبارة عن مجموعة من حفر الملح، تواجد في قاع الوادي، تحت منحدر من البازلت والاحجار الجيرية، التي تفصله عن الأرض الواسعة ذات التلال المغطاة بالحمم البركانية، والممتدة من جبل الدروز في الشمال إلى نقطة تبتعد خمسة كيلو مترات جنوب كاف. هذه الحفر الملحية يستغلها البدو مقابل دفع ماقيمته ٢ مجيدي عن حمل الجمل الواحد لأصحاب هذه الحفر و٢ مجيدي كعائد يُدفع إلى النوري الشعلان صاحب السلطة في هذه القرى. الملح هذا الذي يكلف أربعة مجيديات لحمولة الجمل يباع في أغلب الأحيان في قرى حوران - على بعد ثلاثة او أربعة أيام - بحوالي ٢٠ مجيدي عن كل حمل. يستخلص الملح من خلال عملية تبخير بسيطة، حيث يُحفر سطح الأرض بعمق قدم واحد على شكل دوائر، بعد ذلك يتبخر الماء ببطء، مخلفاً ملحاً أبيض بنوعية معقولة. ثم يُخرج الملح ليجمع فوق بعضه على شكل أكوام صغيرة هرمية الشكل، جاهزة للتحميل. وقد رأيت عدة مرات خلال شهري أغسطس وسبتمبر، عندما كنا في عمان وقمنا بعدة طلعات جوية لنراقب

النشاطات الوهابية، كانت هذه الأكوام الملحية تظهر كالخيام البيضاء ذات العمود الواحد، ومع بعضها تظهر كالمخيم، وفي الحقيقة تقف ببروز حتى إن بقع النخيل وقرية كاف نفسها، يصعب ملاحظتها. بالنسبة للجوانب الأخرى، فكاف التي يمكن اعتبارها أهم هذه القرى، نموذج لها جميعًا، وتحمل جميع السمات الخاصة بنموذج قرية نجدية.

وباتجاه الشمال فإن بلدة معان والمناطق الواقعة جنوبها على خط حديد الحجاز يمكن اعتبارها مناطق حجازية. أما شرق الأردن فله سماته الخاصة مما يجعله مختلفًا عن الجزيرة العربية. فمنطقة شرق الأردن سهل مرتفع وممتد مع أراضٍ واسعة تزرع بها الحبوب وامكانات كبيرة للتطوير في هذا المجال، بالإضافة إلى ذلك، فإن ارتباطه بحيفا ودمشق يضعه في العالم الحديث. كذلك فشرق الأردن لايوجد به نخيل، وحياة القرية به مثل تلك الحياة في قرى فلسطين وسورية. ولكن في كاف والقرى التابعة لها انغمرنا في أعماق الحياة العربية المدنية. فالزائر، وكحق له، يُستقبل حسب قاعدة الضيافة لمدة ثلاثة أيام.

قاعدة الحياة الكريمة هنا، هي البطالة الصرفة التي لا يقطع رتابتها إلا حضور الصلوات الخمس، وزيارة الجيران لشرب القهوة، وحضور جلسات الصباح والمساء في مجلس الحاكم المحلي خارج سور المبنى الذي يشبه قلعة، ويسكن هو في داخله. كثير من سكان كاف والقرى حولها كانوا في السابق من سكان وسط الجزيرة العربية. فالحاكم المحلي في هذا الوقت (وقت زيارتنا) خرج من بريدة قبل أربعين عاماً ليأتي هنا. كذلك القاضي المحلي كان من نفس البلدة حيث غادرها قبل خمسة عشر عامًا ساعياً للراحة بالابتعاد عن سيطرة الوهابية كما أخبرني. ويوجد كثير من الناس هنا جاؤوا من عنيزة ومراكز القصيم

الأخرى. ولكن أحدث الواصلين وهذا ربما تجدر الإشارة اليه، هو وجود عشرة أو اثني عشر شخصًا من المتحمسين الوهابيين، الذين استقروا هنا بهدف نشر الإيمان الحقيقي. ولا يستطيع أحد هنا أن يقول لهم لا. إنهم لم ينجحوا حتى الآن إلا في وقف عادة التدخين. ولكن لا أشك في أن سكان مستوطنات القريات، وفي الوقت المناسب، ومن ذاتهم سيدخلون في العقيدة الصافية، وتكون لهم طريقة حياة. و هذه العقيدة وبفخر هي ما يناسب صفاتهم ويتناسب مع متطلباتهم.

كان استقبالنا من قبل سلطات كاف استقبالاً ودياً رغم أنه استقبال حذر. لقد كان اعتقادنا بأنه من الأفضل أن لا نُعلم أحداً بقدومنا مسبقا، والسيارة التي أرسلناها لتسبقنا لإعلان وصولنا عندما اقتربنا من كاف، كانت على مرأى منا. بكل تأكيد كانت تلك السيارة أول سيارة تدخل هذه الواحة - وكانت أول إشارة للحاكم عن زيارتنا. إن الحاكم الذي يحتفظ بوظيفته بإرادة نوري الشعلان لاشك أنه أرسل من يُخبر سيده بوصولنا، فهو لا يجرؤ على موافقتنا في الشؤون التي طلبنا أن يساعدنا بها. لم يسمح لنا الحاكم بزيارة الحصن الطبيعي الموجود على قمة مغطاة بالحمم البركانية - والمسمى قصر الصعيدي، الذي يشرف على الواحة. يسكن هذا الحصن حامية صغيرة من الحرس تقارب خمسة وعشرين رجلاً مع أسلحتهم. إنه بشكل لافت للنظر، تدبير احتياطي صغير للدفاع عن هذه المحلة. إن كل طريق يؤدي إلى كاف موجه بواسطة هذه الربوة، وجميع الواصلين يُجبرون على التوقف بعد طلقة أو طلقتين من الحامية، ويتحركون وهم تحت رحمتهم حتى يُعرف الغرض من قدومهم. كما إنه لم يُسمح لنا بدخول قصر الحاكم، الذي بُني قبل سنة واحدة عند قاع الهضبة المذكورة سابقًا، ويعرف هذا القصر بقصر نوري. عدا هذه

الأمور فإننا كنا إلى حد معقول أحراراً لزيارة التلال المجاورة، حيث المنظر الجميل للمنطقة البازلتية والحمم البركانية إلى الشرق منها وتم الحصول على صور لها، وسمح لنا بزيارة آبار الماء الوفيرة ذات الطبيعة الكبريتية، التي توفر الماء للسكان وللنخيل. هذه الآبار قريبة من السطح، وري بساتين النخيل هنا أمر سهل.

إن من الأشياء التي أردنا من الحاكم مساعدتنا فيها، هي تزويدنا بجمال ومرافقين لرحلتنا إلى الجوف. وهنا ربما ليس من الضروري رواية التفاصيل التي تدعو للغضب لمفاوضاتنا مع السلطات المحلية، التي انتهت بضيافتنا ثلاثة أيام أكلاً ومقراً بلا مقابل، والفشل الكامل ورجوعنا إلى عمان.

وللحقيقة فقد كان مرافقونا - مثقال باشا، الذي ذكرته سابقا، وحديثة الخريشا وهو شيخ مهم من شيوخ بني صخر، وغالب باشا الجنرال المتفاخر، الذي خدم مع الأتراك في المدينة المنورة خلال الحرب [العالمية الأولى] والذي يعمل الآن عند الأمير عبدالله - لم يكن لديهم رغبة بزيارة الجوف التي عُرف أنها مركز نشاطات ابن سعود العسكرية، وأجهدوا أنفسهم إلى أقصى الحدود لإقناع الحاكم، بعدم إعطائنا أية تسهيلات. وفي الوقت نفسه، كانوا يأتون إلينا بقصص عن مجهوداتهم البطولية، لكسب الحاكم بجانبنا. ولاختصار القصة، فقد فشلت جهودنا وقفلناعائدين إلى عمان في الثامن عشر من شهر مارس ١٩٢٢م، بعد مسيرة ثلاثة أيام.

الحدث الوحيد الذي يستحق الملاحظة هنا، هو لقاؤنا مع رجل معمر من بني صخر، يدعي أن عمره مائة وعشرون عاما، والذي يذكرعندما كان شابًا العمليات التي قام بها إبراهيم باشا في هذه المناطق خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي [التاسع عشر الميلادي]. وبالمناسبة فإنه يقال أن

قرية كاف نفسها دُمرت في هذه العمليات.

إن تجربتنا خلال هذه الزيارة أثارت شهيتنا إلى ماهو أكثر، ولكننا كنا مصرين على السفر مرة أخرى على الجمال، لنكون أحراراً إذا دعت الضرورة لخداع سلطات كاف.

بدأ الحظ يعاملنا بشكل أحسن من السابق، وبرضًا تام. فعند نهاية اليوم الأول من شهر أبريل ١٩٢٢م استلمنا رسائل من ممثلي نوري الشعلان في الجوف - سلطان بن نواف وابن عمه فرحان بن مشهور يعبرون من خلالها عن أسفهم لعدم معرفتهم عن زيارتنا السابقة لكاف مسبقاً، ليتمكنوا من عمل الترتيبات اللازمة لإكمال رحلتنا، وتعبر هذه الرسائل عن أملهم بزيارتنا لهم في أقرب وقت.

لقد كنا في غير حاجة لدعوة ثانية، فكل شيء كان جاهزاً، الجمال والمرافقون، وفي اليوم الثاني من شهر مايو ١٩٢٢م اجتمعنا في خيمة مثقال باشا في المنشية قريباً من خط سكة الحديد. وفي اليوم التالي وصلنا مخيم حديثة الخريشا قريباً من الآثار الرومانية في الموقر على مسافة حوالي ٢١ ميلاً من عمان. هنا تم لقاؤنا برسل من كاف، جاؤوا ليرحبوا بنا، ولمساعدتنا بكل الوسائل.

انطلقنا صباح اليوم الرابع من شهر مايو بكل قوة باتجاه العلامة البارزة لقصر الخرانة وهو نموذج لقصور الصيد الأموية. في مساء ذلك اليوم وجدنا أنفسنا نخيم في شعيب شنماري الذي هو عبارة عن قناة تصريف قليلة العمق تتجه شرقاً من مجمع أمطار الموقر باتجاه وادي السرحان. في اليوم التالي وصلنا إلى آبار العمري عند الحد الشرقي لمنخفض وادي السرحان، حيث

قضينا الليلة مع فرع من فروع قبيلة الرولة. في اليوم السادس من شهر مايو رأينا كاف مرة أخرى وتم استقبالنا استقبالاً حاراً من قبل ما لا يقل عن ٦ أشخاص من أعضاء عائلة نوري الشعلان. أهمُّ هؤلاء، كان مجحم الشعلان وفرحان بن مشهور وفراج بن شعلان.

لقد أكلنا كأمر طبيعي مع مضيفينا في فناء قصر النوري، ويجب ملاحظة أننا الآن في شهر رمضان مما جعلنا نقتات على قليل من الطعام خلال النهار رغم أن الضيف المسافر في نجد لا يُسمح له أن يشعر بأن مضيفيه صائمون بسبب مايلقاه من معاملة (بمعنى أنهم يقومون بواجبهم كاملاً حتى ولو كانوا صائمين).

إن هذا الأمر ليس هو الأمر الوحيد الذي خيبنا في مضيفينا. فمن هذه اللحظة وصاعداً، و رغم أنه يمكننا الآن النظر إلى الوراء مع قناعة بالإنجاز الناجح لرحلتنا وتحقيقنا لأهدافنا الرئيسية، وبأكثر من توقعاتنا المعقولة، فإن قصة تعاملنا مع أفراد عائلة الشعلان كانت قصة مشاحنات وخيبات أمل، وشجار ورشوة، وتوبيخات ومداهنات وخداع.

بدون أي خجل أو رياء يمكننا الاعتراف بفرحتنا عندما علمنا أنه خلال شهر من مغادرتنا الجوف، تم سقوط هذه العائلة على يد ابن سعود. لقد كانوا كحكام ممقوتين من شعبهم الذي عاملوه بقسوة وغطرسة. ومن خلال تجربتنا الشخصية نستطيع إثبات عدم كفاءتهم حتى لتصنيفهم ضمن العرب. وهم كأمراء للأراضي الحدودية للجزيرة العربية، تاجروا لفترات طويلة مع سورية وشربوا كثيرا من نهر الذهب الذي سكبناه خلال الحرب للاحتفاظ بالفضائل البدوية التي هم وارثوها بالدم.

الأخبار من منطقة الجوف التي حصلنا عليها من مضيفينا بعيدة عن التأكيد أو الاطمئنان منها. حمد بن مويشير الذي ورد ذكره تم العفو عنه وأعيدت إليه ممتلكاته. ويعكس هذا الفعل الموقف الضعيف لابن شعلان وسيؤدي بالتالي إلى خرابهم. إن حمداً الذي احتفظ بشعور الاستياء والغضب بدلاً من الشعور بالتقدير لمعاملته اللينة، لم يضيع أي وقت في إثارة الغضب مرة أخرى. فقد تهرب من تنفيذ أمر للنوري بنزع سلاح الناس في سكاكا والجوف، وتم اتهامه بأنه أخفى مخزوناً كبيراً من الأسلحة والذخيرة تحت أرض منزله. لقد طُلب منه تسليم أسلحته وأن يخضع للعقاب ولكنه رفع مستوى التمرد باسم ابن سعود والعقيدة الوهابية، وأغلق على نفسه والتابعين له جدران بساتينه وقلعته في غرب واحة سكاكا. هذا الأمر، حصل بالفعل قبل عشرة أيام من وصولنا إلى كاف. أما سلطان بن نواف الذي احتل القرى الشرقية من الواحة فسيحاصر المتمردين حتى يتم إخضاعهم. أما الجوف نفسها فقد كانت موالية له ويحكمها مملوك لسلطان، اسمه دوجان، والأهالي فيها يترقبون نتيجة الأحداث. سارع كل من مجحم وفرحان لملاقاتنا، وكان باعتقادهم انهم سيحصلون على مساعدتنا في سبيل قضية ابن شعلان. لقد كان مجحم وتابعوه دائما يفكرون بما مضى، يفكرون بأيام الحرب العالمية الأولى أكثر من المستقبل والمصير الذي ينتظرهم. كما إنهم كانوا يتخيلون أننا قادمون لنبذر صحراءهم بالذهب، ولنضع مصادر الامبراطورية البريطانية تحت تصرفهم. لقد وافقوا على أخذنا إلى الجوف بشرط أن نرسل طائرات وسيارات مسلحة لدعم البعثة. وأكدنا لهم أننا لا نستطيع بأي من الأحوال أن نبدأ عملاً عسكرياً حتى نتحقق ونختبر الحالة في الجوف على الطبيعة ونقنع أنفسنا بصلاحية الطرق التي سنعبرها للمواصلات الميكانيكية، وأننا توافقون

لاختبار إمكانات إنشاء خط حديدي في منطقتهم وأن الخبير المهندس هو ضمن فريقنا. كان مجحم الشعلان، أرفع أعضاء العائلة الموجودين ، حاضراً رغم أن فرحان كان في الواقع هو الشخص المسمى من قبل النوري لهذه المهمة. مع أي منهما لو كان وحيداً كان يمكن أن نكون قادرين على عمل صفقة من خلال الرشوة أو على الأقل نستخدم واحداً ضد الآخر بثمن هو عبارة عن وعد مكتوب بأنه شخصيًا سينال نصيباً من المعونة الكبيرة التي يتخيلون أن حكومة صاحبة الجلالة ستمنحها إياهم جماعيًا وبشكل دائم. ولكن المناقشات وصلت إلى مأزق وجميع الأمر تم تحويله إلى النوري ليأمر بما يراه. وكان مخيماً على مسافة مسير يومين، باتجاه الشمال في تخوم سورية.

لقد صبرنا برباطة جأش، خلال الأربعة أيام التي غابها مجحم، الذي شرفنا بحمله رسالتنا إلى النوري بنفسه. عاد مجحم إلينا حاملاً موافقة النوري على ذهابنا إلى الجوف ومع رسالة تفويض لمجحم بالاستمرار بمفاوضتنا بدلاً من فرحان. لقد سعدت بالسخرية مى فرحان لفشله بالحصول على دعمنا وخسارته لوظيفته، ولكن للاعتقاد بأنه يمكن أن يكون مفيداً لنا أكثر من مجحم، وعدته بأن أجعل الوضع يكون لمصلحته إذا كان يريد مرافقتنا للجوف، ويخدمنا بدون خداع، وهذا ما تم ترتيبه وكل واحد منا كان بمزاج حسن.

وفي مساء اليوم الثالث عشر من شهر مايو غادرنا كاف لنقضي يوماً في مخيم مجحم في قرية منوة، التي تقع على بعد ٦ أميال، و بالقرب من القرية الثانية من حيث الحجم، ضمن مستوطنات القريات، أي إثرة. هنا وفي سهل كبير رأينا مئات بيوت الشعر السوداء للرولة، وكذلك بيوت الشعر البنية اللون الخاصة بالشرارات وهم قبيلة كبيرة ومعروفة ولكن مكانتها أقل في مقياس

المجتمع البدوي.

هنا أيضاً شاهدنا آلافاً من إبل الرولة عند عين الماء في منوة، حيث قضينا جميع اليوم الرابع عشر من شهر مايو في رحلة قصيرة إلى فوهة بركانية في جبل مقال باتجاه الشمال، التي من قمتها استطعنا مشاهدة منظر رائع لمنطقة الحمم البركانية من حولنا.

لقد تناولنا الغداء في قرية إثرة في طريق عودتنا من رحلتنا، وهناك رأينا بقايا مبنى من حجر البازلت عليه نقوش وأرقام بارزة ولكنها غير واضحة بشكل جيد. كما رأينا بعض المستوطنات الصغيرة في الجوار، هي مستوطنات الوشواش وقرقر. إن سمات جميع هذه القرى، هي بساتين النخيل، البيوت الطينية المتهدمة، وفرة الملح والماء الكبريتي. ماء إثرة بشكل خاص وافر ويوجد من خلال ينابيع.

لقد تحددت بداية انطلاقتنا إلى الجوف في يوم ١٥ مايو ولكن كان علينا المرور بتجربة جديدة تعبر لنا عن حقيقة مضيفينا.

في الليلة السابقة أي ليلة ١٤ مايو بينما كنا نستعد للنوم للانطلاقة المبكرة في الغد، ظهر مجحم مع كاتبه وأخرج نسخة "لاتفاقية"، شرحها لنا وطلب توقيعها إذا أردنا المغادرة. وبما أن النقاش سيقود فقط للتأخير وبما أنني أعرف بشكل مؤكد أن "اتفاقية منوة"، التي لا أرى الكشف عن بنودها ضروري، سوف لن تُرضي الحكومة الملكية البريطانية. لم أكن مع ذلك في المزاج أو الموقف الذي يراعي تفاصيل الإجراء الدبلوماسي فوقعت على هذه الاتفاقية. وكان من حسن الحظ توقيعها كما سيتبين. رفضت الحكومة البريطانية الاعتراف بها، بل وأنكرتها كما ينبغي، ولكن ذلك تم بعد أن انتهى بيت

الشعلان كقوة مستقلة. أما نحن فقد حققنا بسببها زيارة الجوف بدون أن ندفع رشاوي، بل حفظتنا من ألم وجودنا في وسط معركة منوة، التي وقعت خلال ٣٦ ساعة من توقيع الاتفاقية. في هذه المعركة أحسن مجحم وعائلته معاملة الضيوف الجدد بالتصرف الشجاع في أرض المعركة ضد الوهابيين، الذين وقعوا عليهم بدون سابق علم صباح السادس عشر من شهر مايو. لقد هزموا الوهابيين هزيمة كبيرة وتم القبض على قائدهم ومن كان معه.

في صباح يوم ١٥ من مايو، تم استبدال فرحان، الذي كان مفترضًا أن يرافقنا بفراج الذي كانت لديه تعليمات مبطنة لأخذنا إلى الجوف وإرجاعنا إلى مجحم بدون تأخير. انطلقنا إلى الجوف متبعين طريقاً يقع باتجاه الجنوب عبر منطقة وعرة في أرض القريات. قادنا هذا الطريق إلى عبور شعيب "عقيق الملح" ومنه إلى منخفض وادي السرحان مرة أخرى، فاتجهنا جنوباً وجنوب غرب إلى آبار وبيوت ومزارع غطي المتهدمة حيث يوجد مخيم كبير للشرارات. تعالت بعض أصوات مرافقينا بطلب قضاء الليلة هنا، بينما كنا نحن نصر على الاستمرار في مسيرتنا حتى الوصول إلى ماء البيضاء على بعد ١٠ - ١٢ ميلاً بخط مستقيم.

لحسن الحظ، لم ينتصر أي من الرأيين. لقد كان قادتنا متلهفين وبعصبية للمسير بسبب تقارير غامضة عن النشاطات الوهابية في المنطقة، وفي الأخير اتفقوا على الاتجاه شرقاً إلى آبار قراقر وهي موضع مهجور في نطاق المنطقة التلالية إلى الشرق من وادي السرحان، حيث قضينا الليلة هناك. في تلك الليلة، خيمت قوة كبيرة من الوهابيين عند ماء البيضاء. في اليوم التالي وعند شروق الشمس أبادوا الشرارات في مخيم غطي، ثم اتجهوا إلى منوة حيث تمت هزيمتهم في معركة منوة بواسطة مجحم ورجاله.

وهكذا من خلال سلسلة من صدف الحظ تجنبنا عدداً من الكوارث. استمرت مسيرتنا إلى الجوف ونحن لحسن الحظ جاهلون بالمصائب التي حصلت وراءنا، ولم نتمكن من معرفة الأخبار إلا بعد وصولنا بسلام إلى الجوف.

لقد جاء الوهابيون من أعماق وسط الجزيرة على بعد ٧٠٠ أو ٨٠٠ ميل حيث التفوا من خلال الجناح أو الجانب الغربي للنفود الكبير. بينما يستحيل القول: ماهو الرقم الحقيقي لهذه القوة ؟- ربما ٥٠٠ أو ٦٠٠ رجل في مجملهم - مايقارب ٢٠٠ منهم هلكوا في منوة ومصير المتبقين غير معروف، إنه لمثير حقاً عدم رؤيتنا أي إشارة لتراجعهم في طريقنا مما يعني أنهم كانوا يسيرون أسرع منا. وأيضًا ليس من المستبعد أن تكون أغلبيتهم قد ضلت الطريق فهلكوا من العطش. إن هذا الحدث كان الإنذار الأول لنا باقتراب التهديد الوهابي لحدود شرق الأردن.

كان هدفنا عندما غادرنا منوة، المسير إلى أبعد مكان ممكناً في منخفض وادي السرحان، بقصد اكتشاف خط مناسب لسكة حديد أو تطوير طريق في حالة الحاجة. ولكن خوف مرافقينا، أخرجنا من الوادي إلى منطقة كثيرة التلال في الشرق. وعند قراقر ورغم أننا بالفعل سرنا مايقارب ٢١ ميلاً إلا أننا لم نكن قد ابتعدنا عن منوة لأكثر من ١١ إلى ١٢ ميلاً في خط مستقيم. في صباح اليوم التالي أصررنا على الرجوع إلى الوادي، ولكن لاشيء كان يمكنه أن يقنع مرافقينا بالموافقة على ذلك. لذلك فقد وجب أن نقنع أنفسنا بالنتيجة السلبية وهي أن المنطقة التي سرنا بها وهي تقارب ٣٠ ميلاً خلال النهار مجردة من أي إمكانية لسكة حديد أو طريق بري. فالروابي والتلال البازلتية تتتابع وراء بعضها الآخر بانتظام غريب. قضينا تلك الليلة بالقرب من قمة بركانية

تدعي "بريك" ومن قمتها تمتعنا بمشهد رائع للمنطقة. ليس ببعيد عن هذه النقطة وباتجاه الجنوب تنتهي منطقة الحمم البركانية. وخلال مسيرنا في اليوم التالي كان المستنقع الملحي لنقرة حضوضى الواسع والباهر إلى يميننا في الوادي. ووصلنا بعد حوالي ١٥ عشر ميلاً لنستقي عند آبار كثيرة ومتفرقة حول حوض واسع من الحجر الجيري هذه الآبار هي آبار "معاصر"، التي يوجد بها الماء عند مستوى سطح الأرض في شقوق الصخر. أما المستنقع الملحي الواقع في مستوى أخفض من الحوض فيمتد عدة أميال شمالاً وجنوباً، وهو نوع من المستنقعات تبرز في وسط طبقة بازلتية تجعلها كالجزيرة التي لايمكن الوصول إليها. مما جعل الخيال العربي يعتقد أنها تحتوي على كنز ثمين. والمحاولات للوصول إليه كانت سبباً لعدة حالات موت في ذلك المستنقع النادر.

كان هدفنا الثاني هو الوصول إلى ماء النبك أبوقصر والمسمى بهذا الاسم لوجود بقايا حصن مبنى بالطين والذي يمكن رؤيته حتى الآن عند حد حوض دائري في نطاقه عدد من الآبار ذات عمق ١٨ قدماً. المسافة بين معاصر والنبك ابو قصر كانت تقارب ٣٥ ميلاً عبرناها فوق سهل من الحجر الجيري، سطحه على درجة جيدة من الصلابة، وفيه رأينا مسارات النعام، التي لسوء الحظ لم نر هذه المخلوقات (عدا بعض منها شاهدناه بالجوف وهي أسيرة) في البرية خلال جميع رحلتنا.

يقع نبك ابو قصر على طرف وادي السرحان، الذي يحتوي على عدد كبير من أماكن الماء في هذا القسم منه. تقدمنا باتجاه الضفة الشرقية من هذا المنخفض عبر الكثبان الرملية التي كما يظهر تمتد على طول الطريق عبر الوادي. بعد أن تم عبورنا هذه الكثبان وصلنا في ليلة الثامن عشر من شهر مايو

إلى "وادي معارك"، وهو رافد من روافد وادي السرحان يأتي من المنطقة المرتفعة الواقعة إلى الشرق. في اليوم التالي سرنا باتجاه الشرق بعيداً عن منخفض وادي السرحان صاعدين في نطاق من الأرض المرتفعة حيث واجهتنا مغامرة بسيطة. فبينما كنا عند تلة واقعة في طريقنا لاحظ قادتنا ثلاثة من راكبي الجمال فطاردوهم. فر هؤلاء الثلاثة بالحال وجروا بسرعة وهربوا بأمان. إن كل إنسان يرى في الصحراء يُعد عدواً. والفريق الضعيف يتوجب عليه العمل بأقصى قدرته للهروب إذا أراد تجنب الموت.

وصلنا قوساً مرتفعاً من الأرض في آخر المساء ونظرنا عبر السهل الواسع تحتنا إلى الرمال الحمراء الذهبية لشمال النفود الكبير، عاكسة لأشعة غروب الشمس خلفنا. لمائة ميل أو أكثر تمتد هذه الكتل الرملية باتجاه الجنوب إلى الحافة الشمالية إلى منطقة شمر، التي حدودها الجنوبية تقع عند "قصيباء" التي وصلتها عام ١٩١٨م. أما في السهل الذي أمامنا حيث تبرز للسطح الحجارة الرملية من تحت الاحجار الكلسية للمنطقة التي خلفناها وراءنا، فيقع المنخفض الواسع للجوبة ومستوطناتها المزدهرة، الجوف وسكاكا والقرى التابعة لهما. ولكن وبما أننا كنا متأخرين الآن كان علينا أن نتخلى عن مخططنا بدخول الجوف وتأجيله حتى الغد، لذلك أقمنا مخيمنا عند حافة السهل.

إن منخفض الجوبة [الجوف]، الذي يقال أنه بحر قديم، أو خليج محاط بالصخور الكلسية، ماهو، كما يظهر لي، إلا جزء من أرض غمرتها من الشمال مياه البحر في العصر الطباشيري. فالصخور الرملية لهذه البقعة، مثلها مثل البتراء والمناطق المجاورة لتلال تبوك توجد تحت الصخور الكلسية. أما سبب وقوع هذا المنخفض في مستوى أكثر انخفاضاً من مستوى الأحجار الكلسية الطباشيرية، كما يبدو، ونظراً لأن الصخور الرملية تهرأت مع الزمن

بسرعة لتعرضها لعوامل الجو أكثر من طبقة الصوان (حجر الصوان) في منطقة الصخور الكلسية. أما وادي السرحان فرغم أنه يظهر على الخارطة مرتبطًا بمنخفض الجوبة إلا إنه وبوضوح لايوجد ارتباط جيولوجي معه. فالمستحثات أو مستحاثات (بقايا حيوانات أو نباتات من عصور سابقة متحجرة) التي أحضرتها إلى الوطن من هذه المنطقة، تشير إلى أن الضفة الغربية للوادي بليوسينية (متعلقة بالعصر القريب) أما الوسط والحافة الشرقية فهي من العصر الفجري. إن منطقة غرب الصحراء وشمال خط عرض البتراء - الجوف تعود إلى العصر الطباشيري بينما شرق البقعة البركانية فإنه من المحتمل أن تكون ذات أصل أحدث بالمقارنة، لأنها تقع على صخور تشبه الصخور الفجرية للوادي. جنوب النفود الشمالي والكبير ومنطقة شمر بجبالها الجرانيتية أو الصوانية نصل إلى الطبقات الجورسية لنجد. الصخور الرملية لمنطقة الجوف - تبوك البتراء من المحتمل على هذا الأساس أن تكون طباشيرية مبكرة أو بكل الأحوال متوسطة بين الصخور الكلسية الطباشيرية والجورسية.

ولكنني آسف، لأن كل جهودي للحصول على بقايا لحيوانات أو نباتات متحجرة في منطقة الصخور الرملية كانت دون جدوى.

استيقظنا صباح يوم العشرين من شهر مايو مبكراً للمسير إلى الجوف التي تبعد عنا ٢٠ ميلاً.

كان تمرد ابن مويشير قد بدأ قبل ثلاثة أسابيع، وأي شيء كان يمكن حصوله في الفترة الفاصلة، لذلك أخذنا احتياطاتنا بإرسال رسل خلال الليل لاستكشاف الأرض. لقد قابلونا قبل عدة أميال من وصولنا إلى الواحة ومعهم الأخبار بأن كل شيء مازال جيداً، رغم أن المتمردين اليائسين من الاحتفاظ بسكاكا لوقت غير محدود، أرسلوا وفداً إلى ابن سعود لطلب

مساعدته. أما الجوف فمازالت موالية منتظرة نتيجة تمرد سكاكا.

خلال وقت قصير، كنا على حافة المنخفض، متحدرين إليها عبر طريق وعر. الجوف نفسها لا ترى من هنا ولكن وخلال لحظات أتينا إلى سور البلدة القديم المبنى بالحجر، وكان في السابق يحيط الواحة كلها، ولكنه الآن موجود على شكل قطع جدارية. وفي الحال كنا نشق طريقنا عبر الأزقة المتعرجة ووسط حقول النخيل مع وجود مجموعات من المساكن المتهدمة وحقول النخيل المهجورة والتي أشار إليها فراج بفخر بأن ذلك كان نتيجة للعمليات التي قادت لاحتلال الشعلان للجوف عام ١٩٠٨/ ١٩٠٩م. خطوات عديدة أوصلتنا إلى وسط الواحة حيث كنا سريعًا نترجل عن رواحلنا امام اسوار الحصن القديم الرائع، قصر مارد. وفي الحي الواقع أسفل هذا القصر أعطانا دوجان الحاكم المملوك غرفاً للسكن بها. كان دوجان واحداً من الشخصيات الأكثر جاذبية، التي قابلتها في البلاد العربية، فقد كان متديناً بعمق مع نزعة للمبادىء الوهابية، وأميناً في خدمته لعائلة الشعلان. كما إنه كان متساهلاً مع الذين يعملون معه وبشكل فائق للعادة، صريحًا في نقده للسياسة غير الحكيمة، والمؤدية بسرعة للنهاية السياسية للشعلان. كما إنه أثار اهتمامي بجانبين، الأول بأنه واحد من العرب القلائل الذين أعرفهم وكان من الصعب إقناعه بقبول هدية نقدية مقابل ضيافته. ولكنه في الليلة التي سبقت مغادرتنا لسكاكا أتى إليّ بالسؤال عن قوة بودرة الزرنيخ، التي رآها معي حيث كنت أستخدمها في عملية حفظ الطيور من التحلل بعد صيدها، لأخذها للدراسة في الغرب. كان سؤاله عن الكمية الكافية لقتل رجل؟ لقد أجبته على سؤاله بأحسن ما أستطيع ولكن كان عليّ أن أرفض طلبه بشكل قاطع ومتسائلاً عمن هم الذين كان سيستخدمه معهم لو كنت أكثر تساهلاً.

لقد استمرت اقامتنا في الجوف ثلاثة أيام والتي خلالها كان لدينا فرص كافية لرؤية كل شيء يمكن رؤيته، ولكن هذه المحلة قيل عنها الكثير في السابق فقد تحدث عنها الرحالة الذين سبقوني . - بلغريف - ليدي آن وزوجها ويلفرد بلنت - غوارماني، ايلمر و بتلر، وشكسبير، وغيرهم لذلك لا يحتاج الأمر لوصف تفصيلي من قبلي، ولكن بعض الصور للواحة وماتحتويه ستكفي . ولكنني احتاج فقط لذكر قلعة قصر مارد العظيمة، التي تعود إلى القرون الوسطى والمبني على هضبة عالية مع أبراجها المبنية حديثا بالطين مكان الأبراج الحجرية السابقة، وكذلك عيون الماء الغزيرة، التي توفر الجداول الجارية لري الواحة، وكذلك آثار الحي الأوسط للسوق، وسوق الحطاب الذي يظهر أنه يعود إلى عهد مارد نفسها . المنازل مبنية بقطع من الحجارة بدون لصاق . وأنواع الرخام الأحمر وافر في المنطقة ومنه يصعنون الهاون (النجر) . لايوجد بلدة بالمعنى الدقيق ولكن السكان الذين يبلغون ٥٠٠٠ نسمة موزعون على عدد من الأحياء تفوق الاثني عشر حياً . القلعة القديمة، التي تقع في النهاية الشرقية للواحة بنيت وسكنت من قبل حكام الرشيد، توجد بقاياها مكومة على بعضها البعض . والوضع العام لكل المكان في حالة وهن واختلال .

عند وصولنا إلى الجوف، استلمنا دعوة من سلطان الشعلان لزيارته في سكاكا مما جعلنا نعتقد بأن كل الصعوبات والمشاكل انتهت، ولكن كان علينا الحساب لفراج فخلال الرحلة لم يتردد في عدم تنفيذ ما وعدنا به قبل الرحلة، بل وشجع التابعين له لفعل الشيء نفسه، ولكن بدون نجاح . لقد بدأ فراج يلعب أوراقه بقوة الآن . لقد كنا تواقين إلى زيارة سكاكا، وبما أننا نعرف أنه لن يُسمح لنا بالعودة عن طريق منخفض وادي السرحان لمخاطره الحقيقة، أو

المتخيلة، بدأنا نفكر بخيار العودة عن طريق العراق. من خلال هذا الطريق، غير المباشر، يظهر أننا سنصيد عصفورين بحجر واحد. فأولاً الطريق آمن، وثانياً سيستطيع الميجور هولت اغتنام الفرصة لإنهاء استطلاعه لإمكانية إقامة خط سكة حديد. قدم فراج لنا بعض الآمال بمساعدتنا في هذا المشروع (السفر عن طريق العراق) مقابل مكافأة. ولأختصر القصة سألني فراج عما سأدفعه بصراحة، وأجبته بصراحة ايضاً ١٠٠ جنيه عند الوصول إلى النجف أو كربلاء، ولكنه أصر على أكثر، فرفضت. كما إن دوجان أصر على أنه ينبغي السماح لنا بزيارة سلطان في سكاكا.

في صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر مايو، بدأنا رحلتنا إلى سكاكا وفراج ومرافقوه معنا، ولكن كمتابعين أكثر مما هم مرافقون. وكانوا يطلقون التهديدات بالانتقام، فقد همس بقوله: "اذهب إلى بغداد وحدك وعلى مسؤوليتك ولكن من يذهب بدون إذن سماح له فسأحرض عليه جميع الرولة، إنني مكلف من مججحم بان أدعك ترى الجوف، وأن أعود بك مباشرة، لذلك عندك يوم واحد في سكاكا وسترجعون جميعاً معي". إن أسلوبه الحاقد دفعنا إلى الحيلة والخداع. لقد عنفته على هذه المعاملة للضيوف، وأعلمته أننا متحررون من التزامنا معه وسنضع أنفسنا بين يدي سلطان في أول لحظة نصل بها إلى سكاكا، وعندها لن نحتاج إلى خدماته.

مسيرتنا إلى سكاكا كانت بمحاذاة امتداد سلسلة من الجبال ذات الحجر الرملي، مع كتل من الرمال عن يميننا حتى وصلنا إلى واحة قارا، بعد أن عبرنا بقعة من الصخور الرملية الكثيفة التي تغير لونها لتصبح سوداء. قارا واحة مستطيلة تقع في منبسط طيني، سرنا عليه بعيداً عن الواحة التي كنا غير متأكدين من حالتها. عندما كنا على وشك الابتعاد عنها، أصابنا الرعب فلقد

أطلقت بندقية طلقة نحونا. وبما أنه لا يوجد أي غطاء من أي نوع اندفعنا إلى الأمام. لم تُعَد الطلقة وبقينا نحن كما ينبغي، حتى وصلنا إلى كثبان الرمال المتكتلة الواقعة بين قارا وسكاكا. طريقنا العادي كان سيكون على امتداد السهل إلى الواحة الصغيرة المسماة الطوير ومنها إلى الطرف الغربي لسكاكا. وبما أن المناطق التي يسيطر عليها المتمردون تقع في هذا الجزء من الواحة، لذا فضلنا أن نتوجه مباشرة إلى الطرف الشرقي عبر هذه التلال الرملية.

خلف هذه البقعة الرملية دخلنا إلى سهل منبسط كبير فبدت الواحة وبكامل طولها أمامنا. وبينما نحن نتقدم أحسسنا بوجود مجموعة من الفرسان يعدون بسرعة نحونا. أعطيت الأمر بتجهيز البنادق، وتقدمنا حتى وصلنا إلى الفرسان الذين أطلقوا طلقة ترحيب بعد أن تأكدوا منا، ورددنا التحية بنفس الطريقة. دخلنا الطرف الشرقي لسكاكا خلال نصف ساعة، واتجهنا بجمالنا إلى أمام الباب لمنزل عادي اتخذه سلطان وأتباعه المقربون مقراً لإدارة حصار المتمردين، أما القلعة في آخر الواحة، فكان بها حامية من العبيد.

عندما دخلنا مكان القهوة، تعارفنا مع سلطان، الذي هو مجرد طفل ربما يبلغ من العمر ١٤ سنة، ولكنه كان وبوضوح قد اتقن دوره كحاكم وقائد للقوات. أعطانا سلطان وابن عمه بندر انطباعاً أفضل من ذلك الذي أخذناه عن أي من أعضاء أسرة الشعلان الآخرين الذين قابلناهم حتى الآن، ولكن إدارة الحصار كانت مهزلة يرثى لها. كان عدد المحاصرين ٧٥ رجلاً كما أُخبرنا، بينما السكان يصلون إلى ثمانية آلاف نسمة، ولكن سلطاناً لا يستطيع الاعتماد بشكل كامل إلا على الحامية الصغيرة من العبيد، الذين في الحصن، وبعض المرتزقة، بينما باقي السكان كانوا مصدراً لقلق دائم لأنهم سيغيرون ولاءهم الأسمي عند أول إشارة تفيد بوصول مساعدة من ابن سعود

للمتمردين. وبانتظار وصول أخبار مؤكدة من نجد فإنهم محافظون على نوع من الولاء والحماس الاسمي لسلطان وذلك مقابل البنادق والذخيرة، التي ربما وفي أي لحظة ترتد عليه - مما يؤكد أن سلطاناً يلعب بالنار. نحن الآن في رمضان، و كان هناك نوع من التفاهم غير المعلن بين المتحاربين بحصر القتال في فترة الليل، عندما لا يميزون بين صديق وعدو، ولا يستطيعون رؤية بعضهم البعض. يقع أحياناً بعض الضحايا فخلال إقامتنا ربما قُتل اثنان أو ثلاثة من بين المحاصرين. في كل مناسبة من هذه المناسبات يقوم الجيش الموالي لسلطان، الذي يقدر عدده بـ ٢٠٠ أو ٣٠٠ رجل، بالاستعراض أمام مقر سلطان لإبهاجه برقصة حرب مع ألحان عسكرية لعدد من الطبول، وعلى شكل حلقات يلوح الراقصون ببنادقهم المعبأة بالرصاص ومسدساتهم وسيوفهم ويطلقون النار بدون تفكير بالاتجاه أو التكلفة كما ترفع رايات سكاكا ورايات الوهابيين بدون تمييز. كانت تجري هذه الاستعراضات عدة مرات، نهاراً وليلاً خلال أيام زيارتنا وكان من المفترض أن نحضر هذه الاحتفالات والتمتع بذلك الضجيج. هذه الاستعراضات كان يمكن أن تكون مسلية لو كانت الذخيرة المستخدمة بدون رصاص ولكن إطلاق الرصاص بشكل عشوائي، غالبًا وعلى مسافة قليلة من أقدام المتفرجين جعل هذه المشاهد خطيرة. ومن الأعاجيب بالنسبة لي عدم وقوع أية حادثة.

لقد رأينا مافيه الكفاية من سكاكا بعد يوم أو يومين، ولكن فراجاً كان عقبة للتقدم شرقًا نحو الهلال الخصيب، الذي كنا مصرين عليه مهما كلفنا ذلك. كان سلطان راغبًا بتسوية الأمر، ولكن فراجاً أخبره بأن النوري بوضوح حرم هذه المغامرة، ولم يكن سلطان قوياً للدرجة التي يأخذ بها زمام الأمور بيديه.

في الليلة الثالثة لإقامتنا، وصلنا إلى تسوية تقضي بأن يؤخذ الأمر إلى

النوري لحسمه وإصدار أوامره. كان النوري في حينه مخيماً على مسافة رحلة ٦ أيام واستعد فراج أن ينقل الرسالة بنفسه، وأن يعود في ثمانية أيام، وكان علينا الانتظار حتى عودته. وحسب التفاهم فإننا أحرار بعد هذه المدة لننطلق بدون ضجة إذا لم يعد فراج برد النوري خلال هذه الأيام.

كان علينا أن نكون قانعين بهذه الترتيبات وسعداء بالتخلص من فراج وقد عملنا إقصى مايمكن لاستغلال الوقت. استطعنا رؤية الواحة ومحيطها القريب وكنا آملين معظم الوقت أن لا تصل قوات ابن سعود لتقوية المتمردين قبل مغادرتنا. وقد كنا مقتنعين بأن فراجاً لايستطيع أن يصل برد النوري في الوقت المحدد. وقد تأكد هذا الاقتناع لاحقاً - ومن المحتمل عدم وجود الرغبة عنده بالعودة.

بلدة سكاكا مثلها مثل بلدة الجوف ليست بلدة واحدة بل تتكون من منطقة كبيرة لحقول النخيل موزعة هنا وهناك، على قرى أو أحياء جميلة. وكل قرية أو حي مسكون بواحدة من العائلات أو من وحدات عائلية مختلفة تشكل مجموع السكان، الذي يبلغ ثمانية آلاف نسمة. لقد حلت سكاكا محل الجوف كعاصمة سياسية وتجارية لمنطقة الجوبة. ويظهر أنها على اتصال تجاري متواصل مع منطقة الهلال الخصيب، التي تستورد منها معظم حاجياتها من السلع، كالرز والقهوة والشاي والسكر، والتي تشكل السلع الاساسية للاستيراد. إن الواحة وبشكل رائع واقعة في نطاق مايشبه الدائرة، لمرتفعات من الصخور الرملية الضخمة. على إحدى هذه المرتفعات، وبالقرب من الواحة ومنفصلة عن السلسلة الأساسية تقف قلعة زعبل القديمة، التي تذكر الواحد بقلاع العصور الوسطى الجاثمة على الهضاب بموازاة نهر الراين. لم نكن قادرين على زيارة هذه القلعة أو الاقتراب منها، لأن سكان تلك المنطقة

مشكوك بولائهم. في واحدة من المناسبات بينما كنا نجول حول تلة تشرف عليها القلعة تم إنذارنا بأن لا نجرب الاقتراب منها.

إن إقامتنا المفروضة في سكاكا استمرت من ٢٣ مايو حتى ٢ يونيو ١٩٢٢م و تبين خلالها أن ميزانية الموالين غير قادرة على إعالتنا بأسلوب يناسب شرف الضيوف. ليومين أو ثلاثة أيام عوملنا معاملة عادية، ولكن بعد ذلك كانت تأتي وجبات متتابعة لم تكن إلا صحوناً من الرز. في المرة الثالثة أو الرابعة رفضت أنا الأكل مما سبب بعض الاضطراب. وفي تلك الليلة أُحضرت ماعز في مقرنا أُكل جزء منها في ساعة متأخرة من الليل. نحن الآن في منتصف الصيف ولكننا اقتتنا على لحم الماعز لمدة خمسة أيام، ولكن الحظ في اليوم الخامس قاد لنا دوجان الذي كان في زيارة لسكاكامن الجوف فشاركنا أكل اللحم بدون أن يشتبه بالأمر. اشتكى دوجان من عدم وجود مرق اللحم، فهمس له بأن المرق لم يقدم لأنه ذو رائحة. فقلت بصوت عال: "ستجد اللحمة نتنه أيضاً فقد ذبحنا هذا الماعز قبل خمسة أيام". كان دوجان بصدق غير مرتاح للأمر وعبر عن رأيه في الموضوع إلى سلطان. ولكننا كنا على وشك أن نغادر سكاكا في اليوم التالي ولايهمنا أي شيء آخر.

عائق واحد كان علينا تجاوزه، فحديثة [الخريشا] ومثقال [الفايز] مع تابعيهم تركونا منذ فترة طويلة، عندما كنا في كاف. أما بقية أفراد مجموعتنا فقد كانوا مشحونين إلى الأخير بقصص خطر الطريق إلى العراق، و أظهروا بعض المؤشرات التي تعبر عن عدم رغبتهم بالذهاب ابعد من سكاكا. غالب باشا، جنرالنا الشجاع كان يعيش الخوف من إمكانية وصول الوهابيين، وكان يقضي وقته بالدعاء وقراءة القرآن والأحاديث النبوية. في هذه الحالة، كان من الطبيعي أن يقود هو نفسه فكرة رفض الذهاب إلى العراق. و دعيت إلى

اجتماع لكل المرافقين لعزل الماعز عن الضأن. فالماعز لا يجب بالطبع أن تشارك في أي عملية توزيع للغلة. ولكن من الواحد والعشرين شخصًا الذين كانوا يشكلون مجمل بقية مجموعتنا. تسعة من هؤلاء بمن فيهم القادة أثبتوا أنهم من الماعز. وقررنا الاستمرار بالباقين وهم ١٢ شخصاً وانضم إليهم أربعة تم استئجارهم في سكاكا. وبعد ذلك انضم إلينا خمسة من الصيادين الصلب الذين جندناهم في الليلة الأولى من مسيرنا عندما خيمنا عند آبار صوير في أقصى شرق منخفض الجوبة.

إننا الآن في خط سيرنا على مسافة ٣٠٨ من الأميال تقريباً من عمان، و٢٠٣ أميال من كاف، وتقديراً ٣٠٠ ميل من هنا إلى كربلاء حسب الطريق الذي اتبعناه عندما غادرنا مضيفينا بلا أسف في مساء الثاني من شهر يونيو.

كان مسيرنا لثلاثة عشر ميلاً من سكاكا إلى آبار صوير فوق كتل رملية، وفي الليل خيمنا عند مخيم كبير للصلب. نحن الآن على طرف منخفض الجوبة ولكن المنحدر الصخري لسلسلة جبال صوير، التي تحيط به لايوجد طريق مناسب لإبلنا. تأخرت انطلاقتنا في اليوم الثاني بسبب تأخر مرافقينا الصلب، الذين ذهبوا ليبحثوا عن جمالهم ولذا اتبعنا المنحدر الصخري باتجاه الشمال لمسافة ثمانية أميال عبر ممر أسهل خارج المنخفض إلى أرض حجرية وراءه. بقية ذلك المساء وجميع اليوم الثاني وصباح اليوم الثالث قطعنا مايقارب ٥٥ ميلاً و وصلنا إلى غدير طريفاوي حيث يتوفر فيه بعض الماء من مطر سابق. كان هذا الغدير يعج بمخلوقات متلوية تشبه الربيان مع ذلك كنا عطشى إلى الحد الذي جعلنا لانهتم بالأمر. بعد ١٢ ميلاً وصلنا في منتصف النهار إلى آبار "ابو الدفوف" في مجرى منخفض وادي عرعر الواسع والقليل العمق، والذي نسير به الآن وهي أحسن مرحلة قطعناها في الستين ميلاً

الماضية من بداية هذا الوادي في مرتفعات شرق منخفض الجوبة .

كانت رحلتنا هذه بلا أحداث ، فنحن لم نر أي إنسان ، ولكن بعض الغزلان . وكان ماء " أبي الدفوف " وافراً وجيداً مقارنة بماء غدير الطريفاوي . من عند هذه النقطة يمتد وادي عرعر باتجاه الشمال وقد قطعناه لمنطقة جنوبه حيث خيمنا تلك الليلة في شعيب رويثا بعد مسير ١٤ ميلاً . وفي الصباح وعلى بعد ٦ أميال عدنا إلى دخول وادي عرعر .

يعد وادي عرعر أبرز مجرى محدد بشكل جيد ، متعرج من طرفيه في قاع رملي ، مظهراً حياة نباتية غنية . لقد أملنا أن نجد ماء في حفر ماء القطايا على بعد ٩ أميال من هذه النقطة ، ولكن بوصولنا هناك وجدنا أن السيول الأخيرة قد ملأت هذه الحفر بالرمل ، لذا أسرعنا السير للوصول إلى ماء جديدة عرعر في منتصف النهار .

بينما كنا نسير رأينا علامات حديثة لمسارات بعض الإبل ، التي مرت من هنا مؤخراً ، ولأن الماء المتوافر معنا كان قليلاً لذا كان يتوجب علينا الوصول إلى هذه الآبار ، وقد سرنا بحذر ، مخافة من أن يكون قد سيطر عليها أحد .

لقد سبقنا الرجال المكلفون بالكشافة من مجموعتنا ، بينما كنا نسير فوق برية وادي عرعر الموحشة ، وبين ضفتيه القاحلتين التي لا يُرى ما وراءها . بعد مسافة مايقرب من أربعة أميال من هنا اكتشف كشافتنا المكان ، وأسرعنا لننضم إليهم خلف الهضبة المنخفضة التي كانوا على قمتها يراقبون تحركات الذين سبقونا عند الماء . جميع التحركات كان يمكن رؤيتها من خلال المناظير .

كانت المجموعة التي سبقتنا عبارة عن ثلاثة جمال ورجلين ، وكانوا يمتحون الماء ، ولكن لم يكن بإمكاننا تحديد إن كان اولئك الرجال جزءاً من مجموعة

مختبئة في قاع الوادي. كل واحد منا قدم رأياً حول ما الذي يجب أن نفعله تجاه "العدو" غير مدركين لوجودنا القريب منهم، وقد لاحظناهم وهم يستريحون عند الماء.

قررنا إرسال فرقة لمفجأتهم من الخلف، وطردهم خارج الوادي، أما الباقون منا فيبقون في مكمن. أربعة من أحسن الجمال اختيرت وأربعة متطوعين انطلقوا عبر المرتفعات، بينما كنا ننتظر حابسين أنفاسنا لنراهم ظهروا خلف الطريدة، ولكن في الحقيقة أساء جماعتنا تقديرهم للمسافة، فظهروا من الأمام منحدرين من المرتفع. "العدو"، (رجلين فقط) كانا وفي لمح البصر واقفين ممتطين جمليهما ومولين الأدبار ووراءهم رجالنا الأربعة إلا أن جمالنا كانت في حالة عطش وثلاثة منها بركت بشكل مفاجيء عندما وصلت الآبار. لاشيء كان يجعلهم يتزحزحون، لذا فإن واحداً من رجالنا تُرك ليواصل المطاردة نحو الجانب الأيسر من المنخفض حتى ابتعدا عن النظر.

أسرعنا إلى الآبار ووجدنا غنيمة خلفها المُطاردان - جملين يظهر أنهما مسروقان من منطقة الرولة، وقربة ماء، وصحن معدني، وكيس بقل، وكيس رز، وكيس ملح. كيس الملح هذا بعد تشخيصه عرفنا أنه من مَمالح حزل حيث وكما هو معروف كان يوجد مخيم للوهابيين. من هنا فإن هناك قليلاً من الشك بأن الرجلين كانا منهم. وكان هروبهما جيداً، وأن من المثير معرفة انهما نجحا في وصول مخيمهما، الذي لايقل بعده عن ١٠٠ ميل بدون ماء لأننا حصلنا على قربتهم، ولاتوجد آبار بين هذا المكان وحزل.

حسب مسارنا، فنحن الآن قد سرنا عبر منخفض وادي عرعر ما يتعدى ٢٠٠ ميل. ومن هنا سنذهب شمالاً وشمال شرق فوق قفر مرتفع وموحش، الحرارة فيه تزداد كلما تقدمنا نحو تخوم العراق. مسير ١٤ ميلاً ذلك المساء

وصباح يوم ٧ يونيو قادتنا لنستقي عند آبار "جديدة الحمير" في "شعيب الحمير" وهو منخفض يتجه شمال - شرق أو شرق - شمال - شرق موازياً لمنخفض عرعر. هنا رأينا ذئباً ضخماً ينسل خلسة من جانبنا. تقدمنا بقوة فوق صحراء واسعة بدون أية سمات خاصة، حيث خيمنا بعد ٣٠ ميلاً. خلال رحلتنا من كاف إلى الجوف وبعدها إلى سكاكا ثم إلى كربلاء، كنا نتحرك ونحن في قلق متواصل خوفًا من مقابلة أعداء. وهذا جعلنا طيلة الرحلة لانجرؤ على إشعال النار في المخيم، لا في الليل و لا في النهار. وخلال الساعات الحارة وقت الظهر وعند القيلولة لم نكن نبني الخيمة وكان علينا الاكتفاء باستخدام فرشة صغيرة نمدها فوق رؤوسنا، وبنادقنا تشكل أعمدة لها. بعيداً عن الحوادث البسيطة، التي ذكرتها لم نقابل بشراً طوال مسيرنا، واستمر ذلك حتى وصلنا تخوم أرض كربلاء حيث بدأنا نرى حياة بشرية مرة أخرى.

مسيرة ١٧ ميلاً صباح يوم ٨ يونيو أوصلتنا إلى خط "شعيب عبيدة"، الذي يبدأ عند مجمّع للمياه على بعد ١٠٠ ميل في المنطقة التي خلفناها وراءنا. يسيل هذا الوادي من هنا، ماراً بالقلعة العربية الباقية منذ العصور الوسطى، أي قلعة أُخيضر على حدود الهلال الخصيب، ويسيل إلى بحيرة ابو دبس الكبيرة. في قاع هذا الشعيب، قريبا من نقطة دخولنا، وصلنا عند آبار نخيب حيث قضيت ـ ورغم الحر الشديد ـ نصف ساعة سارةً في اصطياد طيور الطيهوج الصحراوية، التي تدور حول الماء بغض النظر عن أية أخطار ومهما كانت متعبة كما لاحظنا. أما قطعان الغزلان الكبيرة، التي تعديناها خلال الظهيرة فيبدو أنها مصابة بنفس الحالة، حيث اصطاد الصيادون معنا عددا منها وأحضروها لنا، بينما وقف واحد منها جامدًا على بعد ٣٠٠ ياردة، رغم أن

واحداً من العرب أطلق عشرة رصاصات باتجاهه . وفي نهاية هذا العرض من عدم نجاح التصويب على الهدف ، تراجع الصياد بهدوء مع تنهيدة تعبر عن الغضب .

لقد اتبعنا خط "شعيب عبيدة" المنفرج ، متقدمين عبر مرتفعات تدعى "عبارات" وعندها خيمنا ، وكانت تبعد ١٣ ميلاً عن آبار النخيب . في اليوم الثاني ، عبرنا منطقة ذات نفس طبيعة ورتابة ماسبقها لمسافة ٤٠ ميلاً و لكنها تزخر بالغزلان والطيور . مشينا هذه المسافة لنخيم في أرض مرتفعة ، ولكن مسيرة ٢٦ ميلاً أوصلتنا منتصف نهار ١٠ يونيو إلى بقايا قصر أُخيضر ، وهو واحد من أروع نماذج قصور الصيد العربية الموجودة ، ويقع على ضفة "شعيب عبيدة" حيث توجد المياه بكثرة .

خيمنا في تلك الليلة على بعد ٩ أميال من هذا المكان ، باتجاه أبو دبس ، وفي الصباح التالي كنا سعداء بمنظر المنارات وقباب مسجد الحسين الشهيد ابن مؤسس فرع شيعة الإسلام .

أرسل الحاكم العربي لكربلاء ، الذي أرسلنا له مسبقاً نعلمه بوصولنا ، مرافقاً ليرحب بنا ، وقد عاملونا بكرم بالغ .

هكذا أُنجزت رحلتنا ، وتقدمنا إلى الرمادي يوم السابع عشر من شهر يونيو حيث غادرت مع الميجور هولت عائدين إلى عمان عن طريق الجو وتركنا مرافقينا يعودون مباشرة عبر الصحراء على ظهور الإبل .

في الأيام الأولى من الشهر السابع عام ١٩٢٢ وكما ذكرت سابقًا أخذ ابن سعود الجوف ، أما أصدقاؤنا الشعلان فغادروها ، وآمل إلى الأبد . لقد شرفنا مجحم ، وفرحان ، وفراج ، ودوجان بإقامة طويلة في عمان بعد ذلك بوقت

قصير حيث عاملناهم بكرم يتجاوز ما عاملونا به، رغم أنهم لم يكونوا غير لاجئين بلا مأوى. أما النوري وسلطان فذهبا إلى سورية حيث من المحتمل أن يتخذها الرولة مكان استيطانهم الدائم.

كان استيلاء الوهابيين على الجوف سبباً لكثير من الاحتجاج في شرق الأردن الذي كان يعتقد أن ذلك تهديداً مباشر له. لذلك لمدة مايقارب أسبوعين احتشدت قواته في مرتفعات الموقر في حال ترقب للعاصفة القادمة من الشرق. لم تأت هذه العاصفة في حينه فعادت الأحوال إلى طبيعتها المعتادة مع بداية شهر أغسطس.

عند فجر الخامس عشر من أغسطس جاءت العاصفة كالصاعقة على نحو غير متوقع حيث تعرضت قرية الضبيب الصغيرة، التي تقع غرب خط سكة الحديد وتبعد ١٢ ميلاً عن عمان، وعلى حين غرة، للهجوم عليها والقضاء ذبحاً على جميع سكانها رجالاً ونساءاً وأطفالاً. كان عدد القتلى بين خمسة وثلاثين وأربعين في مجملهم. بالصدفة كانت تمر طائرة فوق المنطقة مما أخاف المهاجمين الذين قد بدأ قتالهم من بني صخر فتراجعوا بسرعة وعلى غير انتظام.

كان خط تراجع هؤلاء المهاجمين مغطى بجثث الرجال والخيول والجمال ولعدة أميال باتجاه الخرانه. ومن المؤكد أن أغلبية هؤلاء الذين سافروا لما يعادل ١٠٠٠ ميل من جوار شقراء قد ضلوا طريقهم في الصحراء وقضى عليهم العطش والتعب.

في الوقت الراهن توجد مراقبة شديدة للمنطقة لكي لا يعاد مثل هذا الهجوم وقد كان لديّ فرصة لمرافقة عدد من طلعات الاستطلاع الجوي في

وادي السـرحان وحتى كـاف ومابعدها. ولكن في شهر سبتمبر ١٩٢٢م استطاعت قوات عبدالله وبمساندة السيارات المصفحة احتلال كاف. ماذا يخبئ المستقبل لنا في حدود شرق الأردن يبقى أمر للتدبر ولكن ابن سعود من المستبعد أن يُرخي قبضته على الجوف أو يتخلى عن مطالبته بوادي السرحان أو قريات الملح".

الهوامش:

(١) حول حياة فيلبي العامة والشخصية بكافة تفاصيلها انظر :

Elizabeth Monroe, **Philby of Arabia**.London: Faber and Faber,1973.

(2) H.St.J.Philby," Jouf and the North Arabian desert", **The Geographical Journal** (oct.,1923), Vol.LXII, No.4,pp.241-259.

(٣) كانت مهمة هولت في الرحلة خاصة بدراسة الطبيعة الجغرافية للمنطقة ومعرفة مدى ملائمتها لإنشاء خط حديدي يربط العراق بفلسطين عبر الجوف. قدم هولت محاضرة حول الموضوع وكانت بعنوان ' مستقبل صحراء شمال الجزيرة العربية '. ونظراً لغلبة الجانب الفني على هذه المحاضرة التي لا تضيف شيئاً جديداً عن طبيعة المنطقة التي ذكرها فيلبي، ولأهمية اختتام الكتاب برحلة فيلبي لم ندرج هذه المحاضرة هنا. وحولها انظر :

A.L.Holt," The Future of the North Arabian desert",**The Geographical Journal** (oct.,1923), Vol.LXII, No.4,pp.259- 271.

المصادر

أولاً: اللغة العربية

* برايشا ـ فوتيبه، ارثر. **النمسا والشرق العربي**، ترجمة يونس إبراهيم التميمي. عمان: المطبعة الاقتصادية، ١٩٨١م.

* بلنت، الليدي آن. **رحلة الى بلاد نجد**، ترجمة محمد انعم غالب. الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٩٧٨م.

* بلنت، الليدي آن. **قبائل بدو الفرات عام ١٨٧٨م**، ترجمة أسعد الفارس ونضال خضر معيوف. دمشق: دار الملاح للطباعة والنشر، ١٩٩١م.

* بيرين، جاكلين. **اكتشاف جزيرة العرب: خمسة قرون من المغامرة**، نقله الى العربية قدري قلعجي وتقديم حمد الجاسر. بيروت، الرياض: منشورات الفاخرية ودار الكاتب العربي، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

* الحموي، ياقوت. **معجم البلدان**، تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م.

* السديري، عبد الرحمن بن أحمد. **الجوف: وادي النفاخ**، الجوف: مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، د. ت.

* الصويان، سعد العبدالله، " أدب البدو في كتابات الرحالة والمستشرقين "(١)، **جريدة الحياة**، العدد ١٢٢٧٢، ١ اكتوبر ١٩٩٦م.

* فالن، جورج اوغست. **صور من شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر**، ترجمة سليم شبلي ومراجعة يوسف ابرهيم يزبك. بيروت: منشورات أوراق لبنانية، ١٩٧١م.

* الفيروزابادي، محمد ابن يعقوب ابن محمد الشيرازي. **القاموس المحيط**، بيروت: دار الرسالة، ص ٨٨٠. ط٤، ١٩٩٤م.

* هانسن، توركيل. **من كوبنهاجن الى صنعاء**، ترجمة محمد أحمد الرعدي. بيروت: دار العودة، ١٩٨٣م.

ثانياً: اللغات الاجنبية.

- Allan, Mea. **Palgrave of Arabia**. London: Macmillan 1972.
- Archer, Rosemary.and James Fleming. ed. **Lady Anne Blunt : Journals and correspondence 1878-1917**. Cheltenham: Alexander Heriot & Co. Ltd, 1986.
- Blunt, Lady Anne. **A Pilgrimage To Negd**. London: Century publishing, 1985.
- Brent, Peter. **Far Arabia: Explorer of the Myth**. London, Melbourne, New York: Quarter Books, 1977. pp. 130-131.
- Butler. S.S., "Baghdad to Damascus VIA El Jouf, Northern Arabia", **The Geographical Journal**, vol. XXXIII. No. 5. May, 1909. pp 516-533.
- Euting, Julius. **Tagbuch einer Reise in innerarabien**. Leiden: Brill, 1896.
- Forder, A. **With the Arabs in Tent And Town: An Account of missionary work, Life and experiences in Moab and edom**. London: Marshall brothers, 1902.
- Forder, Archibald. **Ventures Among The Arabs in Desert, Tent And Town: Thirteen years of Pioneer missionary Life With The Ishmaelites of Moab, edon and Arabia**. Boston: W.N. Hartshorn, 1905.

- Guarmani, Carlo. **A Journey from Jerusalem to Anaiza in Qasim.** Trans. by Capel Cure, With Introduction by Douglas Carruthers. London: The Argonaut Press,1938.

- Hogarth, David George .**The Penetration of Arabia : Record of the Development of Western Knowledge concerning the Arabian Peninsula.** New york: frederick A. Stokes Co, 1904.

- Holt. A.L, "The Future of The North Arabian desert", **The Geographical Journal**, oct., 1923, Vol. LXII, No. 4, pp. 259-271.

- Huber,Charles. **Journal d'un voyage en arabie (1883-1884).** paris,1891.

- Huber,Charles. "voyage dans L'Arabie Centrale: Hamad, Sammar , Qacim, Hedjaz,1878-1882", **Bulletin de la Societe de Geographie**,vol. 5,1884.

- Longford, Elizabeth. **A Pilgrimage of Passion: The life of Wilfrid Scawen Blunt.** London: Weidenfeld And Nicolson,1979.

- Musil, Alois, **The Northen Hegaz: A topograpical Itinerary.** New York: AMS Press, 1926.

- ...., **The Northen Nagd: A topograpical Itinerary.** New York: AMS Press, 1928.

- ...., **Arabia Desert: A topograpical Itinerary.** New York: AMS Press, 1927.

- Nolde, Baron Eduard. **Reise Nach Innerarabien, Kurdistan und Aremenien 1892.** Braunschweig: Druck und Verlag Von Friedrich Vieweg und Sohn,1895.

- Oppenheim, Max Freiherr Von. **Die Beduinen.** Band I. Leipzig: Otto Harrssowitz, 1939.

- Palgrave,William Gifford. **Personal Narrative of a Year Journey Through Central and Eastern Arabia (1862-63).** London : Darf Publishing Limited,1985.

- Philpy, H. St.J., "Jouf and the North Arabian desert", **The Geographical Journal**, (oct., 1923), Vol: LXII, No. 4, 00 241-259.
- Seetzen,U. "Beitrage zur Geographie Arbiens", in **Von Zach's Monatliche Correspondenz**,(November,1808), Vol: XVIII.
- Wallin, Georg August .**Travels in Arabia (1845 and 1848)**. Cambridge: The Oleander Press,1978) pp.vii-xiv.
- Ward, Philip . **Ha'il : Oasis city of saudi Arabia**. Cambridge: The Oleander Press,1983.
- Winstone, H.V.F. **The Illicit Adventure**. London: Jonathan Cape, 1982.

الكشافات العامـــة

الأعـلام

القبائل والجماعات

الأماكن

* * *

يصدر ضمن هذه السلسلة

- الرحالة الأوربيون في شمال الجزيرة العربية:

  منطقة حائل

- الرحالة الأوربيون في شمال وسط الجزيرة العربية:

  منطقة القصيم

- الرحالة الأوربيون في وسط الجزيرة العربية:

  منطقة الرياض

تمثل كتابات الرحالة الأوروبيين مصدراً مهماً من مصادر تاريخ البلاد العربية والتي لا غنى عنها لأي باحث أو دارس في شؤون المناطق التي زاروها بهدف الإطلاع على أوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

وهذا الكتاب الموسوعي يضم بين دفتيه كل ما كتبه هؤلاء الرحالة عن شمال الجزيرة العربية.

مثلت منطقة الجوف ووادي السرحان في شمال المملكة العربية السعودية البوابة الرئيسية لعبور هؤلاء الرحالة إلى مناطق الجزيرة العربية الأخرى.

وهذا الكتاب يقدم تعريف بهؤلاء الرحالة والمعلومات التي كتبوها عن هذه المنطقة الاستراتيجية في الفترة ما بين 1845 - 1922م مترجمة إلى اللغة العربية من اللغات الإنجليزية والألمانية والفرنسية.

والكتاب لا شك سيكون مصدراً أساسياً عن كل جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية لهذه المنطقة وغيرها من مناطق الجزيرة العربية.

الناشر